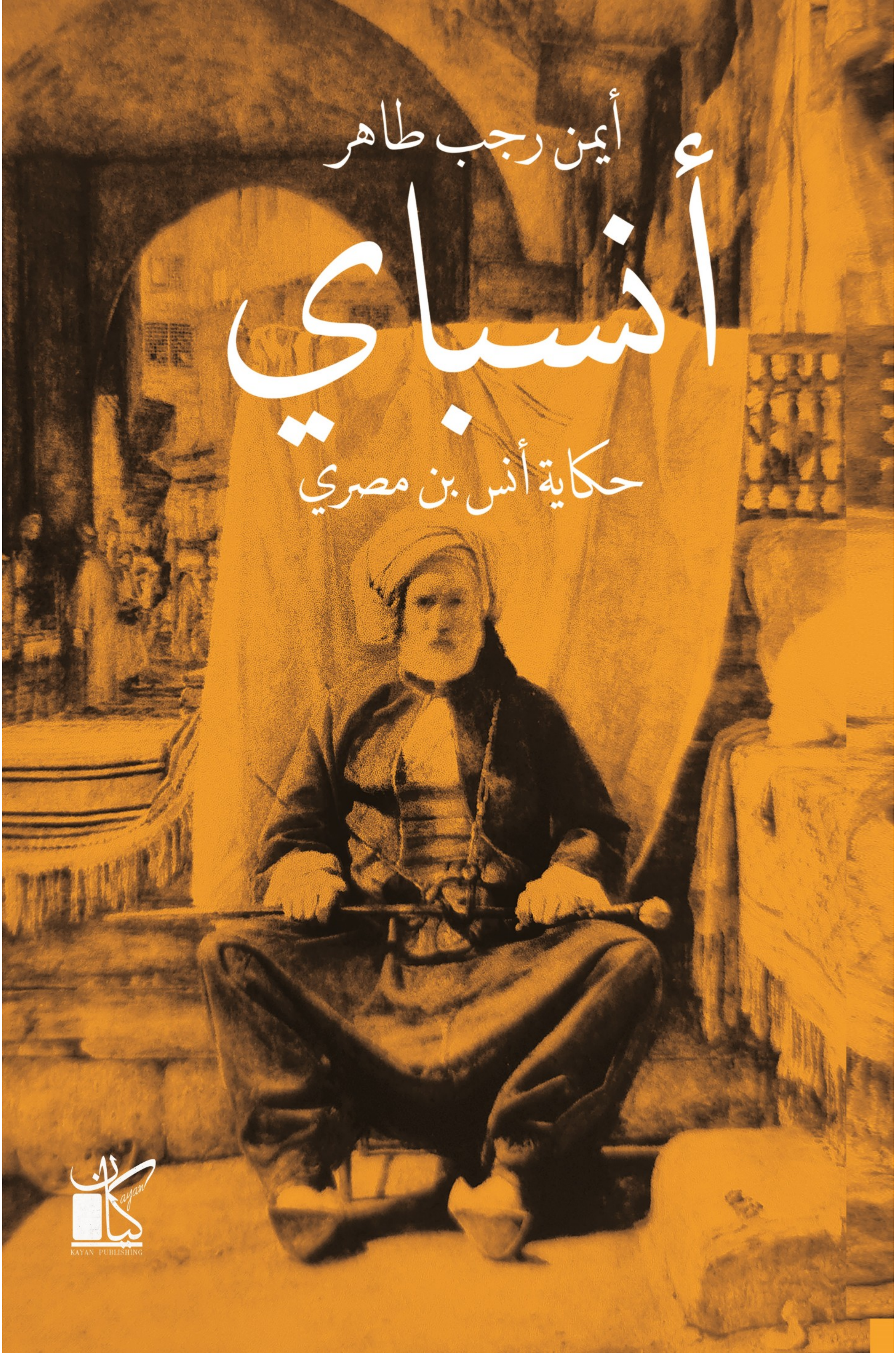

أيمن رجب طاهر

أنشباي

حكاية أنس بن مصري

كيان
Kayan
KAYAN PUBLISHING

أنسباي

رواية

رجب، أيمن.

أنسباي : رواية /أيمن رجب .

القاهرة : كيان للنشر والتوزيع، 2021.

424 صفحة، 20 سم.

تدمك : 978-977-820-095-9

-1 القصص العربية

أ- العنوان : 813

رقم الإيداع : 11433 / 2021

الطبعة الأولي : يونيو 2021.

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©

كيان للنشر والتوزيع

إشراف عام:

محمد جميل صبري

نيفين التهامي

4 ش حسين عباس من شارع جمال الدين الأفغاني– الهرم

هاتف أرضي: 0235918808

هاتف محمول: 01000405450 - 01001872290

بريد إلكتروني: kayanpub@gmail.com

info@kayanpublishing.com

الموقع الرسمي: www.kayanpublishing.com

- إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأى الناشرين.

©جميعُ الحقوقِ محفوظةٌ، وأيُ اقتباسٍ أو إعادةِ طبع أو نشر في أي صورةٍ كانتْ ورقيةً أو الكترونيةً أو بأيةِ وسيلةٍ سمعية أو بصريةٍ دون إذن كتابي من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

أنسباي

حكاية أنس بن مصري

أيمن رجب طاهر

رواية

إهداء

إلى محمد ونيفين

كيان إنساني؛ فريد في احترامه، متفرّد في التزامه.

يقول الفقير عبد الرحمن بن حسن الجبرتي الحنفي:

"... إني كنتُ سوَّدت أوراقًا جمعتُ فيها بعضَ الوقائعِ إجماليةً وأُخرى محققةً تفصيليةً فأحببتُ جمعَ شملِها وتقييدَ شواردِها في أوراقٍ متسقةِ النظامِ مرتبةٍ على السنين والأعوام...

ولما عزمتُ على جمعِ ما كنتُ سوّدته، أردتُ أن أوصلَه بشيءٍ قبله فلم أجدْ بعد البحثِ والتفتيشِ إلا بعضَ كراريسَ سوَّدها بعضُ العامةِ من الأخبار، ركيكةُ التركيبِ مختلةُ التهذيبِ والترتيبِ، وقد اعتراها النقصُ في مواضعَ من خلالِ بعضِ الوقائع...".

عبد الرحمن الجبرتي

عجائب الآثار في التراجم والأخبار

جزء(١) طبعة مكتبة الأسرة ٢٠٠٣م

-١-

رحيل

-١-

بأصابعه الغليظة البيضاء يبرم الأمير تمربغا شاربه الكث وهو يجلس في شرفة قصره ذات المقصورة العالية، يراقب بعينيه الواسعتين ابنه صفواي ورفيقيه وهم يمتطون صهوات خيولهم نحو الحاجز الخشبي العريض فيصطدم حافر فرس شبل الخلفي بلوح الخشبِ الطويل، أما فرس تمراز فيجفل فجأة ويتمالك الشاب الصغير نفسه حتى لا يقع، لكن صفواي يتخطّى فرسه الأبلقي[1] الحاجز في رشاقة وهو قابض على اللجام في قوة فتتسع ابتسامة الأمير تمربغا مزينة وجهه الأبيض اللحيم ويقف مبهورًا، يصفق تحية لابنه الذي يدير حصانه في خفة ليعود لكن الانثناءة لم تكن موفقة فاختل توازن صفواي فجأة وانفلت السرج من تحت مقعدته فارتمى الشاب العشريني على الأرض وتمرّغت ملابسه الثمينة في التراب بينما واصل الحصان ركضه وظهره عارٍ، وقف في جانب الحديقة نافثًا من منخاريه أنفاسًا ساخنة ويصهل صهيلًا خافتًا.

مع ارتماء صفواي انقلبت سحنة الأمير تمربغا إلى غضب ممزوج بالدهشة، غاب في الداخل ليظهر بعد برهة جاريًا نحو ابنه والخدم يلتفون حوله وصديقاه تمراز وشبل يحاولان إسعافه، يجلس صفواي بين أبيه ونديديه وهو يقبض على ذراعه اليسرى والألم يضج منها، في تثاقل ينهض بينهم مصطحبين إياه إلى تعريشة العنب الخشبية الكبيرة، على أريكة كبيرة يستريح الأمير الصغير والخدم ينفضون ملبسه، يلتفت إلى أبيه ويطمئنه:

– أنا بخير يا أبي.

فاه بها الأمير صفواي وهو يتأوّه من فرط ألم ذراعه ويزمها إلى جنبه، لم تلبث أن تخرج أمه من القصر ترجرج جسمها السمين وهي تجري نحوه فترتمي عليه، لكن صفواي يهدئ روعها بكلمات عبثية، تقف مشيرة إلى أبيه وتلقي الأمر بعنجهيتها:

– أحضروا الطبيب، اجلدوا الخدم، اقتلوا الجفتاوات[2].

في خوف يهرول واحد من الجفتاوات نحو السرج الملقى فينكب عليه ليفحص

السموط[3] والإبزيم[4] ثم يحمله في همّة إلى حيث يجلس سيده، برفق يضعه على الأرض، يمسح العرق الناز على رقبته ويهز رأسه في أسف.

– السير الجلدي مقطوع سيدي الأمير.

تنقبض نفس الأمير تمربغا وترتسم أمارات الامتعاض على قسمات وجهه الجهمة، يحك لغده النازل وهو يرفع صوته الجهوري بالأمر:

– اقبضوا على صبور السرّاج.

***

-٢-

ما كادت صافية تضع أطباق الطعام أمام أبيها الجالس قدّام البيت حتى ترامح ثلاثة فرسان على خيولهم مثيرين الغبار في المطرح، يزعق المماليك في أهل زقاق النحاسين فيفر الأولاد من أمام الجياد القوية ملتصقين بحيطان بيوت درب النحاسين ويفسح الباعة الجائلون الطريق حتى توقفت الخيول أمام صبور السرّاج الذي وقف مرتبكًا أمامهم، نزل أحدهم، اقترب، قبض على ياقة جلبابه فصرخت صافية وتراجعت للوراء لتقف خلف أبيها، تزداد همهمة أهل الدرب فيحدّجهم الفارس بنظرة غاضبة وهو يجأر بصوته:

– مكانكم يا زُعر.

على صوت الجلبة تخرج عفيفة وهي تضع يدها خلف ظهرها من ألم الحمل في شهرها الأخير فتتسع حدقتا عينيها للجندي وهو يجر أباها فتسرع بدورها نحوه وكلماتها تتبعثر في التياع:

– ما فعل أبي لتقبض عليه؟

يمط الجندي شفتيه مشيحًا بوجهه وهو يأمر:

– الأمير تمربغا يريده. سرْ معي وإلا قيدتك بالحبال.

يبتلع صبور ريقه، تزيغ عيناه بين ابنتيه والمملوك المصرّ على جرّه، هزّ رأسه وهو يقول في كلمات ملتاعة:

– أسير أيها القائد، نحن جميعًا خدم الأمير، ادخلي البيت يا صافية وارعي أختك.

الدموع تفيض من عيني الفتاة وهي تقوّس ذراعها حول كتف أختها فوقفتا جامدتين أمام دكان السروج تراقبان ظهر أبيهما المنساق وسط الخيول، يستدير صبور ليطالعه لفيف من جيران درب النحاسين يضربون كفًا بكف، يهم بالسير فتوقف لإقبال جاره وصديقه يوسف النحاس عليهم ويسأل في غضب ممزوج بالكراهية:

– إلى أين؟

كأنما سأم الجندي الرد فيقرر أن يحسم الموقف، أخرج سيفه من غمده وهو يتوعّد من يعترض أو يعطل مهمتهم:

– قلنا الأمير تمربغا يريده في التو، هيا.

يهدئ صبور السرّاج من خوف صديقه يوسف، يخطو بين الخيول ويحاذر ألا يصطدم بأكتافها وهي تغادر الدرب الضيق بين دهشة وغضب الواقفين في وجوم وآخر ما لمحه هو قيام يوسف بإغلاق باب الدكان ودخول بنتيه عفيفة وصافية البيت وسط لغط الجيران.

في سرعة تتلاحق خطواته بين خيول المماليك إلى الشارع الكبير حتى البراح الذي تتوسّطه البِركة والتجار في الحوانيت ما بين مندهش وحائر لما يفعله مماليك الأمير بصبور المشهور عنه المسالمة وخدمة الجميع بمقابل وبلا مقابل، يستقبلون المدق الترابي المؤدي إلى الغيطان فيشمخ وسطها قصر الأمير تمربغا على ربوة عالية تطل على بيوت المدينة، نغز الجند خيولهم بالمهاميز المدببة فتراكضت وصبور يتعثّر بينها وسط زوبعة من غبار أعمت عينيه وجعلت سعلاته تكاد تخلع صدره وأنفاسه متقطعة حتى وصلوا الباب الكبير لحديقة القصر فاقتحمته الخيول في سرعة، يتوقف القائد وينزل من على فرسه، تقبض أصابعه على ياقة قميص صبور ويجره إلى حيث يجلس الأمير تمربغا وابنه صفواي وصاحباه مستظلين بتعريشة العنب الخشبية حولهم الباذدارية*5 يجتهدون في السيطرة على الكلاب التي تزبد شراستها من بين أنيابهم الحادة، يكاد الواحد مهم يقطع سلاسله الحديدية، لاهثًا يقف صبور السراج

زائغ العينين، يبتلع ريقه في صعوبة ودون أن يستفسر يباغته الأمير:

– أنت أمهر سرّاج في بر أسيوط!

– وخادم الأمير.

يشير تمربغا إلى السرج الملقى على الأرض عندها هاجت الكلاب وعلا نباحها فالتفت الأمير إلى الباذدارية وبإشارة من يده قادوا الكلاب متراجعين قيد خطوات من التعريشة، تقارب حاجبا الأمير تمربغا، كفحيح الأفعى يخرج صوته وهو يشير بإصبعه:

– السرج صناعتك؟

في ارتباك يلتفت صبور إلى السرج، يميل عليه ويقلبه بين يديه ثم يرفع رأسه ليواجه الأمير تمربغا قائلًا:

– صناعتي.

– افحصه جيدًا إذن.

هذه المرة يرفعه بكلتا يديه ويفحصه فتتسع عيناه للسيور الجلدية المقطوعة فيقف مرتعشًا وهو يجيب:

– سير السرج ولسان الإبزيم مقطوعان يا سيدي لكن...

– لكن ماذا يا سرّاج، أنت ضعفت وأهملت صنعتك وإهمالك كاد يقتل ابني الأمير صفواي!

– يا مولاي، سلمت السروج مع آخرين إلى جفتاوات معاليكم سليمة من أي عيب لكن هذه السيور...

– يجب جلده يا الأمير.

– كما قلت يا تمراز وجزاء الإهمال الجلد وحظك أفضل، فلو انكسرت ذراع ابني لجعلت الباذدارية يطعمونك للكلاب، اربطوه وأجلده بنفسي، هيا.

بصوته الأجش أمرهم تمربغا فهجم خادمان أسودان على صبور، تعجز ذراعاه عن المقاومة، يستسلم للحبال الليفية الغليظة التي قيّد بها العبدان معصميه ولف أحدهما الحبل حول شجرة اللبخ الكبيرة بينما شجّ الآخر قميصه، في الهواء يطوّح الأمير تمربغا الكرباج فتصم فرقعته أذني صبور، يغمض عينيه مهيئًا ظهره العاري للجلد، يرفع تمربغا ذراعه السمينة وينزل الكرباج بقوة على ضلوع صبور البارزة فيطلق صرخة تردد صداها في أرجاء الحديقة، يكز أسنانه وهو يشعر أن سيخًا متوهجًا انطفأ على جلد ظهره، يلتفت صفواي إلى رفاقه فيتضاحكون وترتفع صيحاتهم مطالبين التناوب فانتفخت أوداج الأمير الجركسي ورفع السوط مرة أخرى وهمّ أن يواصل لكن ذراعه توقفت لدق الطبول ودوي الزمور في الخارج فاستدار ملتفتًا في حدة نحو باب حديقة القصر المنفتح على مصراعيه ليظهر فارس يقود جواده بخطى وئيدة أمامه يسير حرّاس الأمير فيتجه مباشرة نحو تعريشة العنب.

ترتخي ذراع تمربغا فيسرع أحد المماليك بأخذ الكرباج من يده، يترجّل فارس الخاصكية*6 الذي يلمحه صبور من بين رموشه المرتعشة في كامل هيئته الفخيمة، يلقي السلام على الحاضرين فيردون جميعًا، يرحب الأمير تمربغا بالخاصكي ترحيبًا عظيمًا ويتقدمه هو وابنه صفواي إلى داخل القصر ودون أن

يستفهم فارس الخاصكية عما يفعله تمربغا سار في أبهة خلف الأمير إلى الداخل فارتخت ساقا صبور، أقعى ووجهه إلى الشجرة واضعًا خده المرتعش على لحائها الحاني والخادمان يقفان كوتدين مدقوقين على قيد خطوات.

تتناهى لمسامعه ضحكات الشابين تمراز وشبل وقرقشة حبات الفستق واللوز وعين الجمل، يَعَضُّ صبور شفتيه قهرًا عندما ألقى أحدهم بالقشر على ظهره فيغمض عينيه متمسكًا بحبال الصبر، راجيًا من الله ألا تطول شدته وينجو من براثن طغيانهم؛ ليعود إلى بيته ورعاية بنتيه وبخاصة عفيفة التي تعاني ثقل حملها في شهرها الأخير، هنيهة ويتناهى لمسامعه صوت شبل يقول لتمراز:

– لم تقطع السير جيدًا، فقد بقي صفواي إلى أن تخطّى الحاجز.

– حظ أسود، كنا نأمل أن ينقطع الحزام وينفلت السرج قبل أن يقترب أو وهو يتخطّى العرق الخشبي.

– آه لو انقطع السير والفرس يرفع ساقيه لكانت وقعة صفواي في مقتل ويُمرّغ منخاره المتكبر علينا في التراب.

يصمت شبل فجأة وهو يرمق ظهر صبور السرّاج، يشير إلى تمراز أن يسكت، يقترب من الشجرة، يدرك صبور أنهما يريدان أن يتأكدا أنه لم يسمعهما فأغمض عينيه مصطنعًا الإغماء، تقبض أصابع شبل على شعر صبور، يبعد رأسه، يتأمله ثم يفلت الرأس في عنف فيصطدم في الجذع، تنفلت آهة مألومة من بين شفتي صبور وتنفرج رموشه ليطالعه وجه تمراز يرمقه بعينين متوعدين لكنه يغمض عينيه مرة أخرى.

– اتركه يا تمراز، إنه مغمى عليه.

– كرباج واحد يغيّبه عن الدنيا؟!

– وأي كرباج يا صاحبي، إنه من يد الأمير تمربغا.

– الأمير تمربغا، الذي يحاول أن يجعل من ابنه صفواي شيئًا ونحن أفضل منه.

– اسكت يا تمراز، إنهم خارجون من القصر.

يتقدّم الأمير تمربغا والفرحة لا تكاد تسعه، يبالغ في الترحيب بالخاصكي الوسيم ويأمر صفواي الخدم والحشم بتهيئة الاستراحة الملحقة بالقصر في الجانب الآخر من الحديقة، يقود تمربغا ضيفه نحو تعريشة أخرى مطلة على حوض وسطه نافورة يبقبق من أعلاها الماء، بينما يتوجه صفواي إلى صاحبيه ووجهه مبسوط.

– بشرى يا رفاق، ترقَّى أبي من شاد الدواوين7 بأسيوط إلى.. إلى...

بابتسامة تخفي نفسًا مغمومة تعلقت عينا تمراز بفم صفواي منتظرًا أن يفصح عن مركز الأمير تمربغا الذي جاء بمرسومه اليوم موفد السلطان، بينما تهيأ شبل بحك نعله الثمين بالأرض لما سيقوله

صفواي الذي عبثت أصابعه بشعر ذقنه الخفيف ومط شفتيه ورفع صوته في سعادة بالغة:

– إلى أمير أخور8 للسلطان قايتباي.

لأول وهلة وجم الشابان، غامت ابتسامتهما لكنهما تصنّعا الفرحة وطفقا يهنئان صفواي الذي قعد قبالتهما وهو يقول مفتخرًا:

– تعلمان أن أبي الأمير تمربغا ابن جقمق من أكثر الأمراء معرفة بالخيل، وتضم حظائره وإسطبلاته أعرق الأنواع من الخيول الحجازية والهماليج9 والبوز10 والكميت11 والأدهم12 وخيول الحجورة13 و...

يقاطعه اقتراب أبيه بعد أن رافق بنفسه الخاصكي إلى دار الضيافة وأمر الخدم بالقيام على راحته، يقف الأمير تمربغا بين ابنه وصاحبيه، فيرد صفواي على عيني أبيه المستفهمتين:

– كنت أبشِّرهما بالمنصب الجديد وأوضح لهم مهامك الكبيرة في إسطبل السلطان.

– آه، إسطبل السلطان، يا له من مكان انتظرته طويلًا.

يلتفت الأمير تمربغا إلى عبديه الأسودين ويأمر:

– فكَّا قيوده، عفونا عنك يا سرّاج بمناسبة البشرى السارة.

– أنت طيب القلب يا أبي.

– لا بأس يا صفواي، هذا بمناسبة البشرى بالمنصب الكبير.

آهة محمومة تتقذف من فم صبور، يفتح عينيه فيرى شبل يحدّجه بنظرات الانتقام لشكه في أنه سمع حوارهما قبل وصول صفواي، أما تمراز فقد خشي أن يبوح صبور بما سمعه للأمير تمربغا؛ ليبرئ نفسه وينال رضاه فيكون انتقام صفواي وأبيه منهما كبيرًا وخاصة بعد أن نال هذا المنصب الرفيع وهو لا يزال

أبوه بلباي مجرد جامع للضرائب في بر أسيوط الغربي وما حولها فكزّ أسنانه متوعدًا.

بإشارة من يد الأمير يبتعد العبد بعد أن فكّ قيود صبور وأسرع نحو مضيفة موفد السلطان، تاركًا رفيقه يساعد صبور في النهوض ولملمة ملابسه، يقرّب الشاب الصغير وجهه ويهمس بلهجته الجنوبية المتكسرة:

– اصبر يا عم صبور، فرجه قريب.

في وهن يرفع صبور رأسه للفتى العشريني فيلمح بياض عينيه الرائقتين وابتسامة خفيفة تفتر بها شفتاه الغليظتان، يلملم ملابسه الممزقة وقبل أن يستدير مغادرًا المطرح تزيغ عيناه بين تمراز وشبل بنظرات أودع فيها كل معاني الغضب الممزوج بالكراهية فارتعشت قسمات وجه تمراز وعض شفتيه لصبور الذي يسير بخطى وئيدة نحو بوابة الحديقة وأذناه تلتقطان أطراف كلام الأمير تمربغا.

– هيا يا صفواي، لدينا الكثير من الاستعداد للرحيل.

– أخيرًا يا رفاق سأعيش في القاهرة.

– ليس الآن يا صفواي، تبقى هنا ترعى أملاكنا، أما أنا فسأرحل لتولي مهام منصبي الجديد في إسطبل سلطاننا العظيم قايتباي.

-٣-

– يرعون أملاكهم، وحق الله ما لك أملاك هنا يا مملوك يا نجس.

تمتم صبور وهو يبتعد عن بوابة حديقة القصر، كجمار النار يلتهب ظهره وبين الفينة والأخرى تتحسّس أصابعه أثر الكرباج الذي طال طرفه أعلى كتفه، يلتفت خوفًا من أن يكون أحد المماليك يتبعه في طريق عودته إلى درب النحاسين، الغصّة تكاد تخنق روحه عندما تذكر صدى حوار رفيقي الأمير صفواي الحقودين، اغرورقت عيناه بالدموع لألم القهر الذي نزل على ظهره دون جريرة، ودّ لو يعود مرة أخرى للأمير تمربغا؛ ليخبره بمؤامرة شبل وتمراز الحسودين على ابنه ويبرئ نفسه وصنعته التي ورثها أبًا عن جد من تهمة عدم إتقانها وهي المرة الأولى التي يشتكي أحد سواء أميرًا جركسيًّا أو أي إنسان قصده في صناعة سرج أو برذعة، لكنه يتراجع عن الفكرة؛ حتى لو عاد إلى قصر تمربغا فالأمير مشغول بإكرام ضيفه الذي يحمل إليه بشرى ترقيته إلى أمير أخور وهو منصب يتهافت عليه الجميع ويشترونه بالمال، وأيضًا على يقين أن المماليك لا يعترفون بالاعتذار وسيفتكون بأي إنسان يستضعفونه ما دام يشكون أنه يقف أمام مآربهم والأمير تمربغا له مصالح كبيرة مع والدي تمراز وشبل ولن يسمح لأحد بأن يعكر صفوها.

اجتاز منحنى الشارع فقابله يوسف النحّاس، يبتلع ريقه ويقرن حاجبيه في غضب، يخلع عباءته ويلفها حول ظهر صبور ساترًا تمزيق قميصه القديم، يرافقه إلى الدرب، من بين أسياخ حديد النافذة الواطئة يرى وجه صافية يُطل في قلق وعيناها ينضح منهما الهلع، ما إن تلمح أباها يتكئ على ذراع جارهم حتى تفتح الباب، يدخل البيت فتخرج عفيفة مسرعة من الغرفة برغم بطنها المنفوخ وحركتها الثقيلة التي تنبئ عن ولادة وشيكة، على كنبة صغيرة يتمدّد على بطنه والآهة تخرج مصبوغة بالألم المبرح، تحاول صافية أن تسقيه لكنه يشيح بوجهه، يربت يوسف على ظهره، يطلب من صافية أن تحضر ماعونًا به ماء، تحدّق عفيفة في وجه أبيها ومن بين دموع الإشفاق تتبعثر كلماتها:

– ماذا فعلوا بك يا أبي؟

نبضات الألم تشتد وصبور يكز أسنانه تارة وأخرى يعض شفته ويعاند شدة الوجع، دون أن يرفع وجهه يجيبها:

– الكلاب، لا يرعون حرمة لبني آدم.

تأتي صافية بالماء فيرفع يوسف النحاس العباءة في رفق، تتراجع عفيفة ولم تحتمل المنظر فتدخل الغرفة الجانبية، أما صافية فتطلق صرخة مكتومة وتغمض عينيها ولم تلبث أن تلحق بأختها، يغطس يوسف خرقة كتان في الماء، يمر بها على الخط السميك الأحمر فتتكسر ملامح وجه صبور للألم الممض الذي ينضح به ظهره، يعيد يوسف تغطية ظهر جاره، يخرج من البيت فتقرفص عفيفة وصافية أسفل الجدار صامتتين، وقلة الحيلة تنهش نفس عفيفة، تسح الدموع فتمسحها بكم جلبابها الفضفاض وصافية تلف الشال الصوف حول كتفيها اتقاء البرد.

دبدبة أقدام تقترب من الباب الموارب، دخل يوسف مصطحبًا المقدّس جرجس، يعرّي يوسف ظهر صبور فيرتسم الامتعاض على وجه المقدس، يفحص الجرح ويضرب كفًا بكف، يفتح كيسه الجلدي السميك، يُخرج مرهم القنب المخلوط بالعسل14 وبأنامله يمر على أثر الكرباج المخطوط من أسفل الظهر لأعلى ويعيد دهن المواضع المصبوغة باللون الأحمر القاني وهو يهز رأسه في حنق.

– ربنا ينتقم منهم المجرمين الأجلاف.

– العيب منا يا مقدّس، لو وقفنا في وجوههم ما استعبدونا.

– ما باليد حيلة يا معلم يوسف، سلاحهم جاهز واستهانتهم بالأرواح ما لها مثيل والناس لا حول لها ولا قوة، أرجوك لا تقرّب من النار والحرارة يا صبور وسأزورك في الليل لأدهن جسمك بدهان أحسن.

يقولها المقدّس جرجس وهو يهم بالانصراف فيرفع صبور جسمه في بطء بعد أن شعر بابتراد جرح ظهره قليلًا فيساعده يوسف على الجلوس.

– شكرًا يا جرجس.

– لا شكر على واجب، ربنا يجملها بالستر.

– الغداء يا أبي.

يأتيه صوت صافية من داخل الغرفة فيستأذن يوسف النحاس في الانصراف على وعد بزيارته بعد العصر للاطمئنان عليه، تركن طاولة الطعام، في تثاقل تجلس عفيفة جوار أبيها والدموع تغرورق

في عينيها الواسعتين، في وهن يبتسم ويربت برفق على بطن ابنته المكوّر، تجلس صافية وشفتاها تنفرجان عن ابتسامة طفولية واسعة وصوتها يعلو:

– الليلة فرح محسنة بنت مصطفى الـ...

نظرات عفيفة الحادة تبتر عبارة أختها، تفرد إصبعها أمام وجهها وهي تقول في استنكار:

– ليس وقته يا صافية، اعقلي وأحضري الماء.

تمط الفتاة شفتيها وتنهض نحو الزير المركون خلف الباب، بالقعب الفخاري تغترف وتعود جالسة جوار أبيها، في تمهل يتناول صبور اللقيمات الواحدة تلو الأخرى وهو يدير النظر بين بنتيه، صافية الطيبة قليلة العقل التي لا تحسن كلامها في كثير من المواقف، وعفيفة العاقلة بحملها الثقيل ونفسها المنكسرة بعد موت زوجها ابن أخيه في زهرة شبابه ولم ينقضِ على زواجهما سنة وأشهر قليلة، كف صافية تربت على فخذه فيفيق من سرحانه ويبتسم لوجهها البريء، يبتعد بظهره لكنه لا يلامس الجدار الحجري، في رفق تلف عفيفة عباءة على ظهر أبيها اتقاء تيار الهواء البارد، تشير إلى أختها أن تغلق خشب النافذة الكبيرة وما إن تفعل إلا ويسود الدفء أركان الغرفة الضيقة وبخاصة بعد أن تقرّب صافية القصعة الفخارية المتوهجة بجمار النار فيمد صبور يديه مستدفئًا ولم يلبث أن يشعر بالتعب يدب بين أوصاله فمال متمددًا على جنبه الأيمن محاذرًا أن يلامس ظهره الملسوع حِرام الصوف المفروش على الدكة القديمة فتشابكت رموشه وتسرّب إليه النوم فاستعذب الاستسلام لرسله التي زحفت إلى نفسه المنغصة بألم شعوره بذل السوط على ظهره.

***

في عنف يدقون الباب الخشبي؛ فانتتر من فراشه وعفيفة وصافية وقفتا خلفه في فزع، لم ينتظروا كي يفتح فدفعوا الباب بقوة محطمين ألواحه العتيقة، استلّ سيفه من غمده، شهره أمام أربعتهم، بارزهم جميعًا وطعناته تنفذ في صدورهم حتى أرقد أجسامهم المصروعة الواحد تلو الآخر، يدخل عليه يوسف النحاس، يتبادلان النظرات فيما حدث فينهض أحدهم جاريًا خارج البيت وقدما صبور عجزتا عن اللحاق بالمملوك الهارب، وجم صبور وطال الصمت وأخيرًا نطق يوسف:

– الرحيل، يجب عليكم الفرار من هنا.

يغمض عينيه وهو يحدّق في وجه جاره الصلب لكن ارتجاعات صوت أذان الجامع الكبير ترن في أذنه فتباعد جفناه رويدًا ومعها تتبدّد سحب كابوسه، يتلفت فتصطدم نظراته بالباب المغلق وتتناهى لمسامعه أصوات بنتيه من جوف الغرفة الأخرى، يوقن بأن العصر وجب لكن الظلام من حوله ينبئ بانقضاء النهار، انتعل القبقاب الخشبي، يغلق باب الكنيف، تنبهت صافية لاستيقاظ أبيها فبادرت بوضع ماعون الماء على الكانون، وجد الماء الساخن فتوضأ والتفت نحو عفيفة.

– أصلي العصر والمغرب في المسجد.

– تقصد العشاء يا أبي.

يرتفع حاجباه دهشة للوقت الذي أمضاه في النوم فهوّم برأسه مقررًا صلاة فروضه في البيت وبخاصة بعد أن شعر بحرارة ظهره، انشغلت البنتان في إعداد طعام العشاء من بيض مسلوق وجبن، وعفيفة تغلي النعناع ليحتسيه فيخفف ألم جوفه، جلست جوار أبيها فقوّس ذراعه حول كتفها وهو يبتسم في هدوء، همّ أن يقول شيئًا لكن طرقات الباب تتوالى فنهضت صافية في سرعة وفتحته، اعتدل صبور لدخول يوسف النحاس والمقدس جرجس ومظلوم المسكين خلفه، بعد تحية المساء مال صبور على جنبه وساعده يوسف في تعرية ظهره، مرت أنامل المقدس جرجس على آثار السوط بدهان بارد ذي رائحة نفاذة فتأوه صبور لكنه شعر بترطيب جرحه وحين نهض فاجأه جرجس ببرطمان فخاري صغير وهو يقول:

– بالشفاء إن شاء الله، تدهن منه صبحًا وليلًا وستشفى تمامًا.

– شكرًا يا مقدس، اقعد، الشراب يا عفيفة ولعمك مظلوم.

– لا شراب ولا غيره، أنا مشغول، أستأذنكم.

أغلق يوسف النحاس الباب خلف المقدس جرجس وجلس مواصلًا صمته، منتظرًا أن يحكي ما حدث ولطول عشرته مع جاره القديم فهم صبور مقصده، شرع في الكلام فرفع مظلوم ربابته.

– أكيد طلبوا منك تتزوج واحدة من جواريهم وأنت رفضت!

– واحدة من جواريهم؟! الله يكرمك يا مظلوم، لو طلبوها لوافقت وما تحمّل ظهري الكرباج.

– آه، لو يدور سيف الهلالي أبو زيد فيقطع رقابهم.

– اسكت يا مظلوم.

بحزم أمره يوسف منتظرًا إفصاح صبور عما جرى فروى له المؤامرة التي حاكها الجركسيان الصغيران تمراز وشبل على صفواي ابن تمربغا ليوقعه الفرس فهز يوسف رأسه معقبًا:

– كلاب، كلاب ينهشون بعضهم بعضًا ويتمتعون بنهش أجسادنا وأرزاقنا.

– أنا قلق يا يوسف، أخاف أن يشك المملوكان في أني سمعتهما ويخبر أحدهما أباه فيعصف بي، مرعوب من الأمير تمراز وأبيه قاسي القلب بلباي الذي يتعلق بجمع الضرائب بيديه وأسنانه وعفيفة على وشك الولادة و...

– إذن الهروب يا صبور.

قالها يوسف وعيناه معلقتان بوجه صاحبه ففاجأته عفيفة بخروجها متثاقلة من الغرفة وهي تؤكد:

– نعم الرأي ما قاله عم يوسف يا أبي، نمشي من هنا.

هز صبور رأسه وومض في ذاكرته أحداث حلمه لكنه عاد يقول في أسف:

– ونترك بيتنا و...

طرق قوي جعلهم يقفون صامتين وعيونهم معلقة بالباب، خرجت صافية مسرعة وقبل أن تسمع لاعتراض أختها فتحت الباب، تعض عفيفة شفتها لتسرُّعها قبل معرفة الطارق، على ضوء المسرجة الباهت يطل وجه التاجر مرزوق:

– السلام عليكم يا صبور، أعتذر للوقت المتأخر لكني أريد السرج.

تذكر صبور أنه لم يكمل سرج مرزوق فجنود المماليك اقتادوه قبل أن يتم حياكة السير بالخيوط الغليظة، تنهد يوسف الصعداء وهمّ أن يعتذر للتاجر لكن صبور خطا خارجًا من البيت يتبعه يوسف ومظلوم جلس على المصطبة الحجرية أمام باب بيته، فتح صبور الدكان، في سرعة خاط السير الأخير وتمّم على صنعته وحمل يوسف السرج على ظهر الحمار.

– أعتذر ثانية ولكن السفينة تبحر بعد الفجر وأريد إرسال السرج لأخي ببر بولاق.

هوّم برأسه ورضي ببقية أجر صنعته، حين ترك الشيخ مرزوق درب النحاسين الضيق التفت يوسف لصاحبه في حدة وهو يؤكد:

– سفينة راسية وترحل بعد الفجر، فرصة نادرة لا تعوض.

– لكن يا يوسف، الرحيل يلزمه ترتيب وعفيفة متعبة من الحمل و...

ثانية يقاطعه يوسف:

– الرحيل أو بطش المماليك، لن أطيق يا صديقي أن أراهم يهاجمون بيتك ويطعنونك بسيوفهم أمام بنتيك، أقاتلهم مهما يكن عددهم ومعي كل رجال درب النحاسين وتصير مذبحة لا يعلم مداها إلا الله وحده.

– أفكر في الأمر.

– لكن لا تطل التفكير والليل ستار يا صاحبي والليلة القمر محاق والبرد أجبر الجميع على المكوث في البيوت وغيوم السماء تنذر بهطول المطر، لكن لو أصبح الصبح سيـ...

هذه المرة قاطعه صبور في حدة وهو يغلق باب الدكان ويقف أمام بيته:

– أروّي في الأمر ولو اتخذت قرارًا أخبرك به على الفور.

– أتعشّم أن تتخيّر الصواب يا صديقي وسأمر عليك.

هز رأسه وراقب جاره المبتعد، دار بعينيه في أرجاء الدرب الذي نامت بيوته وتسربلت جدرانه بعتمة الليل حتى وقعت نظراته على بيت مظلوم المقرفص على الحجر الرابض أمام عتبة بيته الضيق تجاوره الربابة التي يعزف على وترها اليتيم طوال النهار فيروي للصغار الحكايات ويحسن عليه أهل الدرب بالخبز والإدام.

الهواء الساقع يرشق جسمه النحيل فترتعش شفتاه، ويتناهى لمسامعه اصطكاك أسنان مظلوم ولطول عشرته به فإنه يعلم أن جاره يبقى جاثمًا مكانه رغم هول البرد ولا يدلف بيته إلا قبيل الفجر، دخل وأغلق الباب، جلس محني الظهر وهو يحاذر أن يلامس كتفه الجدار، عفيفة نائمة على السرير الجريد تقابلها صافية على السرير الآخر، يريح جانب ظهره البعيد عن موضع الكرباج، يغمض عينيه ولم يلبث أن يفتحهما للنقر الخفيف على الباب، أوجس في نفسه خيفة أن يكون والد الأمير تمراز أرسل من يتقبّض عليه لكن توالي القرع الخفيف طمأنه أنه ليس من قبضات المماليك الغليظة، خطا في تمهل وسحب المغلاق الخشبي، على ضوء المشعل المجاور للباب ارتفع حاجباه وهو يهمس بكلمات مرتعشة:

– الخالة جنة، مرحبًا.

تلفتت العجوز حواليها وفي توتر دلفت ووجهها الأسود لا يكاد يبين من سواد الليلة التي أمحق قمرها، خلفها شاب يلف شملة حول وجهه وما إن كشفه حتى اتسعت عينا صبور لوجود خادم الأمير تمربغا الذي قيّد يديه بالحبال صباح اليوم، تذكر وجهه المستدير وهو يفك وثاقه ويهمس له في أذنه بأن فرج الله قريب، بادر بإغلاق الباب، وقفا قبالة صبور فهزّت العجوز جنة رأسها في أسف وربتت بأصابعها العجفاء على كتفه.

– قلبي معك يا ولدي و...

قاطع مواساتها نهنهة الولد الطويل وكفاه يخفي بهما وجهه، فاقترب منه صبور ومسح شعر رأسه الخشن.

– لا عليك يا ولدي، لست غاضبًا منك.

– شلت يدي قبل تقييدك يا عم صبور.

بين صبور والفتى الأسود تأرجحت نظرات جنّة، ابتلعت ريقها في عجالة وأرادت ألا تضيّع الوقت أكثر من اللازم فالتفتت إلى صبور وزرّت عينيها وهي تؤكد:

– بلال، جدته تعمل معي في حجرة خبيز الأمير بلباي.

– والد تمراز؟

– نعم، وقد حكى لها بلال ما حدث صباح اليوم وهي بدورها روته لي وكانت ستأتي بنفسها لولا مرضها، المهم في الموضوع وما حضرت من أجله أنني حين حملت الخبز من فرن القصر إلى حجرة مأكل الأمير وسمعت ابنه تمراز يروي له وقعة النهار واتفاقه مع شبل على أذى صفواي، فانتفض بلباي من على كرسيه وثار على ابنه ونهره لدرجة أنه رفع عليه السيف.

– الأمير الكبير غضب على ابنه لأنه تآمر!

– أنت حسن الظن يا صبور، طالع للمرحومة أمك، يا ولدي، غضب بلباي لشكه أنك سمعت مؤامرتهما وتركاك تغادر على قدميك، زجر ابنه لأنه تراجع عن قتلك قبل عودتك لبيتك.

– استر يا رب.

– أمك الله يرحمها صاحبتي وكانت تعاملني على أني حرة لا جارية ومحبتها لي وبرّي بها جعلاني أتسحّب من قصر الأمير بلباي وأحضر لأخبرك بنيته السوداء، امش يا ولدي لأجل خاطر اليتيمتين.

– لا يصبح عليك الصباح وأنت في الدرب.

فاه بها بلال بصوت مصبوغ بالرجاء ولا تزال بقية من دمعة عالقة على خده، فانقبضت ملامح وجه صبور أكثر مما هي عليه وهو يقول في أسى:

– بنتي عفيفة، ولادتها قرّبت وأخاف أن...

– الليل في أوله، اهربْ بجلدك من أجل عفيفة ومن في بطنها وكفاية ما حدث لزوجها من بطش الجراكسة واستهانتهم بأرواح الخلق، ارحلْ وفي الفسطاط اسأل عن جامع عمرو العتيق، هناك دكان أخي الشيخ زيتون بدرب العطارين، وهو رجل طيب ويدبّر لك حالك.

همست العجوز بكلماتها الأخيرة وكأنها تودع صبور سرًا، استدارت وخطت نحو الباب يتبعها بلال المتدثر بعباءة ثقيلة، جفلت وواجهت صبور، تحوطه بذراعيها مقبّلة جبينه، ترفع سبابتها أمام وجهه وتستعطفه:

– الليل ستّار ولو صبح الصبح يفترسك الجركسي الملعون بلباي بمماليكه وتبقى مصيبة.

دون أن تعطيه فرصة ليرد تغادر والسماء تدمع قطرات من المطر فودعتهما عيناه حتى تواريا في منعطف أول الدرب، يغلق الباب ويجلس على حافة السرير محتارًا وتشتت تفكيره فيما قالته العجوز التي غامرت وأتت لتنقذه من براثن المماليك لكنه في النهاية اقتنع بفكرة الهرب لكن كيف؟

تارة أخرى باغته دق الباب فرجع بظهره إلى الوراء حتى آلم الجدار جرحه، خطا وهو يحسب السيدة نسيت أن توصيه بشيء آخر، في حذر فتح الباب فدخل يوسف النحاس وهو يقف مرتجفًا من فرط الإجهاد والبرد، التقط أنفاسه وابتلع ريقه في عجالة فقدّم له القلة، شرب قليلًا فبادره صبور قائلًا:

– قابلت بلال وجدته جنة؟

– لا قابلت بلالًا رضي الله عنه ولا أمية عليه لعنة ربنا ولا حتى دخلت الجنة لأخرج منها وآتيك في عز البرد.

من بين فواصل القلق افترت عن صبور ابتسامة باهتة لتعليق جاره خفيف الظل الذي رفع القلة تارة أخرى وهذه المرة ترع الماء وثبّت عينيه في عيني صديقه مستفهمًا فروى له صبور زيارة العجوز المقتضبة مع حفيد صاحبتها فهز رأسه في ثقة وهو يقر:

– تأكدت من خبر صاحب السرج وذهبت بنفسي نحو الشط، السفينة راسية هناك وترحل بعد الفجر، ريس السفينة معرفة قديمة ويخدمنا إن شاء الله.

– رأيك؟

– لا رأي سوى الهرب والأمور تيسّرت وتحذير الجارية يؤكد لك خطر البقاء.

– والليل والمطر والبرد؟!

– كله مقدور عليه، المهم أن تنجوَ بالبنتين وإلا...

– عفيفة على وشك الولادة.

– وحفيدك يرجوك تنجيه، نسيت مصري يا صبور؟

انكسرت قسمات وجهه، عض شفته في ألم ولأنه يعلم جاره يوسف تمام العلم ويدري أن سؤاله يقصد به خشيته على عفيفة ومولودها اليتيم، لكنه يخاف عليهما من مهالك الرحيل والشتاء تشتد برودته فهمّ أن يعرض حلًا وسطًا طرأ على باله لكن يوسف قطع عليه تفكيره.

– صدقني يا صاحبي، رحيلك الليلة أفضل حل وأنا أدبّر لك ما ينقلكم إلى المرسى، لملمْ أغراضك إلى أن أعود.

أغلق صبور الباب، هزّ رأسه في أسى وعيناه تمسحان جنبات البيت الذي نشأ وتربّى بين جدرانه وورث عمل السروج من أبيه، نفرت دمعة حارة لفكرة انتزاعه من داره لكنه يعلم استهانة الجراكسة بالأرواح وبخاصة إن شعر الواحد منهم بتهديد منصبه، ولا ينسى عندما ذهب ليسلم سروج الخيول لحارس إسطبل الأمير جاني الأعرج بالناحية الأخرى من البلد ورأى بنفسه الخادم يقدم الشراب للأمير وضيفه وحين أفلتت الطاولة من بين أصابع الخادم وانسكب الشراب على عباءة مرسل السلطان الذي حضر من القاهرة ليأخذ منه ضرائب العام، انتفخت أوداجه غضبًا وهدّد إن لم يُقتل الخادم سيعزل الأمير جاني من منصبه فلم يتورّع الأمير من رفع سيفه وطعن نصله الخادم المسكين في قلبه طعنة نجلاء خرّ على أثرها صريعًا فمال الضيف إلى الوراء من فرط الضحك أما الجركسي قاسي القلب فبعد أن مسح الدماء من على شفرة سيفه، انحنى وقبّل يد مرسل السلطان الغليظة وحمل بنفسه أكياس المال ليضعها بالخُرج الثمين على ظهر حصان سيده.

– لا مفر من الهرب وإلا يتحوّل الأمر إلى مذبحة لأهل الدرب إن تدخّل يوسف النحاس وإخوته وزوج أخته عبد الموجود الطيّان وغيرهم دفاعًا عني.

– أبي! تكلّم نفسك؟

التفت في حدة لعفيفة الخارجة توًّا من الكنيف فدهش لعدم شعوره باستيقاظها ووقوفها جواره إلى أن سمعته يحاور نفسه المهمومة فحزم أمره ليخبرها:

– حبيبتي عفيفة، لازم نرحل، بقاؤنا هنا فيه خطر علينا.

– نرحل يا أبي.

خفق قلبه لردها السريع الحازم فوفّر عليه مشقة إقناعها، هز رأسه مرات وهو يهمس لابنته:

– الآن يا عفيفة، أيقظي صافية وأنا أجمع بعض الأشياء من الدكان.

– حالًا يا أبي.

في تثاقل خطت عفيفة نحو الحجرة وخرج صبور من البيت وهو يحذر الأرض المبتلة، فتح الدكان وفي كيس سميك وضع الكثير من عدده، على ضوء الشمعة يهم بإغلاق الباب والهواء البارد يلف رأسه فلمح سرجًا وبرذعة مركونين جوار الباب فبادر بإغلاق الدكان وهو يؤكد لنفسه:

– سأوصي يوسف النحاس بتسليمهما لأصحابهما.

***

-٤-

البنتان تقفان وراء الباب المغلق، أمامهما زكيبة كبيرة وخُرج وكيس آخر صغير به ما بالمشنة من خبز وماعون جبن، صبور يتربّع على المصطبة المقابلة لمجاز البيت، أمامه ورقة كبيرة فيغمس قطعة الغاب المدببة في قنينة مداد ويكتب وما إن أنهى ما يريد حتى طوى الورقة وربطها بخيط كتاني رفيع، وقف وتأكد من وضع الخنجر بين طيات ملابسه، شد الزنار حول وسطه النحيف فتناهى لمسامعه صوت شحيح بغل وأنفاسه يزفرها منخاره معترضًا على مغادرته حظيرته الدافئة، يوسف يبرطم بكلمات عبثية ليصمت البغل فأيقن أن صاحبه الهمام استعار عربة وبغل زوج أخته عبد الموجود الطيّان ولضمان سرية نقله إلى المرسى يقود العربة بنفسه، حملت صافية الزكيبة الكبيرة ووضعتها على العربة، عادت بسرعة لتحمل الخُرج، قبضت أصابع عفيفة على كيس الطعام، جفلت قدما صبور ومسحت أصابعه قوالب الطوب العتيقة، سحّت عيناه الدموع الساخنة التي تعرجت على خده فاستشعرت شفتاه ملوحتها الممزوجة بمر الفراق.

– هيا!

التفت إلى يوسف الملفوف بعباءة ثقيلة يعصب رأسه بشال من الصوف، يقف أمام العربة وأصابعه تمسك لجام البغل القوي، أغلق الباب وعاون عفيفة على الركوب جوار صافية الصامتة طوال الوقت والنعاس يضفي عليها كسلًا وبلادة، لأول وهلة ظن أنه هو الذي سيقود العربة ويتركها هناك ويأتي يوسف في الصباح ويستعيدها لكن جاره الشهم أبى إلا أن يصحبهم بنفسه، يستحثه على الركوب لكنه التفت نحو الدكان المفتوح فطافت عيناه على بقايا الجلود والسيور والمهاميز الحديدية المعلقة على الجدار، لم يجد فائدة من وداع دكانه فأغلقه وما إن همّ بركوب العربة حتى لمحه واقفًا أمام الباب، خطا نحوه، وقف قبالته فاحتضنه مظلوم المسكين في قوة وطفق يقبل وجهه حتى سمع صوت تأفف يوسف من إبطائه، أبعده في رفق، سار نحو العربة ورفع يده بالتحية لأبواب درب النحاسين المغلقة فشهر مظلوم ربابته مودعًا جاره العطوف.

قاد يوسف البغل خارج الدرب وابتعد عن شارع السوق؛ حتى لا يلمحه أحد المماليك المتجولين بالمصابيح في الشوارع الكبيرة، تخطت العربة الجامع الكبير والعتمة مطبقة على مطارح البلد، لا يكاد يوسف يرى أمامه سوى أشبار وحوافر البغل تغوص في الطين، مال بالعربة نحو المدق المؤدي إلى خارج المدينة لكن السماء أبت إلا أن تزخ مطرها، فالتفت يوسف إلى صبور وهو يعافر في توجيه البغل الذي ضايقه سقوط المطر بغزارة:

– الحمد لله، المطر والبرد والعتمة يجعلون المماليك وحراس الليل لا يخرجون من بيوتهم.

بعصا الخيزران الرفيعة يضرب يوسف مؤخرة البغل فلم يخيّب رجاءه وجرت سيقانه وسط الزراعات الغاصة في الطين، التفت صبور للخلف فلمح أنوارًا تومض وتختفي فأيقن أنها من قصر

الأمير تمربغا فعض شفته وتمنّى أن تميل العربة نحو قصر الأمير ويروي له خيانة صاحبَي ابنه ثم يرحل على الفور، فلم يجد فائدة من تناطح أفكاره وأقنع نفسه بقرب الخروج من المدينة نحو شط النيل، سار البغل بمحاذاة الضفة وعجلتا العربة تتأرجحان، بأصابعه غطى رأس عفيفة المتدثر بشقة ثقيلة والمطر بدأ يهطل في غزارة ويوسف تشتد ضرباته والبغل لا يدري أسباب عقاب فخذيه برغم أنه لم يقصر.

ظلت العربة سائرة وحوافر البغل تخوض في المياه التي علت شبرًا إلى أن أوقفها يوسف، عاون صبور ابنته صافية على النزول وبدورها مدت ذراعيها لعفيفة المرتجفة من سطوة البرد، في سرعة حمل يوسف الزكيبة الكبيرة ورفع صبور الخُرج المبتل أما صافية فقد تأبطت ذراع أختها وتقدّمهم يوسف نحو الدرجات الحجرية الزلقة فساروا خلفه وسيول الأمطار تكاد تدفعهم للأسفل، في بطء نزلوا نحو المرسى الغاص في الظلام واستحال الطين إلى أوحال سائلة.

– يا حميد!

ما إن لامست قدما يوسف السقالة الخشبية العريضة حتى جأر بأعلى صوته على النوتي وكرّر اسمه وهو يزعق فانفتح باب من ظهر السفينة الخشبي وبزغ رأسٌ معصوب بشال ثقيل، في سرعة خرج رجل قصير وخطا نحو حافة السفينة فتشجّع يوسف وتسارعت خطواته على الألواح الخشبية المهتزة تحت قدميه، ألقى الزكيبة على ظهر السفينة وعاد فحمل الخُرج عن صبور وهو بدوره انشغل في معاونة بنتيه على عبور الممر الخشبي إلى أن استقروا على الناحية الأخرى فقادهم الرجل في سرعة نحو غرفة في مؤخرة السفينة وفتح بابها فدخلت البنتان خلفهما صبور ويوسف والريس حميد يمسح عن وجهه الماء.

– جننت يا نحاس؟

– المضطر يا حميد.

– أي شيء يجبرك أن تأتي بالرجل وحرمه في المطر، كنت انتظرت الصباح.

– لا عليك يا حاج حميد، خفت أن ننتظر للصباح فتسافر السفينة.

قالها صبور مطيبًا خاطر الريس الغاضب من إزعاجه في تلك الليلة الممطرة والبرد القارس، لكنه استسلم لوجودهم كما اتفق معه يوسف بل ومنحه من المال ما جعله يقبل مرافقتهم، يهم بالخروج فيستوقفه يوسف النحاس وهو يؤكد:

– أمانة في رقبتك يا حميد، تحفظهم إلى أن تصلوا بسلامة الله إلى ساحل الفسطاط.

– مصر القديمة؟

– لنا أقرباء يسكنون قرب جامع عمرو والكنيسة العتيقة، ينزل الحاج صبور ضيفًا عليهم.

– أمرك يا يوسف، والله لولا عشرتي معك ومعرفتي السابقة بأبيك سليمان النحاس ما كنت قبلت نقلهم.

– عرفت بأن سفينة راسية والحمد لله أنها سفينتك، صدقني يا صاحبي ستخدمهم أكبر خدمة، ولو لزمك دنانير...

– لا أقصد يا يوسف إنما السفينة لنقل البضائع لا المسافرين وما دفعته يكفي.

– على بركة الله.

خرج حميد وأغلق خلفه الباب ولا تزال السماء تسح المطر وأصوات اصطدامه بسقف الحجرة تصك آذانهم، على ضوء الشمعة الخافت تلاعب القلق على وجه يوسف فقرر مغادرة الحجرة الضيقة لتستريح عفيفة.

– أعود الآن وربنا يحفظكم.

– اصبر يا يوسف، أمسك الورقة، عقد بيع البيت لئلا يضع أحد يده عليه وأنا غائب وخصوصًا أوباش المماليك.

أطال يوسف التحديق في وجه صديق عمره ولأنه يعلم حرص صبور على بيت أبيه وجده ويدرك تمامًا أن الأمير الجركسي سيعلم بمغادرته لدرب النحاسين وأسيوط بأكملها فلن يتورّع أحدهم في الاستيلاء على البيت لكن وجود عقد البيع سيرجعهم عن ذلك، اغرورقت عينا يوسف بالدموع وحضن صديقه في قوة ثم أبعده في رفق وربت على كتفه وهو يؤكد:

– أمانة في رقبتي يا صبور، ولما تعود سأقطع العقد وستجده أفضل مما تركته.

– أعلم يا يوسف.

– أترككم الآن وربنا يحميكم.

– وبالدكان سرج وبرذعتان مكتوب على كل واحدة اسم صاحبها، لما يحضر أصحابها سلم كل واحد حاجته.

– أفعل إن شاء الله.

– أشد ما يشق على نفسي أني أسافر دون زيارة أخيرة لقبر أم عفيفة ومصري وأبي محمد السراج وقراءة الفاتحة على أرواحهم.

– الفاتحة ودعاؤك يصلهم وأنت بالسفينة وفي الفسطاط وفي أي مكان تحط فيه.

تارة أخرى ضمه صبور ولم يرد يوسف أن يطيل وداع رفيقه أكثر من اللازم فأبعده في رفق، خرج ورفع العباءة على رأسه، رآه صبور يسرع نحو النقالة الخشبية العريضة ويجاهد كي يصعد الدرج الحجري إلى العربة الرابضة تحت المطر والبغل واقف كأنه منحوت من صخر، شعر صبور بروحه مشطورة للفراق المغصوب عليه، ذرفت عيناه ورفع يده ليوسف فشد لجام البغل ودار بالعربة إلى أن غاب بها، مال إلى الأسفل وخلع نعليه المملوطين بالسخام، قبل أن يغلق باب الغرفة أقبل عليه شبح قصير لرجل تسرع خطواته وهو يحمل شيئا ولم يلبث أن سلمه لصبور وهو يقول:

– أغطية ومفارش للنوم.

تسلم اللفة الكبيرة ففرد المفارش التي تفطن أنها مصنوعة من جلد مدبوغ، فرشها كلها على سرير الجريد الوحيد والخشب المبتل وعاونته صافية الصامتة طوال الوقت فخلعت عفيفة الشقة الغارقة في الماء ومددت جسمها وفي سرعة غطتها أختها بحرام صوفي ثقيل وانزرقت بدورها جوارها والسرير بالكاد تحملهما، اطمأن على تغطيتهما وتهالك مسندًا ظهره على الجدار الخشبي والعباءة المنسوجة من الصوف يلفها حول جسمه، لم يلبث أن اعتادت عيناه الظلام ومن شدة الإرهاق أغمض ولفته غمائم القلق على عودة يوسف إلى درب النحاسين، لكن جسمه المنهك استجاب لرغبته الملحاحة في النوم فأسبل عينيه ومال جسمه فتوسد رأسُه ذراعه المحنية ونام.

***

لا يدري كم مرّ من وقت لكنه وجد نفسه يفتح عينيه فجأة ويحملق في سقف الحجرة الخشبي، لأول وهلة تختلط عليه الأمور ويحسب أنه لا يزال في بيته وسينهض ليفتح الدكان مبكرًا وكعادته تأتيه صافية بالإفطار فيتناوله مع يوسف النحاس ومظلوم المسكين، يغمض عينيه ويفتحهما وتنقشع سُحب واقعه السوداء، رويدًا يستوعب وجوده بالسفينة بعد مغادرته المضنية في الليل، ينهض ونظراته تخترق ظلام الغرفة، أنفاس بنتيه تتناغمان ومن حين لآخر يعلو شخير صافية لرقدتها غير المريحة، يسحب الغطاء على كتف عفيفة، وصافية تقوس ذراعها على ظهر أختها، يقف قبالتهما، يهز رأسه وهو يشعر بمدى الخطر الذي قد تتعرّض له عفيفة لمخاضها الوشيك وانتابته رعشة لهاجس راوده من أن تلد على ظهر سفينة تمخر عباب النيل وفي هذا الجو القارس ولا قابلة تعاونها وصافية لا دراية لها بتلك الأمور، أشاح بوجهه طاردًا الفكرة وتمنّى ألا يباغتها وجع الولادة قبل الوصول إلى الفسطاط أو أي بلد آخر يمكن أن يطلب معاونة أهله.

تثاءب زافرًا أنفاس الحيرة، شعر برغبة عارمة في فك زنقته بعد انقضاء الساعات الفائتة منذ مغادرته درب النحاسين، في حذر يفتح الباب، الأمطار توقفت لكن السماء لا تزال ترسل بقايا

دموعها فتضرب قطرات الماء جلبابه الرث، هواء مضمخ بالبرودة يرشق وجهه فيلف الشملة الصوف حول رأسه، يتناهى لمسامعه صوت أذان بعيد، يخطو والسفينة تتمايل في هدوء ولطمات الماء تضرب جوانبها، يحتار إلى أين يتجه وألم جوفه يتصاعد، التفت لتلك الشعلة البازغة من بطن السفينة، ها هو واحد من النوتية يخرج فخطا نحوه وسأله عن محل قضاء الحاجة فعاد به الشاب النحيف إلى غرفة صغيرة منزوية عن يسار حجرته، دفع الولد بابها فأصدر أزيزًا ممطوطًا، ثبت الشعلة الصغيرة داخل الكنيف وتنحّى جانبًا ليدخل صبور فلم يتردد لحظة وأغلق خلفه الباب.

حين خرج لم يجد الشاب واستراح لوجود الكنيف قرب مخدعهم؛ حتى لا تتحرّج عفيفة وصافية من عمال السفينة، رفع الشعلة وعاد بها إلى الغرفة فشعر بالدفء بعد أن أغلق الباب، على المفرش البالي قعد ولف العباءة حول جسمه، أمال رأسه إلى الوراء وأسبل عينيه، استشعر راحة تدب بين أوصاله بعد هزهزات العربة طوال طريق وصولهم لحافة النيل، حامت روحه حول درب النحاسين وطفر في ذهنه وجه تمراز الماكر وهو يمتطي فرسه خلف فرس أبيه الأمير بلباي وحولهم المماليك وكالجراد يقتحمون الدرب باحثين عنه ويلهبون ظهور كل من يعترض طريقهم بالسياط وحين يهاجمون البيت ويعترضهم يوسف تعتوره سيوفهم من كل جانب.

هبّ مذعورًا وجحظت عيناه، ابتلع ريقه والغصّة تتصاعد فتكاد تخنق روحه الموتورة، من بين فتحات ألواح الباب المردود يتسلل خيط أبيض فيدرك أن النور يطارد بقايا العتمة وأرجل عمال السفينة بدأت تدب وأصواتهم تتداخل، شيء ثقيل يتم سحبه ومجاذيف تضرب الماء، اهتزت السفينة في قوة وتمايلت معها غرفة صبور فهبّت عفيفة من نومها.

– خيرًا يا أبي؟

– السفينة تتحرّك.

– السفينة؟

قالتها عفيفة وهي تفرك عينيها وراودها شعور أنها تحلم لكن نظراتها الزائغة اصطدمت بجدران الغرفة الخشبية فأفاقتها على حقيقة رحيلهم، بكفها ربتت على بطنها المنفوخ وتعض شفتها للساكن الذي يتحرّك من آن لآخر فترجوه ألا يخرج قبل وصولهم لبر السلامة، من التماع عينيها يقرأ صبور قلق ابنته فيقترب منها ويحوط كتفيها بذراعه، ويهمس في أذنها:

– الحمد لله يا بنيتي وربنا يعوضك خيرًا.

– المهم أنت يا أبي، أعلم مدى حزنك لهجرتنا درب النحاسين وأسيوط كلها.

– أنا بخير يا عفيفة طوال ما أنت وأختك بخير وإن كان على البيت ودكان السروج فاستودعتهما عمك يوسف ولن نبقى في الغربة طوال عمرنا، أكيد في يوم نرجع.

– إن شاء الله.

همّ أن يقول شيئًا لكن صافية تململت في رقدتها ولم تلبث أن انتترت كعادتها وتفرد ذراعيها عن آخرهما ووجهها تزينه ابتسامة عريضة وهي تقول:

– أنا نمت طول الليل، أسخن البتاو.

ابتسم صبور في وجه ابنته التي لا تزال تظن أنها بالبيت وهمّ أن يوضح لها لكنها أدارت رأسها عدة مرات مندهشة وعلا صوتها وهي تقول:

– آه، السفينة، نحن في سفينة ويمكن أن أصطاد السمك.

هزّ رأسه لصافية التي لا تقدّر الموقف وتتحدّث دون روية فرفع سبابته أمامهما وهو يقول محذرًا:

– السفينة تتحرّك ويستحسن ألا نخرج إلا للضرورة وأكون أنا معكما، نحن مع ناس أغراب والحذر واجب والحمد لله محل قضاء الحاجة قريب من هنا وإن خرجنا لا نتكلم مع أحد.

هزّت البنتان رأسيهما تأكيدًا لوجوب تنفيذ الأمر ووقفت عفيفة وانتعلت القبقاب الخشبي فأدرك صبور أنها تعوز الحمّام، فتح الباب فغطت وجهها وسارت خلف أبيها وعلى قيد خطوات دلفت الغرفة القصيرة، دار صبور بعينه وانتفض جسمه من البرد، عمال السفينة انتهوا من رفع النقالة الخشبية العريضة وآخران يرفعان السلسلة ذات الثقل، حميد ريس السفينة يقف في منتصفها ويلقي أوامره على العمال فينفذون في سرعة، أحدهم ممسك بالدفة بينما صعد آخرون الصاري العالي وفكوا حبال الأشرعة القماشية العريضة، أفاق على ضحكة صافية الواقفة خلفه فاستدار ليؤنبها على طلتها غير المحسوبة لكن خروج عفيفة جعلها تتحاشى توبيخ أبيها فدخلت في سرعة فتبعتها عفيفة إلى الغرفة وانشغلت في إعداد الإفطار، لم يطل الوقت وأغلق الباب بعد أن جلست صافية قبالة أختها فحدّجها صبور بنظرة معاتبة وهو يؤكد في نبرة صارمة:

– أحذّر يا صافية من لفت الأنظار إلينا.

– لا تقلق، نحن بعيدون عن عيون المماليك.

– تناول إفطارك يا أبي، أنت لم تتعش.

قالتها عفيفة لتحول دون مهاترة صافية التي لا طائل منها، قشّرت البيض المسلوق الذي أحضره يوسف النحاس ووضعت الخبز والجبن، الطعام بارد كمكمنهم لكن صبور تناوله في رضا ودعا في قرارة نفسه بالستر والأمن لجاره المخلص الذي دبّر له كل شيء لرحيله قبل انقضاء الليل حتى الطعام لم ينسه، ما إن أخرجت صافية نواة التمر حتى ألقت بها فاصطدمت بالجدار الخشبي وهي

تضحك، نهض مغلقًا خلفه الباب، استراح صدره وملأه بنفسٍ ممطوط وهو يهتز مع السفينة التي غادرت المرسى واستقامت في طريقها نحو الشمال وعمالها كل منهم لا يبرح مطرحه الذي كلفه حميد به.

ما هي إلا دقائق وانفتح باب الغرفة، عفيفة تلف ذراعها حول بطنها، يمد صبور يده فيقبض على معصمها، على حافة السفينة تتجشأ وقسمات وجهها تنقبض، حين انتهت مسحت شدقيها ورافقها أبوها إلى الغرفة وصافية تتمدّد متكئة بكوعها على الوسادة الزنخة.

- الولد يلعب في بطنك يا عفيفة.

نهرها على كلمتها التي ليس لها لازم، أراح عفيفة على الفراش وقرّب من فمها قلة الماء فشربت قليلًا وأبعدت شفتيها، بقي معها فترة ثم نهض وخرج من الغرفة وشمس الصباح الفتية تبعث الدفء في روحه المهمومة وتنشف خشب السفينة من مطر الليلة الفائتة.

***

-٥-

– وصلنا؟

علا صوتها وهي تقف خلف أبيها والسفينة راسية قبالة أحد الشطوط فالتفت في غيظ وأجابها بتأفف:

– لا يا صافية، أظن السفينة رست لنقل بضاعة، ولا ترفعي صوتك.

يقبل حميد نحوه فتخفي وجهها بطرف الشال وتدلف الغرفة مغلقة خلفها الباب، في بشاشة يبتسم الريّس وهو يلقي تحية الصباح:

– إن شاء الله تكون مبسوط يا شيخ صبور.

– نحمده يا رَيّس.

– وأخبار جماعتك؟

– بخير لكن واحدة منهما عندها دوار.

يهز حميد رأسه ويخرج من جيبه ليمونتين كبيرتين ويقدمهما إلى صبور وهو ينصحه:

– تغصب على نفسها وتجرش الليمونة فيهدأ الدوار وتشفى.

يشكره على هديته التي لم يكن يتوقعها وهمّ أن يسأله عن سبب توقفهم لكن حميد يشير إلى عماله بمد السقالات الخشبية الكبيرة والتفت وهو يقول:

– وصلنا منفلوط، ننزل البلاليص ونحمل أقفاص وزنابيل الرمان ونرحل.

– لكن الرمان موسمه قرّب ينتهى!

– آخر القطاف يخزنه أهل منفلوط ويبيعونه في القاهرة.

تركه حميد ليباشر عماله في إفراغ السفينة من حمولة الجرار والمواعين الفخارية الذي استمر قرابة الساعة ولم تلبث أن توقفت العربات التي تجرها البغال والحمير أعلى بر النيل وراقبهم صبور وهم ينزلون الرمان ويرصون الأقفاص والزنابيل والأجولة الكثيرة، ما إن أنهى العمال شحن جانب السفينة حتى رفع صبور حاجبيه للمرأة العجوز تتقدّم زوجها المتكئ على عقصة عكازه وهما ينزلان بتؤدة من أعلى البر في المدق حتى وصلا إلى السقالة الخشبية، بإشارة من حميد يبادر أحد الشباب بمد يده فيعاون السيدة على تخطي الألواح المهتزة حتى أوصلها إلى السفينة ويعود فيقود الشيخ السبعيني ليلحق بزوجته فتلوّح السيدة لأخرى ترفع يدها وهي واقفة على الشط متدثرة بشُقّة سوداء لا تكاد تظهر سوى جانب من وجهها.

دهش صبور لسفر هذين العجوزين منفردين على ظهر سفينة بضائع لكنه هوّم برأسه عندما تأمل حاله وأنه راحل مع ابنتيه في وقت شديد الصعوبة وبخاصة عفيفة التي يخشى أن تنتابها آلام الولادة في أي وقت فيحتار فيمن يقوم بمهمة ولادتها، ودعا ربه في سريرته أن يرحم ضعفها وتلد بالفسطاط على الأقل سيتدبر أمره هناك، رفع صبور قبضته أمام عينيه فتنبه إلى الليمونتين الكبيرتين، دخل الحجرة ومدّ يده بهما إلى عفيفة فاختطفتهما صافية وبقرت إحداهما بمدية صغيرة وأعطت نصف الليمونة لأختها وطفقت تلقي بالليمونة الأخرى لأعلى وتلعب بها، في تقزز امتصت عفيفة الليمونة المشقوقة وهي تغمض عينيها من فرط طعمها اللاذع، شربت القليل من الماء ونامت على ظهرها وصافية تواصل إلقاء الليمونة لأعلى وهي تدندن بكلمات سريعة.

مطّ شفتيه وخرج، رفع رأسه إلى السماء الرائقة ولهج لسانه بالدعاء أن يصلح حال صافية ويفتح بصيرتها ويجعلها واعية لحياتها فلا يدري سببًا لخواء تفكيرها وقلة عقلها حتى وصفها نسوة الدرب بأنها بلهاء لا تدرك ما تقول ولا تزن الأمور بميزان العقل، غير عفيفة العاقلة القوية التي تحملت فراق زوجها مصري ابن أخيه الذي التهمه الموت غيلة وهو في ريعان شبابه.

– آه.

زفر بها صبور حين شعر بألم جلده فجأة وكأن كرباج المملوك تمربغا نزل لتوه على ظهره فابتلع ريقه في صعوبة وشعر بعطش شديد رغم برودة الجو، بحبل ليفي تدلت جرة صغيرة نحو بطن الماء ولم يلبث أن رفعها وشرب فأزبدت المياه بين شدقيه وحمل الجرة إلى ابنتيه، ركنها وهو يتأوه

من شدة ألم ظهره، عبثت أصابعه في الصرّة حتى رفع قارورة زجاجية، شلح ظهره فسكبت عفيفة القليل من السائل وبأناملها طفقت تدهن موضع السوط وشعر بدموعها تنقط على ظهره، التفت إليها وبكفه مسح خدها، اعتدل في جلسته وصافية تنهي إعداد الغداء فتناولوه صامتين ورأى في عيني عفيفة المنكسرتين رغبة في النوم فشجعته على اغتنام القيلولة، تمدد، وصافية من حين لآخر تربت على بطن أختها وتبتسم دون سبب.

ينقضي النهار ولم ترحل السفينة، تناهى لمسامعه صوت نواقيس كنيسة قريبة من البر فراوده إحساس أن اليوم هو الأحد لكن اليوم هو الثلاثاء فقد غادر بر أسيوط أمس الاثنين ولم تتوقف السفينة إلا هنا في منفلوط، تأفف من طول رسو السفينة ولم يجد مبررًا لتعطيل إبحارها، علت أصوات الأذان من مساجد منفلوط القريبة وحدّق في المؤذن أعلى المئذنة يرفع يديه بالتكبير فاستأنس بصوته الرخيم، من بقية المياه التي بالجرة توضأ وصلّى أمام الغرفة، ما إن أنهى صلاته حتى قرر أن يستفسر من حميد عن سبب تعطلهم، رآه مقبلًا نحوه وبين يديه طبق فخاري.

– تفضل يا شيخ صبور، رمان نهاية الموسم طعمه حلو.

افترت شفتا صبور لحبات الرمان بلونها الدموي وتناول منه الطبق ولم يضيّع الفرصة فسأله في سرعة:

– لمَ العطلة؟

– تناول رجالي طعامهم ونبحر الآن.

تركه حميد فدخل الغرفة، في ضعف اعتدلت عفيفة في رقدتها، أما صافية فاختطفت الطبق من بين يدي أبيها وأفرغته في حجرها، طفقت تقشر الرمان وتفرغ الفصوص الحمراء القانية وتلقي بحفنة في فمها قبل أن تقدّم الباقي لأبيها وأختها التي هزت رأسها أمارة النفي، تناول صبور بعضًا من الحبات فاستطاب طعمها العسلي ثم نهض نحو الباب.

– سأغيب قليلًا وأعود.

خرج مغلقًا خلفه الباب بإحكام وصافية تجاهد كي تضع فصوص الرمان المنفلوطي المسكر في فم عفيفة لكنها عافت الفاكهة كلها وعادت إلى الاستلقاء وندت عنها آهة مكتومة والتمعت عيناها بالدموع وارتعشت شفتاها وهي تتمتم:

– تركناه في قبره.

توقفت صافية عن استحلاب مذاق الرمان ومسحت على رأس أختها وسحبت على كتفها الحرام الصوفي الثقيل، ربتت على خدها وهي تقول في صوت ضعيف:

– مصري شهيد يا عفيفة، أبي قال أنه شهيد وربنا يرحمه.

– أتمنى ولده يطلع قوي و...

– المهم صحتك، ولدك غير ممكن يطلع شديد من غير طعامك، كلي واشربي من أجل ابن مصري.

تهز رأسها ولم تلبث أن تحاول النهوض فعاونتها صافية حتى أراحت ظهرها، وضعت أمامها ملاءة قصيرة عليها رغيفان وقطع الجبن والبيض المسلوق فبدأت عفيفة بتناول الطعام، وجدّت صافية في إفراغ فصوص الرمان من القشرة الطرية استعدادًا لتقديمها إلى أختها عقب الانتهاء من غدائها.

***

ضيق ينتاب نفسه القلقة بعد أن دارت عيناه على البضائع المتراصة وعمال السفينة فردوا عليها أغطية تقيها المطر إن هطل وهيّأ نفسه للمبيت ليلة أخرى، فعض شفته وهو يرقب الغروب يجرجر أول خيوط العتمة، يتأمل طيور أبي قردان تحط على أغصان الأشجار القريبة فرفع رأسه إلى السماء وشطح خياله أن يأخذ بنتيه على أجنحة الطيور ويحط ببر الفسطاط، فأغمض عينيه وانتابته سِنة من نوم فتحولت أمنيته إلى حلم فرأى عفيفة تمتطي ظهر طائر كبير والريش يستر جسمها المستلقي وقسمات وجهها تمتعض، يبزغ من أسفل الريش مولود يحبو، ما إن تغمر قلبه الفرحة حتى تلطم وجهه زوبعة من غبار وحدأة سوداء كجمل تختطف ابن عفيفة وتطير به بعيدًا فيشيح بذراعيه ويصرخ لكن الحدأة أو الطائر الذي لا يدري ما هو يحلّق بعيدًا ويتوارى بين أسنمة الجبال، تجحظ عيناه ويزدرد ريقه في صعوبة، يشيح بوجهه لينفض بقايا كابوسه، تتناهى لمسامعه أصوات عمال السفينة ويخفق قلبه لتحرك دفتها نحو عرض النيل، يخطو نحو حميد:

– حسبت السفينة تبيت الليلة بمنفلوط.

– تم تحميلها وأنا خلاف بقية النوتية، أحب أسافر بالليل، الليل أهدأ وبعيد عن أعين الجلبان الفجرة.

اتسعت عينا صبور وهو يسمع وصف ريس السفينة وخمّن أن يكون حميد من الجنوب فسأله:

– من الصعيد؟

– فرشوط.

– في الأول خفت منك، حسبتك تعمل لصالح الجراكسة.

– أنا أخدم هؤلاء الملاعين؟! يا شيخ صبور، المماليك جلبان أغراب من كل بلد نفر لا يعرف لهم أحد أبًا أو خالًا ولا يحسنون غير الضرب والطعن ونهب الناس والسلب بلا استئذان والأحسن تجنب معاملتهم.

يهم صبور أن يصفق لحميد الفرشوطي لولا أن تمالك نفسه كما اعتاد ويسمع أكثر ويتكلم أقل فأظهر اعتراضه المتواري خلف سروره.

– لكنهم حموا البلد زمان من الفرنج في المنصورة وبعدها كسروا التتار على ما تناقله جدودنا.

سكت صبور لصمت حميد وشعر أنه لا يدري ما يتحدث فيه وندم أنه يحاور رجلًا بسيطًا لا يعرف من يومه سوى الإبحار بسفينته ويقاسي كغيره جور الجراكسة وطغيانهم، همّ أن ينهي حواره لكن حميد يفاجئه بكلماته الصعيدية التي فاه بها كأنها تخرج من بئر عميقة:

– يا أخي، أنا ريس مركب أبًا عن جد وجدي عبد القادر كان يردد: آه عليك يا زمن، يحكمنا مماليك عبيد مجلوبون من كل حدب وصوب. ولما كان جدي يرى واحدًا منهم كنت أسمعه يقول: الله يلعنك ويلعن أمك التي تركتك تُخطف ويلعن اليسرجي الذي باعك على دكة المماليك.

ندت عن صبور ضحكة خفيفة فيبادله حميد الابتسام فتنفرج شفتاه عن أسنان صفراء داكنة تنبئ عن طيبة مختبئة خلف قسمات وجهه الجهمة، فرأى أن الفرشوطي يعلم الكثير عن أصل المماليك وجاءت عبارته الأخيرة تؤكد رأيه.

– وإن كانوا حاربوا أول عهدهم فللحفاظ على بلدنا التي اغتنموها بعد موت الملك الصالح ومن بعده زوجته شجر الدر، قاتلوا لأجل خير بلادنا التي تملأ كروشهم العفنة.

هزّ صبور رأسه مؤمنًا على كلام حميد الذي التفت يمينًا ويسارًا وأطلّ برأسه نحو الماء.

– والله يا صبور، ساعات أخاف أتكلم وأنا في عرض البحر فيفتن عليّ السمك، لكن قلبي انفتح لك.

تتسع ابتسامة صبور ويعجب بحميد الفرشوطي الذي أضاف إليه صفة جديدة يتسم بها أهل الجنوب وهي روحه المرحة وتندره، التفت إلى نوتية السفينة واستأذن منه ليباشر عمله، لف صبور العباءة حول جسمه وراقب العمال وهم يشعلون المشاعل ويثبتونها في أماكن متفرقة بالسفينة، أمام باب الغرفة يتفاجأ به مفتوحًا وتخرج صافية خلف عفيفة الملفوفة بشقة سوداء ثقيلة، وقفوا جميعًا يتنسّمون هواء النيل البارد فقوّس صبور ذراعيه على كتفي بنتيه وأباح لهما الترويح بتأمل ارتحال النهار وغروب الشمس خلف الجبل الغربي.

تناهت لمسامعه أصوات عالية، يتفاجأ بأشباح من فرسان المماليك تترامح خيولهم على الشط ويطلقون زعقاتهم وهم يتسابقون قبالة السفينة التي لم تبتعد عن البر، أشار لبنتيه بالعودة ودخل خلفهما مواربًا الباب، ظن الريس لن يلتفت إليهم لكنه لحظ ثلاثة منهم تترجل خيولهم وينزلون من على صهواتها، يستقلون قاربًا صغيرًا ويأمرون الغلامين بالتجذيف نحو السفينة وعاونوهم في ضرب المياه فسقط قلب صبور بين جنبات صدره وحسب أنهم يبحثون عنه، القارب يسرع نحو السفينة المتباطئة، ويقترب وصبور يتهيأ للذود عن نفسه وبنتيه وأصابعه تعتصر مقبض الخنجر،

يلاصق قارب المماليك السفينة فيقف حميد على حافتها ودون تحية أو سلام يلقي لهم بكيس يتلقفه أحدهم ويشير إلى الغلامين أن يرجعا، تنفس صبور الصعداء وعاد دمه الهارب من عروقه فخفق قلبه وحمد ربه أنهم إنما جاءوا لجباية ضرائبهم، ما إن ابتعد القارب حتى أسرعت خطواته إلى حميد فبادره الفرشوطي الحكيم بقوله:

– دفعت ضررهم بالمال ونحمد الله أنهم لم يكبسوا على السفينة في منفلوط وإلا فرضوا مكوسهم على كل ما فيها ومن فيها.

سحب صبور من زناره كيسًا صغيرًا وقدمه لحميد، فقطب حاجبيه ورفع يده أمارة الاعتراض.

– لا، والله لا آخذ من مسافر ما نهبه الأنجاس.

استدار عقب اعتراضه فوقف صبور هنيهة معجبًا بالرجل الحكيم، شعر بخطوات ثقيلة خلفه فالتفت ليطالعه أحد العمال يحمل بين يديه ماجورًا عليه عظام ذرة يابسة فيشير إليه حميد نحو الغرفة، حمله صبور بين يديه وركنه بالداخل، أمال الشعلة ولبث قليلًا حتى اشتعلت عظام الذرة وأعواد الحطب المتكسرة، صافية تحملق في الماجور وتأمل أن يبعث في الغرفة حرارة تطرد البرد، يحل الصمت المسوّر بالاحتماء من تيار الهواء البارد وإذا أضيفت نيران الماجور المتأججة فشعر ثلاثتهم بالدفء ودون سابق إنذار قبلت صافية يد أبيها وتقول:

– نفسي أصل إلى القاهرة، سمعت من بنت الجيران أن الحرمة هناك تمشي لوحدها في الشوارع وتكشف وجهها وتشتري الزينة من العطارين.

– ربنا ييسر يا صافية ونصل بالسلامة و...

رويدًا تبتعد السفينة عن البر والليل قد أرخى ستائره، ينهض صبور ويفتح الباب، الموج يلطم خشب السفينة فرفع وجهه إلى السماء لتطالعه ارتعاشات النجوم ولا يدري لمَ مرت مواقف من حياته منذ أن كان يتعلم في زاوية الجامع الكبير ويزاول صنعة السروج مع أبيه الذي زوّجه بابنة عمه فرزق منها بعفيفة وصافية وفارقته قبل أن تهديه الولد الذي تمناه، فاعتبر مصري ابن أخيه ابنه فبخل عليه القدر واختطفت روحه واحدة من نزوات المماليك المستهينين بأرواح الخلق وها هو يغادر بلده الذي نبت فيه مهددًا وأثر كرباج أحدهم لا يزال يؤلم ظهره، تمتم في خفوت:

– الله يلعنهم ويلعن اليسرجي الذي باعهم على دكة العبيد.

***

تتباعد رموشه، يتكاسل عن النهوض لكن ألم بطنه يدفعه لأن يريحه ففتح باب الغرفة، يغمض عينيه لضوء الشمس الساطع، يغلق خلفه باب الكنيف، يخرج ومن ماعون يتوضأ ويشرع في الصلاة، يميل بوجهه ناحية اليسار منهيًا صلاته، ينهض ونظراته تمسح المدى الفسيح والحقول تتنفس بريح الصقيع، يلمح بطرف عينه تجمع عمال السفينة عند حافتها، ينهض ويخطو نحوهم، يلحظ تجهمهم فيطل في الماء ويتراجع فجأة، يبتلع ريقه في عجالة وينتفض، يضرب حميد كفًا بكف.

– لا حول ولا قوة إلا بالله، رابع غريق من يوم مغادرتنا فرشوط.

يحدّق صبور في جلباب الغريق الأزرق ووجهه منكفئ في الماء، يتراجع بظهره حتى يصطدم بعمود الصاري المشدود عليه شراع السفينة، ذرفت عيناه الدموع وطفر وجه مصري، هزّ رأسه في أسى وأشاح كي لا يجتر ذكرى اغتيال ابن أخيه اليتيم الذي تولى تربيته وزوّجه عفيفة ووجد فيه عوض الابن، وجه مصري ملتصق بذاكرته لا يريد أن يبرحها، تارة أخرى أطرق صبور والماء من أسفله يرغو فترجرجت ذاكرته لتجنح أصداء الحادث المرير يوم أن كلف ابن أخيه بتسليم سرج لصاحبه بالبر الغربي وطالت غيبته لنهاية اليوم حتى أقبلت زمرة من الصيادين يحملونه على عربة خشبية ملفوفًا بعباءة فضفاضة ومنع صبور ابنته من رؤيته وأمام إصرارها وهي تنتحب كشف وجهه وادّعى أنه سقط في الماء ومات غريقًا وانتشلته سواعد الصيادين، لكن الحقيقة بطعم العلقم هي التي عرفها فيما بعد، مصري وهو بالقارب تبارى عسكر المماليك في تصويب السهام نحوه فاخترق سهم صدره ونفذ إلى قلبه وسقط في الماء والمماليك يتصايحون وهم يمتطون خيولهم وفارقوا الشط، فحمله النوتي الصغير وعرفه صيادون اعتادوا مرافقته وحملوه إلى درب النحاسين فقام إمام الجامع الكبير بغسله وعاونه يوسف النحاس، وعلى أضواء المشاعل دفنوه في الليل لكن خبر مقتله لاكته نسوة المدينة وتردد بين جنبات الأزقة والحواري حتى وصل إلى أسماع عفيفة الحامل في شهرها الرابع فامتنعت عن الطعام لأيام حتى كادت تهلك من فرط الضعف المصبوغ باليأس والحزن لفها بعباءته السوداء على مقتل زوجها وابن عمها دون جريرة ارتكبها سوى حظ عاثر ألقاه في طريق ثلة من العابثين بأرواح الناس، يقترب حميد منه ولا تزال انكسارات وجهه تكسو ملامحه فتشجّع وسأل في عجالة:

– أين نحن يا شيخ حميد؟

– بعد سمالوط، لنا وقفة وبعدها نرحل.

لم يبال بالتأخير مقررًا مداواة قلقه بما كان يفعله دائمًا عندما كان يخلو بنفسه، إنها أوراقه التي يكتب فيها بعض الأخبار، تلك الأوراق ورثها من أبيه فقد كان يراه يدوّن تواريخ في أول الصفحات ويكتب ثم يلف القراطيس ويربطها بخيط رفيع وعندما كثرت جمّعها معًا، الأوراق وضعها في قعر الزنبيل قبل أن يخرج من البيت مباشرة، دخل الغرفة فوجد صافية تفرش خرقة قماش وتضع عليها الخبز والجبن وفي إناء صغير دلقت القليل من العسل، جحظت عينا صبور للزنبيل الفارغ فرفعه أمامه وخفق قلبه، أكد لنفسه أنه لم ينسها بالبيت ولكنه خمّن أن تكون انتثرت وهم على ظهر عربة

يوسف النحّاس فسقط وفقدها إلى الأبد، زاغت عيناه وضرب الهواء بقبضته قهرًا على ضياع ميراث أبيه.

– عمَ تبحث يا أبي؟

عاجلته عفيفة بسؤالها الواهن وهي تحاول النهوض فعاونتها صافية وأجلستها على الأرض.

– كيس أوراقي ضاع يا عفيفة.

تريح عفيفة ظهرها إلى الوراء، تمدّ ذراعها أسفل سرير الجريد، تسحب قفة صغيرة، ترفع غطاءها وتميلها نحو أبيها فمدّ يده ورفع الكيس الجلدي السميك، غمرته فرحة ما بعدها فرحة بوجود أوراقه، حدّق في وجهها الممصوص واقترب منها مقبلًا خدها ومربتًا على كتفها، صافية منشغلة عنهما بالشروع في تناول الطعام بمفردها غير منتظرة أبيها وأختها، يعتدل في جلسته وهو يقول:

– الله عليك يا عفيفة، حفظك الله يا بنتي، آه لو ضاعت الأوراق لأصابني الشلل.

– بعد الشر عنك يا أبي.

قدّم صبور الخبز لعفيفة فشجعها سرور أبيها على تناول الطعام ودفعه إقبالها أن يشاركهما في شهية.

– هذه الأوراق بدأ في كتابتها جدي عبد الله السراج في زمن السلطان المؤيد شيخ 15وروى فيها أن الأمير قانيباي المحمدي معاون للمؤيد شيخ كان يبحث عن السراجين في كل مكان واستقدم جدي عبد الله من أسيوط إلى القاهرة مع رفقاء

له عدة أشهر كي يصنعوا له مئات السروج للخيل السلطاني ولخيل الفرسان.

أنهى طعامه وعاونت صافية أختها على الخروج من الغرفة للكنيف، وعندما عادتا أغلقت الباب وتمددت جوار أختها، بحرص سحب صبور الأوراق التي تتوع لونها فبعضها أصفر والبعض الآخر لونه بني، آخرها كانت رقعة جلدية لا تزال تحتفظ بطراوتها، فردها صبور أمام عينيه وأخذ يقرأ:

"هذا العام 16٨١٩ من هجرة سيد المرسلين عليه صلوات الله وسلامه، وقع غلاء مفرط فعدم الدقيق من الطواحين والأفران وحصل للناس هزاهز عظيمة فبلغ إردب القمح ألف درهم ففتح مولانا السلطان المؤيد شيخ صوامعه وأرسل للمشايخ في الخوانق والزوايا أرادب القمح ورتب في كل يوم عشرين ألف رغيف أبيض ليفرّق على الفقراء والمساكين والغرباء وكل ذوي الحاجات وأنا كنت في نهاية وجودي بالقاهرة في تلك الأيام بعد أن استغنى عنا أمير أخور السلطان وعدتُ مع بقية السراجين وفي جعبتي عدة أرغفة بيضاء".

تضحك صافية وتبادلها عفيفة الابتسام ولم يحرمهما صبور من تبادل الهزار فرفع سبابته وهو يقول:

– أخبرت جدتنا الكبيرة سندس أن الخبز الأبيض الذي أحضره جدنا عبد الله يبس وقرضه النمل قبل أن يأكلوا منه.

اتسعت ابتسامة عفيفة وانشرح صدر صبور لانبساط ابنته وطفق يقلب الأوراق وهو يوضح:

– هذه كتبها جد أبي عبد الله السرّاج ويبدو أن جدي لم يكن يهوى الكتابة فتلك الأوراق الأخيرة كتبها أبي أيام السلطان الأشرف إينال و...

لحظ صبور رغبة عفيفة في النوم بعد أن أغمضت عينيها برغم بداية النهار فرتب الأوراق وحملها خارجًا من الغرفة، أمام زيار السفينة الخشبي تقرفص، فرد ورقة عريضة، تأمل قنينة الحبر المملوء نصفها، في حذر رفع غطاءها وأقحم بجوفها ساق الخشب المدبب وطفق يكتب:

".. ذلك اليوم كان الاثنين وقد تم العام التسعمائة من الهجرة[17]، غادرت بيتي بأسيوط ناجيًا من بطش المجرمين الجراكسة في وقعة لم أرتكب جريرتها وها أنا وابنتاي عفيفة وصافية نسكن سفينة الشيخ حميد الفرشوطي ونهاجر إلى الفسطاط ونرجو أن نصلها قبل أن تضع عفيفة مولودها ابن الشهيد مصري".

أعاد صبور قراءة ما خطه بيده وهمّ أن يمزق الورقة لئلا يعثر عليها أحد ويعرف سبب فراره لكنه أقنع نفسه ببقائها، وضع الورقة فوق رفيقاتها وبرفق أدخل كل الأوراق في جرابها الجلدي، أحكم غطاء قنينة المداد ونهض ليطالعه حميد مقبلًا نحوه بخطواته الثقيلة، يهم بالوقوف لكن الريّس يشير إليه أن يواصل جلوسه وقعد جواره مستمتعين بأشعة الشمس الفتية، يشير إلى صبي بآخر السفينة فيقبل عليهما حاملًا طاولة عليها قدحان من الفخار تلتقط أنف صبور من البخار المتصاعد منها رائحة النعناع الساخن.

– اشرب يا شيخ صبور.

بكفيه يحيط صبور القدح فتستدفئ أصابعه، يرشف في التذاذ ثم يلتفت إلى حميد ويسأله:

– قرّبنا؟

– كله بأوانه نركن عند سمالوط وبعدها نرحل، عملنا يتطلب منا الوقوف والتحرك على طول النهر.

– وآخرك الفسطاط يا شيخ حميد؟

– نبحر شمالًا عند مفترق النيل وأعمل بنقل البضائع إلى دمياط ونعود بغيرها إلى القاهرة والصعيد.

– وزوجتك وأولادك؟

– بعد رجوعنا غانمين بإذن الله أستريح مع عيالي، ويقودها أخي إلى الجنوب للتجارة ونقل البضائع حتى قرب الشلال.

– تقصد أنك تنقل وتتاجر في الشمال و...

– وأخي حسين يباشر نفس العمل لكن في الجنوب.

قالها حميد ونظرته تقع على الكيس المركون جوار صبور، دون أن يسأل عاجله بالإجابة:

– الكيس به أوراق ورثتها عن أبي، عادة قديمة من أيام جدي الأكبر عبد الله السرّاج وهي كتابة الأخبار.

– الأخبار! أي أخبار؟!

– حكايات مرت بهم، فقد كتب الجد عبد الله عن أيام المؤيد شيخ.

– المؤيد شيخ؟ من سبعين سنة وأكثر وماذا كتب؟

– كتب عن شدة حدثت أيام السلطان المؤيد فأمر بتوزيع الخبز على الناس.

– آه، والسلطان قايتباي كل ما كان يهمه هو إتمام قلعته بالإسكندرية حتى أكمل بناءها.

– رأيتها يا ريّس؟

– قلعة كبيرة وأسوارها قوية وبها أبراج عالية ومكدسة بالجند.

– المهم، غرضي أشتري خبزًا عسلًا وجبنًا و...

– اشتر كل ما يلزمك وزيادة؛ لأن بعدها لن نتوقف إلا عند بر الفسطاط.

أنهى حميد شرابه ونهض فتتسع ابتسامة صبور ويلحظ جنوح السفينة نحو الشط، يحمل الكيس ويدخل الغرفة، يربت على كتف صافية، ويؤكد لها عدم تركها الغرفة فتهوّم برأسها، يطيل التحديق في وجه عفيفة الهادئ ويمنيها بالطعام حتى تستعيد عافيتها وتقدر على تحمل السفر.

***

من فتحة بين ألواح الخشب ترقب صافية عمال السفينة المستكينين في انتظار رئيسهم، أمالت وجهها فاتسعت ابتسامتها للأسماك الصغيرة المتقافزة في المياه الضحلة، التفتت ولم تلبث أن انتترت واقفة لأبيها المقترب حاملًا كيسًا كبيرًا يرافقه آخرون، تسحب الغطاء لتغطي كتفي عفيفة وتفتح الباب، تنتظر حتى يتجاوز أبوها السقالة الخشبية العريضة ويقبل نحوها فبادرت بحمل الكيس السميك فشعرت بثقله لكنها أراحته برفق جوار السرير، فتحت عفيفة عينيها فعاونتها صافية على النهوض ورافقتها إلى الكنيف فانشغل صبور في إعداد الغداء، حين عادت الفتاتان جلستا حول أبيهما ففتح صبور طاجنًا فخاريًّا مسبوكًا به الخضار وهبر من لحم الضأن، مدّ يده برغيف طري فتناولته عفيفة، وصافية كعادتها طفقت تأكل في نهم غير مكترثة بمن حولها.

– أهل سمالوط كرماء ومنهم من يبيع الطعام المطهي فوجدتها فرصة نأكل اللحم دون أن نتكلف طبخه.

– أنفقت دراهم كثيرة يا أبي!

– المال مخلوف يا عفيفة وقريبًا نصل إن شاء الله وأعمل في الفسطاط ولا شيء يعز عليك، المهم صحتك.

ما إن أتمّ كلمته حتى اهتزت الغرفة والأصوات تتعالى بالأمر لتحريك الدفة فأيقن أن السفينة ستبحر، قرعٌ على الباب فنهض ليفتح، تطالعه سيدة عجوز متشحة بالسواد فتلقي عليه التحية، تقدم له طبقًا به رمان فنهضت صافية وأخذته تطلب من السيدة مشاركتهم الطعام لكنها ودّعتهم بابتسامة رائقة وعادت إلى غرفتها بآخر السفينة، أغلق صبور الباب، يشجع عفيفة فيقدّم لها نسائر اللحم ويداعبها بأنه ليس لها وإنما لمن في بطنها، أنهى طعامه وأعاد إشعال بقية الأخشاب بالماجور، رفع أمامه واحدة من الرمان فأيقن من قشرتها الغامقة أنه مخزون منذ أيام بعد قطافه، ركن الثمرة الكبيرة وتمدد فاردًا قامته فهنأ بالغداء مع ابنتيه وشعر بالامتلاء بعد جوع وبطمأنينة حقيقية بعد خوف وما عليه سوى الصبر لأيام حتى ترسو السفينة ويبدأ حياة جديدة.

***

-٧-

إبحار السفينة لم يتوقف فرانت على صبور السرّاج سحب الطمأنينة بابتعاده، وآثر العزلة كما فضلها كل المرتحلين حتى السيدة العجوز التي كان النوتية ينادونها بأم سعد، وزوجها أبو سعد صامت طوال الوقت، لم يظهرا والتزما الخُن المخصّص لهما في مقدمة السفينة، انشغل صبور في رعاية بنتيه ولا سيما عفيفة التي كان يسرّي عن نفسها المنكسرة، وقد نبّه على صافية ألا تتعمّد إيقاظ أختها إن نامت؛ فالنوم يقصر ملل انتظار الوصول حتى كان أحد المساءات، وقف على حافة زيار السفينة الخشبي يتأمل الشمس الغاطسة خلف الجبل البعيد والأفق يودع شحوب الغروب إذا بصافية تخرج

من الحجرة زائغة العينين، في سرعة تجري ولسانها يلهج بكلمات متقطعة، دون أن يستفهم منها ركض نحو عفيفة النائمة على السرير الجريد والألم يرتسم على وجهها، تنفرج أسنانها المطبقة.

– يظهر يا أبي أني...

– لا حول ولا قوة إلا بالله.

بحيرة ما بعدها حيرة نطق بها واستدار في سرعة مشيرًا إلى صافية أن تبقى بجوار أختها حتى يتدبّر الأمر، تسارعت خطواته نحو الريس حميد الواقف قبالة عامل الدفة، أشار إليه أن ينتحي به جانبًا، أمال رأسه نحوه.

– بنتي يا ريس، تلد الليلة.

– ما في قلق يا شيخ صبور، حصلت قبل سابق وأولها ابني عبيد، أمه ولدته في المركب قبل ما نصل عند أمها.

– عفيفة أول ولادتها وأختها صغيرة وقليلة حيلة.

بصعوبة انفلتت كلمات صبور والقلق يطفح على وجهه وشفتاه ترتعشان فلمس الريس جزعه الحقيقي، ربّت على ظهر كفه ودون كلمة خطا نحو خن أم سعد ونادى، خرج أبو سعد فحادثه الريس في كلمات سريعة، غاب رأس الرجل وكأن دهرًا لا يريد أن ينقضي وصبور ينتظر والتفت نحو حجرته البعيدة، همّ أن يعجّل أم سعد لكن رأسها الملفوف عليه طرحة سوداء بزغ من فتحة الخُن وبيدها صرّة، لم يسع صبور إلا أن يشير إلى الحجرة فهومت السيدة وأسرعت وجميعهم خلفها، وصبور ملتصق بالباب، ابتلعت العجوز ريقها وأشارت إلى صافية المرتبكة أن تُنهض أختها فبادر صبور لمعاونة ابنته التي تكز أسنانها ألمًا، في سرعة فرشت أم سعد ملاءة نظيفة فاستلقت عفيفة ووجهها يزداد شحوبًا، دون أن تأمره أم سعد غادرهم صبور وأغلق الباب فطيّب الريس حميد خاطره وتحرّج من وقوفه فابتعد وبقي أبو سعد يتوكأ على عصاته الخيزران الغليظة، دفع صبور قيد خطوات وأجلسه جوار سور السفينة، يجاهد ليطمئنه.

– أم سعد فيها البركة وربنا يعطي بنتك ساعة من عنده وتقوم بالسلامة إن شاء الله.

– ربك هو الستار يا شيخنا، استرها يا كريم.

قرأ أبو سعد ما ارتسم على قسمات صبور من خوف والتياع على ابنته فآثر الصمت ومن حين لآخر يرفع كفيه إلى السماء ويدعو في خفوت، وصبور يكاد رأسه ينفجر من فرط التفكير وتمنّى لو تأخرت ولادة عفيفة يومين أو ثلاثة على أكثر تقدير لوصلوا إلى الفسطاط وهناك يكتري بيتًا فتلد فيه وهي مستريحة في حجرة وعلى سرير مريح، غير ضمان الماء الساخن للنظافة والحموم لا تلك

الغرفة الضيقة وسريرها المخلخلة عيدانه وفراشها العفن، أشاح بوجهه وضرب كفًا بكف ومن حين لآخر يسترق السمع فيتناهى له صوت أم سعد الآمر بما يجب أن تفعله عفيفة والأخيرة تتهنه في صوت بين البكاء والصياح المكتوم إلى أن انتتر صبور واقفًا لصرخة قوية أعقبها صمت مطبق لبرهة ثم علا مواء لا ينقطع فكان لبشاشة وجه أبي سعد أثرٌ مطمئن على نفسه المشروخة من وطأة القلق، عادت نبرة صوت أم سعد تعلو وهذه المرة سمعها صبور الواقف على قيد ذراعين من الباب المردود تأمر صافية والأخيرة بدورها لا رد لها غير "حاضر يا خالة، أمرك يا أم سعد" إلى أن ران الصمت مرة أخرى وانفرج الباب، على ضوء مسرجة صغيرة يبدو على وجه السيدة الإنهاك من فرط ما بذلت من جهد، بين يديها ملاءة عليها بقع كبيرة من الدماء فأخفتها خلف ظهرها ورفعت وجهها نحو صبور تطمئنه:

– الحمد لله، بخير لو غرضك تدخل لها ادخلْ.

– يا سلام يا أم سعد، بارك الله لك والله ربنا أرسلك نجدة من السماء.

– ما عملت غير الواجب، ربنا ينجيها بالسلامة، مبروك الولد.

هذه المرة لم يستطع صبور مغالبة دموعه الذارفة في غزارة وهو واقف لا يدري ما يفعل من شكر لأم سعد التي ربتت على كتفه وظهرت أسنانها البيضاء في العتمة وهي تقول:

– ساعة وأرجع لها.

خطت السيدة يتبعها زوجها وغابا وعلى ضوء الهلال النابت ودعتهما عينا صبور في امتنان، تارة أخرى رفع كفيه إلى السماء وحمد ربه، في رفق أزاح الباب ورمق صافية تقعى جوار السرير ووجهها مخطوف، ربت صبور على كتفها وحدّق في وجه عفيفة وهو يبارك لها:

– يا فرج الله، ألف مبروك الولد يا عفيفة.

في وهنٍ أمالت وجهها وانكسارات مرتعشة بدت على سحنتها، غامت ابتسامة صبور لهيئة ابنته السيئة وشعرها المنكوش غير رائحة الحجرة التي شعر أنها لا تُطاق فقرر في دواخل نفسه أن ينتظر حتى الصباح وتتحامل عفيفة على نفسها وتترك له الغرفة يكنسها ويمسحها بالماء ويسمح للشمس تدخلها لتتطهر ولدرايته بطوية ابنته القنوعة فقد اطمأن من صلابتها وتحملها للمشاق، لهب المسرجة المثبتة بالجدار يتراقص فجلس جوارها، أمالت وجهها نحو وليدها الملفوف في أقمطة بيضاء وإصبعه بفمه والآخر منتصب لأعلى.

– أم سعد الله يبارك لها عملت كل حاجة وقطعت الحبل ولفت الولد و...

– رأيك لو نسميه الريّس حميد.

تململ رأس عفيفة وهي تجاري دعابة أبيها بالإشارة إلى وجه صغيرها الغامق، سعلت في شدة فأنهضتها صافية وأمالت نحوها القلة، شربت قليلًا وعادت للاسترخاء على ظهرها.

– نسميه مصري

– لا يا صافية، نسميه أنس، مصري الله يرحمه كان يتمنّى أن يكون ابنه اسمه أنس.

– يبقى أنس ابن عفيفة.

– عيب يا صافية، هو أنس، أنس بن مصري.

هذه المرة لمح صبور السرور على وجه ابنته النفساء ومع اهتزاز رأسها أكدت رضاها، دق على الباب ففتحه، أطلّ وجه أم سعد المنشرح وبين يديها طبق فخار يتصاعد منه بخار البليلة المحلاة بالعسل.

– لازم تأكل لأجل تعوض دمها.

– أنت أم سعد وقدمك قدم السعد، عاجز عن الشكر يا ستي وتاج رأسي.

– اسكت يا صبور، الناس لبعضها.

برفق تنيم عفيفة مولودها وتعاونها صافية في القعود وتثبت حشية خشنة خلف ظهرها، بملعقة خشبية تقلب أم سعد البليلة لتبرد، تغترف القليل وتقربه من فم عفيفة التي تناولت ثم أشاحت برأسها.

– اغصبي على نفسك يا أم الولد لأجل لبنك ينز.

تارة أخرى أبعدت عفيفة وجهها عن الطبق وأبدت رغبتها أن تذهب للكنيف فاعتدلت في جلستها ونهضت في تثاقل، تأبطت ذراع صافية وساعدتها أم سعد في الخطو، وصبور أوجس في نفسه قلقًا على ابنته وضعفها وزهدها في الطعام، انتظر إلى أن خرجت عفيفة ودمعة تسيل على خدها من ألم جنبها والعجوز تطمئنها بأن وجعها يزول بمرور الوقت، ما إن أعادتها إلى السرير حتى أقبل أبو سعد وبين أصابعه كوب مده لزوجته فأخذته أم سعد وأمرت صافية:

– كراوية دافئة، مجرد ما يفتح الولد عينيه يشرب منه.

– قبل الكراوية وقبل كل شيء غرضي أشوف الولد.

– أمرك يا شيخ محمود.

برفق متناه حمل صبور حفيده فبدا من المولود انفراج خفيف بين رموشه وأنفاسه تتسارع، ضمه أبو سعد بين يديه وعفيفة تميل رأسها نحوه لا تدري ما يفعل العجوز بابنها لكنها ابتسمت حين سمعته يكرر التكبير والإقامة في أذنيه فاستبشر صبور الخير حين رفعه الشيخ نحو السماء ودعا له، تناول من جيب جلبابه تمرة وجرشها بين أسنانه وبطرف إصبعه أقحمها في فم الصغير الضيق وصبور مبسوط من تحنيك حفيده، أما أنس فقد استبسل في الاعتراض وحرّك رأسه مرات ثم أطلق إنذاره الأخير بالصراخ في وجوههم فتناولته صافية وجلست متربعة على أرضية الغرفة، برفق تشربه الكراوية فاستطاب أنس مذاقها وسكت، غادرت أم سعد يتبعها زوجها، وقفا قبالة صبور فرفعت السيدة إصبعها بأمر واجب تنفيذه:

– لازم تأكل، البنت ضعيفة.

– أمرك يا أم سعد.

– تنام الليلة وفي الصبح إن شاء الله تستحم بماء دافئ وأنا أحضر لها الطعام.

– والله يا ستنا جميلك لا أنساه طول عمري.

قبض صبور على كيس كتاني صغير ترن منه الدنانير وقدمه لأبي سعد وعلى ضوء المشعل المثبت بعمود السفينة بدت جهامة الرجل واحمرار وجهه، بقبضتها ضربت أم سعد كتف صبور في رفق، أشاح أبو سعد رأسه وهو يعاتب:

– تعطيني ثمن المروءة يا ولد؟!

– لا والله يا أبي، مروءتك أنت وستنا أم سعد لا توزن بكنوز الدنيا ولكن ثمن الطعام والأغطية و...

– ومساعدتي في ولادتها، قلها يا رجل.. يا شيخ صبور، عفيفة كبنتي.

– ولو أمها تعيش ما كانت تخدمها مثلك.

– الله يرحم الجميع، اهتم بأكلها وفي الصبح أزورها.

شعور عارم بالرضا انتاب صبور وهو يرقب العجوزين العائدين لمكمنهما، وأحسّ أن الدنيا حقًا بخير ما دام يحيا فيها مثل هذين المَلَكين، طفر وجه يوسف النحاس ومظلوم المسكين والسيدة جنة فضمهم مع خيرة من تعامل معهم وأيقن أن خالقه سخر له هؤلاء؛ لينجوَ ببنتيه وحفيده من مخالب المماليك.

***

أنينٌ خافت يوقظه فتباعدت رموشه رويدًا، استغرب أول الأمر وجود قط يموء بغرفة السفينة الضيقة ولم يستوعب ما مرّ به ليلة أمس وكأنه حلم لم يلبث أن انقشعت سحبه، اتسعت عيناه وأدرك واقعه، عفيفة نائمة على جنبها الأيمن ورضيعها بينها وبين الجدار، صافية يعلو صوت غطيطها، ينهض من فوره ويقترب من ابنته، تلتفت إليه فيبتلع ريقه لاصفرار وجهها، قبضة أنس المضمومة تتحرّك في توتر، يفتح فمه ويطلق بكاء الجوع، يساعد عفيفة على النهوض فتعتدل في جلستها ومولودها بين يديها، برفق تقرّبه من صدرها اليابس، أقحمت الحلمة بفمه فطفق يشفط ويشفط وعفيفة تنتظر نزول قطرات السَّرْسُوب، تارة أخرى أطلق الصغير بكاء الاعتراض على طعامه الذي لم يظفر به، ذرفت عينا عفيفة فربت صبور على كفها وفتح الباب، هواء أول الصباح يطارد ركود الغرفة الزهمة، تململت صافية في رقدتها ونهضت بدورها وظهرها يسنده الجدار، دون أن تفتح عينيها غمغمت بكلمات مبهمة، قبل أن يخطو فوجئ بأم سعد تقبل وبين يديها طاولة خشبية فتنفك انقباضات وجهه ويداخله الانبساط لوجود السيدة ذات الخبرة وخدمتها التي لا تضارع، تدلف وهي تهوّم برأسها ولسان حالها يقول: الولد لم ينزل جوفه شيء، دون أن تنطق تناولت أنس من بين يدي أمه، تربعت ومن الطاولة أمسكت بكوب الكراوية الدافئة وطفقت تميل الملعقة الخشبية الصغيرة نحو الفم المدوّر وأنس يهز رأسه مستطيبًا الطعم الحلو، غير مصدق أن ما يلامس شفتيه قد يسكت قرقرة معدته الخاوية، ظلت أم سعد تلقمه الشربة تلو الأخرى حتى أزبدت الكراوية على خده الناعم فزمّ شفتيه وانتظمت أنفاسه المتسارعة.

– لو كنا في البلد لقطعنا له في فرح محسنة بنت مصطفى ورقصتُ و...

في حدة لوى رقبته نحو صافية وكلماتها التي تفوه بها فابتسمت أم سعد وهي تريح الطفل جوار أمه.

– نختنه يوم فرحك يا بنتي.

أطرق صبور ولم يلبث أن خطا نحو أبي سعد القادم وبين يديه ماعون يتصاعد البخار منه، في سرعة حمله صبور من بين يدي الرجل فأشارت له أم سعد أن يركنه أمام الكنيف، حملت صافية ابن أختها وطفقت تناغيه في هدوء، في حين عاونت أم سعد عفيفة على النهوض وقادتها نحو الباب الخشبي القصير، تمنّعت أول الأمر لكن السيدة ذات الخبرة أصرّت على الدخول معها بعد أن تناولت صرّة الملابس من صافية التي جلست في زاوية تسربت إليها أشعة الشمس الدافئة، أقعى أبو سعد قبالة صبور وأتى له واحد من الشبان بعصاه الخيزران.

– من منفلوط يا شيخ محمود؟

– من بلد جنبها وكنت أزرع سبعين قيراطًا من الرمان على طول النيل.

– ربنا يبارك لك فيها.

– ولا يبارك فيمن تسبب في ضياعها.

– ضياعها؟

– المملوك القذر، استقوى على حُرمة وبرك على أرض يتامى جنب أرضي وفي يوم قام خدمه بحفر مجرى من النيل لأرضه وسط أرضي.

– وسط أرضك من غير استئذان.

– استغلّ انشغالي ببيع الرمان في القرى المجاورة وفعلها الخائن وبعزق الأرض، يومها ترجيته يردم المجرى، نهرني وضربني بالكرباج وهدّد بحرق داري إن بقيت في البلد ليلة واحدة.

– وحط يده على القراريط.

– ولا فيه شافع يشفع لي ولا قريب يدفع عني أذاه.

– وابنك سعد؟

– الله يسامحه ويستره، زوجته من دمياط، لم تطق السكن في الصعيد فحكمت عليه أنه يرافقها ويعيش عند أهلها هناك، يمكن لو عاش معنا لوقف في وجه الأمير مغلباي الكاشف.

– المملوك اسمه مغلباي؟

– بل بغل باي يا شيخ صبور، كان نكبة على البلد، أمير مقطوع لا تعرف له أبًا أو أمًا، تزوج مرات ويعيش كبغل لا نسل له وطمع الدنيا فيه.

– وسعد؟ لم يسأل عنك أو عن أمه؟

– ولا حتى عرض علينا نعيش معه في دمياط، هجرنا في شيبتنا الله يسامحه.

أطرق أبو سعد حتى لامست لحيته البيضاء الخفيفة عبّ جلبابه فأمسك صبور لسانه خشية الإثقال على الرجل وما ذاق من انتزاع أرضه وهضم حقه في الحياة في بلد ولد وعاش به، زاد حنق صبور على المماليك وتجذّر في نفسه أنه لم ير منهم في أي مكان إلا كل شر، سخر في قرارة نفسه من كلمة الشيخ محمود أن المملوك يريد أن تكون له ترعة تروي أرضه، في خفوت غمغم:

– أرضه؟ ورثها من بقية أهله المقطوع ابن المقطوع! الله يلعنه ويلعن من خطفه وباعه هو وبقية الخشداشية*18.

– أسمعك تتكلم يا صبور؟

– كنت ألعنهم يا شيخ محمود.

– آه، أشد ما يؤلمني أن أهجر بلدي، آه يا صبور، لو تعيش في منفلوط، بلد كله خير وفيه تتوقف القوافل في موسم الحج وطول عمرنا نزوّد الحجّاج وغيرهم من التجار بكل شيء لمواصلة سفرهم لبيت الله الحرام.

– ربنا يعوضك يا شيخ محمود ويبارك لك في الطيبة أم السعد.

وكأن الرجل لم يسمع دعاء صبور فالتمعت عيناه بدمعة محبوسة لكن من فرط تأثره سالت متعرجة بين أخاديد وجهه فمسحها بكم جلبابه، دون أن يلتفت فاه بكلماته في هذيان:

– جنينا آخر محصول الرمان وساعدنا أهل الخير بالناحية على رصه في الأقفاص ونقلها لسفينة الريس حميد.

– وبيتك وحاجتك؟

– بعت البيت وتصرفت أم سعد في بقية حاجاتنا واتفقت أنا وهي على السفر عند أختها الأرملة في ببا*19.

– أسمع أنها على النيل.

– وبيت أم سندس قريب من النيل.

– نصل كلنا بالسلامة إن شاء الله.

ما كاد صبور يتم كلمته حتى انفتح باب الكنيف وخطت عفيفة مطرقة، حول رأسها ملفعة سوداء وتسعل في حدة، في سرعة دخلت الغرفة وأغلقت على نفسها الباب، وقفت أم سعد تنشف يديها، تبتسم وهي تحدّق في صبور بعزم.

– نصحتها تغطي نفسها حتى لا تبرد وتركت لها فرخة مسلوقة تأكلها كلها يا شيخ صبور.

– سلمت يدك يا أم سعد وربنا يبارك عمرك ويحفظ لك الحاج محمود.

– ربنا يحفظه لشبابه ويبارك لي في صحته.

قالتها العجوز وهي تربت على ظهر زوجها المحدودب وابتسامتها تتسع، وصبور يفاجأ بهزار أم سعد مع زوجها الذي التفت إليها في حدة ورفع أمام وجهها عكازه المنتصب، ندت من صبور ضحكة رائقة لأول مرة يستشعر مرحها منذ سفره، سار العجوزان وأم سعد لا تكف عن التندر،

أطال صبور النظر على ظهريهما وهما يخطوان نحو الخُن وتمنّى لو تطول جلسته مع الرجل الطيب فيروي له ما جرى لابن أخيه وزوج بنته عفيفة وما وقع له قبل لجوئه إلى السفينة لكنه أقنع نفسه بأن أيام الرحلة طويلة ولا بد أن يلتقيه مرة أخرى.

صافية جواره تشم رائحة الماء ومن حين لآخر تلقي نوى التمر وهي تشير إلى الأسماك السابحة، التفتت إلى أبيها وتصنّعت الاهتمام:

– أم سعد أخفت المشيمة في كيس صوف!

– يمكن غرضها لما نصل لأقرب بر يدفنها واحد من عمال السفينة.

– آه لو كنا في الدرب لأمرت فهيمة العرجاء تخطي على المشيمة وتحمل و...

– فهيمة متزوجة من أربعين سنة تخطي على المشيمة وتحمل؟ ارحمني يا رب، ما لتفكيرك يا صافية، اعقلي يا بنتي.

تقرن حاجبيها لغضب أبيها من كلامها، تفرد كفها حتى لا يقرعها بكلماته، تستدير وتدخل الغرفة فيرفع وجهه إلى السماء داعيًا لها بصلاح حالها.

***

الشمس سارحة نحو عرينها مخلفة وراءها أطيافًا من شفق أحمر يتمطّى شحوبه على امتداد الأفق، يمد صبور نظراته ليستقي من لحظات غروب النهار طمأنينة قرب وصولهم، استراح قلبه لتيسير فراره، فأغمض عينيه وحمد ربّه لولادة عفيفة التي كان يحمل لها همًّا لا تطيقه الجبال وهم في سفينة تشق مياه النيل، أغمض عينيه وقرر ألا يفكر في أي شيء غير العناية بابنته النفساء ورعاية حفيده، انشرح صدره واتسعت ابتسامته ملء فكيه حين طفر وجه أنس أمامه وهو يهز ذراعيه كأنه يتشاجر مع أحد أو يبارز فارسًا، استوحش رؤيته فهمّ أن يدخل الغرفة لولا انفتاح الباب فجأة وخروج صافية وعلى سحنتها ارتباك.

– عفيفة حامية.

سبقها صبور وفرد كفه على جبين ابنته فشعر فعلًا بحرارتها، سحب منديله ومن القلة أغرقه بالماء، فرده على جبينها فتأوّهت وتباعدت رموشها رويدًا، تتأرجح عيناه بينها وبين أنس النائم لا يكاد يبين وجهه من بين أقمطته، يعيد الكرّة فقطبت عفيفة حاجبيها وعلى ضوء المسرجة المعلقة لمح في وجهها ضعفًا وخمولًا وشحوب جلدها على عكس ما اطمأن به بعد استحمام الصباح، التفت نحو صافية فلم يجدها وتناهى لمسامعه وقع أقدام مترنحة لم تلبث أن اقتربت فاقتحمت أم سعد الغرفة

الضيقة وعلى الفور أفسح لها صبور لتكشف على ابنته، برفق حملت أنس النائم وناولته لخالته الواقفة قرب الباب، حدقت في وجه عفيفة وسألتها:

– ما لك؟

– وجع في بطني وصداع وما قدرت آكل حاجة من العصر و...

برغم ضعفها لكنها نهضت في سرعة إلى الكنيف، فهومت أم سعد بوجهها وتركت الغرفة إلى الخن البعيد، خرجت عفيفة وهي تقوّس ذراعها حول بطنها فظن صبور أن ما تمر به من أعقاب الولادة، عادت للاستلقاء على ظهرها وهي ترمق أنس بعينين منكسرتين، أعاد صبور تغطيتها بالحِرام الثقيل، أقبلت أم سعد وطلبت من صبور إشعال نيران الماجور ووضع التتكة عليه، لم يتوان ونفذ ما أمرت به، غطست أم سعد خرقة القماش في الماء وفردتها على جبين عفيفة فعضت شفتها، مالت العجوز على أذنها وهمست:

– مطحون قشر الرمان يوقف الإسهال والنعناع يخفّف الحمّى.

– جسمي كله يوجعني.

دسّت أم سعد يدها وتحسّست صدر عفيفة، جحظت عيناها لتسارع دقات القلب، غيّرت الخرقة بأخرى، لكن هذه المرّة رفعت ذراعها وأقحمت الخرقة المبلولة أسفل إبطها، العتمة المطبقة أخفت عن صبور انتفاض عفيفة وارتعاش شفتيها، فكت أم سعد رباط لفة صغيرة ووضعت القليل من مسحوق الرمان مع ملعقة عسل النحل، سكب صبور الماء وقلبته أم سعد، قرّبت من فم عفيفة طرف الصحن الفخاري وهي متكئة بكوعها على الوسادة، لم تطق حسو الترياق لكن العجوز أكدت لها أنه يشفيها فغصبت على نفسها وصبرت أم سعد عليها حتى آخر رشفة.

– لازم البنت تأكل وبعد ساعة تسقيها منقوع النعناع.

تركته أم سعد وسارت تتحسّس طريقها، أغلقت صافية الباب؛ حتى لا يصاب ابن أختها بالبرد، رفع صبور رأسه لصوت مؤذن العشاء من بعيد، تأمل النجوم المنثورة بقبة السماء المعتمة، أطرق رأسه والحيرة تأكل نفسه مما أصاب ابنته، أوصاله ترتجف، البرد يهرئ جسمه ويشعر به يخترق عظامه فتدثر بالعباءة ودخل الحجرة، جلس وهو يحصر ذقنه بين ركبتيه، لا يدري كم انقضى من ساعات وهو على حالته يغفو تارة وينتبه أخرى ويغلبه النعاس ثم يستيقظ إن مال على الأرض وصافية ممددة وشخيرها يعلو من حين لآخر حتى حملت الريح صوتًا بعيدًا أيقن صبور أنه أذان الفجر فتململ وواجه إبليس النوم الجاثم على صدره.

في هدوء نهض، ذراعا أنس تتحركان وصوت مناغاته الخافتة يعلو حتى استحال إلى صراخ، برفق رفعه صبور، هزهزه فسكن قليلًا ثم صاح، قعد متربعًا، الكوب به القليل من الكراوية، قرب منه

صبور المسرجة وصبر حتى سخن المشروب قليلًا وشرع في تقريب الملعقة من الفم المدور كما فعلت أم سعد حتى أنهى ما في الكوب، شعر بالبلل أسفل القماط فقرر أن ينيمه جوار أمه وفي الصباح تغير له صافية في دفء الشمس.

حين هم بالخروج تناهت له أنفاس عفيفة العميقة، فلم يشأ أن يضع يده على صدغها فتستيقظ، أطلّ بوجهه فصفعه تيار الهواء البارد لكنه شعر بالفرق بين الغرفة المكتومة برائحتها التي عجز عن وصفها وهواء النيل المنعش فوارب الباب قليلًا؛ ليجدد جو الغرفة، أمسك طرف الحبل ورفع الدلو الخشبي وهو يحذر أن يميل فيسكب الماء في النيل، تكاسل عن إشعال بقية عظام الذرة والحطب بالماجور الصغير فتوضأ بالماء البارد، أنهى صلاته قبل انبلاج الصبح، تراجع بظهره حتى ارتكن جوار الباب ورفع كفيه ودعا لعفيفة بالتعافي من نفاسها ولأنس بطول العمر والصحة، إلى الوراء أمال رأسه، ابتسم لأصوات صافية التي اعتاد سماعها وهي نائمة فأسبل عينيه وتارة أخرى دعا لها باكتمال عقلها وتدبرها للأمور.

***

-٨-

على كرسيه الواطئ يجلس بدكانه وبيده المخرز يثقب به جلد السنور ليخيطه، أهل درب النحاسين يروحون ويجيئون وصافية تنط وهي تلعب الحجلة وسط البنات، يبتسم لمظلوم المسكين وهو يجر الربابة ويغني تارة وتارة أخرى يحكي قصص أبي زيد الهلالي والزناتي خليفة والصغار يلتفون حوله، ينهي حياكة الجلد المُرقّش بالسرج وحين رفعه بين يديه هرع الناس في الدرب وانفضت اللمّة من حول مظلوم، التصق الجميع بجدران البيوت والحوانيت لاقتحام الفارس الدرب الضيق وحصانه بلا سرج ولا لجام، لا يدري سببًا لاختلاف الشاب ذي الوجه القمحي وملامحه المنحوتة بصلابة عن بقية الجراكسة، فوجئ بالرجال يهاجمونه والأيدي تقتنصه من على ظهر فرسه، اخترقهم صبور وهو يزعق في أهل الدرب ويزيحهم بعيدًا عنه والشاب يقبض على شعر رقبة فرسه، يرفع صبور السرجَ الثمين ويضعه على ظهر الفرس ويحكم ربط السير الجلدي، يشبك أصابعه كي يضع المملوك حذاءه عليهما لكن الفارس رفع يدي صبور وقبلهما، وبوثبة واحدة امتطى صهوة جواده وغادر درب النحاسين فيعود التجار لدكاكينهم ويغني مظلوم المسكين على أنغام ربابته وما إن يقعد صبور حتى يفز واقفًا لعفيفة الواقفة أمامه ببطنها المكوّر وقلبها مطعون بخنجر حاد.

آه.. أطلقها ورأسه يتململ في حدة، انتفض من رقدته وأنفاسه تتلاحق، رفع عينيه إلى السماء فلم تزل عتمة الفجر مطبقة فأيقن أن سِنة من نوم أخذته فاستعاذ وحوقل والتقط نهاية حلمه الهارب واختلاط أوهامه، هدأ وعاد يتذاكر أولِ ما رأى وحمد ربه أنه كان حلمًا، لا، لا، كابوسًا، دار ما مرّ به وحين ومض مشهد عفيفة هبّ واقفًا ويده على باب الغرفة، تردد ثم أحجم عن فتحه، أعاد لف العباءة على جسمه ومن الزكيبة القصيرة تناول عظام الذرة اليابسة ورصها ببطن الماجور المملوء

نصفه بالرماد، خطا نحو مشعل مثبت بعمود السفينة وضوؤه يرعش الظل، توهج وقود الماجور، مد يديه نحو أوار النار، آهة محمومة تناهت لمسامعه فالتفت من فتحة الباب، قرر أن ينتظر حتى يبزغ النور وأكد لنفسه أن أم سعد ستأتي للاطمئنان على عفيفة لكن الآهة الثانية المصبوغة بالخشونة دفعته لأن ينهض ويدفع الباب أكثر.

لا تزال صافية تغط في نومها وعفيفة على جنبها الأيمن ووجهها نحو أنس النائم في استكانة، انتزع المسرجة الفخارية ورجّها، القليل من الزيت يفي بغرض إضاءة الغرفة لحين بزوغ النور، أشعلها وثبتها بالمسمار المدقوق جوار الباب، مال نحو ابنته، لا يدري لمَ شعر أنها تغمغم بصوت خفيض، فرد كفه على جبينها فجحظت عيناه لسخونتها الشديدة، قرّب أذنه من فمها فسمعها تهرّف من فرط الحمّى:

– مصري، أنا معك يا زوجي، أنس يا أبي، احفظه.

في ارتباك دلق الماء من القلة على خرقة القماش وطفق يمسح وجهها وجبينها وبرجله رفس كتف صافية ونخس جنبها فأطلّت بعينين قلقتين، نهضت وانثنت على أختها، تركهما وتسارعت خطواته نحو خُن أم سعد، نادى وانتظر وهو يضرب كفًا بكف ولا أحد من عمال السفينة انتبه لجزعه، قبل أن يكرر نداءه رفع أبو سعد الباب المستوي وبزغت عمامته.

– أرجوك يا حاج محمود، أحتاج أم سعد.

غاب الرجل واستبطأ صبور خروج السيدة حتى همّ أن يطل عليهما لكن أحجمه الحياء من النظر إلى مخدع العجوزين، أخيرًا أطلت أم سعد وهي تنفض النوم من عينيها.

– البنت حامية يا أم سعد.

- يا ساتر استر يا رب، كنت ناديت عليّ من...

لم يدع لها فرصة لتكمل فعاونها على الخروج وقادها نحو الغرفة، دخلت وهو خلفها، في عنف هز صافية فنهضت من فورها، رفعت أم سعد أنس وأعطته لخالته، طلبت منهما الخروج، خطت صافية وهي تضم ابن اختها على صدرها وشفتاها ترتعشان من تيار أول الصباح البارد، تميل أم سعد عفيفة وبإصبعها تسحب جفنها، تدس كفها على صدرها وتميل خدها.

– تنفسي يا حبيبتي.

بصوت مرعوب متهدج فاهت بها في اضطراب فسقط قلب صبور بين ضلوعه واقتحم الغرفة يهز عفيفة ولا يصدّق أنها منذ لحظات كانت تتمتم فلماذا لا تنهض الآن، أم سعد رفعت ذراع الفتاة لأعلى فسقطت، لطم صبور وعلا صوته باسم عفيفة وصرخة صافية المدوية دفعت عاملين لأن

يهرولا، تداخلت الأصوات بين نحيب صافية وزعاق صبور وأبو سعد يحاول شده بعيدًا عن سرير عفيفة، ثلاثة عمال انضموا إلى اللمّة يتساءلون، أفسحوا الطريق لريسهم المقبلِ في سرعة وقبل أن يستفسر أخبره واحد من نوتيته أن ابنة المسافر الأسيوطي ماتت، فضرب كفًا بكف وهو يحوقل ويترحّم، بالحِرام الصوفي غطت أم سعد وجه عفيفة ودفعت صبور إلى خارج الغرفة وأغلقت الباب، أشار الريس لعماله أن يعودوا لمواقعهم بالسفينة، ضمّ صبور إلى صدره فانخرط في نوبة بكاء، وحميد يربّت على كتفه ولا يملك غير كلمات تطيّب الخاطر والصبر حتى يهدأ ويخبره بما يجب فعله، في حزن عميق سحّت أم سعد الدموع من عينيها وهي تلف ذراعها حول كتفي صافية الجزعة وكأن أنس شعر بما يجري حوله فصرخ معلنًا عن مشاركته فجيعتهم برحيل أمه.

أرادت أم سعد أن تأخذه فزمته صافية إلى صدرها وهي تهز كتفيها ممتنعة عن التفريط في ابن أختها، جرتها أم سعد نحو الخن والكلمات تتبعثر على شفتيها بأنه يجب أن تغير للولد وتسقيه شيئًا، ببطء مشت معها وبقي صبور بين أبي سعد والريس حميد، انهار بين أيديهما، بكفيه يخبط أرضية السفينة ويهذي بكلمات اللوم على نفسه وتقصيره في رعاية ابنته، جلسا حوله والريس يربت على كتفه حتى فوجئ بالشيخ محمود يعلو صوته:

– اهدأ يا صبور لندبّر حالنا.

هز الريس حميد رأسه مؤيدًا أمر العجوز واستدرك صبور واقع المعضلة التي يقاسي ألمها الممض، بكم جلبابه مسح دموعه فتأمّل الريس وجهه المتورّم وعينيه الحمراوين فأطبق الألم على صدره وأشار للشيخ أن يترفّق ويتريث قليلًا، انتظرا حتى رفع صبور رأسه في انكسار وازدرد ريقه في صعوبة، بيدٍ مرتعشةٍ تناول القلة التي مدها له حميد وشرب.

– صل على شفيعك يا شيخ صبور، باقٍ يومان وزيادة على الفسطاط وأنت عارف أنه لا يمكن ترك بنتك.

لم يبد من صبور أي اعتراض أو موافقة على ما قاله ريس السفينة وشعر في جوانب نفسه بقلة الحيلة وأنزل عليها أشد التقريع واللوم لتركه أسيوط والسفر بعفيفة وهي على ما عليه من قرب الولادة وكانت أم يعقوب زوجة يوسف النحاس وأخته مسعودة وكل سيدات درب النحاسين سيرعينها ويغيرن لها ملاءتها كل يوم ويجهزن طعامها اليوم بطوله لا هذه الغرفة الباردة بسريرها المتهالك بمرتبته الزنخة، ندت عنه آهات التوجع على عفيفة وشبابها وبرق أنس اليتيم فسالت دموعه وبصوت مشروخ سأل:

– أنس، أنس.

– الولد مع خالته وأم سعد تغير له وتطعمه، تماسك يا صبور واسمعني.

– أمرك يا عم محمود، سامعك يا ريس حميد.

– حصل مرّة أن واحدًا من أهلنا بفرشوط سافر مع جده ليعالجه بالبيمارستان أو مشفى جامع السلطان حسن، مات الرجل في السكة فطلب مني أن تقف السفينة عند أول بلد ودفناه هناك.

– وكلها أرض ربنا.

– والفشن[20] نصلها إن شاء الله قبل الظهر، وقرب المرسى فيه زاوية[21]على النيل أعرف إمامها وهناك نقوم باللازم.

– ممكن نغسلها هنا و...

– هناك ماء السبيل جنب الزاوية والإمام يدبّر لنا الكفن والقبور قريبة.

أمسك الشيخ محمود بتلابيب العباءة ولفها على جسم صبور، بعين منكسرة رمق الباب المغلق فنهض.

– أقعد معها.

– يا ولدي لا تقعد معها ولا تقم، اتركها تستريح وادعُ لها بالرحمة والمغفرة، البنت شهيدة والله شهيدة.

قالها أبو سعد وشفتاه ترتعشان في حزن حقيقي على الفتاة التي لم تبلغ العشرين وفقدت زوجها كما روى له أبوها ويهاجر فارًا بها وبأختها من المماليك ثم تعاني وجع الولادة ولولا أم سعد لكان حاله أسوأ حال وتموت بالسفينة ويُقضى عليها بأن تدفن بأرضٍ غريبة.

– ما أهون البني آدم، استرها معنا يا رب.

– صحيح يا شيخ محمود، والحمد لله على كل حال.

قاده الريس حميد بعيدًا، وأبو سعد يشير إلى الخن، كلما اقترب تناهى لمسامعه بكاء أنس، وقف منتظرًا فصفق أبو سعد بيديه ولم تلبث أن صعدت زوجته، تربّع صبور وتناول حفيده، ألصق خده الناعم بوجهه فتملّص أنس حين استشعر خشونة لحية جده، أراحه على حجره ودثره جيدًا، التصقت صافية في جلستها بأبيها فأحاط كتفها بذراعه ولا تزال

دموعها تسيل مغرقة خديها، خطت أم سعد نحو الغرفة ورآها صبور تدخلها وتغلق خلفها الباب، عادت وبيدها لفّة صغيرة مدتها إلى صبور ففرد المنديل وهز رأسه للخلخال الفضي والعقد الذهبي وفردتي القرط والخاتم، ربط المنديل وأقحمه بجيب الصدار، أومأ للسيدة الطيبة التي حملت عنه مشقة الاستعداد

لنقل عفيفة مجردة من الزينة حين ترسو السفينة بساحل أول بلد على ما أخبره حميد.

بقوا صامتين حتى علت الشمس فجمع الريس النوتية وألقى عليهم أوامره، مالت دفة السفينة نحو المرسى وتوقفت خلف سفينة أخرى أصغر منها، مدّ العمال الألواح الخشبية العريضة وربطوها جيدًا بالحبال، راقب صبور الريس حميد واثنين من نوتيته وهم يصعدون المدق نحو جدار على النيل وحين دقّق نظراته تبين ارتفاع مئذنة صغيرة لها فتحة باب قصيرة تسمح لرجل واحد بالطلوع والأذان، أيقن أن الريس بحكم ذهابه وإيابه حفظ طريقه النيلي عن ظهر قلب وها هم بساحل الفشن على ما ذكر، لم يبال صبور بما يفعل الريس فقد وقعت خسارته وانتهى الأمر وأدار الموقف بين تلافيف تفكيره فوجد الأنسب هو ما عرضه أبو سعد وحميد.

لم يطل الوقت وأقبل حميد والعاملان يحملان نعشًا خلفهم يتوكأ شيخٌ ذو عمامة انتظر أمام السقالة الخشبية، تعاون بقية العمال في سحب الصندوق الفارغ وفي سرعة ركنوه أمام الحجرة وابتعدوا، تناولت أم سعد أنس من صبور فنهض وبخطى ثقيلة سار نحو الغرفة المغلقة، تبعته صافية ونشيجها يعلو، بكفه أزاح الباب وخطا، وقف أمام ابنته فارتمت صافية عليها تهزها وعاد بكاؤها العالي، لم يرد صبور أن يطيل الوقت أكثر فأحكم لف الجسد الصغير وحمل ابنته بين يديه، استدار وأراحها بجوف الصندوق، زيادة في سترها فرد الريس حميد الحِرام فتغطت حواف النعش، تارة أخرى حمله العمال وبرفق تخطوا السقالة الخشبية فأطلقت صافية صرخة شقت بها صمت المطرح وتسارعت خطواتها نحو السقالة فأمسك صبور بمعصمها فرافقته صاعدة معه المدق.

إلى حيث أشار إمام المسجد توجه العمال نحو منظرة مجاورة للزاوية، وسطها ركنوا الصندوق وغادروا على الفور، إحدى السيدات المتشحات بالسواد أغلقت الباب، دعاهم الشيخ إلى الاستراحة على الدكك المجاورة للمسجد الصغير، واحد من رجال البلد قدّم لهم قُلل الماء، أراد الشيخ محمود أن يقطع صمت الجلسة:

– ربنا يجزيك كل خير يا شيخ...

– شعيب، وأنتم يا حاج؟

– من أسيوط.

– مرحبًا وربنا يرحم موتانا جميعًا.

– نشكرك يا شيخ شعيب.

– لا شكر على واجب يا حاج، والبقاء لله وحده، بشرة خير لمن يلقى وجه الكريم يوم جمعة، ويدعو له كل المصلين.

الجمعة، رّنت الكلمة في أذن صبور وضيق عينيه للأيام التي سقطت من حساباته فنسي متى خرج من درب النحاسين واليوم الذي توقفت فيه السفينة، وانشغاله في رعاية عفيفة وولادتها وها يوم فراقها قد حان، صمت ولا تزال صافية ملتصقة تحت ذراعه وكأنها تحتمي بجناحه خشية مفارقته، لم يكد يقف المؤذن أعلى المئذنة ويرفع صوته بأذان ظهر الجمعة حتى انفتح باب المنظرة وأشارت سيدة من بعيد فتسابقت الأيدي في حمل النعش المغطى بملاءة خضراء وأشار لهم الشيخ شعيب إلى حيث يودعونه لحين الانتهاء من خطبة الجمعة، ترك صبور صافية في الميضأة توضأ وجلس بآخر المسجد جوار ابنته حوله حميد وأبو سعد ونوتية السفينة.

الوقت يمر وإمام المسجد يلقي خطبته وصبور في حالة من الذهاب، عادت به ذاكرته لشهور قليلة مضت حين أتوه بمصري، كان أيضًا يوم جمعة، لاحظ الريس حميد اعتدال صبور في جلسته وانكسار تقاسيم وجهه الجهمة، يدري ما يقاسيه صانع السروج الهارب من بلده من وطأة محنة قاسية يرزح وسط نيرانها، بالدعاء انتهت الخطبة وكل ما وعاه صبور أنه قام وسطهم وبعد أن سلم الإمام دعا لصلاة الجنازة فتشارك الجميعُ، خمّن أبو سعد أن من بالمسجد سينفضون إلى بيوتهم لكنه فوجئ بكثير منهم تسابقوا في حمل النعش ورافقوهم في المدق الترابي المؤدي للمقابر وصبور يقوّس ذراعه حول كتفي صافية التي تجر رجليها وهي تتهنه وأوصاها أبوها بألا تصرخ عند المقابر.

ما إن وصلوا إلى منامة منزوية مبنيّة بالطوب الأخضر22، حتى جدّ الرجال في كشف فتحتها وحين أمالوا الصندوق صرخت صافية في جزع، فردوا الملاءة فدلف الجسد المطواع تفوح منه رائحة الحنوط، سحبوا النعش الفارغ ومن حين لآخر يعلو صوت آدم اللحّاد فيأمر بتوفير الرمال على طول الجنبين حتى أنهى مهمته وخرج خلف رجلين، سدوا الفتحة بالقوالب النيئة وأهالوا عليها التراب وصبور يرمق المصطبة المنخفضة بعينين ذاهلتين بعد أن سلّم أمره لله، فماذا كان يمكن أن يحدث لو أنه هو الذي دفن اليوم؛ ستواجه البنتان بهدلة بعده فهو وحده يعرف مكان زيتون الذي سينزل عليه فقد تتسولان لقمة العيش أو تضيع إحداهما من الأخرى.

استدار مع بقية الرجال يحيط به أبو سعد والريس حميد ونوتيته، وقفت صافية خلف أبيها واصطف المعزون يسلمون على صبور والريس حميد وعمال السفينة إلى أن فرغوا فربت الريس على كتف صبور ليشجعه على مغادرة المطرح يتقدمهم الشيخ شعيب فنظر إليه صبور بكل امتنان لمروءته النادرة وصنيعه الذي يحتسبه عند الله من ستر ميت غريب، يد سمراء معروقة تمتد إليه فصافحها بكفه الباردة، وجه اللحّاد الذي ينادونه بالشيخ آدم يلمع يشد على يد صبور ويمط شفتيه.

– ربنا يصبرك، والله ما أرحت أمانة مطيعة مثلها، أعز الناس لحدتهم وكلنا ننزل هنا فلا حيلة في الرزق ولا شفاعة في الموت.

كم من أخ لي صالح وسّدته بيدي لحدا

أطبق الشيخ السبعيني شفتيه فأطرق صبور وسار خطوتين ثم أجفلت قدماه ولوى رأسه ملقيًا نظرة أخيرة على المنامة فدفعه الريس حميد برفق ليعودوا إلى السفينة.

***

-٢-

أوجاعُ الفراق

-١-

على جواده البوز الأكاديش23 تعلو عمامته الثمينة وهو يتبختر به بين النخيل، خلفه عبدان يسيران على قيد خطوات منه، يقطب حاجبيه مستغربًا الجمع المبتعد عن المسجد الصغير المطل على النهر، يحملون على أكتافهم نعشًا مغطى بملاءة خضراء، لم يبال ومضى، مالت نفسه أن يلتفت إلى الخلف ليرقب الجنازة، لكنه خشي أن يلحظ خادماه انقباضات وجهه وقلة حيلته وهمّه الذي دفعه للابتعاد عن قصره البعيد الرابض بين تخوم الزراعات والجبل، في تؤدة أدار اللجام نحو المدق الترابي بين الغيطان إلى أن أوقفه على حافة النيل، أغمض عينيه وأفسح لصدره ليستنشق أنفاسًا عميقة لعلها تطرد الضيق المطبق على روحه، بقي ساكنًا والخادمان المسلحان يقفان على مقربة منه، الريح الباردة حملت صوت مواء متواصل، تلفّت حواليه وهمّ أن يأمر أحد خادميه أن يبحث عن ذلك القط ويأتي به، لم يبال وراقه المدى الفسيح للماء، استحال المواء إلى صراخِ مولود فأشاح برأسه ظنًا منه أنه بقية من صدى بكاء ابنه يطن في أذنه لكن الصوت يتعالى ففتح عينيه في قوة وصوّبهما نحو السيدة المولية له ظهرها وتهز كتفيها وهي تهدهد الصغير بين ذراعيها.

ترك صهوة جواده فجرى الخادمان يقبضان على اللجام الجلدي العريض، أشار لهما ألا يصدرا أي صوت ولا يتبعه أي منهما، مال بقوامه الممشوق حتى استقبل السلم الحجري للمرسى، نزل في هدوء وكأنه لا يريد أن يلفت نظر السيدة المنكبة على لفة صغيرة، تخطى السقالة الخشبية وحين وقف بالسفينة تلفت وأمسك مقبض سيفه، سار نحو السيدة التي تبين له من انحناءة جسمها وجانب وجهها أنها عجوزٌ، دق كعب حذائه الجلدي الثمين فشعرت به أم سعد واستدارت وهي جالسة وأنس بين يديها، قطب حاجبيه للدموع العالقة على خدها، في تثاقل تحاملت واستندت على الزيار الخشبي ونهضت، لا تدري سبب وقفة الرجل الغريب بسرواله الأحمر وقميصه المزركش وعباءته الفضفاضة، حول رقبته فرو غالٍ، حدّقت في غمد سيفه المرصع والمقبض العاجي فخمّنت أن يكون واحدًا من كبراء الجراكسة أو تابعًا لأحد أمرائهم يريد الريس حميد في شيء.

– الريس حميد غير موجود.

لم يبال بالخبر غير الهام له وتفّرس في هيئة السيدة وتلفت يمينًا ويسارًا ومطّ شفتيه لخواء السفينة من عمالها، مدّ عينيه نحو الحبل الغليظ الممتد نحو جذع الشجرة فأيقن أن السفينة راسية لبعض الوقت، أشار بإصبعه الأبيض نحو أنس وسأل في تهكم:

– الولد.. ابنك؟

– الله يكرم أصلك يا ولدي، الريس حميد وجِد الولد وكل من بالسفينة بالجبل ليدفنوا أم الولد.

– الولد يتيم؟

سألها الأمير وهو يتصنّع التأثر، مدّ يديه الكبيرتين وأصابعه مزينة بالخواتم، ترددت أم سعد أن تعطيه أنس المتوقف عن البكاء بعد أن ملأت جوفه بالقليل من الشراب، سمعته يتمتم بـ: يا حرام، مولود من يوم أو يومين.

حسبت أم سعد الرجل سيحسن على الولد ويقبّله ثم يعيده إليها فأعطته إياه ولم يخيّب الأمير ظنها فضمه إلى صدره وشمّ شعر رأسه في خدر، خلع من خنصره أصغر الخواتم وقربه من أصابع أنس فضم الصغير قبضته عليه، دقّ قلب أم سعد واستأنست بالغريب الثري فوقفت قبالته وهي تروي:

– يتيم الأب والأم يا عيني، مات أبوه من شهور وأمه أصيبت بحمّى وماتت بعد ولادته.

تارة أخرى يقبّل الأمير خد أنس بلونه الوردي ويلحس بطرف لسانه جلده الأملس، رفع وجهه تجاه أم سعد وضيّق عينيه الزرقاوين فلم تطمئن لنظراته الثعلبية الماكرة ورأت أنه يكفي ما قام به من إهداء أنس خاتمًا ثمينًا، مدّت يديها لتستعيده فرجع الأمير بظهره إلى الوراء وبكلمات باردة يلطمها:

– أعيده لأمه.

استدار موليها ظهره فوجمت أم سعد وخطت في سرعة لتحول دون أخذه الولد، صاحت والدموع تنهمر على خدها، وأمسكت بذراع الأمير فأبعدها في قوة ومن شدة الضربة ارتمت على أرضية السفينة فبحّ صوتها وهي تستجير ولا سامع يغيثها، تحاملت ونهضت وتارة أخرى جرت وراء الأمير وتعلقت به فأزاحها، تشبثت بساقه فركلها، لم تيأس وقامت لكن سهمًا انغرز بكتفها فصرخت مرتمية على الأرض والأمير نفسه تملكته دهشة ممزوجة بالغضب مما حدث، فالتفت وإذا بواحد من الحارسين يتخطّى السقالة في سرعة ويقف على مقربة منه والقوس في يده.

– أنت بخير يا أمير ططر!

جحظت عينا الأمير وارتعشت شفتاه وتملكه غضبٌ عارم لإصابة العجوز فصاح في الشاب الأسود:

– يا حيوان، اعمل لها حاجة.

خطا العبد نحو أم سعد الملقاة على جنبها تئن وحين اقترب كتمت أنفاسها، بقوة أمالها الحارس ولما رأى وجهها ساكنًا والسهم منغرز بأعلى كتفها نهض من فوره وفي لهوجة تلعثمت حروف كلمته وهو يخبر سيده:

– ماتت.

– الله يلعنك يا نذل، تقتل حرمة؟!

هوّم العبد برأسه وابتلع ريقه ويرجو من الأمير ألا يوقع عليه العقاب وهو المتفاني في حماية سيده حتى وإن كان من يلمسه عجوزًا في عُمر جدته، خطا والعبد خلفه يؤمّن ابتعاده عن السفينة حتى صعدا الدرج الحجري للمرسى، برفق حمل الخادم الثاني المولود النائم وما إن استراح الأمير على سرج فرسه المبطن بوبر الجمال حتى استرد اللفة الصغيرة من الخادم الذي صوّب نظرات اللوم على رفيقه لقتله عجوزًا ضعيفة لا ذنب لها إلا أنها كانت تحمي طفلًا، بذراعه اليسرى يحتضن الصغير وباليمنى يشد لجام الفرس ويديره مبتعدًا عن المرسى والزاوية ومنظرة الشيخ شعيب، والخادمان يهرولان خلف ذيل الفرس ومن حين لآخر يرمق الشاب رفيقه بغيظ ويود لو أنه يكسر القوس وكل السهام بكنانته ويطعنه في قلبه جزاء فعلته الشنعاء.

قاد الأمير فرسه وسط الزراعات إلى أن استقبل طريقًا متسعة ومعبّدة بعناية والأشجار على الجانبين في آخرها بوابة خشبية، هدأت سرعة الفرس فجرى أول الخادمين وطرق السقاطة الحديدية بقوة، انكشفت فتحة بالباب ولم يلبث أن انفرجت درفتا البوابة وأغلقت في سرعة بعد دخول الأمير، جفلت سيقان الجواد الكبير فأمسك السائس لجامه، تارة أخرى رفع الخادم الطويل ذراعيه وتلقّى المولود برفق، نزل الأمير فقاد السائس الفرس إلى حظيرته بالإسطبل، وقف الأمير طظر أمام خادمه وفرد كفيه ليستعيد الولد، ولأول وهلة يدقق النظر في عيني الشاب فيراهما ملتمعتين بالدموع ويرتسم على قسماته التأثر لما فعل رفيقه بالحُرمة، حين تناول الولد علا صراخه وكأنه يشارك الخادم اعتراضه على فعلة الأمير.

- يا نصير! لو تركنا الولد بعد موت العجوز لأصابه الأذى ويمكن يموت، آه على ضبع وتهوره!

– كنت أحميك يا مولاي الأمير.

– لك الحق يا أمير.

قالها نصير وعيناه مطرقتان وفي دواخل نفسه تنهشه كل صنوف الاستنكار لكلمته التي ضمن بها رضا الأمير وأشعره بولائه وإلا فالكرباج أو ذبحه بيد رفيقه إن غضب عليه سيده فما الحق في أن يُسرق طفلٌ من أهله وما الحق في قتل ضبع لعجوز يحق عليها الشفقة؟! لم يبد منه أي التفاتة وبقي يغض طرفه حتى سار الأمير وبقي العبدان واقفين لم يتخطيا الطرقة المؤدية إلى القصر والمرصوفة بأحجار مستوية ملوّنة، ثبتت قدما الأمير وأطال النظر للشجرة العالية في ركن قصي من الحديقة، موجة من صداع لطمت رأسه فدار به وكاد يترنّح حين وقع نظره على تلك المصطبة المرتفعة عن الأرض قرابة شبر أسفل الشجرة، لا يصدق أنه بالأمس أمر الخادم أن يحفر ويدفن ابنه الذي مات بعد استنشاقه أنفاس الحياة بدقائق وأقسمت القابلة أنها ما قصرّت في استقباله بل أن ولادته كانت هينة، لا تزال زوجته خوند24 عنود تبكي رغم نفاسها والجواري من حولها يبذلن جهدهن للتخفيف عنها والعناية بها ومحاولة إطعامها، فمولودها حملت به بعد تعطيل دام سنوات وطوال أشهر الحمل أرسلت مماليكها ليأتوها بالأقمطة الحريرية الفاخرة وأطيب أنواع الزيت لدهان

جسمه حتى الدُمى واللعب أتت بها وخصصت له جاريتين للاعتناء به ليل نهار، فيموت مولودها ولم تُشبع عينيها بالنظر إليه ولا يزال ثدياها مثقلين باللبن.

يقنع نفسه بأن القدر قاده ليجد الولد وما زاد نفسه رضا بفعلته معرفته بموت أمه وكذلك أبوه؛ فالولد ابتسمت له الحياة قبل أن يفتح عينيه عليها فصار له أبٌ أمير ثري يملك القصور والضياع، وأمٌ ابنة كاشف*25 دمياط وماله الوفير هو ما جعله يصبر على الحياة معها، ولولا ثروة أبيها لظل حاله متواضعًا خاملًا بين أمراء الجراكسة، إنه الولد الذي سيعيد له أمل الاستحواذ على المزيد من ثروة جده بعد أن تملكه اليأس في الإتيان بمولود سواء من زوجته عنود أو من جواريه الأخريات وقد طبّ الأربعين.

بين يديه من يداوي مرارة ثكل تجرّعه على عجل هو وعنود الملتاث عقلها ولا

تصدق أن المدفون أسفل الشجرة ابنها الذي حلمت به طوال السنوات العجاف الماضية، التقط أنفاسه وأطال التحديق في وجهه الجميل والولد النائم تُضحكه الملائكة فيبتسم مشاركًا له ولم تلبث أن غاض انبساطه حين ومض وجه العجوز أمامه فعض شفته غيظًا على سعادته التي بترها طيش خادمه ضبع فلولا فعلته لرضي تمام الرضا لتوفيق نزهته الصباحية.

***

في بطء صعد سلالم القصر إلى الأعلى والجواري يرمقن اللفة غير مصدقات ما يحمله سيدهن، الواقفة أمام مخدع النوم جحظت عيناها وأطلقت شهقة عالية وهي تدفع الباب للأمير، دلف في هدوء ووقف أمام عنود الجالسة على سريرها ووجهها مطأطأ بين ساقيها، أحسّت بحركته فرفعت رأسها في وجوم استحال إلى ذهول مصبوغ بمزيج من الفرحة وعدم التصديق، أزاحت الغطاء ونهضت من فراشها، حملقت في الوجه اللؤلؤي، تورّد وجهها وتلونت وجنتاها باللون الأحمر، انمحى من ذاكرتها أحداث يومين فظنت أن زوجها الأمير ططر حين حمل اللفة قد صحب ابنها خارج الغرفة ثم عاد به بعد لحظات.

فردت ذراعيها فناولها إياه، ضمته وشفتها تتشهّى تقبيله، لثمت خده فأطلق صرخة مدوية دفعت الأمير لأن يتلفت حوله في اضطراب واطمأن لغلق باب الغرفة، قعدت على الكرسي وكشفت صدرها، أمالته فنزّ لبنها مبللًا خد الصغير المرتعش، ألقمته حلمتها منتشية بأنفاس الوليد الوادعة، وكأنه ينتظر هذه الطبيعة المحروم منها فظل يمتص بالتذاذ واستشعر طعامًا مختلفًا عما كان ينزل جوفه، لم تنبس شفتا الأمير بكلمة ولم تبدأه عنود، فظلا على حالتهما من السكون حتى انتظمت أنفاس الصغير بعد شبع فحملته بين يديها وأراحته على السرير الهزّاز وسحبت عليه الغطاء الثقيل.

وقفت قبالة زوجها، أطالت التحديق في وجهه، انكسارات قسماتها تشي باستعادتها لتوازنها وتلك هي اللحظة التي ينتظرها، انسحبت الدماء من وجهها ووضعت رأسها بين يديها، تأرجحت نظراتها بين الأمير والطفل النائم، وأطلّ من عينيها استفسارٌ عن حقيقة تريد أن تعرفها.

– ابن من هذا يا ططر؟

– يتيم الأب والأم وجدته على سفينة.

– وتريدني أحرق قلب ناس على طفلهم، أكيد له أهل، فإن لم يكن له أب وأم فله عم أو خال أو جدود.

– نربيه يا عنود، رضع منك، فرأيك لو يكون ابنك؟

– لكنه ليس ابني، أعده لأهله يا رجل ولا تحملني ذنبًا لعل الله يفرجها وأحمل.

لم يتماد في جدالها فتركها واستعد لغدائه، أطالت النظر في وجه الصغير النائم، صفقت بيدها فدخلت جارية، أمرتها أن تقوم بنظافته وتحميه، في سرعة جهزت طستًا دلقت فيه المياه الدافئة، خلصته من الأقمطة المتواضعة وشرعت تسكب عليه وهو يتقلب دون أن يبد منه اعتراض على نظافته، برفق نشفت جسمه وقامت عنود بنفسها بدهن بين فخذيه بزيت رطب، ألبسته الجارية ثوبًا فاخرًا ولفته بأقمطة ثمينة، تارة أخرى أرضعته عنود وعندما نام وضعته بالسرير وهزهزته فطفر وجه أمها خديجة المصرية التي ربتها على ألا تستحل ما لا يحق لها وكانت تردد دائمًا: الحق مستحق، ولو امتلكت مال غيرك دون رضاه يطوق رقبتك بالنار ليوم القيامة.

هذا عن المال فماذا عن إنسان حر، يكفي أنها قبلت الزواج بواحد من الجراكسة وعرفت بعد فترة طمعه وحبه في اكتناز المال، وها هو يأتيها بطفل غريب ويريد إقناعها بأنه وجده ملقى في سفينة، في قرارة نفسها اشمأزت من فعلة زوجها وأكدت لنفسها وجوب إعادة الطفل لأهله أيًا كانوا حتى لو لم يجدوا قوت يومهم وستهديه الكثير من المال وصرّة بها أقمطة وملابس تكفيه لعامين، مطّت شفتيها ونهضت، سارت نحو مشربية حجرتها الكبيرة، فتحت النافذة الخشبية وصوّبت نظرتها نحو الشجرة البعيدة أسفلها المصطبة المربعة فسالت دموعها وخفق قلبها وشعرت بثقل ضرعها الحاني.

العبد نصير يقف بالقرب من الشجرة، أغلقت المشربية ونزلت في سرعة، من باب خلفي خرجت إلى الجنينة، دون أن تنادي هرول الشاب الأسود إليها، وقف ووجهه مطرق منتظرًا أمر سيدته.

– كنت مع الأمير؟

– نعم سيدتي.

– كيف أخذ الولد؟

***

– يا شيخ صبور، وحّد الله لأجل خاطر بنتك الطيبة.

يواسيه أبو سعد وهو يجاوره في طريق العودة إلى السفينة وصافية تجرجر قدميها غير مصدقة أن شقيقتها غير موجودة معها، وهي التي كبرت لا تعرف أختًا غيرها وليلة حنتها على ابن عمها مصري ظلت طول الليل ترقص ولاصقتها بعد موت زوجها ومنتظرة مولودها لتربيه بدلًا منها، عفيفة ماتت واندفنت في بلد غريب ولا تدري ما يقرر أبوها، دفعت نفسها دفعًا في السير يجاورها الريس حميد المتأثر بحال صبور وما يقاسيه الرجل من ثكل ابنته بعد أن كاد يطمئن على هجرته بولادتها الآمنة، عض الريس شفته أسفًا على حال الناس الذين يقابلهم أثناء سفره، من طرفٍ خفي لمح صبور يقوّس ذراعه حول ظهر صافية ومن حين لآخر يتلفّظ بكلمات عبثية في هذيان فلم يشأ أن يثقل عليه بمزيد من كلمات المواساة، مفضلًا السير في صمت والرحيل حتى لا يُطيل عليهما أوقات الألم بوجودهما أمام ساحل الفشن، وما إن تبحر السفينة حتى يسرّي عنه ويدفعه إلى التماسك من أجل ابنته والصغير ابن الراحلة.

يهز الريس رأسه وهو يتعجب من تلك الحياة التي ما إن تمد يدها بالأمان لإنسان حتى تسحبها وتترك له اليأس وتعيد الكرة من جديد، على سفينته ولد إنسان ومات إنسان في نفس الغرفة، يضرب كفًا بكف وتظل قدماه تدبان إلى أن اقتربوا من الزاوية المطلة على النيل، يدعوهم الشيخ شعيب لتناول الغداء ببيته المجاور للمسجد الصغير فيعتذر له أبو سعد ويؤكد حميد أنهم سيبحرون من فورهم، يقف الشيخ الجليل أمام صبور ويضمه إلى صدره.

– ربنا يعزيك يا أخي، واصبر، إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب.

– مضبوط يا شيخنا، نشكرك على كل ما قدمت.

أنهى الريس حميد وداع الشيخ شعيب وآدم اللحاد يقرفص على المصطبة ومن حين لآخر يغمغم: ميت يودع ميتًا. واستأذنوا منه متجهين نحو السلم الحجري فأشار الريس إلى عماله أن يتقدموا للبدء في التحرك ففك أحدهم الحبل من وسط الشجرة وسار آخر نحو الدفة أما الثالث فما إن رفع يديه ليفك أربطة الشرع حتى ندت عنه صرخة أفزعت الريس وجرى على السقالة الخشبية حتى كاد يقع، أشار الشاب إلى الجسم المكوّم بالقرب من غرفة صبور فاتسعت عينا أبي سعد لرؤيته جلباب زوجته الأسود والسهم مغروز بكتفها، برفق أمالها حميد فصرخت صافية وبركت على السيدة، تحلّق النوتية حول أم سعد، وأبو سعد يحملق في جزع، ركع على ركبتيه وهزّها وهو ينادي بصوت عاجز:

– وهيبة.. وهيبة!

لم يخجل الريس حميد وكشف عن كتف العجوز، ابتلع ريقه ومسح الدماء القانية حول الجرح، بيد مدربة أمسكت أصابعه بالسهم وانتزعه في شدة واحدة، شهقت أم سعد وعطست في قوة، أخرج الريس منديلًا وبلّله بالماء ومسح الجرح الغائر في لحم السيدة، صبور ذاهل بما رأى وفي نفسه

شيء يريد أن يسأل عنه لكنه واجم لمنظر أم سعد ودمائها المخضبة خشب السفينة، اعتدلت وابتلعت ريقها وهي تدوس على جرحها، تمالكت نفسها قليلًا وأشارت إلى بعيد.

– المجرم، الجبان، خطف الولد.

بصوت مبحوح انفجرت باكية وصبور مذهول مما تخبرهم به العجوز فحسب أنها تتحدّث عن شيء آخر غير ابن عفيفة الذي ظنه نائمًا في الخن أو على السرير بالغرفة، رفع أبو سعد عكازه أمام وجهها وتلعثم وهو يسألها:

– خطف الولد؟ أي ولد؟ ومن أصابك بالسهم؟

– أنس ابن عفيفة.

أفصحت عن الفاجعة التي قاست ويلاتها وهي تحملق في وجوههم وجسمها كله يرتعد، وصبور غير مستوعب ما تقول، أفاق حين ولولت صافية ولطمت خديها وزعقت باسم ابن أختها، أتم الريس تنظيف الجرح ولفه بالقماش، ركع بدوره أمام السيدة وسألها:

– قولي لنا.

بشفتين مرتعشتين وبصوت متلجلج روت لهم ما حدث إلى أن أصيبت بالسهم، أمسكت بذراع صبور وانتثرت كلماتها الجزعة:

– يعلم ربنا يا صبور أني ما فرّطت في الولد.

– خادم الأمير ناداه بططر؟

– حصل يا ريس و...

بتر كلمتها أحد العمال يرفع أمام حميد خاتمًا ثمينًا وجده ملقى على خشب السفينة فهتفت أم سعد:

– آه، الخاتم، أعطاه ابن اللئيمة لأنس قبل أن يخطفه.

لم تكف صافية عن البكاء على ابن أختها أما صبور فوقف ودخل الغرفة وخرج في سرعة وبيده خنجر، تعلقت به صافية فلطمها على خدها فوقعت على الأرض جوار أم سعد التي أمسكت بمعصمها، جرى صبور نحو السقالة والريس حميد يلاحقه، قبل أن يصل أوقفه وهزّه من كتفيه ليثبته، أمر عماله بإعادة ربط السفينة، وألا يتبعه أحد لحين عودتهما، قاد صبور إلى البر وأدرك الخطأ الفادح الذي وقع فيه بعدم بقاء أحد من عماله للحراسة فجميعهم أخذتهم المروءة وشاركوا في

تشييع الفتاة التي ماتت على سفينتهم، لم يوبّخ الريس أحدًا بل لام نفسه ونسيانه أن يأمر أحدهم بالبقاء، وحدث ما حدث.

تارة أخرى وقفا أمام منظرة الشيخ شعيب ونادى الريس حميد عليه، خرج الرجل وهو يحسب أنهم يريدون شيئًا لكن هيئة صبور المزرية وجحوظ عيني الريس جعلاه يوجس في نفسه قلقًا فأخبره حميد بما جرى أثناء غيابهم وما إن سمع الشيخ شعيب اسم ططر حتى انقبضت تقاسيم وجهه وضرب كفًا بكف للخبر المفزع، قدم لهما قلة الماء فأبعدها صبور في حدة وانتظر أن يفصح لهما الشيخ عن الأمير:

– جركسي ملعون، والشباب يسمونه مطر لكنه وحل ابن وحل.

– كاشف الناحية؟

– لا، لكن له بيت كبير حوله سور عالٍ هناك بين الجبل والأرض المزروعة يأتيه كل خمسة شهور أو أقل هو وزوجته الطيبة.

– زوجة الأمير طيبة؟

– كل عيد تذبح عجلًا وتتصدّق بلحمه على الفقراء، من شهر قبل أن يحضر الأمير فعلتها.

نهض صبور وفرد كفه أعلى عينيه فتماوجت قبة برج عالٍ تشبه قبة قصر تمربغا بأسيوط، لم يعرض عليهما الشيخ شعيب مرافقتهما ولم يطلبها الريس حميد منه وسار خلف صبور تودعهم تحذيرات الرجل.

– احذر أنت وهو، مماليكه وعبيده مجرمون ويقتلون أي غريب يقرب من القصر.

لم يبال صبور وتسارعت خطواته والريس حميد يلاحقه، إلى أن وقف صبور بالقرب من ممر الأشجار فانتحى بالريس حميد اللاهث خلفه.

– ابق هنا أنت يا ريس.

– رجلي على رجلك.

– لا، انتظرني وإن لم أعد مع العصر يبقى قلْ على روحي يا رحمن يا رحيم، وصيتك صافية، أمانة في رقبتك ترجعها أسيوط وتسلمها ليوسف النحاس.

– ترجع إن شاء الله ويكون معك ابن بنتك وتعيش في الفسطاط.

– لله الأمر من قبل ومن بعد.

زفر صبور بأسى وهو يبتعد فأدرك الريس أن السراج المكلوم قد يقتله مماليك الأمير ويدفن في جب أو يلقى بالجبل تنهشه الذئاب والضباع؛ فآثر أن يجعله بعيدًا ليتمكن من العودة إلى سفينته.

توالت خطوات صبور إلى أن اقترب من البوابة المغلقة، اعتصرت أصابعه السقاطة الحديدية على شكل مخلب كبير فقرع الباب في قوة، انزاح اللوح الخشبي وأطلّت عينان متوجستان فباغته الطارق:

– أريد مقابلة الأمير ططر.

– يعرفك؟

– قل له صبور صانع السروج.

ولأن إسطبل الأمير يقطنه عددٌ من الخيول ففهم حارس البوابة أن الأمير قد يكون استدعى سرَّاجا ماهرًا لصنع السروج المزركشة، أصدر مصراع البوابة أزيزًا عند انفتاحه فدلف صبور في سرعة، حارس آخر قاده إلى الداخل وأشار إليه أن يقف بعيدًا عن باب القصر لحين إخبار الأمير، وقف صبور يتأمل القصر والأشجار المحيطة به، لفت نظره صغر حجمه بالمقارنة بقصر كاشف أسيوط أو قصر الأمير تمربغا، والخدم والحرس قليلون فأيقن أنه ربما يكون مجرّد استراحة للأمير؛ فلا غرف لاستقبال الضيوف ولا حظائر للكلاب وباذدارية يرعونهم، فقط إسطبل يضم خمس حظائر يتناهى لمسامعه حمحمة خيولها، طالت مدة وقوفه فلم يجد بدًّا من السير نحو السلم المؤدي لباب القصر، حقه المسلوب منه طرد الخوف من نفسه وألبسه رداء الجرأة فدخل وسار في الردهة إلى أن وقف ببهو الأعمدة وقبل أن ينطق صك أذنه استلال سيف من غمده والحارس يهاجمه وصوته يعلو بالأمر:

– قف وإلا قطعتك، قلت لك انتظر و...

السيدة المهيبة الخارجة من غرفة جانبية دفعت الحارس أن يرفع نصل سيفه نحو رقبة صبور فجحظت عيناه للمصير الذي سيواجهه قبل أن يطالب بحفيده من الأمير السارق، ولأنها تدري مدى تهور مماليك زوجها واقترافهم أي جريمة ليتقرّبوا بها عنده فأشارت في سرعة أن يبعد الحارس سيفه فأنزله مترقبًا، تشهّد صبور وأمسك رقبته، حملق في كفه ليتأكد أن نصل السيف لم يجرحه، ابتلع ريقه وهو يحملق في وجه السيدة البيضاء، وتوالت كلماته بصوت مبحوح:

– أنا صبور السرّاج يا سيدتي الخوند، أريد الأمير في أمر.

أشارت للحارس أن يبتعد وانتظرت أن يفصح الزائر الغريب عن حاجته، أمرت الحارس أن تأتي إحدى الجواري بالشراب للضيف، أيقن أنها زوجة الأمير التي وصفها الشيخ شعيب بالطيبة والإحسان على فقراء الناحية فشجعته ملامحها الشفوقة أن يفصح:

– أنا جد الولد يا سيدتي.

لحظ صبور بريق عيني زوجة الأمير فقرر أن يخوض حربًا لاستعادة أنس حتى لو ذبحه الأمير بالقصر، صمت منتظرًا السيدة أن تقول شيئًا فرآها تهز رأسها وتسأله:

– وتترك رضيعًا بسفينة فيتعرّض للخطف؟!

– معذرة يا سيدتي، تركته لحين دفن أمه.

– دفن أمه؟

– ابنتي أصابتها حمّى بعد ولادتها على السفينة وماتت ودفناها بمقابر البلد، أرجوكم أعطوني الولد، هو كل شيء في حياتي.

ما كاد يتم كلمته حتى رفع رأسه للأمير ططر النازل في ثقة، وقف جوار زوجته وأشار إليها أن تصعد هي والجارية التي ركنت طاولة الشراب الخشبية على المنضدة، صوّب نظرات الغيظ للحارس الواقف آخر البهو والشرر يكاد يتطاير من عينيه من مقابلة عنود لرجل غريب.

– ابني يا أمير!

– ابنك؟

– أقصد ابن بنتي.

لم ينطق الأمير وظل يحدّق في صبور ويدير الأمر برأسه، صعب على نفسه الأمّارة بالجشع أن يمتلك شيئًا ثم يفقده؛ فعزم أمره أن يتخلص من جد الولد لكنه لا يريد إراقة دماء بالقصر وزوجته عنود ستقيم فيه لأسابيعَ وربما لشهور قادمة، فرفع سبابته أمام صبور وهو يأمر:

– تعال نتكلم في الحديقة.

– لن أخرج دون الولد.

جأر صبور بمطلبه حتى أن الحارس جرى نحو سيده وشهر سيفه لكن ذراع الأمير الممدودة أوقفته، هزّ رأسه في ثبات وهو يردف:

– في نزهة الظهر رأيت ولدًا تحمله عجوز شمطاء، أهديتها خاتمًا وأخذته منها.

– لم تهدها خاتمًا بل أخذته منها وأحد رجالك أصابها بسهم، هذا خاتمك خذه وهات الولد.

– الولد ليس هنا ولنخرج إلى الجنينة قبل أن أغضب.

عجز صبور عن الرد ولا سيما أن الحارس لا يزال يرفع سيفه ويمكن بضربة واحدة يطير رقبته فلم يجد بدًّا من الإذعان لرغبة الأمير لكنه لن يغادر دون أن أنس، من بين طيات ملابسه تحسس خنجره واستعد لقتال الأمير وحرس وعبيد ومماليك الأمير والخوند نفسها إن لم يستعد أنس.

***

-٣-

– انظر يا معلم صبور، المصطبة هناك أسفل الشجرة، مدفون أسفلها ابني المولود من أيام.

حدّق صبور إلى حيث أشار الأمير ثم أطرق رأسه وصمت وكأن لسان حاله يقول: الموضوع لا يعنيني في شيء، فوجئ بالأمير يربت على كتفه ويكمل:

– خوند عنود جُنت وأصابتها لوثة بعد موت ابنها فور ولادته وكانت تضرب رأسها بالجدار وتبكي النهار بطوله والجواري منعوها أن ترمي نفسها من أعلى البرج وبالليل كادت تنبش قبر رضيعها.

– ربنا يشفيها يا أمير.

– لما رأيت الولد بين يدي العجوز وأخبرتني أنه يتيم الأب والأم، قلت آخذه للأميرة تفرح به وتنسى موت ابنها، ولن تصدقني لو قلت لك أنها أرضعته من صدرها وأمرت الجواري بنظافته ويلبس الآن أفخر الثياب.

– ربنا يعوضها بكل خير لكن الولد ابننا يا أمير ولا أقدر أعيش من غيره.

ارتعشت شفتا صبور وسالت دموعه على خده لكنه تماسك في سرعة وارتسمت الصرامة عليه وانتظر أن يفصح الأمير عما يريد فلم يخيب ظنه:

– أعرض عليك أمرًا.

– لو تريد أن يبقى الولد فأمرك مرفوض من قبل أن تعرضه.

– لا، لكن اتركه وبعد شهر من الآن نعود إلى قصري بالأزبكية، تعرفها؟

– لا.

– بعد شهر تأتي الأزبكية وتسأل عن قصر الأمير ططر، تكون الأميرة عنود شفيت وأقنعها برد الولد، المهم.. ما اسمه؟

– أنس.

– آه، أنس، اسم جميل وأنت يا شيخ؟

– أنا صبور السرّاج من أسيوط وتركتها لأعمل بالفسطاط.

– سرّاج، تصنع السروج، جميل، أنا أمير عشرة وعن قريب سأعمل مساعدًا لشاد الدواوين ولو المساعي أحسن أعمل مع أمير أخور وأحتاج لمهارتك.

– لكن يا أمير، كيف أرجع للسفينة بدون الولد؟ ماذا أقول للمسافرين معي، ومن قبلهم بنتي، خالة الولد؟!

– تقول لهم أن ابن بنتك في أحسن حال.

ابتلع ريقه وألجم لسانه عن الرد، دار في نفسه أنه عاد دون حفيده فكيف ينظر إليه أبو سعد وأم سعد والريس حميد وكل من بالسفينة وصافية، هذه وحدها لا يقدر على إقناعها، تُجن الأميرة أو تعقل أمر لا يخصني في شيء، أعود بالولد ولا يهمني من أمر الأمير وزوجته.. دار الحوار في عقله فرفع رأسه للأمير وخرج صوته ناشفًا كحجر الصوان:

– لا يا أمير، أعد لي ابني وربنا يشفي الخوند ويعوضك بالخلف الصالح.

– بقي شيء ما كان غرضي تعرفه، الخوند متمسكة بالولد لدرجة أني عرضت أعيده بعد يومين صرخت في وجهي وأمسكت بخنجر وكادت تذبحه.

– تذبحه غير ممكن يبدو على وجهها الطيبة.

– طيبة وعطوفة لكن لما مات مولودها تغيرت، فلو مستغني عن ابن بنتك ولا تريد له الحياة حاول تأخذه منها.

– خطؤك يا أمير وتداويه بمعرفتك لكن الولد، ولدي يا ناس، أريده، أشوفه.

– حتى تصدقني، تعال معي للداخل وتنزل به الخوند وتراه وتتأكد أنها ممكن تطعنه لو أردت أخذه.

استدار الأمير وصبور خلفه فعادا إلى بهو الأعمدة، الحارس الخاص بالأمير ططر يتبعهما ويقف بعيدًا ويده على مقبض السيف، العبد نصير يقبل ويقدم الشراب لصبور وفي قرارة نفسه حزنٌ ثقيلٌ على حال الرجل الواقف لا يريد من دنياه غير استعادة حفيده، يتعجّب من صبر الأمير على رجل يعمل في صناعة السروج ولو أمر الحرس أو خادمه ضبع لقطعوا رقبته وألقوه بالصحراء لكنه لا يخفى عليه مكر الأمير فهو لا يميل لحل مشاكله برفع السيوف بخلاف غيره من كبار الجراكسة بل يتلهّى بالاحتيال على الغير حتى يصل لهدفه وتكتمل لذته حين يخرج لسانه لمن يظفر بهم ويتشفّى في قلة حيلتهم أمامه.

***

– الولد جاهز ليأخذه جده.

– تصوّري يا عنود، عرضت على السرّاج الطمّاع أن يبقى الولد عندنا أسبوعًا أو أسبوعين ويأتي إلينا بالأزبكية ليأخذه فوافق مقابل كيس دنانير.

– غريبة فلهفته على الولد عكس ما تقول.

– المال يا عزيزتي، بريق المال يغري، غير أنه قال لي أن حال الولد معنا سيكون أفضل وأمان من السفر بالسفينة وقد يتعرّض للبرد ويموت.

امتعضت الأميرة من الكلمة التي لا تزال تقاسي مرارة علقمها، لكنها اعتادت القسوة من زوجها مع أنه يتحدّث بصوتٍ هادئ، أشاحت برأسها نافضة الكلمة القاتمة وذكرته بشيء عرضه عليها ووافقت.

– لكنك اتفقت معي بعد الولادة بأسبوعين أن أذهب لأبي بدمياط.

– نعم، حال ما يأتي السرّاج ويأخذ حفيده معززًا مكرمًا من قصر الأزبكية نسافر دمياط، والآن هيا ليراه قبل أن يرحل.

أمام السرير الصغير وقف الأمير جوار زوجته يتطلعان إلى الوجه الممتلئ وكأن هالة من جمال أحاطت به فانخطف قلب الخوند عنود من مجرّد تخيلها مفارقته واستحسنت بقاءه الأيام القادمة ورحيلها إلى القاهرة برفقته، أما الأمير ططر فدار في خلده تدبير آخر قرر أن يبدأه من الآن للحيلولة دون عودة أنس لجده، رفعته الأميرة وحضنته في قوة، لفته بقماط ثمين وألصقت خدها بخده، رفع الأمير أمامها غمدًا لخنجرٍ صغيرٍ بسلسلة فضية أوصى بترصيعه بكرائم الأحجار من ياقوت وزبرجد وفصوص صفراء من عين الهر؛ ليكون هديته لابنه حين ولادته، اتسعت ابتسامة الخوند حين قرّبه منه وساعدته في رفع رقبته فأحاط السلسلة بها وبدا الخنجر بسلسلته كعقد ثمين مدلى من رقبة أنس.

مشى أمامها ونزلا السلالم فانتفض صبور واقفًا للفة المقبلة عليه، خطا نحو السيدة فأسرع الحارس نحوه، أشار إليه الأمير أن يرجع، انشرح وجه عنود وهي تضم المولود وتشم رائحته الياسمينية، تهز رأسها أمام صبور الواقف على قيد خطوتين وعيناه تحملقان في أنس النائم في هدوء.

– أشكر لك كرمك حضرة سراج، وتأكد أن الولد عندي كأمير.

تأمّل صبور حفيده بأقمطته الحريرية وعلى رأسه قلنسوة خضراء فبدا في أروع حال، وهو على يقين أنه ينام في أفخر سرير بغرفة واسعة تدخلها الشمس لا حجرة ضيقة بالسفينة لا تكاد تسع اثنين بها سرير جريدي تفوح من مرتبته روائح العفونة وإذا أضيف استمرار السفر والنزول بالفسطاط ثم البحث عن الشيخ زيتون شقيق جنة ويا عالم حي أم ميت، دار بين تلافيف عقله أن بقاء أنس كما عرض الأمير في كنف الخوند سيكون أفضل له لحين تهيئة السكن المناسب بالفسطاط وتدبر العمل الذي وعده به الأمير في صناعة السروج لخيل السلطان، لكن كل ذلك لم يمنع اعتصار قلبه على مفارقة ابن عفيفة وروحه مجروشة بين حجري رحى تركه أو أخذه.

حين أمسكت الخوند بمقبض الخنجر الثمين اتسعت عيناه وخشي إن بدر منه أي كلمة أو حركة تدل على أنه يريد الولد تطعنه الأميرة المخبولة، طفحت الدموع من عينيه فعجز عن منعها، لم يصدق نفسه وحملق في يدي الأميرة الممدودتين بأنس، فتأرجحت نظرات الشك بين الأمير وزوجته فغمز ططر بعينه وهزّ رأسه أمارة السماح له بوداع حفيده، برفق تناوله وضمه إلى صدره، شم رائحته العطرة فأغمض عينيه وغاب للحظة حسم فيها أمر التفكير في مصير أنس، فليتحمّل بُعده أيامًا يكون تخلص من مشقة الرحيل واكترى بيتًا مناسبًا.

لم تتعجّل الخوند استعادة الولد بل داخلها شيء من الدهشة لتشبث جده به رغم إخبار زوجها بأن السرّاج هو من عرض أن يبقى حفيده لديهم، نفضت طيف تفكيرها وانتظرت إلى أن أعاده صبور بنفسه فلا تدري كيف احتضنته بقوة كأنها استوحشت بُعده عنها للحظات، أراد الأمير أن ينهي الموقف فأشار إلى زوجته أن تعود، انتحى بصبور ومال على أذنه وهمس:

– كما اتفقنا يا معلم صبور، تحضر بعد شهر، لا أقل فربما إقامتنا هنا تطول لثلاثة أسابيع ولكن بعد شهر تجدني بقصر الأزبكية وتكون الخوند هدأت حالتها.

– أمرك يا أمير، ربنا يحفظ ابني.

– والهام يا حاج صبور أن تكون راضيًا.

– راض ما دام ابني بخير.

– الخير رأيته بعينيك.

لم ير صبور فائدة من بقائه وقتًا أطول والريس حميد ينتظر في أول ممر الأشجار ودار بخلده أن يكون أحد حرس الأمير صادفه وتقبّض عليه أو لحقه أذى، فقرّر الانسحاب والعودة وهو يدعو الله أن يوفقه في إقناع صافية بالأمر، تسارعت خطواته نحو بوابة القصر فشعر بوقع خطوات خلفه، التفت في حدة ويده على مقبض الخنجر، الخادم نصير يلحقه ويطمئنه بكلماته:

– الأميرة أمرتني أن أرافقك إلى السفينة و... ولأحميك.

– تحميني؟

– أرجوك يا حاج تعذرني، أنا كنت مع ططر اللئيم لما سرق الولد.

تسمرت قدما صبور واعتقد أن الخادم مدسوس عليه كي يوقعه في الكلام أو يقتله ويلقي رأسه بين قدمي الأمير؛ فهو يعرف مدى ولاء هؤلاء لأسيادهم سعيًا لأن يترقّى الواحد منهم من خادم إلى مرتبة أعلى؛ فضيّق عينيه وهوّم برأسه لكن الشاب وضع يده على كتفه وقال:

– لك حق تشك فيّ ولكن أقسم بربك أني لم أرض عما فعله الأمير وهو نفسه لم يقصد إصابة العجوز ولكن لما تعلقت به تريد الولد رماها ضبع بالسهم أما أنا فلعنته ولعنت الأمير وأنا أمسك بلجام فرسه.

بدا على وجه الخادم صدقًا أحسّه صبور فمثله لا يصف أميره باللئيم مهما يكن، لا يدري لمَ تذكَّر بلال خادم الأمير تمربغا ومجازفته بإخباره هو جدته جنة بمؤامرة الأمير الجركسي عليه ونصحه أن يفر ببنتيه، صوّب نظراته في عيني الخادم نصير فأجابه الشاب عن سؤال عينيه:

– خوند عنود، طيبة القلب ولا تأمن غدر زوجها؛ فهو كالحنش ناعم وهادئ لكن عضته والقبر بعيد عنك.

من خلف آخر شجرة ظهر الريس حميد قابضًا بيساره على عصا غليظة ويدس يمينه داخل جلبابه ومقبض الخنجر يظهر طرفه، انبسطت قسمات وجهه لوجود صبور وزفر نفَس الارتياح بعد أن كاد ييأس من عودته، لم يتوقف صبور وتبعه الريس حميد بضع خطوات لكن قدميه جفلتا وعيناه متسعتان.

– الولد؟

– في الحفظ والصون يا ريس السفينة.

– من؟

– نصير خادم الأمير.

أطلت من حميد نظرات الكراهية للأمير وكل من يتبع الأمير، لكن صبور أنهى وقفتهم بالقبض على ساعد الريس وواصل مشيه.

– بالسفينة أحكي لكم.

لم يتوقفوا عن السير حتى لاح من بعيد الصاري السامق والهواء يهز قماش الشراع، طوال السكة المتعرّجة يفكر فيما فعلت زوجة الأمير ولا سيما إرسالها الخادم نصير الذي توقف، ومد يده لصبور مسلمًا.

– الولد في عيني يا شيخ صبور، أقسم لك لأخدمه وأحميه طول ما في صدري نفس يتردد.

أيقن أن العبد الصغير لن يتقدّم خطوة واحدة، سلم عليه وفي عينيه ترقرقت الدموع لكن الخادم هز رأسه وكأنه يؤكد قسمه، فاجأهما بسؤاله:

– الحرمة ماتت؟

– لا، بخير، السهم أصاب كتفها وانكتبت لها النجاة.

طفرت الدموع من عيني نصير ورفع رأسه إلى السماء وسمعه صبور يحمد ربه ويشكره، خفض رأسه ويوجه كلامه للريس حميد:

– خفت تكون ماتت تصيبني لعنات ربنا، الحمد لله، المهم يا ريس، تبحر من الساعة، لا تنتظر الصباح، الأمير غدّار ويمكن يرسل من يؤذيكم.

هزّ حميد رأسه واستدار هو وصبور متجهين إلى المدق الحجري، لم يبطئ نصير وعاد في سرعة لقصر سيده، وجد الخوند تجلس أسفل تعريشة العنب وأمامها سرير خشبي صغير بحوافٍ عالية ينام عليه أنس وترقب الشمس وهي في طريقها إلى المغيب، هز الخادم رأسه أمامها ففهمت أنه رافق جد الولد لقرب النيل، انصرف نصير حين رأى مقدم الأمير ططر، في هدوء قعد على الكرسي، ابتسم للصغير ودفع السرير فتأرجح، التفتت إليه عنود وقرنت حاجبيها فجأة وكأنها نسيت شيئًا كان لا بد أن تتذكره.

– قلت لي ما اسم الولد؟

– أنس، جده أسماه أنس.

– اسم جميل، أنس.. أنسباي.

– آه ما أجمل اقتراحك يا عنود، فعلًا هو أنسباي، الأمير أنسباي.

***

-٤-

بنِفس يغمرها الانكسار يجرجر الريس حميد رجليه، تدب قدماه نحو غرفته بمقدمة السفينة، يطل عليه أحد عماله ويسأله عن التحرك، دون أن ينظر إليه يأمره أن يبدأ الآن، عمال السفينة يعرف كل منهم دوره فلم يتوان أي منهم في فك الحبال وتحريك الدفة، لم يشأ حميد أن يترك صبور يواجه بمفرده ابنته صافية فخرج من فوره إلى آخر السفينة وصافية تدفن وجهها بحجر أبيها وتبكي في حرقة، ببطء أقبلت أم سعد تتوكأ على ذراع زوجها فرمق صبور وجهها وكأن المرأة السبعينية هبط عليها الهِرَم جملة واحدة فبدت في أرذل العمر ولا تزال بقايا دموعها تبلل تجاعيد وجهها، بشيء من التفصيل أعاد صبور ما حصل وحين يحتبس صوته وتغلبه الغصّة يكمل الريس حميد ومن حين لآخر يصب غضبه وسبابه على الأمير وكل المماليك الغرباء وطبعهم الدنيء في استحلال ما ليس لهم واقتناصهم ما لغيرهم دون استئذان.

ران الصمت على الجميع فلم يجد الريس بدًّا من المغادرة فقام دون كلام، صافية لا تكف عن المطالبة بابن أختها وتتبعثر شفتاها بالحسرة وتارة أخرى تحادث عفيفة وتخبرها أن ابنها ضاع وصبور يؤكد لها أنه سيصحبها بنفسه حين يذهب إلى الأزبكية ويعيد أنس فتلعن قصر الأمير والجراكسة وكل الناس السيئين، كالشجر والظل أحاط أبو سعد وأم سعد بصبور وابنته المكلوم قلبها حرقة على غياب ابن أختها، بكلمات مقتضبة طيّبت العجوز خاطرهما ونهضت هي وزوجها الصامت طوال الوقت لا يدري ما يقول، عادا إلى الخن، وبقي صبور وصافية إلى أن مالت السفينة في طريقها لعرض النيل والتحفت الدنيا بالسواد على نهار أفل نحتت ذكراه في قلب صبور.

***

– ببا يا شيخ محمود.

يمسك أبو سعد بصرّة كبيرة وأرادت أم سعد أن تحمل صندوقًا لكن شباب السفينة حملوه مع غيره من أقفاص الرمان إلى البر، في قوة حضنت العجوز صافية وربّتت على كتفها وهي توصيها بأبيها وبرعاية ابن أختها حين يرجعونه، وقفت أمام صبور وطبعت على جبينه قبلة أودعت فيها كل ما تشعر به من مشاعر الأمومة، فانخرط في نوبة بكاء فربّت عليه أبو سعد وهو يوصيه بنفسه وبابنته ويقدم المشيئة وهو يبثه الأمل في استعادة ابن بنته، لم يرد أن يطيل وقت الوداع فقاد زوجته نحو الألواح الخشبية وخلفهما أحد عمال السفينة إلى أن رافقهما نحو أقفاص الرمان وبقية الأمتعة، سحب العمال السقالة وتحركت السفينة ولا يزال أبو سعد وأم سعد واقفين يلوحان بأيديهما لصبور وهو يشير لهما بالمنديل تارة وأخرى يمسح به دموعه إلى أن تهالك أمام الغرفة فدخلت صافية وأغلقت على نفسها الباب.

الساعات تمضي وصبور لا يحسن غير الوقوع في نوبات من الحسرة، قلّ نومه وحين تأخذه برهة من نعاس يطل عليه وجه عفيفة تسأله عن حال ابنها ودون أن يشعر يؤكد لها أنه في أحسن حال ويحتبس صوته ويبكي، تماسكت صافية نفسها وعادت ترعى أباها وتجهز له الطعام فيتجرّعه ولا يكاد يسيغه ويحوطه التفجع من كل ناحية متهمًا نفسه بالتقصير في حق استعادة حفيده ثم يعود ويطمئن نفسه بأن أنس في أحسن حال، لكن القلق يأكل قلبه من مزاج الخوند المختل فقد تؤذيه في إحدى نزوات جنونها فيضرب بقبضته الأرض ويتمنّى أن ترجع السفينة إلى الفشن فلن يبرحها قبل أن يعيد حفيده.

الصبر يتملّكه ويمنيه الأمل بأنه سيذهب إلى قصر الأمير بالأزبكية وهناك لن يقبل بغير عودة أنس وإلا يهلك دونه، يعود لسكوته المطبق ومن حين لآخر يثرثر في خفوت:

– اللعنة عليكم يا أوغاد، الخسيس منكم يطمع في كفن الميت ما بالكم بولد كفلق القمر، اللعنة عليك يا ططر وعلى أبيك إن كان لك أب يا جركسي يا مقطوع يا ابن المقاطيع.

يظل على حالته من ذهاب العقل فلا يشعر بالريس حميد المتربّع أمامه ويقدم له طبق الرُّطب وصحنًا به جبن وخيار وخبز، عافت نفسه الطعام فزهده وحميد جاهدًا يحاول التخفيف من حزنه ومن حين لآخر ترتعش شفتاه ويردد:

– حسبي الله ونعم الوكيل.

– ربنا يربط على قلبك يا صبور، الصبح نكون بالفسطاط إن شاء الله.

لم ينم وبرغم البرودة ظلّ يتقلب على جنبيه وبداخله محرقة كبيرة وانكسارٌ ما بعده انكسار، يغمض عينيه ويهاتف نفسه: تموت عفيفة، رضيتُ بقضاء الله وقدره ودفنتها معزّزة مكرّمة بيدي، لكن يسرق واحد من المماليك ابنها ومن قبله يقتلون أباه، لا حول ولا قوة إلا بالله، والله لو أملك لأقطع رقابهم وأفنيهم بلا رحمة، العبيد الأجلاب قليلي الأصل.

***

نذرت أن تكون هي من تُلبسه الجلباب الأبيض وتضع الحناء بيديه ورجليه، تجلس متربعة وأنس على حجرها، تعريه وتمسك فخذيه وأصابع المقدس جرجس تسحب الجلد، وما إن يمرر الموسي ليقطع حتى يصرخ فتزغرد البنات لطهوره والمعلم جرجس بمهارته المتوارثة يلف شريط القماش وينقط عليه المطهر، ترفعه بين يديها وترقص على دقات الطبل وعزف ربابة مظلوم المسكين وتتغني له مع البنات:

وافرش له يا مزين على حشيش ناشف*26

ولف له شاشه كلفة الكاشف

وافرش له يا مزين على حشيش أخضر

ولف له شاشه كلفة العسكر

طاهره يا مزين تحت السقيفة*27

واقطع له يا مزين قطعة قطيفة

تعطيه لعفيفة التي تلقمه صدرها ليسكت وتظلّ تتمايل مع دق الطبلة، إلى أن يجذبها أبوها كعادته لتهمد، أصابع صبور تهزها، فتتباعد رموشها رويدًا، تقرن حاجبيها وتجاهد لتمسك بتلابيب حلمها المتواري الذي توقف طيفه الأخير على وجه عفيفة وهي ترضع أنس، ذرفت عيناها الدموع، تنهض وصبور يأمرها بصوت خفيض شعرت فيه بمدى ما يقاسيه أبوها من وجع:

– اجمعي كل حاجة يا صافية، وصلنا.

انهمكت في تسوية الحِرام الثقيل ووضعه في القفة أسفله ملابسها الشحيحة، حرص صبور أن يدس في جيب الصدار الداخلي ذهب عفيفة، خرجت صافية من الغرفة فتلفت صبور حوله ليتأكد من جمع أشيائه، ترك بابها مفتوحًا وسار تتبعه ابنته، أشار الريس حميد لأحد عماله فأسرع وحمل القفة الكبيرة من رأس صافية، رافقهم الريس حتى تخطوا الألواح الخشبية العريضة، صعدوا السلالم إلى المرفأ، زاغت عينا صافية بين زحام الغادين والرائحين من سيدات ورجال، قادهم نحو حانوت وألقى السلام على صاحبه، أشار لصبور أن يجلس على دكة عريضة منزوية أمامها منضدة، رائحة طهي الطعام تزكم أنف صافية فزغردت أحشاؤها الفارغة منذ أمس، جاءهم صبي بأطباق طبيخ المخ والقلب وقطع تلافيف الأمعاء الغارقة في البصل وقفة صغيرة بها خبز فمدت صافية يدها وأكلت في نهم وصبور دثرته أردية الوجوم.

– بالله عليك لتأكل يا صبور، اجبر الزاد.

مد الريس حميد يده بالخبز فلم يرد صبور أن يرده، أمسك اللقمة وطفق يأكل ويلوك اللقيمات، شرب الماء وأنهى الريس طعامه في سرعة.

– أطلب لك شيشة عجمي؟

فرد صبور كفه إشارة الامتناع وأمال رأسه إلى الوراء وأغمض عينيه، طلبها الريس وأخذ يشفط من مبسمها الرفيع وينفث الدخان في التذاذ، ركن الخرطوم على المنضدة وذهب يحاسب على الطعام، في بلاهة شفطت صافية نفسًا عميقًا أعاد للجمرات توهجها لكنها سعلت في شدة مما دفع

صبور أن يعتدل ويهزّ رأسه مستهجنًا ووجهه ممتقع لفعلة ابنته التي لم تكف عن السعال حتى شربت الماء، ابتسم الريس حميد وهو ينحي النرجيلة، عاد صبور إلى تأمل من حوله وصافية لا تكف عن الغمغمة والتعليق على كل ما تراه حتى علا صوت أذان فالتفت صبور فرأى المؤذن معلقًا على مئذنة بعيدة.

– جامع عمرو بن العاص، نمر عليه في طريقنا.

– هناك نسأل عن الشيخ زيتون تاجر الأعلاف والعطارة.

رفع على كتفه الزكيبة، حملت صافية القفة، أخبره حميد أنه سيبقى بالمرسى أربعة أيام لحين السفر إلى دمياط لحمل البضائع والعودة إلى الجنوب، ظن صبور أن المسافة قريبة لكن الريس ظلّ يسير من شارع إلى آخر حتى واجهوا باب الجامع العتيق فوقف صبور لحظات ثم واصل السير إلى أن استقبلهم فم شارع كبير فألقى حميد السلام على صاحبه وسأله:

– دكان الشيخ زيتون!

– الشيخ زيتون العلوي آخر حارة.

شكره الريس وسار في همّة إلى أن انحنى في حارة تعج بالناس والحوانيت مصطفة على الجانبين والزكائب مركونة أمام الدكاكين تعوق السائرين، والبغال والحمير تروح وتجيء متزاحمة وأصوات الباعة المنادين على بضائعهم لا تتوقف، على دكة يجلس رجلٌ ما إن وقع بصر صبور عليه حتى أيقن أنه شقيق جنة، نفس الوجه المستدير شديد السواد والعينان واسعتان والشفتان الغليظتان، لحيته الرفيعة كذقن تيس تقربه من الستين فلا شك أنه أصغر من أخته العجوز بأعوام كثيرة.

– زيتون العطار!

– أي نعم، هو والحمد لله.

ابتسم الريس حميد لرد الرجل الخفيف فصمت ليفسح المجال لصبور، تحرّر من ثقل الزكيبة والتقط نفسًا وهو يقدّم نفسه الموهونة:

– أنا صبور السرّاج من طرف الخالة جنة.

اتسعت عينا الرجل ونهض من جلسته فاتحًا ذراعيه، حاضنًا صبور في حرارة وكأنه على سابق معرفة به.

– مرحبًا بأسيوط وأهل أسيوط، تفضلوا، تفضلوا.

– يزيد فضلك يا عم زيتون، أستأذن أنا لانشغالي بالسفينة.

– الريس حميد الفرشوطي ريس السفينة.

عرّفه صبور وسكت ولم يشأ أن يستبقي حميد أكثر من ذلك لكن الشيخ زيتون عزم عليه أن يتغدى فتمسّك الريس باعتذاره في شدة وطيّب خاطره بكلمات المجاملة، انتحى بصبور وتلاقت نظراتهما، أظلتهما سحابة من صمت راكد فعجز كل منهما أن يقول شيئًا للآخر، لم يستطع الريس حبس دمعة ذرفت على خده فتركها تعبر عن مدى إشفاقه ومحبته لصبور وتمنّى له راحة البال باستعادة حفيده اليتيم، بدوره ألقى نفسه بين ذراعي الريس الشهم ولم ينس مرافقته إلى قصر الأمير معرضًا حياته للخطر ومن قبلها وقوفه جانبه في محنة موت عفيفة، برفق افترق كل منهما عن الآخر وكأنهما لا يريدان من هذا الوداع أن يؤلمهما، ابتسم لصافية وأوصاها بأبيها، استدار موليهم ظهره وظلّ صبور يرقب ابتعاده إلى أن أخفاه انحناء الشارع.

من بين شفتيه انتزع الشيخ زيتون السواك فالتفت إليه صبور وابتسامة باهتة ارتسمت على سحنته المتعبة، فقدّر الرجل مدى معاناة السفر ووجّه اهتمامه للعمل على استراحة الضيف وابنته وبعدها يرتب معه ما يريد.

– ولد يا حجاج، حجاج!

برز شاب قوي أسود الشعر من باب البيت ووقف أمام أبيه منتظرًا أمره، أشار العجوز إلى مشربية بيت مجاور وهو يبتسم في وجه صبور.

– فيكم حاجة لله يا أهل أسيوط، من يومين عزّل تاجر مغربي اكتراه مني من سنة، السكن من نصيبك يا صبور.

جاهد ليظهر الرضا على وجهه فالرجل الكريم لا ذنب له ليرى منه الوجوم والحزن الدفين وربما سيعذره فيما بعد حين يعلم بما قاساه من قبل هجرته من أسيوط فابتسم وشكره، قاده حجاج إلى أن دخلا البيت وصعدا السلالم الحجرية، فتح الباب فإذا بغرفتين متجاورتين في واحدة منهما سرير من الجريد وصندوق خشبي متوسط للملابس والأخرى فارغة، أما الحمام فيوجد بابه على مصطبة السلم، أنزلت صافية القفة الكبيرة وكذلك ركن صبور الزكيبة، صوت أقدام تصعد فظن أنه الشيخ زيتون جاء ليتفقد المسكن لكنه فوجئ بسقاء يفرغ ماء القربة بزير مركون على حامل حديدي جوار باب الكنيف وصبي صعد في همّة فرفع حجاج الغطاء الخشبي فسكب الماء الرائق بالزير خلف الباب، ابتسم ابن زيتون في وجه ضيفه واستأذن بدوره وهو يؤكد لهما أنه سيأتيهما بالطعام بعد قليل، دارت عيناه في أركان المطرح الضيق، الغرفتان متساويتان وبكل منهما مشربية على حافتها قلتان من الفخار، رفع غطاء إحداهما فإذا بها ماء، رفعها وشرب وصافية تفرغ القفة هدمة هدمة، أشارت لأبيها أنها تريد الحمام فصحبها حتى الدرابزين الخشبي، نزلت ودلفته مغلقة خلفها الباب، تارة أخرى جال يستطلع فناء الدار المحدود ورأى بابًا مغلقًا عليه قفل، لم يبال به وعاد إلى الغرفة،

تهالك على الحصير المضفور من الحلفاء واتكأ بكوعه على وسادة قديمة حتى أقبلت صافية وجلست قبالته، أرادت أن تقول شيئًا لكن تصفيقًا علا أمام الباب فنهض صبور من فوره، دخل زيتون خلفه حجّاج يحمل على كتفه أبسطة وفرشًا ركنها جانب الردهة، أفسح لدخول سيدة في الخمسين من عمرها تشبه زيتون وفتاة في مثل عمر صافية تحملان طاولة أطباق الطعام وقفة الخبز، اجتهدتا في تجهيز الطعام وصبور يؤكد أنه أكل في حانوت قرب المرسى.

– وأكل الدكاكين له طعم يا صبور، نأكل معا يا رجل.

قالها زيتون وهو يضغط على ذراع صبور فلم يجد بدًّا من القعود، صافية لم تحتج لأن يعزم عليها أحد فجلست بين السيدة والفتاة.

– أختك ساقية أم حجاج يا صبور وأختك مسكة يا صافية.. ومعذرة يا جماعة، من الغد إن شاء الله نفرش لكم عنجريب[28] آخر.

كادت تضحك على الأسماء الغريبة التي تسمعها لأول مرة فاتسعت ابتسامتها وبادلتها أم حجاج الترحيب وربتت الفتاة على كتف صافية ومدّت يدها بالخبز الرقيق الذي يسمونه الدوكة، تناولوا الطعام وكان زيتون أول الواقفين مستأذنًا حين سمع نداء حجاج من الأسفل، لملمت مسكة بقايا الطعام وتارة أخرى ترحب أم حجاج بهم وتستأذن بمرافقة ابنتها، أغلق الباب وأراح جسمه على الحصير المفروش تاركًا السرير لصافية التي فردت جسمها عليه ولم تلبث أن غطت في نوم عميق، اطمأنت نفسه لاستقراره ببيت زيتون لكن خنجر فراق عفيفة وأنس ينغزه بذؤابته الحادة ومعها تستعر كراهيته للمماليك؛ فلولاهم لما هجر أسيوط وقاسى ما قاساه، أشاح برأسه طاردًا أي تفكير آخر غير ترتيب إقامته وعمله؛ حتى لا يكون عالة على الشيخ زيتون وانتظار انطواء الأيام فيسأل عن الأزبكية ويدق باب قصر ططر ليرد حفيده إلى حضنه.

***

-٥-

– الأوراق يا صافية، الكيس الجلدي والأوراق؟

بهتت الفتاة لسؤال أبيها المباغت في أول صباح لهما بمسكنهما بالفسطاط فتوقفت عن ترتيب الغرفة ونفسها حيرى وعاجزة عن شفاء قلق أبيها المطل من عينيه، همّ أن يأمرها بالبحث لكنها هتفت بصوتها العالي:

– الأوراق كانت مع عفيفة، دستها بين المفرش وجريد السرير.

تدلّى فك صبور وهو مبهوت مما أخبرته به صافية التي ضاقت عيناها وسالت دموعها حين نطقت باسم أختها، أراد أن يؤكد لنفسه أنه اصطحب الكيس ضمن الأشياء فعبثت يداه بالزكيبة وأفرغ العُدد وصندوق الملابس، رفع صرّة ذهب عفيفة وكردان أمها، تمنّى لو نسي الحُلي أو سقط منه في الماء ولا تضيع أوراق جده وجد أبيه التي كانوا يدونون فيها أخبار أزمانهم منذ ثمانين عامًا وتزيد أيام المؤيد شيخ المحمودي، لام نفسه أشد اللوم أنه لم يتنبه للكيس الجلدي ثم عاد يطيّب خاطر صافية فما كانا فيه من مرض عفيفة وموتها وضياع أنس يهد جبال ويورث الهم للعفريت نفسه، ربت على كتف ابنته ووعدها أنه سيتصرّف، انشغلت في إعادة توضيب الغرفة، ارتدى ملابسه وقرر النزول لإحضار الإفطار، خطوات قادمة فإذا بحجّاج يحمل بين ذراعيه سريرًا فأفسح له صبور إلى أن ركنه بالغرفة الأخرى والصبي خلفه يفرد عليه مفرشًا من الصوف ويضع حشية عريضة آخره، ابتلع حجاج ريقه.

– حالًا تأتي مسكة بالإفطار.

– لا داعي لتعبها يا حجاج، كنت نازلًا.

– عيب يا عم صبور، أبي يغضب منا.

أقبلت الفتاة تحمل على رأسها طبقًا مستديرًا وتطلع في بطء إلى أن تناوله حجاج من على رأس أخته وأنزله على الحصير واستدارا.

– افطر معنا يا حجاج أنت ومسكة.

– سبقناكما.

تربعت صافية وطفقت تقشر البيض المسلوق وتأكل في نهم، استطاب صبور طعم الجبن والزبد وشرب اللبن الساخن، نهض من فوره وأوصى صافية بألا تخرج من البيت لحين رجوعه، هوّمت برأسها وهي تؤكد:

– ملابسي وملابسك كلها تحتاج لغسيل.

تارة أخرى يتفحّص فناء البيت الضيق والعمود الخشبي في منتصفه، خرج وألقى السلام على الشيخ زيتون فرحّب به الرجل وكأنه يراه لأول مرة، أفسح له جواره فجلس.

– نشكرك يا عم زيتون على...

– جئنا للكلام الفارغ، تشكرني على الواجب، عيب يا رجل، والله آنستنا وغرضي أتكلم معك عن حالك وأخبار جنة وأهل أسيوط كلهم.

– حاضر يا عم زيتون، لكن لازم أرجع للساحل.

– يرافقك حجاج.

– لا، عرفت السكة.

نهض من فوره وتسارعت خطواته حتى تخطى حانوت الطعام واقترب من المرفأ الممتد على طول الساحل، أبصر المراكب وسفينة أصغر من سفينة الريس حميد، سقط قلبه بين ضلوعه لغياب السفينة ودهش لإبحارها السريع وكان يظن أنها سترسو لعدة أيام كما أبلغه حميد، خشي أن تعود إلى الصعيد فينتظرها شهورًا إلى أن ترجع، تجرأ ونزل السلم الحجري ووقف أمام المركب، سأل الرجل الأسمر الواقف على أمام الشراع:

– سفينة الريس حميد مشت؟

– حميد الفرشوطي أعرفه، اكتراها واحد من التجار لنقل بضاعة من دمياط وترجع السفينة بعد أيام.

أطبق الهم على صدره وهاجس خوف انتابه من ضياع الأوراق فربما يقوم واحد من العمال بتنظيف الغرفة ويلقي الكيس في الماء أو وسط الماجور ليستدفئ بإحراقه. انتابته حسرة؛ فلم يعرف أن تلك الأوراق عزيزة عليه إلى هذا الحد إلا الآن، تارة أخرى حمد ربه أن الريس سيعود بعد أيام وشعر بالأمل يقوى في وجود الأوراق، عاد أدراجه يجر قدميه حتى أول شارع درب العطارين فاشترى ما يلزمه من طعام الغداء ومشى إلى أن اقترب من دكان زيتون فلم يجده، ألقى السلام على حجاج وصعد مسكنه ولحظت صافية وجوم أبيها، سألته عن كيس الأوراق فأجابها بما عرف من مغادرة سفينة حميد إلى دمياط وعليه من الآن أن يسأل ويستقصي وينتظر رجوعها..

جهزت الغداء، شعر بفتور شهيته عن تناول الطعام، أنهاه وتمدّد على السرير يتطلع إلى فلوق سقف الغرفة، سحبت صافية الغطاء الصوفي الثقيل فدب الدفء بأوصال صبور، قعدت على الأرض وذقنها على حافة السرير، طال صمتها ولمح دمعة سالت على خدها وكأن لسان حالها يقول: هان عليك أنس تفرّط فيه. مال على جنبه ليواجهها.

– اسمعي يا صافية، ربنا وحده العالم أني ما فرّطت في ولدنا، وكيف أفرّط فيه وهو روحي بعد موت أمه، وربنا ييسر الأمور وبعد أسابيع يكون معنا وأقسم لك أنه في أحسن حال وله من الجواري الكثيرات في خدمته.

مسحت خدها وهزّت رأسها، قبلت يد أبيها ونهضت فأغمض عينيه وتوقف عن التفكير حتى انتابه النعاس.

***

ساعة ما بعد العصاري، على الدكة الخشبية العتيقة، يقعد مواجهًا الشيخ زيتون الجالس على كرسيه وظهره يسنده الجدار، تفرّس في وجهه واستغرب الشبه الشديد بينه وبين شقيقته جنة ويختلف عنها بجسمه السمين ولغده المهتز عند أية حركة وزنده القوي، يشم صبور من فمه رائحة طيبة فأرجعها إلى عادة الرجل في دعك أسنانه بالسواك من حين لآخر، أشار بإصبعه إلى غلامه جمعة فبدأ بإدخال قفف وأكياس العطارة وحجاج يرص بالدكان زكائب الأوراق والعلافة، شغل نفسه بمراقبة تجار الدرب وبعضهم يحذو حذو حجاج، البيت الأخير في الدرب مغلق وعرف أنه بيت جمعة اليتيم، ما بين دكان مصطفى وبيت آخر مغلق يطل وجه رفيع قليل اللحم له لحية تشبه عُثْنون التيس، يحمل الزنابيل والجرار وأغراضًا أخرى في هدوء وصبر وما إن ينهي عمله حتى ينفخ في ذبالة الشمعة ويغلق دكانه من الداخل، أشار صبور في تلقائية فرد زيتون على عينيه المندهشتين:

– عشير ابن ناحور.

– يهودي؟

– لكنه غريب عن الدرب، كان أبوه شريك المعلم فضيل يتاجران في كل شيء وخسرا بعد أن هاجم الزعر قافلة البضائع في الصحراء فاضطر فضيل لبيع بيته فاشتراه ناحور وسكنه مع ابنه عشير وزوجته دينه.

– ويتاجر في العطارة؟

– وفي الغلال والنحاس والخشب والمفروشات والبيوت.

– البيوت؟!

– أراد أن ينتزع بيت جمعة ليخزن فيه بضاعته لكني وقفت في وجهه فأين يسكن المسكين بعد بيع بيته ويستحسن ألا تتعامل معه لأنه داهية وله طريقة غريبة في إقناع الناس ببيع أغراضهم ويدفع البراطيل29 للجراكسة ليسهلوا له نقل بضاعته.

– لكنه أغلق دكانه من الداخل؟

– للدكان باب يفتح على البيت من الداخل، في يوم كبس المماليك على الدرب وفرضوا مالًا ندفعه لهم على الفور فأغلق دكانه وحسبوا أنه باب بيت لا دكان، الوحيد من لم يدفع بعد أن اختبأ طوال اليوم.

– يا له من ماكر!

تمتم بها صبور ولم يبال بسيرة عشير هذا فليس له في صنعة السروج حاجة، لحظ عدة زنابيل بها بضاعة شحيحة فأرجع ذلك أنه نهاية النهار وربما يملأها حجاج من أكياس أخرى مخزونة في الحواصل، فوجئ بزيتون يتنهد وهو يشير إلى زنبيل صغير في قعره القليل من البذور.

– ابقى املأ زنبيل الهيل يا حجاج.

– مخزونه نفد من أيام.

– تصدّق يا صبور، زمان كنت أخاف أن البهارات يصيبها العطن وأرميها، من يوم ما قلّت السفن القادمة من الهند والراجعة من البندقية وبيزا وجنوة والحاجة شحّت خالص.

– تقصد سفن البضائع المصرية؟

– والهندية وسفن برشلونة، كلها كانت تمر في البحر وتفرغ حمولتها في السويس وتحمل على العربات والبغال إلى بحر الشام وهناك يتم شحنها في السفن.

– والآن؟

– سمعنا أن التجار الكبار غضبوا من ضرائب المماليك ومكوسهم وزيادة الكلفة وداروا بسفنهم في طريق بعيدة عنا.

– تقصد لم تعد السفن ترسو بالسويس؟

– آه، وحُرم تجار الكارمية*30 من الإتيان بالجوز وعين الجمل والفستق ومن الهيل والعرار والبسباس والزعفران والفلفل الحار والقصعين وأوراق الغار، وتوابل وأصباغ لا حد لها.

– ما البسباس والقصعين، لا أعرفهما؟

– زريعة البسباس العدني يسمى الشمر وهو يقوي القلب والنسوة تشرب منقوعه ليزيد لبن المرضع، أما القصعين فهو الميرامية الشافية للبطن، كل البزار وزيوتها شحت من الأسواق وأصبح الحصول عليها صعبًا.

أيقن صبور وهو يستمع إلى زيتون أنه عالم بأصناف بضاعته ويعرف فائدة كل نوع، وومضت في ذاكرته تلك السيرة عندما شكا المقدس جرجس من قلة الأعشاب وغلائها واختفاء بعضها بأسواق أسيوط في الأشهر الأخيرة، قرّر تأجيل الإفادة من علم الرجل بجميع أنواع التوابل لأوقات تالية ولا يهمه الآن غير تحديد علاقة سكنه وعمله؛ ما دام سيستقر بالفسطاط وفضّل أن يكون قريبًا من الساحل ليتابع أخبار الجنوب من السفن الراسية هناك وقد يمكنه إرسال رسالة إلى يوسف النحاس

وأيضًا لا يريد أن تطول استضافته يومًا آخر فيثقل على الرجل الطيب. من عينين يطل منهما الانكسار سأله صبور:

– ما قيمة كراء المسكن يا عمنا؟

– تشتمني؟

– حاشا لله يا شيخ زيتون يا طيب ولكن إن لم تكن بحاجة للسكن أنا أولى به، وإلا أضطر أسكن بعيدًا.

– لا حاجة لي به، وكنت أؤجره.

– جميل، فهو يلزمني.

– لكنه ضيق؟

– يناسبني أنا وبنتي، ما أجره؟

– لا أختلف معك يا صبور، المهم تستريح فيه.

– ما دمنا اتفقنا، أريد منك أن أستأجر دكانًا.

– أعرف أنك سراج، تريد دكانًا في درب السروجية؟ أو حارة الديلم أو قرب المجاورين بالأزهر أو...

– ولو فتحت هنا فيها حاجة؟

– أبدًا ولك عندي دكان، أي نعم أنه ضيق لكنه أقرب مكان لسكنك.

– الحقني به.

نهض زيتون مستندًا بكفه على الجدار فأسرع حجاج بمساعدته، مشى خطوات ووقف أمام باب مقفول، سحب حجاج الحاجز الحديدي للمغلاق وباعد بين المصراعين، جال صبور بعينيه في أركان الدكان الضيق الذي يتخذه زيتون مخزنًا لأكياس بضاعته، على الجدار مسمار حديدي كبير معلق عليه غربال شبكته مفتوقة وآخر أصغر منه، ميزان قديم مركون جوار الباب، دق قلب صبور ليسر ما كان يريده فقد حسب أن العثور على مسكن ودكان في الفسطاط أو القاهرة بأكملها أمر عسير لما سمعه من الريس حميد من الزحام وكثرة الناس المقبلين على التجارة والحياة بها، الدكان ضيق، أضيق من دكانه بأسيوط لكن بعد إخلائه من أكياس وزنابيل الأعشاب والفول وغيرها من

حبوب سيعرف كيف يهيئه، ويعلق الرفوف التي يرص عليها الجلود والسيور وسلاسل الحديد وخيوط ليرتق السروج، يحتاج كرسيًّا ومنضدة متوسطة يركن عليها ما يعوزه، مدّ صبور يده مصافحًا زيتون المبتسم.

– دون أن تسأل، أنا لا أحتاجه، وما به ينقله حجاج وجمعة من الليلة بالحاصل ومن الغد.

– لا، بعد أن نقدم المشيئة، من الغد أعرف كيف أجهزه بنفسي.

– أقصد يكنسه حجاج وينظفه.

– اترك لي مهمة ترتيبه، دكان السراجين غير العطارين يا عمنا، المهم أجره.

– والله ما آخذ أجره إلا بعد ما تشتغل.

– يا عم زيتون مستورة والحمد لله.

– أنا قلت كلمتي، أنت شهم يا صبور، من سنتين استأجره واحد من بلد بعد بلدكم من ناحية الشمال وقعد قرابة أربعة أشهر لم يدفع لي أجرًا أو حتى عرض أن يدفع ولما طالبته رد وقال: أنت قلت على أقل من مهلك.

– من أي بلد، من منفلوط؟

– لا، لا، أعرف منفلوط وناسها الكرماء وتجارها يأتون لنا بالبذور ومطحون قشر الرمان ودبس الرمان الطازج، والله كنت متذكر اسمها لكن يظهر أني نسيته، بعده لم أؤجره لأحد.

– أصبح من نصيبي والحمد لله.

– مبارك عليك وربنا يجعله قدم السعد ويجعلك لنا قدم السعد.

لم يفهم صبور كلمات زيتون الأخيرة فلم يهتم وشمر جلبابه ليعاون حجاج والفتى جمعة على نقل الأكياس والقفف والزنابيل إلى الحجرة الداخلية بالبيت لكن الشاب القوي حلف عليه ألا يتعب نفسه وقام هو بتلك المهمة بمساعدة جمعة الذي يعمل عنده، صبور واقف أمام الدكان فيخلو بمرور الوقت، تدحرج وقت العصر ومالت الشمس نحو المغيب ودنت العتمة أضاء زيتون مسرجة كبيرة وبدا الدكان الفارغ يحتاج إلى الكنس ورشه بالماء وهذا ما قام به حجاج بهمة عالية، أما جمعة فملأ الدلو بالماء وبكوز خشبي طفق يرش وترك الباب مفتوحًا لبعض الوقت حتى يتجدد هواؤه، دار صبور بعينيه وقلبه يستحلب السعادة الغائبة عنه لوجهه، ولحظ زيتون ما يبدو على وجه صبور من همّ وتكدير وفي عينيه كآبة لا يدري سببها فكان يجب أن يكون فرحًا لتوفيقه في اكتراء سكن أسفله

دكان، قرر تأخير ما يريد معرفته عن ضيفه للوقت المناسب، هذه المرة حكّم زيتون رأيه أن تنادي مسكة على صافية ويتناولون طعام العشاء معًا عنده في باحة البيت الواسعة.

الماجور عليه تنكة تغلي مشروبًا لا يدري صبور اسمه، أصابع من حنين تعصر قلبه لتلك القعدة بصحن داره مع يوسف النحاس والمقدس جرجس، والأخير يصب له القرض المغلي المداوي لألم سريان بوله، أفاق على يد زيتون الممدودة بكوب زجاجي والسائل الغامق تفوح منه رائحة نفاذة.

– حلف البر مفيد لإدرار البول كما شكوت لي.

– تكرم يا عم زيتون، والله أحببتك لله في لله.

– وفي الصباح بمشيئته يأتيك حمدون النجار ويركب لك الأرفف ويبيع الكراسي الجاهزة.

– أحتاج منضدة عريضة.

– عنده، وإن لم تكن جاهزة يصنعها لك على حسب المقاس.

– الحمد لله، أستأذنك، يمكن تريد الراحة بعد شغل اليوم.

– لا، من عادتي السهر بعد العشاء، مسكة وأم حجاج مع صافية، وحجاج له عادة لا يغيرها، ينام بعد العشاء ويصحو مع الفجر.

– ربنا يعطيه الصحة.

– لو لك رغبة نتكلم.

– نتكلم يا عم زيتون.

– ملاحظ من ساعة حضورك مع ريس السفينة وأنت مهموم، وسمعتك تسأل عن قصر واحد من المماليك بالأزبكية اسمه...

– الأمير ططر.

– لا أعرفه ولكن ألك عنده أجر صناعة سروج لخيوله؟

انقبضت قسمات وجه صبور لكلمة أجر فما له عند الأمير المملوكي قطعة من لحمه ودمه إن تهاون فيها للحفاظ على حياة أنس من أذى زوجة الأمير المخبولة فلن يفرّط فيه حين عودته لقصره

بالأزبكية، أطرق رأسه وأدرك زيتون أن صبور يقاسي طعنة شديدة على نفسه فأراد أن يخفف عنه وغير دفة السمر:

– أنا في الستين، وقدمت أرض المحروسة من خمسين سنة أيام حكم الظاهر سيف الدين جقمق، تسمع عنه؟

– سيف الدين جقمق حكم بعد العزيز جمال الدين يوسف بن برسباي، أنا أصغر منك يا شيخ زيتون بعشرين سنة فقد ولدت بعد تولية الأشرف سيف الدين إينال العلائي بعامين على ما حدد أبي.

ارتفع حاجب زيتون الرفيع من دقة صبور في حساب عمره وذكره لألقاب الحكام السابقين، فرآه مختلفًا عن أقرانه من أصحاب الصنعة والحرف الذين لا تفكير لهم غير صنعتهم، فلا يدري الواحد منهم متى ولد أو تزوج أو حتى مولد أبنائه، هزّ رأسه وهو يرفع سبابته.

– أنت في الأربعين لكن وجهك وشعرك وما به من شيب على الجانبين وانحناء ظهرك جعلوك تبدو في سني.

– الهم يا عم زيتون، ربنا ما يكتبه عليك ولا على أحد.

– اعتبرني كوالدك، أو كأخيك واحكِ لي.

– بل أنت عمي وفضلك عليّ لا أنساه أبدًا رغم أني عرفتك من يومين.

تيار من هواء بارد دفع صبور أن يلف حول كتفيه العباءة، أنهى مشروبه وركن الكوب، من القلة شرب الماء البارد وشعر بتماسكه وأراد ألا يطيل انتظار زيتون فثبت نظراته وكأنه يشحذ ما يريد أن يرويه من بين طيات ماضٍ مملوءة دروبه بأشواك الألم.

***

-٦-

بأنامله يحك صلعته المنحسر عنها الشعر، يعيد وضع العمامة الزرقاء، ويزفر نفسًا ثقيلًا مضمخًا برائحة الحنق بعد أن استمع لكل كلمة رواها ضيفه، تململ رأسه ولمح صبور تقطيبًا لا يتناسب مع وجه زيتون الضحوك، مدّ يده وربت على كتفه وخرجت كلماته رفيعة محبوسة:

– ما رويته يا أخي يشرخ القلب ويورث الهم.

– وأنا منتظر الأيام لأستعيد صغيري أنس.

– ربنا يرجعه في حضنك، واسمعني، المماليك يا ولدي منهم الغادر والقاتل في وضح النهار، لا يهمه أحد، وصاحبك يوسف مصيب تمامًا ومخلص في نصحه وربنا نجاك من قتل محقق.

– أعرف.

– ومنهم الماكر، يتصيّد ضعف مخاليق ربنا ويذبح من غير سكين ويتلهّى بتعذيب الناس، وططر من حكايتك عرف يخدعك، والخوند لا مخبولة ولا جن راكبها، اعقلها يا صبور، غير ممكن إنسانة مهما كانت تؤذي رضيعًا وأنت قلت أن ابنها مات بعد ولادته.

اتسعت عينا صبور للحقيقة المرَّة التي صفع بها زيتون نفسه البسيطة وطفر وجه ططر بعينيه الضيقتين كعيني ذئب وصوته الخارج من بين أسنانه، زادت كراهيته له وندم أشد الندم أنه استسلم لكلامه فماذا يمكن أن يحدث لو أنه جهر أمام زوجته التي وصفها شيخ الزاوية وخادمها نصير أنها طيبة ومن أهل الخير، نهض من فوره وقبضته تضرب الهواء.

– إذن من أول النهار أهجم على قصره.

– تبقى ضيّعت نفسك وضيّعت ابن بنتك، اصبر إلى أن يحضر من الفشن وطالب بصغيرك.

سرح صبور وتخيل نفسه يقتحم قصر الأمير ططر ويطالبه بأنس ويطعنه بخنجره إن بدا عليه الرفض، لن ينخدع بكلامه مرة أخرى بل سيفضحه أمام الخوند عنود ويبيّن لها أنه خدعهما معًا، أفاق على أصابع زيتون تشد جلبابه ليجلس، أطاعه وعاد لجلسته، أراد زيتون أن يصب له شرابًا آخر لكن صبور اعتذر له، بل استأذنه في دخول الخلاء فأشار إلى محل قضاء الحاجة أسفل السلم، عاد يجفف يديه، وفردهما أمام جمار الماجور الهادئة حتى شعر بالدفء يسري بأوصاله، التفت إلى زيتون الساكت واصطبغت شكواه بلون العتاب.

– لا أدري يا عم زيتون سببًا لكل ما مرّ بي، تموت زوجتي من أربع سنوات ويقتل مصري ابن أخي وزوج بنتي من أقل من سنة والآن بنتي ويخطف ابنها و...

– حكمته يا صبور، ربنا له حكمة ربما تكشفها في قابل أيامك، وكن على ما أسماك أبوك.

– لو أني جمل لبركت على ركبتي من الصبر.

– لكن كله مع الصبر يهون، الجراكسة لا ذمة لهم ولا عدل، ولا همّ لأي واحد منهم غير سلب ما في غيره حتى لو من جنسهم.

– لو من جنسهم؟

– معلوم يا صاحبي، في يوم اضطرتني ظروف نقل البضاعة إلى السفر للسويس، وبعد أن حمّلت الأكياس على البغال والحمير وفي طريق عودتنا، فوجئنا بالعربان هاجت على أمراء من الجراكسة كانوا في رحلة صيد بالصحراء، وقتلوا منهم أربعة لكن العبيد والحرس طاردوا الزعر إلى أن هربوا.

– طبعًا تولّى الأمير الباقي دفن رفاقه.

– قلبك أبيض، رأيته بأم عيني يشلح رفاقه من فراويهم الغالية ويسحب خواتمهم وبعد عودة عبيده وحرسه أمرهم بأن يسوقوا الخيول ويرجعوا إلى المحروسة.

– سرق رفاقه المقتولين؟!

– وترك جثثهم للسباع ومن ساعة كان يأكل معهم ويشرب القهوة.

– الله يلعنهم كلهم، وأنتم؟ أقصد التجار، تركِكم العربان تمرون بسلام؟

– سواء العربان أم المماليك، ندفع لهم البراطيل أو خلطة جيدة لشيوخ القبيلة، ربنا يزيحهم ويلعن من جلبهم علينا.

– تتكلم مثل الريس حميد ويوسف النحاس، آه يا عم زيتون لو تركوا لنا البلد، نزرع ونقلع ونتاجر ويكون لنا جيشنا ندافع به عن بلدنا.

– في يوم جاءني واحد منهم اعتاد طلب أعشاب مقوية؛ حتى يقدر على رضا كل جواريه، ومع الأيام توثقت علاقتنا وتكلّمت معه بصراحة عن كل ما قلتَ، فرد عليّ بأنه يلزمنا نزرع ونتاجر ونصنع ونترك لهم أمر الحرب والطعن.

– إلهي يطعنون في أكبادهم كما حرموني من كبدي.

سكت صبور ولم يشأ زيتون أن يطيل الحوار أكثر من ذلك؛ حتى يتيح فرصة لصبور أن يعود للبيت وخاصة بعد أن رجعت زوجته وابنته مسكة من زيارة صافية، بدوره نهض فتحامل زيتون على نفسه ووقف قبالته.

– بقدر ما تأثرت بحكايتك وخاصة موت ابن أخيك مصري بقدر ما عندي أمل أن تحضن ابنه أنس عن قريب إن شاء الله.

– بشّرك الله يا عم زيتون، تصبح على أتم خير.

رافقه زيتون حتى باب البيت، خرج والدرب يلتحف بالسكون وكلبان يهرولان وراء بعضهما، أغلق صبور باب البيت خلفه وصعد السلم، صافية ممددة على سريرها، سحب عليها الغطاء الثقيل فنهضت.

– تأخرت عليكِ؟

– لا، أم حجّاج ومسكة استأنست بكلامهما وخصوصًا أم حجاج، إنسانة طيبة.

– كزوجها، الحمد لله أننا نسكن مع ناس طيبين، انعسي يا صافية وأنا لازم أنام، من الصباح عندي شغل في الدكان.

***

– لو يعوزك جلود وأقمشة توضع تحت السرج ومهاميز أنا مستعد أوفرها لك.

– شكرًا يا معلم عشير، كله موجود والحمد لله.

– يا سلام على أهل الجنوب الطيبين، كلهم ذوق ولو...

– المعلم صبور يعرف ما يحتاجه يا عشير فلا تشغله، واذهب للزبون الواقف أمام دكانك.

– أعرفه، جاء يبيع لا يشتري.

أجاب عشير على مقاطعة زيتون الذي أنهى عليه أي تمادٍ في الحوار ليتيح الفرصة للكلام مع حمدون النجار.

– لو تعرف أحدًا يريد سرجًا أو برذعة يا حمدون، صبور أحسن سرّاج في بر أسيوط والحين في بر الفسطاط.

– أمرك يا عم زيتون.

نقد صبور النجار حمدون أجره وتأمل الرفوف الخشبية بطول الجدار وأبقى الجانب الأخير؛ ليعلق عليه ما يريد، جلس على الكرسي ومن الكيس الكتاني المتين سحب عدته ورصّها على المنضدة، ثبت نظراته وشرد، أظلته سحابة من حنين لتراب الدكان ببيته بأسيوط، يلتفت لكلمات زيتون الجالس على كرسيه ما بين زكائب بضاعته ودكان صبور وظهره يسنده الجدار، يهنئه على بدء عمله.

– يجعله سبب سعدك ورزقك يا صبور، اترك أمرك لمن خلقك وارم أحمالك على الله واستقبل ولا تستدبر.

هوّم صبور برأسه، لكن صعب عليه أن تدفن عفيفة بأرض غريبة، عاد يقنع نفسه بما قاله الريس حميد بأنها كلها أرض الله، فلو أنها ماتت بالفسطاط ستدفن وتستمر الحياة، لكن أنس، آه عليك يا كبدي، آه لو تنطوي الأيام بسرعة وأكحل عيني برؤية وجهك.

– ماذا يبيع صاحب الدكان الجديد؟

– لا يبيع إنما يصنع السروج والبراذع.

– سرّاج في درب العطارين؟!

– أي نعم، لأجل تأخذ خلطة الفحولة وبعدها تضع البرذعة على ظهرك وترمح إلى بيتك.

التفت صبور، أطال النظر للرجل القصير ولأول مرة يبتسم من قلبه لدعابة زيتون العذبة ومن حين لآخر يطعّم حواره بكلمات لا يدري صبور معناها لكنه متأكد أنها لغة أهل الجنوب.

– أي واحد يريد برذعة أو سرجًا لحصانه المعلم صبور أمهر السراجين.

– نجرّب يا عم زيتون.

– تجرب السرّاج أم البرذعة؟

قالها والرجل يخطو مبتعدًا، التفت إلى صبور وتلاقت نظراتهما المبتسمة التي تحولت إلى ضحكة خافتة ثم قهقهة وهزّ صبور رأسه وضرب كفًا بكف، هدأت ضحكته وتناول من حجاج منقوع التمر الحلو.

– قلت لي أنك قدمت المحروسة أيام...

– حط أبي رحاله أيام سيف الدين جقمق.

– أنت والخالة جنة؟

– لا، جنة بقيت بأسيوط وتزوجت هناك، أصلنا من بلد بعيد أذكر أن بيوتنا كانت عند ملتقى الماء، بلد اسمها سوبا، أبي كان مشهورًا عنه تحضير الأعشاب الشافية ويعرف ترياق كل وعكة.

– طبيب.

– على لسان أهل مصر كان طبيبًا.

– وهجر بلدكم ليعمل هنا في المحروسة؟

– لا، الحكاية أنه زمان، انتشر وباء غريب كان المصاب يظل يقيء ويسهل إلى أن يموت، أكواخ بحالها خلت من الناس، والضباع حامت حولنا، رأيت بعيني الوحش يجر ميتًا ويغيب وسط الأشجار وطيور كبيرة تتخطف الأذرع والسيقان وتنهش بمناقيرها مصارين ولحم الميتين.

– يا ساتر يا رب، وعائلتك؟

– مات أربعة من إخوتي ولحقتهم أمي وعجز أبي عن مداواتهم، هجر سوبا وسكنا أعلى الأرض عند ملتقى النيلين ويومًا ما كانت قافلة مسافرة إلى الشمال فجهزنا أبي للسفر الطويل، أذكر كنت أنا وجنة ننام بجوف خيمة على جمل، نقطع الصحراء ونسير على حافة النهر ونمر بأرض سوداء وأرض مزروعة أسابيع طويلة من الترحال إلى أن حطت القافلة بأسيوط.

– وعشتم هناك؟

– أقل من سنة، فيها تزوجت جنة من أحد أولاد عمنا وكان يعمل في بساتين الكاشف، وأخذني أبي وهاجر إلى الشمال إلى أن استقر هنا بالدرب.

– يعني أنت حر؟ أقصد...

– ظننتني عبدًا؟! الحمد لله ولدت حرًا وأعيش حرًا وأختي جنة تعمل عند المماليك ولكنها ليست جارية.

– أعتذر يا عم زيتون.

– لا داعي للاعتذار؛ الناس تظن أن أي أسود عبد يباع ويشترى، أنا معك يوجد عبيد خطفوا من قبائلهم وبيعوا للعمل في أرض وقصور المماليك ولكني لست واحدًا منهم.

– لكن أهل الدرب يعرفونك بزيتون العلوي.

– آه، علوة مملكة كبيرة وسوبا قريتها الكبيرة.

– مملكة؟

– نعم مملكة، آه يا صبور لو تعيش يومًا بكوخ وسط الأرض الخضراء والماء من حولك، كنت أنا وصحابي الواحد منا يرفع وجهه ويفتح فمه ليلتقط الفاكهة الدانية من غصنها، أبي خير الله كان له

كوخ كبير به سلال من سعف النخيل يخزن فيها أعشابه الشافية.

– ولم يورثك سر مهنته.

– مات وأنا في العشرين وأوصى بي صديقه حمود وهو والد زوجتي ساقية أم حجاج، عملت معه في تجارة الأعشاب والبهار إلى يومنا.

– وتذكر أيامك الأولى في صوبة؟

– اسمها سوبا، صدقني يا صبور كانت جنة الله في أرضه لولا الوباء وحروب القبائل مع بعضها ما هجرها أبي رحمه الله.

أطبق زيتون شفتيه الغليظتين وسرح ببصره إلى الأمام وكأنه توقف عند إحدى زوايا الذكريات ولم يشأ صبور أن يخدش مرآة صمته بالتمادي في الأسئلة فشاركه السكوت وفي دواخل نفسه إعجاب بالرجل الجنوبي الطيب وكلامه الحلو وطريقته في تمثيل ما يقول بإشارات أصابعه وغمزات وجهه واستراح لمعرفة أصله وسيرة أهله، تذكر شيئًا كان سيعرضه وعزم ألا يسوف حتى لا ينسى.

– ممكن تدلني على دكاكين الدباغة والنساجين والحدادين، يلزمني جلود وأقمشة ومهاميز ومسامير صغيرة وخيوط.

– ويلزمك بغل يحمل كل ما تطلب، حجاج! ولد يا حجاج! مع عمك صبور يشتري ما يريد، واكترِ عربة أو بغلًا يحمل ما يريد.

– أمرك يا أبي.

رافقه حجاج كدليل طاف معه واشتريا كل ما يريد بأقل الأسعار وكل تاجر يعده صبور بأن معاملتهما ستدوم ويعلن نفسه أمامهم حتى إذا ما أتم شراء كل ما يلزمه نفذ حجاج وصية أبيه فأشار لصبي يجر بغلًا وحملوا عليه زكائب الجلود الملفوفة وأكياس المهاميز والأقمشة، ساروا باتجاه درب العطارين ولم ينس صبور أن يلقي نظرة على مرسى المراكب فتأكد من عدم وصول سفينة حميد الفرشوطي من دمياط فنغزه القلق على الأوراق لكنه استسلم ودار في خلده أن لو له نصيب في الأوراق ستعود، وإن ضاعت سيبدأ بنفسه في تدوين ما يريد ويكتب أول الصفحة يوم وصوله الفسطاط وما مر به من وقعات، عادوا إلى الدرب والشمس في طريقها إلى الزوال، وقد أتمّ جمعة إدخال القفف بالداخل، استقبلهما زيتون بابتسامته الرائقة.

– مجبورين إن شاء الله.

– الحمد لله.

فتح الدكان وهمّ حجاج أن يفرغ الأكياس لكن صبور رأف بتعب الشاب في اللف والدوران معه طوال النهار؛ فطلب منه أن يركن الأكياس بالدكان ومن الغد يرص ما أتى به على مهل، أعاد مصراعي الباب وأغلقه جيدًا.

– نتعشى.

– اعذرني يا عم زيتون، أحتاج إلى الراحة وصافية وحدها طول النهار، أشكرك يا حجاج على تعبك معي.

– لا شكر على واجب يا عم صبور، المهم تكون عرفت معاملة أصحاب دكاكين الجلود.

هوّم صبور برأسه واستأذنهم في الصعود إلى صافية للاطمئنان عليها ومن الغد يبدأ في مزاولة حرفته، تمتم وقدماه تدبان في بطء:

– من الغد يشهد كل فرس بالفسطاط والقاهرة والقلعة أنه ما وضع على ظهره أفضل من سروج المعلم صبور.

***

-٧-

أتم حياكة الجلد وتأمل أول سرج مهر في صناعته بالدكان الجديد، أعلى مسمار حديدي مدقوق بالجدار علقه، فهز زيتون رأسه ومدّ يده مباركًا لصبور همته العالية وبراعته ثم التفت إليه وسأله:

– والحزام؟

– بعد أن أريح السرج على ظهر الحصان أقيس الطول وأخيط السير الجلدي على حسب بطن الحصان وارتفاع ظهره والفرس غير الفرسة.

ما كاد يتم وصفه لأصول صنعته حتى دقّت حوافر الحصان أرض الدرب الضيقة فوقف زيتون إلى جانب الفارس ورأس فرسه يهتز.

– جهزت ما طلبته؟

– أكيد يا أمير نقطباي.

دخل دكانه وعاد وبين أصابعه كيس كتاني سميك مربوط بخيط ناوله للأمير، دهش صبور حين مدّ الجركسي يده بثمن ما اشتراه؛ فقد اعتاد صلفهم واستحواذهم على ما يريدون مدعين أن الثمن هو

حماية المصريين من الغزاة، أي غزاة ممكن يحمونا منهم وهم أنفسهم شر الغزاة! أفاق صبور على نزول الأمير نقطباي وتحديقه في السرج المعلّق، في لهوجةٍ مدّ زيتون يده وهو يدعم الموقف بإعلانه:

– صناعة صبور السرّاج يا أمير.

نزع صبور السرج وقدّمه للأمير فتأمله ورفعه بين يديه، فشعر بخفته وإتقان صنعته، سارع صبور بفك حزام السرج وتحرير ظهر حصان الأمير من ثقله، لحظ خدشًا بظهر الحصان فطلب من زيتون دهانًا يخفف الجرح، ناوله قنينة صغيرة وبطرف إصبعه دهن بنفسه الجرح الطولي ثم فرد المرشحة[31] الناعمة عليه، ركن السرج الجديد فاستراح تمامًا على ظهر الحصان.

– تفضل يا أمير بالجلوس هنا إلى أن يخيط صبور السير ويضع الركابين[32].

دون أن يعلق قعد الأمير نقطباي ولم يتردد صبور فعملت يداه المدربتان على

قياس محيط بطن الفرس وخاط الحزام الجلدي المتين فاستكان الفرس وكأنه راقه خفة السرج الجديد بالمقارنة بالقديم بجلده الناشف فيؤلم ظهره من فرط الاحتكاك، تارة أخرى مدّ الأمير يده بالأجر، غاض الرضا من وجه صبور وكأنه يلوم نفسه على خدمة قدمها لمملوك جركسي وواحد مثله سلبه حفيده، بكفه يتحسّس أعلى كتفه فشعر بألم الكرباج عليه، أصابعه تقبض على المخرز وودّ لو يسمل عينيه ويتركه يعيش بقية حياته يتخبط في الظلام كما جعلوا أهل البلد يخوضون في أوحال ظلمهم، مد زيتون يده فأخذ كيس الدنانير وشكر الأمير نقطباي الذي امتطى صهوة جواده بقفزة ونخسه فاستدار.

– أريدك تصلح السرج القديم وسأرسل خادمًا يأخذه.

– معذرة يا أمير، أين تسكن؟

– قصري بالأزبكية ولي بيت كبير قرب القلعة ولكن لا داعي لأن تحضر وكما قلت، خادمي سيأتي به.

– تعرف الأمير ططر؟

– قصره مجاور لي لكنه ليس موجودًا هذا الأيام.

فرقعة الكرباج دفعت الفرس أن يركض مغادرًا درب العطارين، فحمل صبور السرج القديم وركنه على المنضدة، عضّ زيتون شفته وعاتب صبور:

– جننت يا صبور، الأمراء لا ينظر إليهم هكذا.

– معذرة يا عم زيتون.

– يا ولدي، أعرف كراهيتك لهم وصدقني لا أحد يحبهم، حتى من يصانعهم ومن له مصلحة عندهم، لكن نحن ضعفاء أمام سيوفهم فأرجو ألا تكرر إظهار عدائك لهم حتى لو بنظرة وإن كان على ططر فلا تقلق، كل يومين أرسل من يخبرنا بوصوله.

أطبق زيتون شفتيه واستدار ليلبي طلبات زبائنه، أدرك صبور مدى صدق الجنوبي الطيب فيؤثر الحياة في سلام دون الوقوع في مشكلة سواء مع المماليك أو غيرهم وهو الغريب عن المحروسة فلا عصبة تحميه ولا قبيلة تدفع عنه الأذى، أدرك صبور ما قاله زيتون ورسخ في نفسه أنه لن يكون سببًا في توريط الرجل الكريم في معضلة مع أي إنسان.

فحص السرج وعرف مواضع عيوبه وانشغل في قص الجلد الناشف واستبدل به آخر جديدًا، أنهى عمله وأراح رأسه إلى الوراء، لا يدري لمَ لمع في ذهنه وجه أم سعد ورعايتها لعفيفة، ارتعشت شفتاه لوجه عفيفة وحزنها الدفين على زوجها مصري الذي لم تهنأ بالحياة معه سوى شهور.

أفاق على بكاء رضيع على كتف أمه ويدها ممدودة لزيتون فيعطيها ورقة مطوية وينصحها أن تغلي الحبوب وتسقي الولد بعد ابتراد المشروب وسيشفى من قرص المغص، من بين عينه نصف المغمضة يرمق وجه الصغير ولسانه يلعق كتف أمه ويداه تتحركان في توتر.. أنس يا حبيبي، تُرى تبكي الآن من قرص جوفك أنت أيضًا، أعرف أن الخوند ستأمر إحدى جواريها بنظافتك وتعهد لأخرى بإطعامك وثالثة بهدهدتك ويبقى لها أن تضمك لصدرها نظيفًا شبعانَ هانئًا ولكن يجب عليك يا أنس أن تبكي، تصرخ، تثور لترجع إليّ، إلى حضن جدك وخالتك، إلى أهلك، سأصحبك يومًا إلى الفشن ونزور أمك وتلقي السلام عليها، تعرف أن لك أبًا مصريًا واسمه مصري، كان شهمًا مطيعًا يمشي جنب الحيطان ولا يرجو من دنياه غير الحياة في كنفي ورعاية زوجته، واحد ممن تعيش معهم يا أنس اختطف حياة أبيك، وغيره جَلَد جدك، وآخرهم سرقك، هل تعود يا أنس؟

– السلام عليكم.

– وعليكم السلام يا ريس، تفضل.

ما بين الإغماء والصحو بدا الحوار في ذهن صبور مشوشًا، لا يريد أن يفيق فينمحي وجه أنس من مخيلته، زيتون ينادي عليه ويكرر النداء، رويدًا يتبدد حلم يقظته وتتفرج رموشه، يطل عليه الريس حميد فتوّهم وجوده لكن الريس يقف بشحمه ولحمه وزيتون يدعوه إلى الجلوس على الدكة، تحملق عيناه في وجه حميد ولم يلبث أن ينتتر واقفًا فاتحًا ذراعيه عن آخرهما ليحتضن واحدًا ممن شاركه في رعاية عفيفة والاحتفال بأنس، وستر أمه ولم يفارقه حين ذهب إلى قصر الأمير ططر، اشتم منه بقية من رائحة أسيوط التي يمر عليها بسفينته، طفق يقبل كتفه والدموع تنهمر في غزارة وحميد يربت على كتفه، ويبعده بلطف.

– مشروب ساخن يا ولد يا جمعة وحضر النرجيلة للريس.

– شكرًا يا شيخ زيتون، لا وقت لديّ، السفينة تبحر قبل الغروب، قلت أسلم عليك قبل الرحيل، السفينة بها تجار وبضائع ولازم نبحر دون تأخير.

فرحة صبور بلقاء الريس حميد أنسته كل شيء، أنسته ما كان يدور في باله وسؤاله عن أوراقه التي فقدها، من زنبيل صغير رفع الريس الكيس الجلدي فدق قلب صبور حتى كاد ينخلع من صدره ودارت به الدنيا لأوراق جدوده التي عادت إليه بعد أن فقد الأمل في إرجاعها، تناولها والفرحة تغمر روحه، لم يخيب الريس رجاء زيتون فشرب القليل من النعناع الدافئ وسحب نفسين من خرطوم النرجيلة ونهض من فوره فقرر صبور أن يرافقه لكنه اعتذر.

– أعرف أن الأوراق عزيزة عليك ويكفي أني رأيتك في أحسن حال.

– الحمد لله يا ريس، سكنت هنا ولي دكان سروج ووجهك حلو عليّ بعت أول سرج اليوم.

– يا سلام، أنت رجل طيب القلب يا صبور وستعوض إن شاء الله.

تارة أخرى لف صبور ذراعيه حول كتفي الريس وكأنه يستمد منه زادًا يكفيه على احتمال أوجاع فراق أهله بأسيوط، تباعدا، وربت على صدره، فتح عينيه عن آخرهما وهو يوصي الريس:

– لما تصل الفشن اقرأ الفاتحة.

– فيك حاجة لله يا صبور، احتمال أركن هناك لحين تحميل بضاعة.

– ولما تكون في أسيوط، أرسل ليوسف النحاس وأخبره بكل ما مر بي.

– ممكن أقابله ولكن في رحلة العودة.

– في أي وقت تركن بالفسطاط أنتظرك.

– أراك على خير.

تسارعت خطوات الريس ولم ينزل صبور عينيه عن ظهره حتى غاب في الزحام ودمعة فرت من عينه، ربت زيتون على كتفه فاستدار عائدًا إلى دكانه، لملم عدته المتناثرة وكأنه يحمل مولودًا، رفع الكيس بين يديه، سحب الأوراق فوجد بعضها ممزق الأطراف، ساواها برفق وبالمخرز ثقبها، شد عليها الخيط الصوفي الرفيع وعقدها، التقط نفسًا عميقًا واستبشر خيرًا بعودة الأوراق إليه وبعد أسابيع ينام أنس في حضنه.

***

الأيام انطوت وانشغل صبور في إبراز مهارته في صنع السروج وتجهيز البراذع المتينة ولا تسلية له غير الاستئناس بصافية وأسمار زيتون المحببة إلى قلبه وهما يرويان وقعات من زوايا الماضي وأطياف الصبا وغرائب التجارة حتى كان عصر يوم تهيأ صبور للذهاب إلى الأزبكية فوجم زيتون من تلك المخاطرة وحاول أن يثنيه عنها لكنه لم يقبلْ حتى المناقشة في التراجع فلم يجد زيتون بدًّا من أن يرافقه حجاج، وصلا المطرح الواسع وراقه مشربيات قصور أمراء المماليك والحي بأكمله يعج بكل صنوف البشر من جراكسة برتب متفاوتة، وعبيد وجوارٍ وفرسان لا يكفون عن التريض على صهوات جيادهم القوية ويتباهون بسيوفهم ذات الأغماد المرصّعة بفصوص العقيق وغيرها من أحجار كريمة.

دلهم أحد الماشين على قصر الأمير ططر فخفق قلب صبور حين اقترب من سوره العالي، البوابة يحيط بها جِند المماليك التابعون للأمير، لم يبال أي منهم بالسلام الذي ألقاه صبور عليهم، أقرب الحرس حالَ بقامته المديدة دون دخولهم، لم يترك حجاج الفرصة لأن يطردهم الحارس فباغته:

– أخبر الأمير أن كبير السراجين يريد مقابلته.

– الأمير ططر غير موجود الساعة ويمكن مقابلة السائس فهو طلب واحدًا من السراجين بأمر الأمير.

لا يدري صبور حكمة المصادفة التي هُيئت له، غاب الحارس داخل الممر فدارت نظرات صبور تستطلع الحديقة بأشجارها العالية حول السور وثبتت عيناه تجاه المشربية الكبيرة وخمن أن تكون مخدع الخوند عنود وجواريها ومعها أنس، تخيل وجهه والنعماء بادية عليه بعد انقضاء الأسابيع الماضية، عاد الحارس وخلفه أحد العبيد ما إن اقترب حتى فغر صبور فاه وهم أن يسلم على نصير لكن تقطيب الشاب ونظراته الصارمة أوحت له أن يصمت، وقف نصير أمامهم ثم فرد ذراعه فاطمأن الحارس وتركهما يسيران متبعين خادم الأمير، خلف جذع شجرة جفلت قدما نصير واتسعت ابتسامته، فرد ذراعيه محتضنًا صبور وحجاج لا يعي حقيقة ما يحدث.

– حجاج، جاري ومن دلني على القصر، هذا نصير.

فضّل حجاج التعبير عن رضاه بالتعارف بإيماءات وجهه، ربت نصير على كتف صبور والأخير ينتظر أن يفصح الخادم عما يريد معرفته فلم يلبث أن أخبره:

– الأمير هنا بالأزبكية لكنه الساعة في زيارة لأحد أصحابه.

– وأنس، صغيري يا نصير؟

– للأسف يا عمنا، حفيدك غير موجود هنا.

كالصاعقة نزل الخبر على صبور فوجم وانقبضت قسمات وجهه ولحظ حجاج انحناء ظهره وتمايله فاستند على جذع الشجرة وابتلع ريقه ليستوعب ما سمع ويلقي بسؤاله لكن إجابة نصير كانت الأسرع.

– وصلنا من أسبوعين واستراحت الخوند أربعة أيام بعدها سافرت، ابنكم في الحفظ والصون، والله في أحسن حال وأنا بنفسي متولي رعايته مع الجواري.

– سافرت أين؟ والأمير وعدني أنه سيكون بانتظاري!

– وعدك؟ وتثق في وعده.

أطبق الشاب شفتيه ولحظ حجاج إغماض عيني صبور والدوار يلفه فسانده، حملق في وجه نصير المتألم، أراد أن يخفف عنه فربت على كتفه واستأنف إخباره:

– بقيت الخوند هنا تأمر بشراء ما يلزمها وتهيأت تمامًا للسفر إلى دمياط حيث يعيش أبوها الكاشف هناك وعلمت أن الأمير سيلحق بها وترافقه إلى الإسكندرية.

– الإسكندرية هل ترقى الأمير وأصبح كاشفها؟

– لا، أصبح أمير طبلخاناه33 في القلعة التي بناها السلطان قايتباي؟

– يترقّى أمير طبلخاناه أو مقدم ألف34 شيء لا يعنيني، المهم ابني يا نصير.

– ابنك في حضن الخوند والجواري من حوله، وهي الآن بقصر أبيها في دمياط.

وكأن الخادم المخلص أراد أن يضع حدًّا لمهاترة صبور وألا يضيع المزيد من الوقت فيلزم أن تتم مقابلة السائس وإلا ستستثار الشكوك حوله، استدار صبور ليغادر لكن نصير أوقفه.

– يجب أن تحادث كبير الجفتاوات.

– لا يهم.

– بل يهم، أولًا حتى لا يشك فيك الحرس وثانيًا لتكون لك فرصة تأتي هنا وتقابل الأمير، أما الأهم هو أن يعتاد الخدم والحرس على رؤية سرّاج خيول الأمير فلا يمنعون زيارتك ويا عالم، ربما يومًا تحضر الخوند ومعها حفيدك الأمير أنسباي.

– أنسباي، اسمه أنس يا نصير.

– بل أنسباي يا رجل يا طيب، الجميع هنا لا عمل لهم غير خدمة الأمير الصغير أنسباي.

– الرجل معه حق يا عم صبور.

قالها حجاج وصبور يحوط رأسه بكفيه خشية أن ينفصل عنه من وطأة خيبة الأمل التي ركبته، واحتسائه مكر الأمير طظر حتى الثمالة، انصاع إلى نصح نصير وسار خلفه بقدمين متلكئتين حتى وصلوا إلى الإسطبل الكبير والحظائر مصطفة على جانبي طرقة عريضة، استقبلهم الرجل الخمسيني بوجوم وقد تشرّب إعطاء الأمر.

– عليك أن تجهز عشرين سرجًا.

ألقى إليه بكيس الدنانير فوقع على الأرض، لم ينحن صبور ويأخذه فالتقطه نصير في سرعة وأعطاه لحجاج لكن صبور سأل في حزم:

– والأمير، أريد مقابلة الأمير.

– ما لك والأمير؟! تتعامل معي أنا، وعليك تجهيز المطلوب قبل نهاية الشهر.

– أمرك يا كبير الجفتاوات.

بكلماته القليلة أنهى حجاج المقابلة الباردة، قبضت أصابع نصير على ذراع صبور فطاوعهما وساروا حتى منتصف الحديقة فأوقفه الخادم المخلص.

– عم صبور، عُد بعد ظهر الجمعة ومعك السروج.

– لكن ربما لا أتمها.

– أضمن لك مقابلة الأمير ولكن أحضر معك ما أنهيت من سروج.

أدرك صبور أن الخادم ذكي بالفطرة ويريد أن تكون زيارة صبور مبررة بتسليم ما صنع من سروج غير الوقت الذي سيمضيه في تجهيز الأحزمة والسيور والمراشح وقربوس35 كل سرج إلى غير ذلك من أصول صنعته. دون أن يلتفت خلفه غادر القصر ولا يدري كيف وجد نفسه أمام دكانه، لم يسأله زيتون عن شيء فانشغل صبور في جرد ما بالدكان من خامات وحصر ما ينقصه، على المنضدة فرد ورقة وغمس طرف ساق الغاب المدبب في قنينة الحبر ودوّن ما يحتاج حتى لا ينسى صنفًا.

– تعرف الكتابة يا صبور؟

– تعلمتها بالكتّاب وكنت أحضر دروس شيخ الجامع الكبير بأسيوط.

– حجاج مثلك لكنه درس بالأزهر سنة وبعدها هجره لما مرضت وانشغل في نقل البضاعة من السويس ورعاية أمه وأخته.

– ربنا يحفظه لشبابه، إنسان شهم وقليل الكلام.

أنهى ما كتب وطوى الورقة وربطها بخيط رفيع، أغلق الدكان وصعد، لم يجد صافية، نادى عليها لم تجبه، لمح مفرشًا مفرودًا على الطبلية، رفعه فإذا بأطباق الطعام مغطاة، أرهف السمع فالتقطت أذناه صوتها القادم من السطح، صعد السلم فرآها تقابل مسكة في جلستها على الزيار بين البيتين، خجلت الفتاة التي تصغر عن صافية فوقفت ثم أشارت إلى صافية وتركتها ونزلت.

– تعال يا أبي، مسكة كلامها حلو.

– أنا متعب يا صافية، نأكل وبعدها أكملي كلامك مع مسكة وأم مسكة.

– الخالة ساقية طيبة.

في سرعة طارت قبله ونزل هو على مهلٍ، تناول الطعام وانفرد على السرير فغطت جسمه المنهك بالحِرام الثقيل، شبّك أصابعه خلف رأسه ودار في خلده ما سيحدث عند مواجهة الأمير، حزم أمره أن يشحذ همته ويضع كل مهارته في صناعة عدة سروج حتى لا يضيع مقابلة يوم الجمعة.

***

نهض وأذان العشاء يشق سكون أول الليل، لا يدري لم حنّ إلى جلسة زيتون، لفّ العباءة على ظهره وقبل أن يخطو تناهت لمسامعه خطوات تدب على السلم، على ضوء المسرجة المثبتة على الجدار، رآهما تصعدان وأم حجاج تلقي تحية المساء ومسكة خلفها تمسك بين يديها طبقًا من الفخار به فستق وأنواع من حبوب مسلية، أفسح لهما الطريق واستراح لقضاء صافية السمر معهما، خرج من البيت والمارة القلائل يسرعون بمفارقة الدرب من برد الليل، دكان عشير يوصده بعد المغرب مباشرة ومن خلف المشربية المغلقة دائمًا ضوء خافت يتراقص ثم يعم السواد، لحظ باب البيت المقابل للدكان مقفلًا على الدوام، صفق بيديه فظهر مصباح زيتون قادمًا من جوف المجاز.

– تفضل يا صبور، كنت صاعدًا إليك.

– نرجع معًا.

– يا سيدي لا فرق، تفضل.

على جدار الفسحة مشعل كبير أنار المطرح، الماجور أمامهما والتنكة مملوءة بالمشروب الساخن، صب له كوبًا وهزّ رأسه.

– غرضي أكلمك في موضوع يا صبور، أطلب منك يد صافية لابني حجاج.

اتسعت عينا صبور لصراحة زيتون اللا متناهية ونأيه عن المقدمات المعتادة، طال صمته والرجل ينتظر ردًا، تارة أخرى بدأ بالكلام.

– أم تريدني أذهب إليك في بيتك؟

– بيتي بيتك يا عم زيتون، لكن...

– فيه مانع، حجاج ابني طيب ولا يعرف من دنياه غير رعاية بيته.

– والله إنه لزين الشباب ولكن صافية صغيرة وأكون صريحًا معك، البنت من وهي عيلة عقلها خفيف ولا...

– لكنها طيبة ومطيعة وأم حجاج عرفت أنها ماهرة في تجهيز الأكل، ولا ينقصها ذراع ولا رجل.

ابتسم صبور لكلمة زيتون التي في محلها فمنذ أن كانوا بأسيوط وصافية تضرب الأولاد وتدافع عن أختها وذات مرة جرت وراء ولد من زقاق آخر اقتحم عليهم لعبة الحجلة، ابتلع ريقه وطفق يشرب النعناع الدافئ، أدار الموقف برأسه فوجد لا مجال لرفض طلب الرجل الشهم لا لما فعله معه منذ أن نزل الفسطاط ولكن لأنه لا يعرف أحدًا هنا غيره.

– لو لك رأي آخر يا صبور اعتبر الطلب ملغيًّا وصافية بنتي وأخت أولادي وكلنا نفرح بها عن قريب إن شاء الله.

– لا رأي ثاني ولا ثالث يا عم زيتون.

– أم تراني غريبًا عنكم؟

– أنا وأنت غرباء عن المحروسة والغريب للغريب نسيب.

اتسعت عينا زيتون لكلمة صبور الأخيرة وامتداد كفه فقبضت أصابعه عليها وبصوتٍ عالٍ قرآ الفاتحة ومسحا على وجهيهما، عاد صبور يفكر في سكن صافية وربما يكون زيتون في حاجة إلى البيت فعرض عليه:

– وإن كنت محتاج البيت لسكن حجاج أتركه وأكتري بيتًا آخر.

– لا، حجاج له رواق كبير، أمه جهزت له كل شيء والحمد لله.

– ممكن أشتري أو أستأجر البيت المقابل للدكان، من أول وصولي هنا وهو مغلق.

– آه، بيت المقدس حزقيال، أمانة أرد مفاتيحه لما يرجع من زيارة أخيه بأسيوط.

رنّ الاسم في أذن صبور فخفق قلبه في حدة وطفرت دمعة حارة من عينه تعرجت على خده، مسحها في سرعة وعاد يسأل:

– أسيوط نفسها؟

– أخبرني أن أخاه يعيش في قرية بعيدة عن أسيوط بها دير قديم للرهبان، قال أنها على النيل لكنها تاهت من مخي.

– لو قلت لي اسم الدير ممكن أعرف بلده.

– عن قريب يصل ونعرف منه وعلى كلٍ أرسلت معه زيارة لأختي جنة.

تارة أخرى يهتز للاسم العزيز على قلبه وتوهج وجهها المستدير وعيناها المتسعتان وروحها الوثابة التي لم تهتم بالليل والبرد والمماليك وجاءت تحذره من خطر الموت وأرشدته إلى أخيها الشهم، زيتون يتواضع ويطلب منه يد ابنته بعد أن عاونه على السكن والعمل، لا يدري كيف تشعّب بنفسه شكر الله على نعمته فملك عليه روحه، ذرفت عيناه الدموع وانعقد لسانه عن التعبير فترجم ما يحس به باقترابه من زيتون وطبع على جبينه قبلة أودع فيها شعوره بالامتنان.

– وكل شيء جاهز ويبقى نحدد موعد الفرح.

– بعد يوم الجمعة إن شاء الله، أقابل الأمير وأطمئن على أنس.

– حكى لي حجاج ما دار بينك وبين خادم الأمير بالأزبكية، احذر غدرهم يا صبور.

– لا تخف يا عم زيتون، لا تخف، وثق أن كل شيء يتم بمشيئة الله.

***

على عربة يجرها بغل ركن السروج ووقف أمام باب قصر الأمير ططر،نصير كان ينتظره فهوّم برأسه أمارة وجود الأمير، قاد جمعة البغل في الممر المتسع بين الأشجار فلحظ صبور الشبه بينه وبين قصر الفشن، انحنى نحو الإسطبل فاستقبلهما الجفتي بريبة من قلة السروج المطلوبة.

– عشرة سروج والبقية الأسبوع القادم.

رفع نصير سرجًا وقدّمه للسائس ففحصه وأبدت حركات وجهه الرضا عن إتقان السراج الجديد.

– وأخبار السموط والقبقبان36 واللبد37؟

– كله جاهز بما فيها الحياصة38 والعقربة39 لا تقلق من شيء.

أزاح باب أول حظيرة وسحب اللجام، خطا الفرس المطواع ووقف في هدوء، فرد صبور المرشحة وبعدها اللبد، أراح السرج وفي سرعة خاط الحزام وسحب الإبزيم حول الوسط والفرس ساكن ينتظر الانتهاء من كسوته الجديدة، فرد صبور السيرين فاهتز الركابان، بخبرته تأكد السائس من تثبيت القربوس ومتانة خشب الجانبين وانبسط لخفة السرج وانشداد السموط، أبدت قسمات وجهه الفرح بالعثور على سرّاج فريد يجمع بين إتقان صناعته وخفة السروج ومتانتها في آنٍ واحد، التفت إليه ومد ذراعه إلى نهاية الجانب الآخر من القصر.

– الأمير يأتي بعد قليل.

في سرعة أنزل جمعة ونصير بقية السروج ومشتملاتها التي يمكن للجفتي أن يقوم بتثبيتها بنفسه على حسب مقاس كل فرس، وأشار لنصير أن يقودهما إلى مجلس الأمير أسفل تعريشة العنب البعيدة حتى يلحق بهم، أدار جمعة البغل ولكن صبور لم يشأ أن يحضر الغلام ما قد يدور بينه وبين الأمير فاستوقفه طالبًا منه أن يعود إلى درب العطارين بحجة أن قد يحتاجه زيتون أو حجاج في شيء، صامتًا ركب الغلام العربة وبعصا الخيزران الرفيعة ضرب فخذ البغل فأسرع نحو بوابة القصر.

جوار نصير وقف صبور والرجفة تجتاح بدنه وشعر بضآلة موقفه ولا سيما بعد أن عرف أن أنس غير موجود بالقصر، فعن ماذا سيحاور الأمير، خطوات كبير الجفتاوات تسرع حتى وقف جوارهما في اللحظة التي بزغ فيها الأمير ططر من باب القصر والخادم يرفع فوق رأسه مظلة تقيه الشمس رغم برودة الجو، دون أن يلتفت للواقفين يتمشّى بخطوات بليدة، يقرّب الخادم كرسيه الخشبي بظهره المنجّد، يستريح وحين يرفع وجهه نحوهم ينتتر كمن لدغته عقرب لكنه لم يلبث أن تمالك نفسه وافترت شفتاه عن ابتسامة التشفي لنجاح خطته بعد أن أوهم صبور أنهم سيأتون بعد شهر لكنه عجّل العودة وإبعاد الولد قبل حضور جده.

– سرّاج جديد بالفسطاط يا مولاي الأمير لكن صنعته متقنة وأنا بنفسي فحصت السروج ووجدتها أفضل من القديمة.

– اذهب لعملك وأنا أكافئه.

تراجع الجفتي خطوة وخطوتين ثم ابتعد عن الجلسة ولم يبق غير نصير وصبور يتوثب لمحاكمة الأمير لكنه أشار إلى الخادم أن يبتعد وأردف بالأمر:

– الطعام هنا يا نصير، لنأكل أنا والمعلم صبور.

– أتيت كما وعدت يا أمير ططر وبالصدفة طلب كبير الجفتاوات تجهيز السروج وعرفت أن...

– آه، اضطرتنا الظروف أن نرحل من بيتي بالفشن وتسافر خوند عنود لأبيها بدمياط.

– وأنس يا أمير؟

– في أعظم حال.

– أعرف يا أمير ططر ولكنك وعدت أن...

– والأميرة تعلقت به كابنها.

– لكنه ليس ابنها وأنا أولى به.

– تفضل أن يعيش معدمًا أم يرتع معي في الخير؟

– أفضل أن يكون معي.

– لكنه الآن معي و...

قاطعه اقتراب نصير مع خادم آخر يحملان طبقين كبيرين، يركنانهما على المنضدة العريضة فتتسع ابتسامة الأمير ويفاجئ صبور بدعوته إلى الجلوس وتناول الطعام معه، خادم ثالث يضع زجاجة الشراب وأكواب زجاجية ملونة، بإشارة من يده انسحب الخدم وتارة أخرى يفرد الأمير يده.

– اجلس وافطر.

– عفوًا يا أمير، سبقتك.

– قلت افطر معي، هيا يا رجل وستعلم سبب أكلنا معًا.

حقيقة لم يتوقع صبور أن يقعد يومًا في حضرة أمير جركسي لمجرد أن يتبادل معه الحديث لا أن يشاركه الطبق، زاغت نظراته بين السكرجة المملوءة بأصناف المشهيات والطبق الآخر الكبير وما به من محاشٍ وأمخاخ وقلوب وأكباد على درجة عالية من الاستواء، تساءل في قرارة نفسه إن كان هذا إفطارًا فكيف يكون الغداء، مدّ الأمير أصابعه والتهم ما طالته أصابعه، حدّج صبور بنظرة مشحونة بالتشجيع والعتاب معًا، باستحياء تناول كسرة خبز ولف بها قلبًا صغيرًا ولاكه في بطء أما الأمير فأنهى على الأكباد المحمرة والسمن يقطر منها، بخرقة نظيفة مسح أصابعه وفمه، سكب القليل من النبيذ وترعه دفعة واحدة، الخنجر مدسوس بين طيات ملابسه، عض شفته وتمنّى أن يستله ويطعن به الأمير فيشق جنبه كما فت كبده باستحواذه على حفيده، لكن سيف الأمير أقوى وخدمه في كل مكان ولن يتورّع الواحد منهم عن رميه بسهم أم توسيطه40 بالسيف غير أن أنس في قبضته.

– أكلت معي وأنا لا أؤذي إنسانًا شاركني طعامي.

أشار ططر إلى نصير فغاب قليلًا داخل القصر وأقبل وبين أصابعه تتدلى صرتان صغيرتان.

– هاك أجر السروج وأؤكد لك حين يكون أنسباي هنا لا أحرمك رؤيته أبدًا.

– ومتى يكون هنا يا أمير؟

– لا أدري متى تنتهي مهمتي بالإسكندرية ولكن اسأل عنا دائمًا وسأحتاج منك الكثير من السروج.

– وأنس يعرفني إن رأيته بعد سنين؟

بدا الضيق يطرز قسمات وجه الأمير ططر من إلحاح صبور فقطع أي أمل لديه في المزيد من المهاترات، التفت أصابعه على مقبض السيف العاجي وهبّ واقفًا وهو يعلن انتهاء المقابلة.

– المفروض أن تفرح أنت به حين تراه فارسًا قويًا و.. وأميرًا.

ابتلع صبور ريقه وأدرك أن الأمير لا يرغب في استمرار الجدال بينهما؛ فأحبولة

فراق حفيده قد لفها بدهائه ولا حيلة من الفكاك منها، أطرق وحمل المال، تراجع حتى اقترب من نصير فرافقه إلى بوابة الحديقة الكبيرة، خرجا معًا وطافا حول بركة الأزبكية.

– ربما المرة القادمة لا تجدني يا عم صبور، سأرافق الأمير.

– أنت مسافر معه إلى دمياط؟

– وربما الإسكندرية و...

– وصيتك أنس يا نصير.

– أقسم لك، لن يمنعني عن حمايته غير الموت.

– أثق فيك يا ولدي وربنا هو الستار و...

لم يتمالك نفسه وأجهش، انفلتت إحدى الصرر من بين أصابعه فأسرع الخادم باستعادتها، حضنه نصير وربّت على كتفه وهو يرمق الغادين والرائحين من حوله، تمالك صبور نفسه وجرّر رجليه مبتعدًا ولا يدري كيف عاد إلى درب العطارين، لم يبال بسؤال جمعة عن زيتون أو حجاج الغائبين عن الدكان، صعد السلم وأيضًا لم يناد على صافية، الغثيان يقلب أمعاءه، جوار الجدار قاء ما في جوفه، انهار على السرير وعيناه معلقتان بالسقف، تلاقت رموشه المبتلة ودار رأسه في دوامات اليأس وخيل إليه أن الريح هوت به في مكان سحيق.

***

صحا على صوت دبدبة أقدام صافية الثقيلة، توكأ على ذراعه واعتدل في جلسته، يشعر بثقل جسمه ورغبة ملحاحة في مواصلة الهروب بالنوم، الهواء البارد يتسرّب من بين جانب خشب المشربية المتكسر، صمم من الغد أن يصلحه، وقفت صافية أمامه.

– أحضر لك العشاء؟

– وأنتِ؟

– على السطح أكلت بيضًا مسلوقًا وجبنًا مع مسكة.

– بنت طيبة.

– وأمها أطيب، ومسكة تعرف تلعب السيجة وعندها عروسة كبيرة.

– سيجة وعروسة؟! ربنا يهديك يا صافية وما دمتِ تكلمتِ عنهم يبقى أقول لكِ، عمك زيتون طلب يدك لابنه حجاج.

طفحت الفرحة على وجه الفتاة الطيبة ودفعها سرورها لأن تنط أمام أبيها وتصفق، فهز صبور رأسه ودعا في قرارة نفسه أن يتم موضوعها على خير ويتغاضى حجاج عن هفواتها التي تفعلها دون وعي ولا روية، كما هشّت مرة واحدة غاضت ابتسامتها وسالت دمعة على خدها.

– كان نفسي عفيفة تكون معنا.

– عفيفة في الجنة يا صافية، مع زوجها ونرجو أن يجمعنا الله معهما.

– وأنس يا أبي؟

– رأيته وهو في أحسن حال وكما قلتها لك قبل سابق، الخوند معلقة به والجواري في خدمته مثل أمير صغير.

– في يوم خذني إليه.

– حاضر، لما يرجعوا من سفرهم إن شاء المولى وأرجوكِ يا صافية ممنوع أن تتكلمي في سيرة ما حدث لنا لأي مخلوق، مفهوم؟

فاه بها صبور وهو يكز أسنانه ويرجو من صافية أن تزن الأمور ولا تتمادى في سقطاتٍ تشي بقلة عقلها فتوغر صدر عائلة زوجها، هزت الفتاة رأسها مراتٍ وذهبت لغرفتها، مرّ الوقت وصبور يتوقع أن يرسل إليه زيتون؛ كي يتفقا معًا على الموعد ويدبرا ترتيب إتمام الزواج، وسيطلب منه أن يدله على أسواق الأقمشة والأواني والحلي كي يجهز ابنته، مرت ساعتان فتأكد من انشغال زيتون في أمرٍ ما وإلا لاستقدمه وسهر معه كعادته.

الليل في أوله ونومه منذ عودته جعل القلق ينسج خيوطه حول نفسه، قرّب المنضدة من السرير وركن على طرفها المصباح الزيتي، سحب الأوراق المخيطة من جوف كيسها الجلدي، برفق فتح قنينة المداد وأقحم بها عود الغاب المدبب، انتظر إلى أن ثبت الحبر البني الغامق وطفق يكتب:

"شتاء (٩٠٠هـ)41 هاتور42 القبطي أبو الذهب المنثور43، أنا صبور بن محمد بن الحسن بن عبد الله السراج نزلت على زيتون الجنوبي وسكنتُ في حارة العطارين ولي دكان للسروج بالسكن وقبلها بأيام ماتت ابنتي عفيفة زوجة مصري ابن أخي ودفنت بمقابر الفشن، بعد أن ولدت أنس".

رفع سن قلمه وابتلع ريقه، أمال رأسه إلى الوراء وتأرجح تفكيره بين أن يكتب ما حدث لحفيده أثناء دفنهم لأمه أم لا، يعرف تمام المعرفة مدى حرص المماليك على ألا يقع أي إنسان على سرهم ولا يتورّع الواحد منهم في إهلاك أقرب الناس إليه لو علم بمخابئ ثروته المجموعة من نهب الناس، فما بالك بسلب طفل وأصبح يدعي أنه ابنه، ربما تقع هذه الأوراق في أيدي أمير معادٍ للأمير ططر ويفضح أمره ويكون مصيره هو وابنته وربما زيتون وعائلته بأكملها القتل، أعاد غطاء قنينة المداد وألقى بالقلم جانبًا، انتظر قليلًا ليجف الحبر ثم قلب الأوراق وأعادها إلى مخدعها، زفر نفسًا طويلًا وتذكر التاريخ المدون بجانب الورقة، ابتسامة مخاتلة تفتر بها شفتاه وتذكر الفلاحين بأسيوط وهم يعبئون القمح الأصفر في الصوامع وطوال العام يطحنون منه.

أطفأ المصباح وتمدد ساحبًا على جسمه الغطاء الصوفي الثقيل، ثبتت عيناه في عروق السقف الخشبية، تمتم بالمثل المعروف حين يفوت موسم زراعة القمح على فلاح ويدفع ثمنًا غاليًا نظير شرائه للقمح:

"وإن فاتك هاتور اصبر لما السنة تدور"، اصبر يا ابن محمد بن الحسن يا سراج يا ابن السراج لما يرجع الأمير من قلعة الإسكندرية بأنس، أحاربه هو والخوند، وأرد أنس إليّ، ثقل جفناه فجأة وشعر برغبته في النوم، تلاقت رموشه ولا يدري لماذا زاره وجه نصير فدعا له بالصحة وطول العمر لخدمة أنس.

– لا تقلق أو تحمل همًّا لشيء يا صبور، أم حجاج ومسكة تصحبان صافية وتشتريان لها كل ما يلزمها.

قالها زيتون وهو يزن أوقيات الأعشاب لرجل يقف أمامه، أخذ منه الثمن ونفض يديه وأكمل:

– أم حجّاج ناصحة في معاملتها مع دكاكين القماش والمواعين.

– والثمن جاهز.

– أمسك عليك نقودك يا صبور، الولد ولدي والبنت بنتي.

– لا، حق صافية محفوظ وأجهزها منه.

قالها صبور بحزم شديد فلم يجد زيتون مفرًّا من الرضوخ لرغبته الصادقة، من باب البيت خرجت أم حجاج ومسكة ومعهما صافية تتغطى بشقة طويلة من الجوخ الأسود، ناول زيتون كيس الدنانير لزوجته، رافقهن الصبي جمعة فالتفت صبور يمينًا ويسارًا.

– وحجاج؟

– ينقل بضاعة من سفينة بالمرسى ويحضر حالًا.

قعد صبور أمام المنضدة وانقضى نهاره في تجهيز السروج الباقية المتفق عليها مع سائس الأمير ططر، ولا يدري سبب عدم اطمئنان قلبه واغتمام نفسه من اقتراب موعد تسليم بقية السروج، ما إن دق آخر مسمار ليثبت القبقبان الخشبي بجلد السرج حتى سمع كركبة آتية من أول الدرب، أطل فإذا بعربة يجرها حمار تقترب، في سرعة وقف زيتون والفرحة ترتسم على وجهه الأسود وعيناه تحملقان، سمعه صبور يردد كلمات الترحيب بالقادم:

– حمدًا على سلامتك يا حزقيال.

– الله يسلمك يا شيخ زيتون.

لف ذراعه حول كتفي زيتون وفهم صبور أنه صاحب البيت المغلق وأسرته وصلوا، الرجل قادم من أسيوط وأكيد لديه أخبار من هناك يتضوّر لسماعها، مد صبور إليه مفتاح البيت الكبير وقال له:

– لو نعرف موعد حضورك لكنست أم حجاج البيت.

– تكنسه أم بسيط، المهم وصيتك الماء.

– أوصي السقاء بأن يحضر الماء، نسيت أقدم لك المعلم صبور السراج، يسكن هنا وعن قريب نفرح ببنته على حجاج.

– مبروك يا شيخ زيتون وصلنا في الوقت المناسب لأخيط لها ملابسها.

– هذه أم بسيط يا صبور، ست أميرة.

فتح المقدس باب بيته وانشغلوا في نقل أحمالهم داخله ولم يلبث أن أقبل السقاء فأفرغ قربة بزير زيتون وأمره أن يفرغ بقية القرب ببيت جاره، لحظ صبور صغر سن زوجة حزقيال مع كبره وابنه بسيط يقترب من العشرين أما ابنته مريم فتصغره، غاب المقدس قليلًا وخرج من البيت وجلس على الدكة يسأل عن أخبار الدرب أثناء غيابه.

– لا شيء يا حزقيال، غير كرمنا ربنا بالشيخ صبور.

– قال لي أبو حجاج أنك كنت بأسيوط.

– زرت أخي في شقلقيل* وزوّج ابنه.

– أعرفها، بعد أبنوب في طريق الدير المعلق.

– أنت من هناك.

– أنا من أسيوط نفسها وكان لي دكان بدرب النحاسين بالقرب من الجامع الأموي الكبير.

– المهم تكون زيارتك موفقة.

– إرادة الرب نجتنا ورجعنا بالسلامة، أستريح من السفر وأحكي لك.

– الرب حفظك يا حزقيال ورجعت لبيتك ولو تريد بيعه أدفع لك.

– نحمده يا عشير ولكن لو بعت لك بيتي أين أسكن.

– ظننتك لا تعود.

– عدنا ومن الغد أفتح دكاني، يلزمك صرم أنت والست دينه؟

تلاقت رموش عشير فبدت عيناه ثعلبية وخيل لصبور ابتسامة على سحنته الممصوصة، أدار لهم ظهره ومشى، دخل زيتون البيت وخرج في سرعة وبين يديه أرغفة وماعون من الفخار به جبن، تناولهم المقدس من يده وغاب في جوف بيته، عاد ابنه وأغلق الباب وصبور يتعجّل انقضاء الوقت لتعود صافية وأم حجاج ومسكة ويرى ما اشترينه، ومن ناحية أخرى يروي له المقدس ما مر به ويعرف منه أخبار أسيوط.

***

-٩-

دهش لجمال الأقمشة وإتقان الأواني، أما السرير وصندوق الملابس بغرفة حجاج المتسعة فقد كانا من أفضل الأخشاب التي لم ير مثلها، اطمأن قلبه لنصيب صافية الموفق، لم تتوان أم حجاج وجارتها دميانة أم بسيط في حياكة ملابس صافية ومن حين لآخر الزغرودة تلعلع من جوف البيت وكل من بالدرب يهنئون زيتون والكثير منهم يتعرّف على صبور الذي لم يعد يفكر بغير إتمام السروج المتبقية؛ ليعود إلى قصر طظر بالأزبكية.

أنهى صناعة السروج وفي أول نهار الخميس رصّها على عربة يجرها حصان قوي اكتراها له الفتى جمعة، في همّة غير معهودة قطع الشوارع حتى قصر الأمير، حين وقف أمام السائس قام الخدم بتفريغ حمولة العربة والحصان لم يتوقف عن الصهيل، عرف أن الأمير غير موجود بالقصر ولما لم يجد نصير تأكد أنه رحل إلى دمياط أو الإسكندرية فلم يهتم بالسؤال عنهما وقرر أن ينهي عمله في سرعة ليتفرّغ بقية النهار لليلة حناء صافية، انشغل في تركيب قربوس كل سرج وخياطة السيور الجلدية المتينة، تناهت لمسامعه همهمة جمعة أعقبها خطوات المكاري عطية نحو حظيرة منزوية بلا باب ثم علت الأصوات الساخطة، التفت ففغر فاه للحصان المتسلل للحظيرة ووثب على ظهر فرسة، جاهد الخادمان لتخليصهما لدرجة أن أحدهما انهال على ظهر الحصان بالسوط واستبدل به عصا غليظة والمكاري لا حول له ولا قوة عاجز عن الدفاع عن بهيمه وكبير الجفتاوات يأمر بألا يتمكن الفرس من إتيانها لكن الفرسة أرخت سيقانها واستمرت في رفع ذيلها حتى أنهى خليلها مهمته فتراجع ساقاه وسحب إحليله وأطلق صهيل اكتمال مهمته.

في غيظ انتفخت أوداج السائس وسحب سيفه، خطا نحو الحصان وصاحبه غير قادر على رفع يده للدفاع عنه، تسابقت خطوات صبور وحال دون وصول السائس للفرس الواقف في شموخ.

– إنه بهيم.

– لكنه خائن، ارتكب فعلًا بشعًا، الفرسة كانت ملكًا للأمير طراباي الصغير قبل أن يستولي عليها الأمير ططر، فكيف...

– لو فرستك المحرومة تمنّعت لما سمحت للحصان لكنها رغبت أن تتحرّر من أسرها.

لم يفهم كبير الجفتاوات مغزى ما يرمي إليه صبور ولكن كل ما لحظه هو أمارات الرضا البادية على الوجوه، لملم صبور عدته وركنها جمعة على العربة، ألقى بقية الأجر فوقع أمام حافر الحصان، بادر صبور بأخذه والمكاري يعلق الحاملين الخشبيين على ظهر حصانه ويشد اللجام ليبتعد فلا يضمن مكر السائس، ركب جمعة أما صبور فقد بدت على قسمات وجهه علامات التشفي، قبل أن يسير جوار الحصان ربت على رقبته وتأرجحت نظراته بين حمحمة الفرسة داخل زريبتها وكبير الجفتاوات.

– إن قدّر لها الله تلد مهرًا قويًا.

– المفترض أن يكون أبوه فرسًا لأمير.

– لكن أباه فرس مصري حر ونسله مصري لا واحد من المماليك الجراكسة الأغراب.

الفرحة تغمر روح صبور وهو يولي السائس ظهره ومتيقن تمامًا أنه لن يمس الفرسة بأذى طوال غيبة الأمير وقد تلد ويبشره بالمهر دون أن يخبره مما كان عشارها، في خفة تراكضت أرجل حصان المكاري حتى اقتربوا من الدرب، نزل صبور ورفع المكاري الكهل حاجبه دهشة حين أحاط صبور برقبة الفرس وحضنه وقبّل جبينه وكأنه مقاتل عاد من نزال العدو محققًا فوزًا لا يضارع، فوجئ المكاري بعد أن تناول أجر التوصيلة بعرض صبور.

– أشتريه منك يا شيخ.

هوم المكاري برأسه رافضًا وبامتنان أطال صبور النظر لعيني الفرس البراقتين وهمّ أن يعيد معانقته؛ فخشي من بقية أصحاب حوانيت العطارة أن يظنوا أنه ملتاث أو أبله ليقبّل حصانًا، هوم برأسه وعاد أدراجه وفي نفسه رضا عظيم.

***

في حنكة ملطت أم حجاج عجينة الحناء بقدمي صافية ويديها وظلت فتيات الدرب يطبلن ويرقصن وأم بسيط تعيد ترتيب الرواق وزيتون يمد سماط الطعام لأبناء عمومته الجنوبيين وأهل درب العطارين وجمعة وحجاج يرصان الجمار على حجر النرجيلة لتدخين التنباك لمن يريد حتى انقضى

الهزيع الأول من الليل وزيتون يكرم ضيوفه ومجامليه قدر استطاعته، وما إن غادرهم آخر ضيف حتى تهالك على الدكة فأحاط حجاج كتفي أبيه بعباءة من الصوف، لم يلبث أن نهض إلى البيت وصعد صبور إلى الدور العلوي، صافية لا تصدق نفسها وهتفت:

– رقصت مع البنات يا أبي، ومريم رقصت معي.

– فرحانة يا صافية؟

– مبسوطة أني أسكن جارك.

– نامي يا بنتي، تصبحين على خير.

تمدد صبور وشعر بامتلاء جوفه بعد عشاء الليلة التي أبدى فيها زيتون كرمه البالغ، أعجب بالمقدس حزقيال وابنه بسيط فلم يبخل الواحد منهما بجهد لمعاونة جارهما، عرف أن المقدس إسكافي لا يضاهيه أحد في خصف النعال والقباقيب وأحضر معه من أسيوط العديد من جلود الحمير المدبوغة لصناعة المراكيب المتينة، تردد في ذاكرة صبور ما رواه حزقيال من زيارتهم للدير المعلق44 وإقامته أسابيع ببيت أخيه، أما الحادث المريع فهو ما رواه بعد عشاء أول أمس حين كانوا متحلقين حول نيران الماجور من أن واحدًا من المماليك طمع في زوجته لولا أنهم ساقوا عليه شيخًا من العرب هناك لما نجوا من مخالبه، انقبضت قسمات وجه صبور وعض شفته.

– الله يلعنه، قليل الحياء والأصل، يطمع في زوجة لرجل، صحيح إن لم تستح فاصنع ما شئت.

نفض صبور من رأسه ما قد يعوق نومه استعدادًا لزفاف ابنته، تقلب على جنبيه وحملق فجأة حين ومضت عفيفة ومصري يحملها بين ذراعيه ويدخل بها الرواق، هز رأسه وطفرت الدموع من عينيه وترحم عليهما، رغب في العودة إلى الاستلقاء.

فيتوهج أنس بين يدي امرأة غريبة يدعي زوجها أنها مؤذية ويبدو على وجهها العطف في منتهاه.

دعا لحفيده بطول العمر وانتابته حسرة فراقه، ضم أصابعه ووكزت قبضته الهواء لكن مشهد حصان المكاري وهو يعتلي فرسة الأمير ططر أثلج صدره فانقلب تقطيبه ابتسامًا وندم على عدم إلحاحه شراء الفرس وسيحاول مع صاحبه مرة أخرى إن رآه.

***

كأجمل فتاة بدت صافية بين ذراعي حجاج وهو يحملها ويصعد إلى الرواق وأمه ترش الملح في ابتهاج ومسكة تزغرد، لفيف من التجار والمعارف وجيران زيتون جلسوا على الأبسطة المفروشة يشربون القهوة ويأكلون الحلوى وزيتون يرفع يديه

مرحبًا ويرد على عبارات التهنئة، أدرك صبور مدى محبة الناس لصهره الجنوبي الذي أكرمه الله به في غربته، فاضت عيناه بالدموع فانزوى داخل بيته، لا يدري كم مرّ عليه من وقت وهو على حالته من الذهاب إلى أن لفحت أنفاسٌ رطبة وجهه فرفع رأسه واتسعت عيناه فعفيفة تجلس أمامه ووجهها المنور يبتسم، كلماتها ترن في أذنه: راضية عنك يا أبي وأنس في أيدٍ أمينة. ظلّ يحملق ولسانه ألجم فعجز عن لمسها. كما ولجت بدأت تتلاشى ولا يريدها أن تذهب، ربتت يد على كتفه فرفع وجهه المطرق، زيتون يقعى أمامه ويضم شفتيه الغليظتين.

– وحّد الله يا صبور.

– الحمد لله يا عم زيتون والله أنا راضٍ ويكفي أن ربنا أكرمني بكم.

– قم واخرج معي، معظم الناس مشوا وبقي حزقيال وابنه.

نهض صبور وخرج خلف زيتون. المقدس يقعد وظهره للجدار، على المفرش وضعت زوجته دميانة أطباق الطعام وأتت أم حجاج بالعيش الطري والمخلل وتحلق زيتون وجمعة وحزقيال وابنه بسيط فامتدت الأصابع داخل المجاز، والسيدات يتناولن عشاءهن، لا يدري صبور لمَ راقب عشير من حين لآخر، فلحظه يأكل باستمرار ويلتهم ما زاد في أطباق جيرانه وبكيس قماشي لملم كسرات الخبز المتبقية، ألقى ما يراه وراء ظهره وفضّل مشاركة زيتون فرحته ومن حين لآخر يهز الرجل الكريم رأسه لصبور مشجعًا إلى أن مسح يديه وفمه وأحضر جمعة طاولة الشراب الساخن، شربوا على مهل وزيتون يعلق على مواقف حدثت أثناء طبخ الطعام وحزقيال يرد عليه ويكرر تهنئته لصبور الصامت طوال الوقت ثم نهض واستأذنهم في الصعود إلى مسكنه.

على السرير عاد إليه وجه عفيفة وكلماتها القليلة أرضته فأغمض عينيه وفي قرارة نفسه عزم أن يرعى صافية ومن حين لآخر يذهب إلى قصر الأمير ططر يتحسس الأخبار عن حفيده أنس.

***

الأيام تزحف رتيبة مشبّعة بملل الأعمال المكرورة، شراء ما يلزم لصناعة السروج وإتمامها وبيعها والسؤال عن الجركسي الغادر ووعده الذي لا يريد وفاءه، يومًا طاف حول القصر وبنفس أضناها الضجر تأكد من عدم تواجد الأمير أو أهل بيته فامتكث بدرب العطارين يزاول صنعته ولا تسلية له سوى ساعات أسمار زيتون والمقدس حزقيال وصافية اندمجت وسطهم ولحظ تغير كلامها وأضحت لا تتلهوج أو تندفع كما اعتاد منها، وحين بشرهم حجاج بحملها السريع انتابت صبور روح الرضا ولم تتراخ مسكة وأمها عن خدمة صافية، وصبور يوصي لها بلحم الماعز الذي تحبه، وظهر يوم أثناء زيارته لها نادى عليه جمعة فنزل وإذا بالريس حميد يجلس جوار زيتون فتحاضنا وتبادلا كلمات الترحيب:

– غيبتك طالت يا ريس.

– أبحرت السفينة للجنوب وبعدها عدنا إلى هنا.

– حمدًا لله على سلامتك.

– ولك رسالة من يوسف النحاس.

تناول صبور أوراقًا مطوية بعناية ومربوطة بخيط من الصوف، دسها بين طيات ملابسه وعزم على الريس أن يتناول الغداء معه وكعادته يتمنّع ولكن صبور أصر وفي سرعة رصت الأطباق بمجاز البيت وتشارك الجميع في تناول الطعام وصبور يبالغ في إكرام حميد والأخير بدوره يروي لهم ما مر به في ذهابه وإيابه، أنهى طعامه ومسح شفتيه، ربت على كف صبور وأكد له:

– رست السفينة في الفشن، والشيخ شعيب يسلم عليك وأنا وهو والشيخ آدم زرنا المرحومة وقرأنا الفاتحة.

– فيك الخير يا ريس حميد وأشكر لك تعبك.

– أنت أوصيتني وأنا والحمد لله ربنا قدرني على تنفيذ الوصية.

نهض الريس مستأذنًا وسلم على زيتون والمقدس وأصر صبور على مرافقته حتى أول الدرب، تارة أخرى تحاضنا وحميد يؤكد له وعده بزيارته ما استطاع، عاد إلى دكانه وأصابعه تلتف حول الرسالة في حنو بالغ، جلس على كرسيه وعدّ ثلاث ورقات، طفق يقرأها كلمة كلمة، ولحظ زيتون الجالس بالقرب منه انبساط وجه صبور تارة وانقباضه أخرى حتى أنهاها:

– أخبار أسيوط وأهلها؟

– بخير، يوسف النحاس يؤكد أن الخالة جنة بخير وروى ما توقع فالنهار التالي لفرارنا هجم المماليك على الدرب وسأل تابع الأمير بلباي عني وأخبرهم يوسف أن الدرب كله استيقظ ولم يجدنا ولا يعرف أحد أين أراضينا.

– رجل حكيم وعنده بُعد نظر.

– والفضل بعد ربنا للخالة جنة ربنا يطيل عمرها.

– وبعد؟

– يحكي لي عن أهل درب النحاسين وحال العمل ويدعو لي بالستر.

– الله يستره.

– يستحق الدعاء يا عم زيتون والله ليوسف هو الأخ الذي لم تلده أمي.

نام قرير العين وجمحت رغبته في العودة إلى بيته بأسيوط ويطوّق كل واحد من أهل الدرب بذراعيه، توالت ذكرياته معهم حتى مظلوم المسكين حنّ إلى رؤيته والطرب بربابته، أطلّ من المشربية المفتوحة والهواء ينعش روحه، ومع اكتمال القمر أطلقت صافية صرخة الولادة فهبّ وعاد القلق يخمش نفسه وما هي إلا ساعة بذلت فيها أم بسيط أقصى جهد حتى أعاد مواء مولود صافية ذكرى ميلاد أنس فدمعت عيناه وبقي ساكنًا إلى أن جاءه زيتون والبشر يطفر على وجهه.

– بنت، ربنا جعل حجاج ممن وصفهم رسولنا الكريم بخيركم من بُشر بالأنثى.

– الله عليك يا عم زيتون.

– الحمد لله ورأيك نسميها؟

– أمها لها حق تسميتها.

قالها حجاج والفرحة بادية على وجهه وزاد إعجاب صبور بالعائلة الجنوبية التي حسب أنها تفضل الذكران على الإناث لكن ما رآه من الضد هو الصحيح، ساعة وصعد إلى الرواق والسيدات أتممن توضيبه ونظافته وصافية تسترخي على سريرها وجوارها تنام ابنتها بملامح أبيها، طبع على جبين ابنته قبلة حانية وأطال التحديق في وجه الصغيرة.

– ما اسمها يا أبي؟

– رأيك يا صافية نسميها على اسم جدتك؟

– أمينة، أحلى اسم.

– وتكون أمينة عليكِ.

– صفة نادرة في أيامنا، نعم الاسم.

قالها جدها زيتون ومدّ يديه وحملها، أتت أم حجاج بطبق مملوء بالفطير، رفع صبور حاجبه وتذكر أبا سعد حين مضغ تمرة وحنك بها فم أنس، كذلك فعل زيتون مع حفيدته وأذن وكبّر في أذنها ولعلعت الزغاريد تهز أركان الرواق، ألصق صبور خده بخد صغيرته وأنفاسه تدغدغ وجهها، مال بشفتيه وغمغم بكلمات وكأنه يودعها سرًا لا يريد لأحد غيرهما أن يعرفه.

***

على كتفه يحمل زيتون أمينة ذات الأربعة أشهر وتكاد شفتاه الغليظتان تلتهمان خدها والصغيرة بدورها تتعارك بيديها في الهواء، وتطلق مناغاتها فيبتسم لها صبور وهو ينهي خياطة جلد آخر سرج طلبه كبير جفتاوات قصر الأمير ططر.

– الكل يعرفك بسرّاج الأمراء يا صبور.

– الحمد لله.

– صنعة عم صبور فاقت السراجين يا أبي.

قالها حجاج وهو يحمل عن أبيه ابنته ويضمها إلى صدره بعد أن يعيد لف الأقمطة التي رفستها برجليها، يقبلها فتبعد الفتاة وجهه في عصبية زائدة.

– بنت بنتك شقية يا صبور.

– مثل أمها، صافية من صغرها وهي شديدة، الحمد لله أنهيت السرج، جمعة! ولد يا جمعة!

أقبل الفتى ودون أن يأمره صبور أسرع خارجًا من الدرب، من زير مركون خلف باب الدكان غسل صبور يديه ووجهه وارتدى جلبابه، أعاد لف عمامته على رأسه وألقى نظرة أخيرة على السروج وشرع يختبر السيور والأحزمة وغيرها وتأكد من تمام خياطته، صلصلة الأجراس لفتت انتباهه وفرح لعثور جمعة على المكاري عطية وفرسه القوي المتعهد لهم بنقل السروج وأكياس العلف والتوابل لزيتون، سلم عليه وربت على غرته، حملوا السروج وقاد عطية فرسه وظل يلف به حتى وقف أمام بوابة القصر، بكفه المفرود أوقفهم الحارس.

– يمنع دخول خيول غريبة.

– لكن السروج ثقيلة ولا نقدر على حملها كلها.

صمت الحارس وكأن لسان حاله يقول لهم تصرفوا فلن يدخل القصر حصان غريب، أجبر صبور على حمل ما يقدر عليه من سروج وجمعة رفع على كتفه سرجين، سارا نحو الإسطبل وبرفق رص صبور السروج على مصطبة عريضة فقابله كبير الجفتاوات بوجه متجهم، في سرعة أعطاه الأجر، أسرع جمعة ليحضر بقية السروج فانتظر صبور ومن حين لآخر تعلو حمحمة مألومة وصهيل ممطوط، هز الجفتي رأسه وهو يصوّب نظرات نارية لصبور، يفرد سبابته وخرجت كلماته مكسوه بنيران الحقد:

– فاكر من سنة وزيادة حصان المكاري عملها مع الفرسة.

– نعم.

– اليوم تلد والبيطار يقول أن ولادتها متعسّرة.

– ممكن أساعده أنا أعرف في ولادة الخيول.

وكأن عرض صبور نزل من السماء ففاضت قسمات السائس بالفرح وترجم موافقته بأن أفسح لصبور وقاده نحو حظيرة متوارية، وقعت عيناه على عبدين يحاولان فعل شيء والبيطار يشمر عن ساعديه ويسحب الرأس المحشور، الفرسة مستلقية على جنبها وحافرها يضرب الأرض، وجهها يتقلص كلما اهتز بطنها وهي تحاول جاهدة أن تبزق جنينها، خلع صبور جلبابه وبدوره شمر ساعديه، من ماعون الماء غسل يديه وطلب زيتًا فأسرع واحد من الخدم وأحضره، سكب القليل بين كفي صبور وأدخلهما بالفتحة وطفق يدلك ومن حين لآخر يسحب حتى بزغ ساقا المهر فعاونه البيطار حتى أخرجا الصغير وفي سرعة فتق البيطار الكيس الأبيض المحيط به فزفرت الفرسة أنفاس الخلاص، نهضت واستدارت في تثاقل، بلسانها لحست رأس ابنتها اللزجة وتبين صبور أنها مهرة فبارك للسائس ولادتها، غسل يديه والبيطار يحمد ربه أن الولادة انتهت على خير، تناول أجره وغادر أما صبور فاختلى بالسائس وعرض عليه:

– رأيك، أعرض عليك شراء المهرة؟

– لكنها مملوكة الأمير ولا أفرط فيها إلا بعد أن يأمر.

– والأمير عرف بأمر أمها؟

– الأمير ططر لم يحضر منذ رحيله وسمعت أنه بقلعة الإسكندرية.

– والخوند وأنس؟

– تقصد خوند عنود وابنهم الأمير أنسباي، معه هناك.

– وأنس أهو بخير؟

زرّ السائس عينيه وكأنه يستنكر إلحاح صبور في السؤال عن عائلة أميره، هز رأسه وأعطاه أجرًا إضافيًا لمعاونته في ولادة الفرسة، أدرك صبور أن وجوده لا لزوم له فألقى نظرة أخيرة على الأم وهي تحنو برأسها على صغيرتها وتشم جلدها الغض، استدار ليغادر الحظيرة.

– بما أن المهرة ابنة حصان مصري فما رأيك لو تختار لها اسمًا يا شيخ صبور؟

– عفيفة، اسمها عفيفة.

– عفيفة؟ رغم أنها بنت حرام.

وكأن مرجل ماء حار انسكب على صبور فاحمرّ وجهه ونفرت عروق رقبته وبرقت عيناه حتى كادت نظراته تذبح المملوك الأبازي الواقف أمامه، كزّ أسنانه وتواترت كلماته ناشفة، قاسية.

– على الأقل أبوها معروف أما أنتم يا مماليك فلا يُعرف لكم أب.

لو أن صبور رفع يده وصفع كبير الجفتاوات على وجهه لكان أهون عليه من وقع الكلمات الأخيرة المنصبّة على أذنيه كرصاص مغلي، ظلا متسمرين قبالة بعضهما ونظراتهما مصوّبة وكبير الجفتاوات انتفخت أوداجه وطفح الحنق على قسمات وجهه الجهمة، الخادمان الواقفان على قيد خطوات يتوقعان أن يستل كبيرهم الطبر45 المعلق على الجدار ويضرب به عنق السرّاج الجريء، بقيا واقفين حتى انكسرت نظرات السائس فأغمض عينيه إيذانًا لصبور أن يغادر.

فوجئ بأصابع جمعة تقبض على ذراعه وتبعده فخطا نحو البوابة الكبيرة وما إن أغلقها الحارس حتى عانق صبور رأس فرس عطية وقبّله، مال على أذنه يهنئه:

– أصبحت أبًا يا ابن المحظوظة.

***

-١٠-

أمارات الضيق الممزوج بالهلع ارتسمت على وجه زيتون وصبور يروي له ما جرى بينه وبين كبير جفتاوات إسطبل الأمير ططر، هز رأسه وكلماته مغلفة بقلق حقيقي:

– قلتها لك بدل المرة ألفًا، لا تعاديهم؛ فلا حرمة لدمائنا من سيوفهم.

– لا تخف يا عمنا، إن جاء السائس يلومني على إهانته فاتركه لي.

– يا ليت يكون لومًا ولكن...

– ينتقم مني؟ لا عليك أنا مقطوع من شجرة ووصيتك صافية.

– لا حول ولا قوة إلا بالله.

انخرط زيتون في بكاء حارق وكأنه يؤكد لصبور مدى محبته له وفي نفس الوقت قلة حيلته إن هاجم المماليك أو أتباعهم درب العطارين واستباحوا دماء أي قاطن به أو تاجر لا يعرف من أيامه غير الاستكانة ودفع الكلفة46 المفروضة عليه؛ ليحتفظ برأسه بين كتفيه، مال صبور على كتف الرجل وقبلها فهدأت نفس زيتون وتواترت كلماته المرتعشة:

– يا ولدي، نحن أغراب وهم...

– أنا وأنت وحزقيال وجدودنا أصحاب البلد يا عم زيتون وهم الأغراب الأجلاب.

– لكنهم أرباب السيف.

– يومًا ما سيحكمنا واحد منا ويكون لنا جيشٌ من شبابنا يدفع عنا الأعداء، ألم يصفنا رسولنا الكريم بأننا خير أجناد الأرض.

– عليه الصلاة والسلام.

لم يكد يتم كلمته حتى رفع زيتون رأسه ليتطلع إلى القادم أول الدرب، وقع حوافر الفرس دفع صبور لأن يلتفت هو الآخر، في تلك اللحظة توقف حزقيال عن إصلاح نعل الخف الجلدي، اقتراب الفارس منهم دفع أصحاب الحوانيت أن يقفوا أمام دكاكينهم استعدادًا لدفع مكوس أخرى يفرضها المماليك بداعٍ وبدون داعٍ، قبل أن يغلق عشير دكانه جرى رجل وأشار إليه، نزل الجركسي من على صهوة جوادِه وشهر سيفَه في وجه ابن ناحور، تارة أخرى أشار الرجل إلى طست كبير من النحاس.

– هذا لي.

– اشتريته من تاجر.

– من تاجر أم من لص ممن يبيعون مسروقاتهم لك يا عشير؟

على رأسه حمل الرجل طسته الثقيل وابتعد عن دكان عشير الواجم ويفغر فاه في ومن حين لآخر يدعك أنفه المعقوفة، أراد استعادة الطست لكن الرجل رجع خطوات حتى دكان زيتون الصامت طوال الوقت.

– وما ذنبي، لقد دفعت فيه.

– استرد مالك ممن دفعت له، وأزيد عليك كيس الشعير ففرسي جائع.

حمله الفارس وركب حصانه، أمامه سار الرجل بطسته وعشير يضرب كفًا بكف وعيناه تزوغان في وجوه أهل الدرب وكل منهم قرّر دون اتفاق على ألا يتدخل بعد اشتهار عشير ابن ناحور عنه شراء المسروقات بأبخس الأثمان وبيعها بأغلاها، اصفرّ وجهه وعاد وهو يبرطم على خسارة الليلة التي لم يصب بها من أعوام، أغلق دكانه، استراح زيتون واستأنف الإسكافي خياطة النعل، انشغل صبور في دق المسامير الرفيعة بأحد السروج وما هي إلا دقائق حتى طرق الدرب فارس آخر يتقدّم بمفرده في بطء، استغرب زيتون ثباته بين دكاني زيتون وحزقيال، خطا صبور نحوه إلى أن وقف أمام رأس فرس كبير جفتاوات الأمير ططر، فارق صهوة جواده ووقف يمسك اللجام.

معين تاجر البهار خطا نحوه ورفع أمامه كيسًا ترن الدنانير من جوفه فالتفت إليه السائس ورفع يده رافضًا، انتاب الدرب توتر لا مبرر له من وجود تابع لأمير لكنه يرفض الإتاوة المقدّمة له ويبدو عليه أنه لا يقصد عشير ابن ناحور، رانت على الواقفين غمائم القلق بدّده السائس بسحب لجام فرسه وربطه بحلقة حديدية مدقوقة بالجدار، مدّ يده إلى صبور فسلم عليه ولم يجد بدًّا من الترحيب به ودعوته إلى الجلوس، خطا نحو الدكة الرابضة بين دكاني زيتون وصبور.

– تشرب نعناع يا...

– تمرباي أو اسندر.

– اسندر، ما معناها؟

– معناها رجل لا يقهر.

قرّب حزقيال كرسيه من الجلسة وتقرفص جمعة على الأرض، صبور ينتظر إفصاح مملوك الأمير عن سر زيارته ومن طرف خفي يلمح القلق ناضحًا على وجه زيتون، يميل تمرباي بوجهه نحو صبور ويضيّق عينيه الزرقاوين، يفاجئهم بخلع عمامته فيبدو شعره البني القصير منحسرًا بعض الشيء فخمن صبور أن الرجل يقترب من الخمسين.

– تتهمني بأن ليس لي أب يا صبور، لو سمعها منك الأمير ططر كان من الممكن أن تطير رقبتك.

– غصبًا عنه يا أمير تمرباي.

– لست أميرًا يا رجل وإنما أنا مملوك لأمير ولكني لست لقيطًا أو ابن زنا.

في حزم فاه بها تمرباي وهو يضم أصابعه على مقبض سيفه العاجي، جال ببصره في وجوه الساكتين من حوله وأيقن أن أيًا منهم لن يفوه بكلمة حتى يسمح له، أدرك سبب خوفهم ففك حزام سيفه ووضعه خلف ظهره، هزّ رأسه وثبّت عينيه في عيني صبور وكأنه يؤكد أنه لن ينكسر أمامه كصباح اليوم.

– أبي الذي لا أعلم إن كان حيًا أو ميتًا كان يزرع أرضًا ببلدنا لاتا على نهر كودوري47.

– وأين هذا النهر، ببلاد العثمانية أم اللومبارد؟

– بعيدًا ببلاد الأبازة أو ما يسمونه الجركس، كان لنا بيت دافئ وحظيرة أبقار نشرب لبنها، وأمي تربي الطيور وكنا نصطاد أسماك النهر، وفي صباح لا أعرف له تاريخًا اصطحبت شقيقي الصغير شوماف وحتى لا تسألوا، معناه بالعربية الفارس.

دارت عيناه في وجوه المحيطين به وانتظر منهم تعليقا لكنهم التزموا السكوت ليتم روايته، فلم يتلبث عليهم وأكمل:

– رافقني في رعي الأغنام بالحقول على طول النهر بينما أختي سيناميس ومعناها الجالسة في عيني، كانت تلهو مع عنزتها الصغيرة وتسابق الخراف، فوجئنا بخيول كثيرة عليها فرسان تختطف حيواناتنا وحين اعترضتُ وأشحت لهم بعصاي الرفيعة قيّد أحدهم وكان ملثمًا يدي ورجلي وحملني على حصانه، صرخت في أخوي أن يهربا فجرت سيناميس ولا أعرف إن كانت نجت أم خطفها اللصوص.

– وأخوك؟

– ظلّ شوماف يضرب بعصاه ونغز بها عين أحدهم فصرخ ومن شدة غيظه طعن أخي الصغير بخنجر في صدره فصرخت عليه وبعدها لم أشعر بشيء.

– خطفك نخاس؟

– لا أدري، أفقت فوجدت نفسي بعيدًا عن نهر كودوري مع الكثير من الصغار، وساقونا في دروب وطرق ملتوية بين الجبال، جعت أيامًا وعطشت أيامًا حتى استقروا بنا في بلد عرفت أنه حلب.

– حلب ببلاد الشام؟

– هناك اهتم الرجل بنا وكان يوزع علينا الطعام ويتيح لنا فرصة الاستحمام، وفي نهار مشئوم باعني لتاجر نقلني إلى بلد على البحر عرفت فيما بعد أنها عسقلان، عشر سنوات أخدم الأمير لوباي وكان يملك مزارع للزيتون حتى أتممت عشرين عامًا فباعني بدوره إلى تاجر أتى بي إلى مصر من ثلاثين سنة في زمن...

– الظاهر سيف الدين خشقدم.

– نعم يا صبور، المحروسة كان يحكمها خشقدم، سكنت بطباق48 بالقلعة وتدربت على تربية الخيول وظللت هناك حتى انتقلت لخشداشية الأمير ططر.

– تزوجت؟

– من جارية اشتريتها وأعتقتها وأنجبت لي ابنتي الوحيدة ميرنار وصممت على تسميتها هذا الاسم لأنه في لغتنا نحن الأبازة معناه قرة عيني، ومن عامين تعيش مع زوجها بالإسكندرية.

– ولو لك ولد يكون اسمه فصى49 باي ابن تمرباي.

– لو كان لي ولد جميل مثلك لأسميته بشماف أي وجه الخير، ما اسمك؟

– اسمه جمعة، ولد يا جمعة! احتشم.

ابتسم السائس لدعابة الصبي ولم يلبث أن تحوّلت ابتسامته لضحكة خفيفة ثم علت؛ فلأول مرة يشعر بإنسان يلاطفه ببراءة غير ما اعتاد عليه من حياة الكذب والمخاتلة التي يعيشها في قصور الأمراء، بادله زيتون ابتسامة حذرة لكن صبور أراد أن يعود الحديث لمجراه فسأله:

– وأهلك؟ ألم تحاول العودة إليهم؟

– لا أعرفهم، ربنا يرحمهم إن كانوا من أهل الدنيا أو الآخرة، وكيف أرجع، يلزم قافلة تكون متجهة إلى تلك البلاد البعيدة، السنون مرت واستسلمت للعيش هنا.

***

بدا تمرباي مختلفًا عما اعتاد عليه صبور، رأى في عينيه انكسارًا وغربة وحنينًا غريبًا وتواضعًا متواريًا خلف قسوة مفتعلة ألفها من حياته، عضّ شفته ندمًا

على وصفه بأنه لا يعرف أباه، فالرجل كان لديه عائلة ولولا اختطافه وبيعه

لعاش في بلده كأي إنسان لا يرجو من الحياة غير الستر، لا يدري حزقيال لمَ يروي مملوك الأمير حكايته! لكن زيتون أدرك أن تمرباي إنما جاء ليدرأ عن نفسه ما رماه به صبور هذا الصباح، نهض ليغادر فأقسم زيتون عليه ليقعد ويشرب معهم القهوة، أطال النظر في عيني صبور وشعر باعتذاره الذي أفصح عنه صراحة:

– المعذرة يا أمير تمرباي ولكني اغتظت حين رميت المهرة بأنها بنت سفاح بعد أن أطلقت أنا عليها اسم عفيفة.

– وتغضب لذلك؟

– أنت لا تعرف محنتي.

بعد القهوة صبّ حجاج الحلبة الساخنة وأثناء احتسائها روى صبور ما قاساه منذ جلده بأسيوط ظلمًا وهروبه حتى اختطاف أنس ابن عفيفة ولكنه تحاشى أن يفصح عن اسم الأمير الذي خطف حفيده أو اسم حفيده نفسه، ظهر التأثر على وجه تمرباي وربت على كتف صبور وهو يواسيه.

– تسمي المهرة على اسم بنتك وأنا أتكئ بلساني على جرحك!

– أنت معذور، لم تكن تعرف.

– نعم يا عم زيتون يا طيب، لم أكن أعرف، دائمًا الأسماء تخفي خلفها حقائق مؤلمة، اسمي اسندر أي الذي لا يقهر، وحين رأى أحدهم في يدي تمرًا أطلقوا عليّ تمرباي، وها أنا أعيش مقهورًا في خدمة مملوك حتى لو كان أميرًا له قوة.

– ربنا يفك أسرك ويعتق رقبتك.

– حقيقة واحدة، تشرّبتها في الطباق أننا أسياد البلاد ودوننا هم الخدم، ولا يجب معاملتهم إلا بالسيف والكرباج، فألفت ما يراه الناس مني والإنسان على ما ألف، لعنهم الله، لولاهم لعشت ببلادي الجميلة على النهر لا أظلم ولا أُظلم.

فاه بها تمرباي وهو يقف، لف الحزام على وسطه، لمح صبور دمعة متحجرة بعينه، أبى جمود وجهه الذي تربى على اصطناعه أن تسيل، مدّ يده فسلم على زيتون وحزقيال وقرص خد جمعة، وقف قبالة صبور وأحاطه بذراعيه، حضنه في قوة وباعده في رفق، أقبل معتوق السقاء فأفرغ قربته بالزير، طلب منه تمرباي أن يشرب فناوله القربة، رفعها وشرب بقية الماء البارد.

– شكرًا يا...

– معتوق، خادمك معتوق.

– طول عمرك تبقى المعتوق وأنا الخادم.

من زناره الملفوف حول خصره يخرج كيسًا ويعطيه للسقاء فيتمنّع لكن زيتون يناوله إياه وهو يشكر تابع الأمير، أسرع جمعة بتحرير الفرس فامتطاه تمرباي ورفع يده لهم، ودعهم وجمعة يهتف له:

– مع السلامة يا أمير اسندر.

التفت إليه تمرباي وتارة أخرى ابتسم ملء فكيه، أدار الفرس ونخسه فأسرع به مغادرًا درب العطارين، مرّ اليوم كأفضل أيام زيتون الذي لم يعتد من المماليك وأتباعهم إلا على سلب الأرزاق من جيوب العباد، لم يكن لصبور عمل بالدكان فأغلقه، لا يزال معتوق السقاء يقف أمام البيت فسأله زيتون:

– مبسوط من سكنك الجديد يا معلم معتوق؟

– نحمده، يكفي الجيرة المليحة.

– الشيخ معتوق يا صبور اشترى بيت المرحوم عبد الشكور على ناصية الدرب، ربنا كرمنا بسقاء يسكن بيننا.

– وأنا وعيالي في خدمتكم يا عم زيتون.

استأذن صبور في زيارة صافية فرافقه حجاج وألقى التحية على أمه وأخته مسكة، أتته بأمينة، حملها جدها مستبشرًا بوجهها الممتلئ وذراعاها لا يكفان عن الحركة وأنفاسها تتلاحق، حضنها وكأنه امتلك الدنيا بحذافيرها، مارس هوايته في ضم وجهها إلى خده فلعقت ذقنه وهي تغمغم، شارك أباها الضحك، ولم يلبث أن قطب حاجبيه ومط شفتيه وهو يبعدها لما أحسّ بالماء الساخن يبلل جلبابه، تناولتها مسكة لتغير لها ونفض صبور رداءه، أتته صافية بإناء به ماء ليطهر ثوبه ثم مالت نحوه وهمست:

– بارك لنا يا أبي، قريبًا يكون لأمينة أخ.

– أو أخت يا صافية، البنات رزقها برزقين، فاكر يا عم صبور، بعد ولادتها رست سفينة كبيرة بالسويس ونقلت منها بضاعة لم أنقلها من سنين.

– آه، يا أمينة يا شقية، يأتيك من يشكمك.

تركهم صبور ونزل، زيتون منشغل مع زبائنه، ابتسم لحزقيال ودخل، في هدوء صعد السلم وألقى نفسه على السرير، لا يدري لمَ طفر وجه عفيفة المهرة الجميلة فنكأ جرح حرمانه من ابنته ومن قبلها زوجها مصري ومن بعدها ابنها أنس، دمعة حارة سالت على خده، عاد يجتر ما رواه تمرباي ومن قبله حنين زيتون لبلدته البعيدة سوبا فخفف من جرح روحه أن الحياة مملوءة بغيره ممن يقاسون أوجاع الفراق.

***

-٣-

أسفارُ الخراب

-١-

لا يدري سبب أرقه، نهض والسرير الخشبي تئز سيقانه، بطرف عينه لمح سرير العنجريب القديم، عليه سراويله وجلابيب بالية، خطا نحو الكنيف وأراح نفسه من بوله الذي بات يحتبس في سرعة، يعود إلى جلسته على السرير ويتسامع خطوات أمينة الرشيقة، تقتحم عليه الغرفة وتركن أمامه طاولة عليها كوب فخاري به شعير مغلي محلّى بالعسل.

– مرحبًا، كيف حال أمك وعمتك مسكة؟

– بخير يا جدي، تسهر الليلة مع الجد زيتون؟

– الليلة بردها شديد وأنا متعب من عمل النهار.

– أحضر لك العشاء.

– لكن لا تتأخري عليّ.

نهض نحو صندوق عريض، فتحه وأخرج الكيس البني المهترئة أطرافه، ركنه على المنضدة وزاد من زيت المسرجة الكبيرة فتوهجت ذبالتها، قلّب الأوراق وبدت عليه ابتسامة هزيلة، مطّ شفتيه لما كان يخطه بأصابعه من أخبار رأى بعضها لا يستحق المداد الذي كتبه به إن قارنه بما كان يكتبه جده عبد الله السراج، فرد كفه بإحدى الصفحات وقرأ.

«الليلة من نهاية عام ١٤٩٥ يوافق الواحد بعد التسعمائة من الهجرة تزوجت ابنتي صافية من حجاج بن زيتون في حكم الأشرف سيف الدين قايتباي».

أراح رأسه وأغمض عينيه، أصوات في الأسفل فتوقع صعود أمينة، رغم سمار وجهها إلى أنه يراها تشبه خالتها عفيفة وتزيد عليها روحها المرحة ونفسها الوثابة، من جوف ذاكرته تتسرّب وقعات سنواته المنطوية منذ ولادة صافية ابنها حيدرة بعد أمينة، ليلتها حمله زيتون وتخلّى عن وقاره ورقص وهو يردد أغنية قديمة مما ورثه عن جدوده في بلدته البعيدة سوبا، رأى في عينيه طمأنينة استمرار ذريته دون انقطاع، وأم حجاج تزن عليه وعلى صافية أن يزيد بالثالث لكن التعطيل حدث ولم تقض إرادة الله بحمل صافية، حجاج راض بقسمته وتفانى في خدمة شيخوخة أبيه وتربية أمينة وحيدرة حتى كان عام الوباء الغريب، قبله بأشهر زوّج زيتون مسكة بالشاب اليتيم جمعة، رغم أنها تكبره لكنها رضيت به ولم يمنع زيتون ذو النفس البسيطة زواجها من الولد الفقير

فلا يملك غير بيت أبيه الضيق آخر درب العطارين، أما حجاج فلا رأي له بعد أبيه، حملت مسكة في نفس العام وقبل ولادتها أصيب جمعة بالطاعون ومع قلة البذور وأوراق الأشجار الشافية اشتدت حالته حتى طلب زيتون من اليهودي عشير ابن ناحور زنجبيلا وحفنة من مطحون قشر الرمان فقايضه بالذهب وبعدها أغلق عشير باب بيته ودكانه وامتنع تماما من فتحه طوال أيام الوباء، لم تُجد محاولة زيتون إسعاف جمعة ومات مع من ماتوا، أنجبت مسكة ولدًا أسمته عبده.

يتذكر صبور تلك الأيام البعيدة الحزينة وزيتون لا يبالي بالعدوى ويغسّل جمعة بيديه ويلبسه الكفن، يحمله المكاري عطية على عربته ويدفن بمدافن السيدة عائشة، أما الطامة الكبرى التي وقعت عليهم هو إصابة حيدرة ابن صافية.

انقشعت سحابة ذكرياته، قلب الأوراق ووضع إصبعه على تاريخ خطه منذ عشر سنوات وزيادة.

«إنه العام ٩١١ من الهجرة يوافق ١٥٠٥ من ميلاد المسيح، أيام سوداء مرت على المحروسة فانتشر الطاعون وحصد بمنجله الناس وكثر الموتى وقلت النعوش فرأيت المشيعين يحملون الموتى على أقفاص أو ألواح خشب وعلمت أنه أصاب الفلاحين فانضرت الزراعة ولم تجد الأرض من يحصد أو يزرع وفرغ طباق القلعة من المماليك السلطانية ومما أوجع قلبي هو إصابة العديد من تجار الدرب ولم يسلم منه جمعة اليتيم فمات وكان ولدًا مهذبًا بسام الثغر يضحكنا دائمًا بظرفه. ورغم عدم خروجنا من الدرب والبيت لكن حفيدي حيدرة بن حجاج أصيب وحُمَّ جسمه بشدة وأسلم الروح وهو على حجر جده زيتون فانقلبت حياتنا نكدًا لم ينمح إلا بالبشرى التي زفتها لنا أم حجاج بأن صافية حملت بعد تعطيل سنوات مضت».

– سنوات مضت.

– تكلم نفسك يا جدي؟!

التفت إلى أمينة الواقفة قرب الباب جوارها أخوها عشري بوجهه اللحيم الذي يماثل جده زيتون، اقتربا من المنضدة فأفسح لهما مكان أطباق الطعام، تأملهما؛ أمينة التي تكبر أخاها بعشر سنوات تبدو أقصر منه، أسماه جده زيتون عشري تيمنًا وتفاؤلًا حتى يليه عشرة إخوة بعده لكن جوف صافية لم يهدهم غيره بعد موت أخيه بالطاعون، كعادته لم يكترث حجاج وقنع بقسمته من العيال، تنبّه أنه لم يجب على سؤال أمينة فرفع سبابته أمامها وهو يوضح:

– كلما قرأت ما كنت أكتبه تذكرت ما مضى.

– تحب هذه الكراريس يا جدي؟

– ورثتها من جدودي يا عشري وأرجو أن تحافظوا عليها بعد موتي.

– أطال الله عمرك يا جدنا، أنت الخير والبركة، المهم ماذا كنت تقرأ؟

– كنت أسترجع أيام محنة الطاعون وذهاب حيدرة.

– رحمه الله، كان جميلًا؟

– نعم يا أمينة.

سرح ببصره إلى الظلام البعيد عن نور المسرجة ودمعت عينه حين تذكر أنس ودار في خاطره أنه الآن فارس يصول ويجول بفرسه فهل يعرفه إن رآه الآن؟ وهل يدري أن سرج حصانه من صنعة جده، لن يسأم السؤال عن حضوره من الإسكندرية كما كان يفعل طوال السنوات الماضية.

– جدي! جدي! العشاء برد.

تناول عدة لقيمات وشرب القليل من الماء، لملمت أمينة الأطباق ووضعتها على سرير الجريد، جلست جوار جدها فمسح شعرها المجعد كشعر أبيها، بينما شعر عشري خفيف كأمه ويشعر حين يتحدث أن صافية تتكلم معه.

– تتعلم في الأزهر يا عشري؟

– نعم يا جدي.

– اقرأ إذن من أول هنا.

«فرح الشيخ زيتون بعوضه بعد موت حيدرة، في هذا الشهر قدم إليه من الجنوب رجل مع أسرته اسمه نهر العنجي»

– فيه رجل اسمه نهر؟ أكيد في بطنه تعوم القراميط والأسماك، وما العنج؟

– الله يلعن لسانك يا عشري، يا ولد أكمل، آه، العنج كما عرفت من جدك زيتون قوم كانوا يعيشون في بلده سوبا، أكمل.

«... كعادته استضافه زيتون ببيته لحين تدبير سكن له، عرف منه أنه هجر بلدهم القديمة سوبا بعد أن خربها الفونج مع عبد الله جماع العربي ووصف الشيخ نهر حرائق الأكواخ وقتل الناس وإلقاءهم في الماء فاغتم الشيخ زيتون وأسف لما حدث أشد الأسف، بعد أيام نزل الشيخ نهر العنجي ببيت قرب الجامع العتيق وكان يزورنا من وقت لآخر...».

– أريد أن أعرف أصلنا يا جدي.

– اسهرْ مع جدك زيتون واسمع منه سيرة حياته في بلده سوبا الذي بات يذكره كثيرًا هذه الأيام.

– وأنت يا جدي؟

– يومًا ما سأروي لكما ما مر بي وبأمكما وخالتكما عفيفة رحمها الله.

***

– عشري يريد معرفتك يا شيخ زيتون، من حقه يعرف أصله.

بلسانه بلل زيتون شفتيه وتأمل صبور وجهه المغضن وتهدل لغده وقرب فراغ فمه من أسنانه، حدّق في بعيد ثم قطب حاجبيه والتفت إلى جليسه نهر العنجي.

– رحم الله أيام سوبا الجميلة.

– لم يعد البلد الذي تعرف يا شيخ زيتون، تركته منذ مقدمي خرابًا.

كعادته التي لم يغيرها قام حجاج بصب المشروب الساخن في الأكواب الفخارية ووزعها على ضيوفه، أشار زيتون إلى بيت حزقيال وهو يهز رأسه في أسى حقيقي على فراق جاره.

– رحم الله المقدس حزقيال، كان يذكرني بما كنت أرويه دومًا.

– هو الذي كان يذكرك؟

– نعم، من كثرة ما حكيت أمامه.

– كان يحبك جدًا يا عم زيتون هو والمرحومة أمي الله يقدس روحها.

قالها بسيط وهو يلقي جلد نعل يجهزه ويطوي الخيط الصوفي حول البكرة، ينهض من قعدته أمام دكانه وينضم لجلستهم على الحصير فصب له حجاج نصيبه من النعناع، القدم خفيفة بالدرب، فربت زيتون على كتف حفيده عشري والتقط نفسًا عميقًا ينبئ عن صعوبة استنشاقه.

– يروي لك جدك نهر يا عشري، جدك نهر عاش هناك طوال عمره ولم يهجر سوبا صغيرًا مثلي.

– لكن أحوالها ساءت يا زيتون وتفشّى المرض بها وكثر لصوص الدواب ووجد زعيم عربان القواسمة عبد الله جماع الفرصة فتحالف مع عمارة دنقس وحاربوا سوبا وانتصر الفونج وخربوها وسمعت من قادمين من هناك أنه بنى له مدينة كبيرة اسمها سنار.

– أنا كتبت أخبارًا عنهم منذ قدومك يا شيخ نهر.

– جدي صبور عنده أوراق ويكتب الأخبار في قراطيس مثل الشيخ محمد بن أحمد أبو البركات ابن إياس.

– ومن أين عرفت ابن إياس؟

– تكلم عنه شيخ العمود بالأزهر وقال أنه ماهر في رواية وتدوين أخبار مصر وما نزل بها ومن هجرها ومن مات ومن يحكم.

– أبو البركات محمد بن إياس الحنفي من الجركس ومن الأبازة، يقرب لتمرباي خاصكي الأمير ططر لكنه مختلف عنهم.

وجم صبور عند ذكر الأمير ططر وتواترت بنفسه ذكريات مترعة بالحزن، لعنه في قرارة نفسه ولعن مكره فلم يحضر أنس معه في المرات القلائل التي قدم فيها إلى الأزبكية وعرف مصادفة أنه يعود ويرحل خلسة، عضّ صبور شفته، لم يبال بسيرة بلد زيتون التي يرويها نهر العنجي بلهجته الغريبة ونصف كلامه غير مفهوم ويوضحه حجاج أو زيتون حتى يعي عشري ما يقول قريبهم الجنوبي، لا يدري لمَ داخله الحنين أن يرحل إلى الفشن ويقيم جوار قبر عفيفة وربما يحل أجله ويدفن جوارها ولكن لا يجب أن أموت قبل الاطمئنان على أنس.

دار في باله ما لم ينطق به، حوافر خيل تقترب فرفع وجهه تجاه فم الدرب، فظن أنه تمرباي يزوره كعادته منذ أن صاحبه لكن الفارس تظهر ملامحه، يتحاشاه المارة القلائل ويقف الصغار على أعتاب البيوت، يثبت قريبًا من جلستهم فميزه صبور بأنه واحد من صغار مماليك الأمير ططر ممن يستخدمهم في المراسلة.

– صبور السراج، الأمير تمرباي يطلبك من الساعة.

– لكن الشمس تغيب و...

– تذهب إليه وأنا بنفسي أحضرك لهنا.

في تثاقل نهض صبور وجواره سار حجّاج لكن المملوك أشار إليهما أن يأتي صبور بمفرده، أصر حجاج أن يرافقه لأول الدرب وأسفل بيت المكاري عطية ناداه ففتح الباب.

– نريد فرسك يا عطية ليركبه عمي صبور.

دون أن يتكلم استدار العجوز وفتح بابًا متهالكًا، في سرعة وضع حجاج السرج وعاون حماه على امتطائه، شدّ اللجام وتبع المملوك وقلب صبور يأكله من الاستدعاء المفاجئ، فربما يطلب كبير

الجفتاوات المزيد من السروج، لكن لا يهم فبعد مرور كل هذه السنوات من حكم الأشرف قانصوه الغوري لا يهتم بغير إتقان صنعته فأصبح سرجه لا يضارع متانة في بر الفسطاط والقاهرة.

انفتحت بوابة القصر وقاده المملوك إلى منتصف ممر الأشجار، عندها أوقفه خادم أشيب الفودين، أمسك اللجام فنزل صبور والخادم يبتسم له، فغر فاه لذراعيه المرحبتين.

– ألا تذكرني يا عم صبور، أنا نصير.

– نصير، كيف حالك يا ولدي؟

سلما على بعضهما في سرعة وقاده نصير نحو الإسطبل البعيد عن القصر ومن حين لآخر يسأله عن حاله وأحواله فأخبره أنه حضر منذ أسبوع.

– والأمير يا نصير؟

– هنا يا عم صبور.

جفلت قدما صبور وانتابت نفسه رغبة عارمة لخوض معركة عظيمة مع الأمير ططر فبعد هذه الأعوام أمسى لا يلوي على شيء وأمنية حياته أن يطمئن على أنس، قبالة الإسطبل فوجئ بنصير تتسع ابتسامته وهو يخبره:

– أصبح الأمير فارسًا لا يشق له غبار ومقاتلًا يفر من أمامه أشرس الأسود.

– بعد كل هذه السنين؟!

– من تقصد يا عزيزي؟ أنا أعني الأمير أنسباي.

***

-٢-

حين أفاق من إغمائه لم يدر ما شعر به سوى الكلمة الأخيرة التي رنّت بباله وصداها يتردد بين جنبات صدره، فتح عينيه ليجد نفسه منطرحًا على دكة وتمرباي يحملق فيه وعن يمينه نصير يقرّب من فمه كوب الماء، اعتدل في جلسته وقاوم نوبة فقدان الوعي.

– ماذا قلت يا نصير؟

– الأمير أنسباي يا عمنا.

– وكيفه وصحته و... خذني إليه.

– بكل خير وستراه ولكن بعد أن يصحو ولن يتأخر فهذا وقت نزهة آخر النهار، بعد قليل ينزل هنا مع خوند عنود والأمير ططر وأخته بركة.

نظرة استنكار برقت بها عينا صبور لكلمة أخته التي فاه بها الخادم في ثقة وكأن الخوند حملت فيه فعلًا، وقف وعيناه تمسحان الحديقة، تمرباي يبدو عليه القلق، يأمر الخادم نصير أن ينصرف ويأتي بالشراب.

– ما بك يا صبور؟

– أنا بخير يا اسندر.

– الوحيد من يذكّرني بهذا الاسم.

– ما دمت تعتز بأصلك فلا يجب عليك أن تنسى هذا الاسم.

– ما أصابك؟ وقعت حين نطق نصير اسم الأمير أنسباي ابن الأمير ططر، أتعرفه؟

– فيك من يكتم السر؟

– تعرف معزتك عندي يا صبور وسرك في بئر ما لها قرار.

– تتذكر ما رويته لك عن بنتي التي ماتت وابنها خطفه أمير.

– نعم وأكثر من مرة طلبت منك أن تخبرني باسم الأمير ورفضت.

– أخبرك الآن، ابن بنتي هو أنس، أنسباي.

– والأمير الذي خطفه هو...

– نعم يا اسندر، خطفه ططر بعد موت مولوده بقصر الفشن.

– آه أذكر تلك الأيام البعيدة، رافق خوند عنود إلى هناك بحجة أنها تلد في هدوء الريف.

– وابنها لم تكتب له الحياة واستبدل به ابن بنتي بعد أن خطفه من بين يدي أم سعد الضعيفة، واحتال عليّ وسافر به حتى لا أطلبه وكاد خادمه ضبع يقتل إنسانة طيبة كل ذنبها أنها حاولت الدفاع عن أنس.

في هلع حقيقي حملق تمرباي في وجه صبور وحمت نيران كراهيته للمماليك، صوّب نظراته إلى القصر الكبير وودّ لو أن شررًا انقذف من صدره فيحرق القصر بمن فيه وما فيه، دبيب خطوات نصير ينتشله من دوامات سرحانه فيعود إلى وجه صبور المستسلم الهادئ، يقف الخادم لئلا يطلب تمرباي شيئًا آخر.

– اجلسْ يا نصير وشاركنا الشراب.

– عفوًا يا أمير تمرباي.

– قلت لك اجلسْ يا رجل.

استغرب صبور جرأة كبير الجفتاوات ويدري ما يشعر به نصير من خطر لو أن سيدهما رآه يسامر كبير مماليكه سيجلده، مدّ الخادم يده وتناول الكوب، شرب ما به وهو لا يزال واقفًا، لحظ صبور امتلاء وجه الخادم قليلًا والشيب يغزو مقدمة رأسه وفوديه فسأله.

– لك أولاد يا نصير؟

– ومثلي يتزوج يا عم صبور؟

أطرق نصير وركن كوبه، رجع خطوة ثم انصرف وصبور لا يعي سر وجوم الخادم فما يمنعه أن تكون له عائلة حتى لو كان عبدًا لأي أمير، دون أن يسأل أجاب تمرباي:

– نصير وغيره ممن يخدمون حريم المماليك والواحد منهم مجبوب.

جحظت عينا صبور للحقيقة التي لم تكن واضحة ولم يتوقعها في ذهنه فرقّ لنصير وشعر أنه نغزه في قلبه أو نكأ جرحًا قديمًا لا يزال يقاسي ويلاته، رآه يقبل عليه فأطرق رأسه وارتعشت شفتاه وهو يتأسف:

– لا أدري كيف أعتذر.

– لا تعتذر يا عم صبور، أنا نفسي نسيت ما حدث لي وأنا صغير ومن رحمة ربنا أني لا زلت أعيش فغيري هلك لكني أحيا في قصور الأمراء ولا أرجو من الله إلا أن أموت ولا أكون ظلمت إنسانًا.

– أعلم أنك مختلف يا نصير، منذ أن قابلتني أول مرة في بيت الأمير بالفشن وأنت غير ضبع، ما فعلت السنون به؟

– كان مثلي لكنه لم يكف عن مغازلة الجواري وتجرأ على نساء الفلاحين، غاب أيامًا وبحثنا عنه ثم دلتنا عليه نتانة جثته الملقاة قرب بئر ساقية مهجورة.

– تقصد...؟

– أكيد، قتل على يد إنسان دافع عن شرفه.

سكت نصير ورجع إلى حظيرة الغنم البعيدة عن الإسطبل، العبد سعيد يلقي بحزم الحشائش الخضراء فتتسابق الجديان والعنزات على طعامها، ومن حين لآخر يرفع الجدي القوي ساقيه الأماميتين وتهتز مؤخرته وهو يدفع إحليله في العنزة المستكينة، عض شفته لفحولته الفائرة وأعجب بقرنيه المنتصبين، في حدة لوى عنقه لمأمأة السخل الصغير يحمله سعيد بين يديه أمام مكين ابن يوحنا وابنه دميان يعاونه في انفراج ساقي الجدي الصغير، بقطعة جريد مشقوقة يطبق على خصيتي السخل ويربطه بحبل ليفي رفيع ويتركه يصرخ ويسير في اعوجاج ويأتي سعيد بآخر، في حدة يستدير نصير ويضرب بقبضته الجدار وخده مغرق بالدموع، من بين تلافيف ذاكرته ينفتق ضوء شاحب لوجه أمه الذي لا يكاد يذكره وصوتها المبحوح يناديه: باكو.. باكو.. وهي بين يدي رجلين غريبين من سكان الصحراء، يلقيه على ظهر جمل ولا يدري بعدها أين نقل حتى ذلك الصباح في حوش رفعه أحدهم وباعد بين ساقيه و...

صوت ثغاء الخروف الصغير المخصي توًّا يصم أذنيه فترك المطرح وعاد إلى حيث يستضيف تمرباي صبور البادي عليه كل آيات القلق، أصوات متداخلة دفعته أن ينتصب في وقفته ثم هرول نحو باب القصر، كفلق القمر بزغت خوند عنود وزرّ صبور عينيه فرآها زادت جمالًا وصحة عما رآها بقصر بستان الفشن منذ أكثر من عشرين سنة، خلفها ترفل فتاة في ملابسها الفاخرة، خلفها يسير خادم وجارية فانضم نصير إليهم حتى تعريشة عنب تتوسّط عدة نخلات، همّ صبور أن يذهب إليها ويذكرها بنفسه، يسألها عن أنس ويشكر لها رعايتها له، ربت تمرباي على كتفه حتى يلتفت إليه.

– لا تتعجّل، ستراه ولكن احرصْ أشد الحرص ألا تجهر بما تريد.

– لكنه حفيدي، لحمي ودمي!

– أرجوك يا صبور، استمع لنصيحتي وإلا تفقد رأسك بسيف حفيدك؛ فإنه يحب أباه، أقصد الأمير ططر ولا ولاء للأمير الصغير إلا له وينفذ أمره دون اعتراض فلو أمره بقتلك سيقتلك على الفور.

– لكن يجب أن يعرف.

– سيعرف، أعدك لكن اترك المسألة لوقتها المناسب.

– لماذا استدعيتني؟

– أنت أول سرّاج أستدعيه قبل غيرنا من أمراء الجراكسة، عرفنا أن مولانا السلطان الغوري يجهز للخروج من مصر، وأمراء المماليك يجمع كل منهم ما يقدر من خيل والأمير ططر ضم إلى إسطبله أكثر من مائة فرس جديد و...

قاطعه صهيل رفيع قريب فالتفت إلى سائس يقود فرسة رشيقة نحو حظيرتها، لفت نظره جمال خطمها وطول عنقها وتناسق فخذيها.

– تذكرها يا صبور، إنها فرسة حصان المكاري عطية.

– قلبي أحسّ أنها هي، يا لجمالها! أبوها الواقف هناك.

– تذكرته، وأمها تعيش أنت.

– ماتت؟

– من عامين.

– يا ولد، هات عفيفة.

تفجّر الاسم في دماغ صبور وتارة أخرى شعر بدوار رأسه فهو من أسماها حين ولدت على يديه بعد أن استعسر البيطار جذبها، تمالك نفسه وحبس دمعة كادت تفر من عينه، اقترب بها السائس فنهض واستغرب الشاب الصغير اقتراب ضيف سيده من الفرسة وأحاط رقبتها بذراعيه، قبّل ما بين عينيها كأب يلقى ابنته، لم يدفعه عنها سوى اقتراب نصير.

– شيخ صبور، سيدي الأمير أنسباي في طريقه إلى الحديقة.

– أرجوك يا صبور تتمالك وإلا...

– نعم يا عم صبور؛ فالأمير لا يعرفك ولا يعرف غير أمه وأخته وأبيه القوي.

– المهم يا صبور، مطلوب منك صناعة مائة سرج والنفقة جاهزة.

لم ينتبه صبور لأمر كبير الجفتاوات وشخصت عيناه نحو باب القصر والخدم أتموا إشعال المسارج الكبيرة حول تعريشة العنب الخشبية، ظهر عبد أسود يحمل مصباحًا خلفه بزغ أنسباي فذرفت عينا صبور في غزارة لرؤية ابن عفيفة طويلًا مهابًا ممتلئ الجسم، موفور الصحة، قمحي الوجه حليقه لا يضع عمامة على رأسه فشعره أسود فاحم وقسمات وجهه مطبوعة من أبيه، فودّ صبور لو يدخله

بقلبه فيجبره على رؤية أمه المسكونة به، خفق قلبه في شدة وكاد يقع فتحامل على ذراع نصير، ابتلع ريقه ومسح دموعه ولم يلبث أن تراكضت الدماء بعروقه حين عدل أنسباي من تجاهه وخطا نحو الإسطبل، تقدّم في هدوء وبسمة خفيفة ترتسم على وجهه والغمازتان الموروثتان من أمه تزيده وسامة، تسمّر صبور وانعقد لسانه وداخلته مشاعر عبثية حين وقف أنسباي على مقربة منهم يمسح شعر الفرسة عفيفة ويصفّر في أذنها فلم يتمالك صبور نفسه وانفلت من جوار نصير وعجز تمرباي أن يوقفه فخطا نحو أنس وهو يفتح ذراعيه، حضنه في قوة وكأنه يلف العالم بذراعيه، طفق يقبل وجهه ورأسه وكتفه ومال إلى يده فسحبها الشاب وهو يرفع حاجبه في دهشة ونظراته تزيغ بين خادميه، مستغربًا تصرف غريب أول مرة يراه، بادره نصير بالتوضيح:

– معذرة مولاي الأمير أنسباي، كبير السرّاجين رآك وأنت في اللفة بين يدي مولاتي الخوند ولم يرك غير اليوم.

– مرحبًا يا...

– صبور، جدك صبور يا ولدي.

– مرحبًا صبور، أمرته بما نريد يا تمرباي؟

– نعم يا سمو الأمير، المعلم صبور أمهر سراجي الفسطاط وغيرها.

– أنت صنعت سرج عفيفة؟

«عفيفة تبقى أمك يا أنس يا ابن مصري وأنا جدك صبور السراج الأسيوطي».

في صدره صرخت تلك الحقيقة لكن لسانه المكبل بأنشوطة التحذير المصبوغ بالخوف عجز عن الإفصاح بها، استغرب أنسباي سكوت السرّاج وعدم رده على سؤاله والدموع السائلة من عينيه، ودهش من جرأته واصفًا نفسه بجده لا خادمه كما اعتاد سماعها ممن يعملون عنده، أتاه السائس بعفيفة وعليها سرج جديد، في سرعة امتطى ظهرها فتراكضت مبتعدة به عن الإسطبل، انخطفت روحه فأغمض عينيه وشعر بتوقف مخه، ظلّ على حالته من ذهاب عقله إلى أن أفاقته أصوات ترحيب تمرباي وصوت نصير يقول:

– تفضلي مولاتي.

– الخيول كلها بخير؟

– بخير وصحتها جيدة وعلفها متوفر ونظافة الحظائر لا تتوقف.

صبور الساكت طوال الوقت يرقب حركة الخوند عنود وانعقد لسانه واحتبس صوته فلا يستطيع مجرد الهمس وشعر إن نطق سيصرخ في وجوههم جميعًا بأن يعيدوا إليه روحه، قبالته وقفت وهزّت رأسها في لا مبالاة ثم دققت النظر وكأنها تشبه عليه، أشارت وهي تشك في سابق معرفتها بالشيخ الواقف أمامها، لا يدري نصير كيف أتته الجرأة أن يعاون سيدته في تذكرها.

– السراج صبور يا سيدتي، تذكرينه؟

في ارتباك تلفتت الخوند حواليها وتأكدت من جلوس ابنتها الأميرة بركة بعيدًا ولا أحد غير تمرباي ونصير فأشارت إلى صبور وفاهت في فرح:

– أهو هو؟

– نعم يا سيدتي، أنا جد أنس.

لم يستطع صبور أن يغالب تماسكه فانخرط في بكاء حار وهو مطرق الوجه ومن حوله صامتون ينتظرون ما ستقرره الخوند، تركت صبور يفرغ مشاعره إلى أن هدأ قليلًا، اقتربت منه ونصير وتمرباي خلفها بخطوات، رفع صبور وجهه ومسح خده فقدمت له منديلًا من الحرير.

– أنت جد أنسباي ولا أنكره عليك لكنه لا يعرفك وأرجوك لا تفسد عليه حياته فيتغير ويشوش تفكيره ولا أعلم ما قد يفعل.

– نعم يا سيدتي، ربما يهرب أو لا يستطيع مواجهة الأمير ططر والشيخ صبور أعقل من أن يجني على حفيده.

لم يبالغ نصير حين وضّح رأيه فالخوند تثق فيه وتعتمد عليه في أمور كثيرة أولها رعايته وخدمته لأنسباي منذ صغره، استأنف نصير نصحه الذي لا يرمي من ورائه سوى حفظ دماء صبور من بطش الأمير ططر:

– الشيخ صبور قنوع بما رآه من هيبة حفيده.

– نعم يا خوند، أشكر لك تربيتك لأنس وقرّت عيني برؤيته.

– لا تشكرني على أقل شيء فعلته، فأنا في المقام الأول كفلت يتيمًا، وزيادة على ذلك أنه لا يعرف أمًا غيري ولا أختًا غير بنتي بركة ولولا تمسك الأمير به لأعدته إليك فالأفضل وهو رأيي أن يرده لأهله لكنك رأيت أن يكون لدينا.

– خطأ يا سيدتي، فالأمير ططر أفهمني أنّك متعلقة بالولد بعد موت ابنك ودفنه في حديقة قصر الفشن وأنك قد تذبحينه إن أصررتُ أنا على حرمانك منه والخنجر ذو السلسلة كان معلقًا برقبة أنس

حين رأيته معك.

ران الصمت ودون أن يوضح أحد للآخر ما حدث أدركا ما حاكه الأمير ططر من حيلة خسيسة وقعوا جميعًا في بِركتها بمكره، مطّت عنود شفتيها وودّت لو يعود بها الزمن للوراء فترد الرضيع لجده، أما صبور فقد صدم بجدار الواقع الذي رآه وعزم على هدمه وفرار الحقيقة من بين الأسوار المسيّجة حول حفيده لتصل إليه ويعرف من هو، تراكض الفرسة يقترب وإذا بها تصهل قبل أن تتوقف ويتركها أنسباي للسائس، بيده يقبض على الكرباج.

استدارت متأبطة ذراع أنسباي سائرين إلى حيث تجلس الفتاة بركة وصبور يعض شفته وتمرباي يقبض على معصمه لئلا يتهوّر، على سلم القصر يقف الأمير ططر بكرشه الممتلئ ولحيته الشهباء، أشار إلى عنود وأنسباي وابنته، لوى عنقه فلمح مماليكه يقفون أمام الإسطبل، خطا نحوهم وهو يتوكأ على رمانة عصاته العاج، رغم كبره فإنه في كامل همّته، أمامه انحنى تمرباي ونصير، قرن الأمير حاجبيه عند رؤيته لصبور وكأنه تذكره فصوّب نظرات نارية لتابعيه، تماسك قليلًا وقصر كلامه على ما يطلب:

– أمرته يا تمرباي؟

– نعم سيدي الأمير وسيصنع ما نريد، المعلم صبور كبير عرفاء السراجين.

– أعرفه ولينصرف.

– أذكرك بوعدك يا أمير، ألا تذكره حين كنا بالفشن؟

حزم الأمير ططر أمره ألا يحاوره صبور في شأن حفيده مرة ثانية وإلا لن يكون مصيره إلا القتل فرفع سبابته وكزّ أسنانه وخرجت الأحرف مصقولة بالتهديد الصريح:

– انظرْ يا رجل ما أصبح فيه ابن بنتك، أميرًا ابن أمير له من المال والخدم والمماليك ما لي واحذرْ أن تهد كل ذلك وإلا...

– أعرف يا أمير، تقتلني.

– بل أقتله هو.

– تقتل ولدي.

– حفيدك أخذته ليرث ثروتي دون استيلاء الجراكسة الطماعين فيها وكنت على أمل أن أنجب ولدًا آخر ولكني لم أرزق بغير بنت، فإن شعرت بأن أنسباي يهددني أقتله.

– لا يا أمير، شَلَّ لساني وقطع من حلقومي إن تسببت في تهديدك.

– الآن انصرف وانشغل في إعداد السروج، السروج فقط.

أومأ صبور وتراجع حتى ابتعد فقبضت أصابعه على لجام الفرس ولم يركبه ومن حين لآخر يلتفت وراءه حتى اقترب من باب حديقة القصر، ألقى نظرة أخيرة على أنس البعيد بين الخوند وابنتها وتمتد أيديهم لتناول الفاكهة من طبق الفضة والكؤوس البلورية حول المنضدة، انغلقت البوابة فالتفت الأمير ططر في حدة إلى خادميه، بكلتا يديه دفع تمرباي وهو يزعق في وجهه:

– ألم تجد غيره؟

– إنه كبير السراجين.

– نعم إنه أمهر السراجين وتمرباي لا يعلم شيئًا يا أمير.

– لكنك تعلم يا نصير يا كلب وسأقتلك.

دفع الخادم وعجز تمرباي عن حمايته حين سل الأمير سيفه ورفعه ليهوي به على رقبة نصير المستلقي على الأرض في رعب وفي لمح البصر تلقى سيف أنسباي الضربة فقد جرى نحو الأمير حين علا صوته وأنقذ خادمه من موت محقق، في رفق دفع الأمير إلى الخلف وهو يهدئ من غضبه:

– إن كان أخطأ فاعفُ عنه يا أبي، نصير هو من حملني على كتفه طوال عمره ولا تنس أنه كان يتبعني كظلي وأنقذ حياتي.

كثور زفر الأمير ططر نفسًا حارًا، رمق مملوكيه بنظرات الاحتقار واستدار موليهم ظهره نحو تعريشة العنب، مدّ أنسباي يده فقبض على ذراع نصير المنكسرة تقاسيم وجهه، أوقفه وربت على كتفه مطيبًا خاطره:

– لا عليك يا نصير، لا أدري سبب غضبه رغم أنه أصبح مساعد أمير أخور السلطان.

في رشاقة تركهما أنسباي وأسرع ليشارك أمه وأخته العشاء قبل أن يبترد، ولا يدري حقيقة سبب غضبة أبيه المفاجئة واندفاعه في قتل خادمه الأثير الذي لم يغضب عليه قبل اليوم، في وجوم جلس نصير جوار تمرباي، مرّ الوقت وهدأت نفسه قليلًا فالتفت إليه.

– ربنا يحمي الأمير أنسباي؛ على يديه انكتب لك عمر جديد.

– لأنه مصري ابن مصري يا تمرباي، حفظ تربيتي له؛ فلو أنه من صلب ططر لتركه يقتلني وأكون في نظره كلب ومات.

– لكنه قال أنك...

– في يوم كان أنسباي يسير على السور الخلفي لقلعة الإسكندرية، ترنّح ووقع في البحر وصدم رأسه بصخرة ورغم أن السور منخفض فإن الأمير كاد يغرق من الوقعة وجرح رأسه، رميت نفسي في الماء وحملته على كتفي حتى بيت الأمير القريب من القلعة.

– أنت شهم يا نصير.

– عرضت عليّ خوند عنود أن تعتق رقبتي لكني رفضت.

– رفضت حريتك؟

– رفضت أبتعد عن خدمة أنس، وبررتُ بوعدي لجده أن أخدم حفيده وحتى لو نلت حريتي يا عمنا، أين أعيش وماذا أعمل، أنا هنا أضمن قوتي وأرعى الأمير والأميرة بركة والخوند قلبها عامر بالخير ويصعب عليّ فراقها.

– ألا تذكر شيئا، أي شيء عن أسرتك؟

– كنت أنام جوار أمي في كوخ وسط الأشجار وتطعمني الفاكهة أو لحمًا مشويًا حتى ذلك اليوم الذي هاجم فيه رجال على أكواخنا وخطفوا أمي وكل ما يتردد في ذهني أنها كانت تمد يدها وتناديني: باكو.

– وأبوك؟

– لا أعرفه.. وأنت تعرف الباقي، قنعت بحياتي مع غلمان الأمير سيف الدين العلائي والد خوند عنود حتى تزوجها الأمير ططر فلزمت خدمتها وخدمته.

– أنت رجل طيب القلب يا نصير، وربنا يثيبك على قدر نيتك الصالحة.

***

-٣-

لا يدري كيف أنهى صلاة العشاء بجامع عمرو، وفي كل سجدة يلهج بحمد ربه على ما رأى من قوة أنس وركوبه الخيل واهتمام الخوند البالغ بتربيته، كان من الممكن يغير الأمير الجركسي رأيه بعد

سنوات فيصرفه أو يكتفي بجعله مجرد خادم لكنها الخوند الطيبة القوية ورغبة الأمير أن يكون له وريث ذكر يحفظ ماله، أراح ظهره للعمود واتّسع انبساطه لوسامة حفيده ونور وجهه لكن ابتسامته غاضت كماء بئر مهجورة حين خمش القلق قلبه لما اعتاد عليه المماليك من الاعتداء على بعضهم البعض والثروة تكون للقوي المتغلب، وها هو الزيني بركات بن موسى ناظر الحسبة يستصفي أموال الأمراء كما فعل بعلي بن أبي الجود وجرّسه بعد أن اعترف بمخازن أمواله كلها ثم دفع السلطان أن يشنقه على باب زويلة، فلو أن الأمير ططر وقع عليه ما حدث لبعض الأمراء يضيع أنسباي والخوند والأميرة الصغيرة، راوده التفكير في السعي إلى كوم الجارح والاستعانة بالشيخ الصالح أبي السعود فخشي ألا يجده كما فعل منذ سنوات فقد قال أحد مشاديده أنه يمكث في السرداب لأيام ينقطع فيها للعبادة، نهض من فوره وقرر العودة للأزبكية لكن عزيمته تقهقرت حين بدا له وجه الأمير ططر الغاضب من ظهوره بعد كل تلك السنوات، عزاؤه الوحيد هو وجود نصير جوار أنس يخدمه ويحميه ويبذل روحه من أجله لكن...

«لن ينفع نصير أمام سيوف المماليك».

تمتم بها وهو يضع قدمه في المداس ويفك رباط فرس عطية، لم يركبه وجره إلى أن قابله بسيط ابن حزقيال القادم من الكنيسة المعلقة.

– متأخر يا عم صبور.

– ذهبت إلى الأزبكية وتأخرت هناك وأنت؟

– حضرت فرح أخت زوج مريم.

– وأخبار أختك؟

– بخير وانتقلت مع زوجها بسكن جديد قرب حارة برجوان.

سارا متجاورين إلى أن وقفا أمام بيت عطية، قرعه بسيط فخرج الرجل واستلم حصانه وأعاده للحظيرة، تارة أخرى يعرض على عطية شراء الفرس لكنه يرفض وهو يرد في سخرية:

– ورثت حمارين من أبي أبدلهما على العربة، كان الخير كثيرًا ونقل البضاعة من السويس لهنا لا يتوقف حتى بعت الحمارين واشتريت بغلًا خدمني سنين طويلة ومات ولما أصبح لدي فرس قوي الخير قل والصحة راحت وأصبحت أؤجره.

أغلق عطية باب بيته فصفّق صبور أمام البيت المقابل، هنيهة وبص عليهم كريم بن معتوق، فتح الباب فربّت صبور على كتفه وهو يطلب منه في جدية:

– قل لأبيك أن يزيد لي قربة أو قربتين ماء على نصيبي.

– أمرك يا معلم صبور، لك ولعم زيتون؟

– نعم يزيد لي ولعمك زيتون.

– خيرًا يا شيخ صبور.

– لا شيء يا بسيط ولكن قد أحتاج الماء في الأيام القادمة فقد طلب مني عامل الأمير المزيد من السروج.

– أمروني وغيري بتجهيز أخفاف ذات رقاب جلدية طويلة وسمعت من خدم الأمراء أن السلطان ومماليكه الجلبان وغيرهم يتجهزون لرحيل طويل بالبلاد الشامية وقد لا يعودون قبل شهور.

جفلت قدما صبور ثم خطا ببطء وتارة أخرى أنشب الخوف مخالب القلق في صدره ودار في خلده أن الأمير ططر وهو من الأمراء المقدمين قد يكون ممن يخرجون من المحروسة ويصحب معه أنس، أشاح برأسه ليطرد هذا الهاجس، سارا وبيوت وحوانيت درب العطارين موصدة الأبواب، سلم على بسيط قبل أن يصعد لبيته ليريح جوفه وبعدها قد يسهر قليلًا برفقة زيتون وحجاج.

***

– العشاء جاهز يا أبي.

أخبرته صافية بعد أن أنهت كنس الغرفة وغسلت يديها لكن صبور تهالك على السرير والتفكير في أنس يهصر نفسه التي يصفها بالجبانة، طحنته التساؤلات بين شقي رحى الإقدام والإحجام وجعل يلوم نفسه ويتهمها بالتقصير في حق استعادة أنس؛ ليحيا في كنفه ويعرف أبناء خالته، ولكن كيف يعيش معه في هذه الحجرة الحقيرة بعد أن ألف حياة أخرى بها فاخر الطعام وأبهى الخيول والنوم على أسرة وثيرة مفروشة بالحرير غير الخدم والمماليك الذين تحت أمره.

تارة أخرى اشتعل رأسه بالوساوس وصبّ لومه على كل من تسبّب في ضياع حفيده فماذا كان يمكن أن يحدث لو أن الريس حميد ترك حارسًا بالسفينة أو أن أم سعد حملت أنس بين يديها ورافقتهم دفن عفيفة أو... أو...

– أنت لم تأكل يا أبي.

قالت صافية وهي تقشر بيضة مسلوقة وتقدمها له فلم يرد ردها وتناولها، على مهلٍ يمضغ اللقيمات وعلى نور المسرجة المتراقص يتأمل وجه صافية الممتلئ وحملق فيها حين توهج وجه أنس فهو يشبه خالته فكأنهما منحوتان من صخرة واحدة، قعدت جواره منتظرة ما يأمرها به.

– عودي لبيتك، ربما زوجك يحتاجك أو أمينة أو الصغير عشري.

– حاضر يا أبي وفي الصبح أحضر لك الإفطار.

– أتناوله مع حجاج وعمك زيتون.

– أمرك يا أبي، تصبح على خير.

لحظ قلة كلام صافية ووزنها للأمور وعدم اندفاعها كما كانت ولم يعد لها هم غير خدمة زوجها وأمينة وعشري وحين تأتي سيرة عفيفة أو زوجها مصري تترحّم عليهما وترفع يديها بالدعاء وتناست أمر أنس حتى لم تعد تسأل عنه، تمدّد وغطّى جسمه، عادت سيرة خروج السلطان تملك عليه تفكيره فمنذ زمن بعيد لم يرحل سلطان البلاد خارجها وما يردده الناس من مرافقة الأمراء من مقدمي الألوف والجلبان معه يشي بأن الأمر ليس هينًا وخاصة أن القلعة اهتزت لمقدم قاصد السلطان سليم بن بايزيد ملك العجم حين قدِم برسالة من بلاده البعيدة كما أشاع أهل الدرب.

شعر بصداع يدب برأسه فنفض تفكيره في ما يعتبره لا يخصه في شيء، ولم يعد يشغله غير أنس وسلامته وفوق كل ذلك متى وكيف يعرف أصله أم كُتبت عليه الحياة مخدوعًا بأنه ابن لواحد من سفلة المماليك.

***

بعد تسليمه المائة سرج، قرر أن يتيح لنفسه فرصة الراحة والبقاء في البيت أو ملاعبة عشري وأمينة والشقي عبده حتى أنه رص العدد وأغلق الدكان وجلس جوار زيتون الذي أخذ يحك صلعته ثم يعيد لف العمامة ويرمش جفنيه من حين لآخر ليتبيّن شبح القادم وحين يكلمه أحد من بعيد يطلب منه أن يقترب وهو يميل أذنه نحوه ليتمكن من تمييز ما يقول بعد أن ضعف سمعه، حجاج يقوم بكل ما يلزم من نقل التوابل والبهار والأعلاف وتوضيبها وبيعها وصبور يعجب به أيما إعجاب لدأبه في العمل وحُسن تدبيره للوقت وصبره حتى على صافية وقلة عقلها، من طرف خفي يلمح عشير ابن ناحور يطل من دكانه ويرمقهم في حسرة يعي صبور مبعثها وهو حقده الدفين على حجاج والمرحوم جمعة وجدهم زيتون لامتداد نسله وهو مقطوع لا ذرية ترثه، لم يبال ووقف أمام الدكان يتطلّع إلى القادم من بعيد وإلى جواره بسيط، اقترب ثلاثة فرسان ونزل أولهم من على جواده وفي سرعة ألقى أوامره بعربية متكسرة وكأنما حديث عهد بتعلمها:

– صبور سراج خيول حكيم مطلوب ليحضر أمام أمير كبير سودون وأمير سلاح أركماس.

– لماذا يا رجل؟

– نفذ تعليمات وهيا وأحضر ما يلزم من عدد.

فتح الدكان وفي كيس من الصوف السميك رتب عدته وحمله على ظهره وترك الدكان ليغلقه حجاج.

– طمئن صافية.

– أصحبك يا عم صبور.

– أصحبك أنا.

– لا أنت ولا هو شكرًا يا بسيط وابق هنا يا حجاج لرعاية عم زيتون وأولادك، أكيد الأمر فيه تكليف بالعمل.

– صحيح، الأمير سودون يريد أصحاب الحرف في عمل كبير.

سار معهم نحو أول الدرب فقابله كريم بن معتوق السقاء، سأله عن أبيه فأخبره أنه بالرميلة وطمأنه الغلام بأن قرب الماء ستفرغ بأزيار وقدور وقلل البيت، ظل صبور يسير ومن حين لآخر ينضم إليه صناع آخرون يقودهم ثلة من المماليك إلى أن بدت القلعة من بعيد تشمخ كأنها تطول الشمس الغاربة، يُفتح الباب الكبير القريب من الرميلة ويخطو فرس حجازي أصيل في تمهل عليه الأمير سودون العجمي، دقّق صبور النظر في السرج الذهبي بقربوسه والكنبوش50 المزركش أسفله وعرف أنه ليس صنعته، على مقربة منهم وقف حوله مماليكه.

– السلام عليكم جميعًا، ستبقون هنا لأيام وقد أمر السلطان بنصب الخيام لإقامتكم جوار مسجد السلطان حسن وكل منكم ينفذ ما هو مطلوب منه ولكم عند الأمير أركماس ما تريدون.

***

لحظ صبور خيامًا بعيدة منصوبة أسفل أسوار القلعة فاستراح لوجوده قرب مسجد السلطان حسن؛ ليتوضأ ويصلي فروضه ويستريح فيه، قادهم أحد المماليك نحو وطاق عظيم على جانب منه تتراص جلود وأخشاب وكلاليب وكل ما يلزم تجهيز عشرات وعشرات السروج الجديدة، عرف القليل من أرباب صنعته وتحاور معهم في تقسيم العمل فيبدأ صغار الصناع بأخذ المقاسات وقص الجلود وغيرهم يجهز قربوس وحزام وقبقبان ومرشح كل سرج وفجأة دقت الطبول والزمور فسكنت الحركة والتفت العمال نحو مصدر الصوت فتهامس لغطهم عن هوية راكب الفرس والخادم يحمل الجتر51 فوق رأسه بأنه السلطان الأشرف قانصوه الغوري بهيبة شيخوخته وسنه التي تقترب من الخامسة والسبعين، السائس يقود الفرس نحو خيم العمال وأرباب الحرف وكأنه يتفقّد بدء الإعداد لتجهيز ما يلزم لسفره الطويل على ما وصلهم من أخبار.

انحرف الموكب يمينًا وعاد من حيث أتى فرفع صبور رأسه لمؤذن مسجد السلطان حسن وكذا مؤذن مسجد الأمير قانيباي الرماح السيفي أمير أخور فترك زكيبة العدة مكانها وصعد السلالم وسار

مع غيره في الطرقة المؤدية إلى صحن المسجد وتوجه إلى الميضأة.

على الناحية الأخرى يقعى رجل رفيع القوام نتأ عظم وجنتيه من قلة لحم وجهه ذي اللحية المدببة ويشمر كم جلبابه، مالت عمامته والشيب موخوط برأسه، في العتمة المتسللة لم يتبين صبور هيئته ولا يدري متى رأى الرجل فجانب وجهه مألوف له بدرجة كبيرة، تشوّش تفكيره قليلًا وكعادته يسكن حتى يتذكر أين رآه، ما إن أسبغ الوضوء حتى وقف عجوز أعلى دكة المبلّغ وأقام الصلاة فاصطفوا خلف الإمام الذي أنهى صلاة المغرب بقصار السور، لأول مرة يرى الجند يحثون العمال على الخروج من المسجد إلى الوطاق52 الكبير ليزاولوا أعمالهم إلى ما بعد العشاء وعلى ضوء المشاعل رأى نفس الرجل يأمر أحد غلمانه بحمل عدد من الكلابات والقربوس ويتبعه ليسلمهم إليه، كلما اقترب وضحت ملامحه وخفق قلب صبور واهتز لوقوف الأسيوطي قبالته فهتف بصوت مبحوح:

– يوسف، يوسف النحاس.

تدلّى فك يوسف وجحظت عيناه، هزّ رأسه وتباعد ذراعاه فألقى صبور بنفسه بينهما كأنه يتعلق بطوق نجاته من غربته التي يلعق مرارتها منذ عشرين سنة.

***

-٤-

حول عدة نيران تحلّق العمال وأرباب الحرف؛ ليوزع عليهم العشاء والماء ومن آنٍ لآخر يميل صبور ويقبّل يد وكتف صديقه القديم ويوسف يبادله كلمات الاشتياق ويربت عليه.

– كنت سأسأل عنك يا صبور.

– متى وصلت؟

– فجر اليوم واسترحنا قليلًا قبل تجهيز ما أمروا به.

– سافرت بمركب أم مشيًا؟

– جمعوا النحاسين والفحامين والحدادين وركبنا سفينة كبيرة ورست بالفسطاط.

– أنا أسكن بدرب العطارين القريب من جامع عمرو.

– مع الشيخ زيتون شقيق جنة الله يرحمها؟

– نعم، رحم الله أمواتنا وربنا يجمعنا معها في الجنة.

– وأخبار عفيفة، أكيد ابنها أو بنتها تزوّج الآن.

انفلتت اللقمة من بين شفتيه وتهدل رأسه، أغمض عينيه في قوة، أدرك أن الريس حميد لم يخبر يوسف بشيء مما كابده طوال سفره إلى الفسطاط، نهضا إلى مكان النوم، دخلا خيمة وتمددا على بساط خشن، تحسّس صبور الغطاء فسحبه على جسميهما، العتمة تلف المطرح وأنفاس المرافقين لهم تعزف لحون النوم العميق، في همس فاه صبور:

– عفيفة ربنا تولاها برحمته.

– ماتت، كيف؟

لا يدري لمَ شعر بحرارة الكرباج على ظهره وهو يروي لصديقه ما اقتسم مع بنتيه من معاناة منذ رحيلهم في جنح ظلام تلك الليلة الشتوية البعيدة، رغم حلكة الظلام إلا أن يوسف شعر بتلجلج صبور واختناق صوته حين وصل إلى مواراة عفيفة بمقابر الفشن واختطاف أنس، يعتدل في جلسته ويلمح صبور ألق عيني صديقه في الظلام.

– الموت علينا حق، لكن يُسرق لحمنا ودمنا ونعجز عن...

– هذا ما حدث يا يوسف وربنا يرده لي كما أعاد يوسف ليعقوب عليهما السلام.

– يعني الولد من المماليك؟

– تصور، ابننا الحر ابن الأحرار ينتسب إلى المماليك الأغراب الذين لا نعرف أصلهم أو فصلهم ويعيش حياة أولاد الناس، لكن أشهد أن الخوند أحسنت تربيته، فالولد لا يشرب الخمور أو يتخلّع كبقية أبناء الجراكسة وأكد لي نصير أن الأمير ططر ضرب عليه سورًا من العزلة فلم يختلط كثيرًا بالناس ولم يذهب يومًا إلى بيت من بيوت الـ...

– لكنه أولًا وأخيرًا ابننا، وخالته صافية؟

– تزوجت حجاج بن زيتون، شاب طيب كأبيه وعندها ولد وبنت وكان لها ولد مات في طاعون زمان.

– آه على زمان وأيام زمان يا صبور، كانت أبواب البيوت في درب النحاسين لا تغلق والعشاء للجميع، فاكر أمي لما كانت تعمل الفول النابت وتوزع الأطباق والخبز الشمسي على كل أهل الدرب؟

– وأمي لما كانت تخبز الرقاق الطري ورائحة الملوخية تفوح وتغرف لنا فيتعشّى كل واحد في دربنا الطيب؟

– وروح أم مظلوم العريان مرة عملت ماجور حريرة بحاله وكل الأولاد أكلوا منه.

– الله يرحم الجميع وأخبار مظلوم وأختك مسعودة وزوجها عبد الموجود الطيّان؟

– مسعودة وزوجها بخير وقضت إرادة ربنا بعدم إنجابهما أولادًا، أما مظلوم فحي يرزق، هو الوحيد كسب راحة باله، لا زوجة ولا ولد ويكفيه الخبز والملح والماء والحريرة التي علمتها له أمه ويروي للعيال من حوله الحكايات، في يوم سأله ولد عن صاحب البيت المغلق والدكان، جرّ الربابة وحكى لهم حكايتك وأضاف عليها أنك قتلت المماليك وعلقتهم من رقابهم في فرع شجرة.

– ليتني فعلت، المهم بعد عمل الغد نذهب إلى البيت وتسلم على الشيخ زيتون.

– الأهم يا صبور أن الأمير بلباي هلك وتمراز ابنه هجر أسيوط، وسمعت أن شبل نفق كالحيوان من فرط السكر والعربدة وتمربغا سمعنا أنه استقر به المقام بمدينة رشيد.

– ماذا تقصد؟

– أقصد أنك ترجع معي لأسيوط.

– أرجع بعد كل هذه السنين؟!

– بيتك موجود وصنعتك ما لها مثيل.

– وصافية وأولادها و.. وأنس، لا يمكن أفارق ابن عفيفة أبدًا حتى لو لم يعرف أني جده بقية عمري.

سكت يوسف وسمع صبور صوت تثاؤبه فسحب الغطاء على وجهه وأغمض عينيه فناما من فرط تعب اليوم، وصبور يقرر أخذ يوسف ليعرفه على زيتون.

***

– يوسف النحاس يا عم زيتون، يوسف أخي وصاحبي.

مال صبور برأسه وعلا صوته بكلماته في أذن زيتون فرفع حاجبه وانشرح وجهه وهو يتفرّس يوسف الواقف أمامه، هزّ رأسه وبدت كلماته متعتعة ومن حين لآخر يبلل شفتيه بلسانه.

– لم يحب صبور أحدًا مثلك يا شيخ يوسف.

– مرحبًا يا عم زيتون وصبور أخي الذي لم تلده أمي.

جلس جوار زيتون وقام صبور بمهمة تعريفه بحجاج وبسيط ونادى على عشري فحضنه يوسف ومسح شعره، أتى لهم عبده بن جمعة بأكواب الشراب الساخن فشربوا وهم يتبادلون كلمات الترحيب والمجاملة وتحيّن يوسف الفرصة وأعاد عرضه على زيتون:

– رأيك يا شيخ زيتون أن يرجع صبور معي إلى أسيوط؟

– لا نستغني عنه يا يوسف.

– لا يفيد رجوعي بعد أن اعتدتُ الحياة هنا وجنب صافية وكما أكدت عليك أمس، لا أترك أنس، يمكن يحتاجني يومًا.

– رغم أنه أمير ومعه من المال ما يجعله يعيش في نعمة طوال عمره!

– وهذا ما يخيفني يا يوسف، المال، المماليك وكبراؤهم لا يحيا أي منهم إلا لجمع المال من بعضهم بعضًا، والواحد منهم يبيع خشداشيته من أجل الاستيلاء على ما يخفي من مال.

– غير المكوس والكلفة المفروضة على الناس.

– ربما فيما بعد أعود لأسيوط.

– تجد بيتك مفتوحًا تنوره وتعمره.

– هيا إلى فوق، صافية جهزت لنا العشاء وتريد أن تسلم عليك، معنا يا عم زيتون.

– لا، أكرمْ ضيفك وأنا كما تعرف لا طاقة لي بأكلكم.

ترافقوا إلى بيت صبور وعند الباب وقفت صافية فسلمت على جارهم القديم في حرارة وسألته عن زوجته وأبنائه، تحلقوا حول الطبلية وأجلس صبور عبده عن يمينه وعشري عن يساره وتناولوا العشاء وهم يتبادلون أخبارهم وما مر بهم طوال السنوات الماضية منذ افتراقهم، أنهوا طعامهم ورتب صبور ليوسف المبيت معه والذهاب باكرًا إلى عملهم بمعسكر الرميلة.

***

الأيام تمر والعمل لا ينتهي وبدا على لفيف من الصناع الضجر ولا سيما من يسكن بعيدًا فلا يرى أهله غير مرة في الشهر حين يأذن له الأمير المشرف عليهم، أما صبور فخفف عنه وجود يوسف بنفسه القوية وحواراتهما التي لا تنتهي، ويوسف لم يشعر بالغربة التي يقاسيها غيره حتى كان عصر يوم نادى الأمير علم الدين في الطبالين والزمارين والمنقرين ضرورة التجهز لصحبة السلطان وكذلك طلب من الحجارين والنجارين والزردخانية53 مثلما طلب من غيرهم ويصرف لهم جامكية54، لم يبال صبور أو يوسف بذلك وتوالت أيامهم حتى كان الخميس ثالث عشر من ربيع الآخر شاع بين العمال والناس أن أحد مماليك السلطان من الجلبان يدعى جانم الإفرنجي صار يهاجم المماليك الخارجين قبل السلطان ويخطف منهم أشياءهم ويؤذي الناس في الطريق فغضب السلطان وأرسل مراسيم55 تقضي بالتقبض عليه وشنقه أينما وجد دون مشورة ففرح الناس حين بلغهم أن الجند شنقوا جانم على شجرة في بلبيس حتى يكون عبرة لمن يعتبر ولا يجرؤ أحد على مساس الجيش.

أثناء عملهم يوم الجمعة فوجئ صبور بحركة غير عادية وسط الصناع وبعضهم تجمع يسترقون النظر فرأوا السلطان يخرج من باب القلعة وتابعته الأنظار فعرفوا أنه متوجه إلى القرافة وزار قبر الإمام الشافعي والإمام الليث رضي الله عنهما ومعه ابنه أمير أخور كبير، وطوال الطريق كان يوزع الصدقات على الفقراء والمحتاجين، ارتفع الأذان من مئذنة مسجد السلطان حسن وانتهت الصلاة في سرعة وبينما كان صبور ويوسف نازلين وسط جموع المصلين من سلم المسجد إذا بالولدين عشري وعبده يقفان على مقربة من الباب، وهرول عشري وابتلع ريقه وهو يخبر جده في صوت لاهث:

– جدي زيتون متعب و...

لم يترك له صبور فرصة لأن يكمل فمنذ أسابيع وزيتون معتل الصحة ونقص وزنه وكثيرًا يرفض أي ترياق يعده له حجاج ليساعده على البرء من مرض صدره، ومن يومين يرفض الطعام وتغصبه أم حجاج أو مسكة على تناول القليل من الماء ومنقوع التمر أو النعناع الذي يحبه لكنه أغلق بلعومه وصار الطعام ينفلت من بين شفتيه، قبض على معصم عبده ورافقهم يوسف النحاس فأمسك بدوره بيد عشري، وما إن وصلوا إلى البيت حتى اقتحمه صبور فوجد حجاج يقعى جوار سرير أبيه الممدد عليه ومسكة تمسح دموعها ومن حين لآخر تحرّك قطعة خشبية رقيقة كمروحة وأم حجاج تمسح العرق الناز على رقبته.

من حين لآخر يفتح عينيه في وهن ثم يغمضهما، انقضت ساعة وتناهى لمسامعهم أذان العشاء فتنبه صبور إلى يوسف وضرورة عودته إلى الرميلة، صحيح أن العمل انتهى لكن له أشياء يُخشى عليها من السرقة.

بإشارة فهمت صافية أمر أبيها بالعشاء فرافقتها أمينة فغابتا فترة ثم عادت وبين يديها طاولة خشبية عليها أطباق الفول والبيض المسلوق والعسل والبصارة، وأمينة بيدها قلتان، تمنّع يوسف ولكن

حجاج المتماسك حلف عليه ليتعشوا معًا في الغرفة المجاورة لباحة البيت، امتدت الأيدي وكان صبور أول الناهضين ليصحب يوسف لبيته كي يريح بدنه، على السريرين المتجاورين استراحا ولا يدري صبور كم مر من وقت حين هزته يد صافية برفق ودمعة على خدها فنهض من فوره وتعجّل في النزول حافيًا.

زيتون يستنشق ويزفر في صعوبة، عيناه شاخصتان في فضاء البيت ومن حين لآخر يشير بإصبعه نحو أشياء وهمية، لوى عنقه وندّت عنه ابتسامة باهتة، اقترب صبور منه فتحرّك لسانه كأنه يريد أن يفوه:

– آه، جنة أختي تسقيني بيدها، أنا وهي نقعد بكوخنا الرطب في سوبا، آه لو أدفن هناك.

أطبق شفتيه فحسب صبور أنه لن ينطق بعدها، حملق في لا شيء ومال بعنقه فألصق صبور خده بأذن زيتون:

– ارجع إلى بلدك يا صبور، ما في شيء أحسن من دفنك مع أحبابك، آه، أراهم قادمين، لأعود معهم إلى سوباااااا.

ممطوطة تلك الكلمة الأخيرة التي هذى بها زيتون ثم مال رأسه نحو اليمين وانقطع نفسه، فرد صبور كفه وأسبل عينيه فصرخت مسكة وانهارت زوجته ساقية على السرير، بكى حجاج وفرد الملاءة على وجه أبيه، أخرجهم صبور من المطرح وحين غادر البيت لفته نسمة هواء رخية رافقت انفتاق النور من جوف العتمة، جلس على الدكة وكعادته خرج بسيط من البيت فانخرط في بكاء حينما عرف بالخبر ودلفت زوجته وأمه بيت زيتون.

لا يدري صبور متى تجمّع أهل الدرب أو كيف وجد يوسف النحاس مجاورًا له على الدكة ومتى أحضر معتوق السقاء وابنه كريم قرَب الماء، فكل ما أدركه هو ما طلبه منه يوسف في حزم:

– لنجهز الرجل يا صبور، إكرام الميت دفنه.

في تمهل ولج الباب وتبعه لفيف من الرجال، بينما يسكب معتوق الماء في طست كبير شمّر الشيخ قمر إمام الجامع عن ساعديه وخلع الشيخ نهر العنجي جلبابه وقاما بتغسيل زيتون وإلباسه الكفن، والمحيطون يضربون كفًا بكف ويذكرون سيرة زيتون بكل خير حتى إذا ما أنهوا إراحته داخل النعش حمله أربعة رجال على أكتافهم وتقدمهم حجاج ليفسح الطريق فضجت سيدات الدرب بالعويل واستمروا في تشييع الجنازة إلى أن خرج النعش من فتحة الدرب الضيقة فعادت أم حجاج ومسكة وصافية وأمينة وسط السيدات إلى ردهة البيت والشمس لم تبزغ بعد.

سار المشيعون خلف النعش المتقدّم نحو مقابر السيدة عائشة وكل منهم يروي كرامة لزيتون العلوي في معاملته لزبائنه، سار حجاج بين يوسف النحاس وصبور فرأى أناسًا يتزايدون ويسرعون نحو

الطرق فرفع رأسه ليرى ما يحدث ففوجئ بجماعة من رءوس النواب يفسحون الطريق بالعصي والصخب يتعالى فجفلت أرجل حاملي النعش وقام غيرهم باستبدال حمله؛ حتى لا يثقل عليهم، من بعيد تابع صبور سير الركب وارتفع حاجبه دهشة لثلاثة أفيال مزينة تتقدّم الموكب ثم جماعة من العسكر والأمراء وظهرت الجنائب56 السلطانية أمامها البخوري يدور بالمبخرة المتصاعد منهم نفح الطيب، علت الزمور لظهور السلطان قانصوه على فرسه الأشقر بسرجه الذهبي وكنبوش في غاية الأبهة والعظمة، في سرعة طوى الموكب الطريق والواقفون يتناقلون أنه في طريقه إلى باب زويلة.

استأنفت الجنازة سيرها والمشيعون يلوكون ما شاهدوه من موكب السلطان، وصلوا إلى حوش ضيق دخلته الجموع وأسرع حارسه بتجهيز القبر في سرعة واستراح الشيخ زيتون العلوي المحبوب من كل من يعرفه بمثواه الأخير وأُخذ

عزاؤه في صمت وعادوا إلى درب العطارين، حين مروا من أمام جامع عمرو علا صوت شاب:

– شيخ يوسف، سألت عنك في الرميلة فعرفت أنك مع صبور السراج بدرب العطارين، أنا تبع الريس حميد، يخبرك أن السفينة تبحر بعد الظهر.

– سلامي للريس وأنا مسافر معه.

برغم شوقه للسلام على الريس حميد لكن صبور ألجم لسانه ولحظ يوسف العبوس باديًا على وجهه، ترافقا إلى الدرب وفتح المقدس بسيط منظرة بيته للمعزين فاستراح صبور جوار يوسف على الدكة.

– والله يا يوسف منذ قدومي على الشيخ زيتون ما رأيت منه إلا كل خير.

– رحمه الله، السيرة أطول من العمر.

– خير عم زيتون مغطي الدرب كله والعذراء مريم ما قصده فقير أو محتاج ولا كبير ولا صغير ورده مكسور الخاطر.

– صحيح يا مقدس بسيط، ربنا يبارك له في حجّاج ويجعله خير خلف لخير سلف.

قالها يوسف ونهض في بطء، وقف أمام حجاج وقدّم له واجب العزاء، أمسك صبور بمعصمه ليستوقفه.

– نفطر يا يوسف وبعدها سافر.

– لا وقت يا صبور.

– والله لنفطر معًا.

رافقه إلى الدور العلوي ووسوس في أذن أمينة، غابت قليلًا وفي سرعة أقبلت مع أمها وانشغلتا في تجهيز ما أمر به صبور، هز يوسف رأسه وهو يترحم:

– الله يرحمه ويحسن إليه، أظنه من أهل سكان البرابي57 الجنوبية.

– لا، قال لي أنه من علوة وكان يسكن ببلدة بعيدة اسمها سوبا.

– لم أسمع عنها.

– بلاد بعيدة عند بداية النيلين، الله يرحمه كان يعتز بأصله وما قصده نفر من أهله إلا أكرمهم وساعدهم في السكن والعمل.

– إنسان أصيل.

– حتى أن المهاجر منهم كان لا يسأل إلا عن زيتون العلوي، عاش حياته لا يحمل

همًا لغد ولما كنت ألومه على إنفاقه الكثير، كان له كلمة يرددها: المال مال الله وما أنا إلا سبب.

– دومًا كنت أقول أن فيك حاجة لله يا صبور، وربنا أكرمك بزيتون رحمه الله.

أتت صافية بأطباق الطعام وكوبين من اللبن، تناول يوسف عدة لقيمات وشرب اللبن، نهض من فوره فحمل صبور صرة كبيرة مربوطة بعناية، سلم يوسف على صافية وأوصاها بأبيها، رافقه صبور إلى أول الدرب فحلف عليه يوسف:

– والله لترجع يا صبور من أجل حجاج.

– أصحبك إلى السفينة.

– لا.

– إذن خذ زاد الطريق، جهزته لك صافية.

– اشكرها.

– لا شكر على واجب، أنت عمها.

– على كلٍ أذهب إلى السفينة ثم إلى الرميلة لأحضر عدتي، أستودعك الله يا صبور وربما نتقابل.

– نتقابل على خير إن شاء الله، مع السلامة يا أخي وصاحبي وسلامي لكل أهلنا بأسيوط.

تحاضنا وشعر يوسف بدموع صبور تبلل كتفه فربت على رأسه وقبّله، استدار وغادر درب العطارين وبقي صبور تودع نظراته ظهر يوسف المبتعد بين المارة إلى أن توارى، فعاد إلى منظرة بسيط وجلس جوار حجاج الواجم وعن يمينه عشري وعبده يتلقيان العزاء ويرددان كما يردد الكبار.

***

-٥-

أقام السلطان الأشرف قانصوه الغوري بالريدانية، هذا ما عرفه صبور في اليوم التالي من رحيل زيتون لكنه قلق على أنس ونهشه تساؤل مرير: هل خرج في صحبة أتابك الجيش أم لا، رافق الأمير ططر أم بقي بالأزبكية؟ لن يطمئن قلبي بغير ذهابي إلى قصر الأمير، فإن كان أنس رحل ألحق به وأحفظك في عيني يا ابن عفيفة الغالية.

كاد يجن من كثرة حديثه لنفسه فعزم أمره ونهض من مجلسه أمام البيت وأخبر حجاج أنه لن يغيب عنه، قبل أن يخطو ألقى عليهم السلام رجلٌ مهيبٌ جواره شاب في السادسة عشر من عمره، فأرجأ ذهابه إلى ما بعد أداء الرجل لواجب العزاء، بحفاوة استقبلهما حجاج.

– تفضل يا شيخ حسن، إنه الشيخ حسن بن الطولوني يا عم صبور، المعلم صبور السرّاج والد زوجتي.

أنهى حجاج التعارف وعرّف المعزّي أكثر بأنه كان صديقًا قديمًا لأبيه رغم أن صبور لم يسمع زيتون يومًا تناول سابق معرفته بالرجل، قدّم له كوبًا من الشعير المغلي فتناوله الشيخ وهو يتصعّب:

– أحسن الله عزاءك يا حجاج، لله ما أخذ وله ما أعطى.

– شكر الله سعيك يا شيخ حسن.

– معذرة يا جماعة، عرفت بخبر عم زيتون أمس لكن ما منعني أني رافقت السلطان حتى الريدانية وعدتُ بالليل ولولا تلميذي ابن زنبل ما قدرت.

– لا عليك يا شيخنا، جنازة أبي كانت في وقت خروج السلطان.

وجد صبور الفرصة مواتية لأن يسأل الشيخ الطولوني عمن رافق السلطان من أمراء ومقدمين وغيرهم من كبار المماليك فسأله على استحياء:

– ورأيت كل من خرجوا مع السلطان؟

– أكيد، لأني أحب أن أدوّن بأوراقي هذه الأخبار وكذا ابننا أحمد بن أبي الحسن المحلي58.

– مثل الشيخ محمد أبو البركات؟

– ابن إياس شيخ كبير وأعرف أنه منذ زمن وهو لا يكف عن رواية الأخبار.

– ومن خرج من أمراء بالريدانية؟

– الحقيقة خرج مع السلطان أمراء الطبلخانات وأمراء العشراوات والأتابكي سودون العجمي والقضاة، قاضي قضاة الشافعي كمال الدين الطويل وبقية القضاة، وبعدهم أمير المؤمنين الخليفة المتوكل على الله محمد بن المستمسك بالله يعقوب العباسي، والجم الكثير من الخاصكية والجمدارية فدخل من باب زويلة وشق القاهرة، وانطلقت زغاريد النساء من الطيقان وضج الناس بالدعاء لنصرة السلطان، واستمر المسير حتى خرج الموكب السلطاني من باب النصر ومنه إلى المخيم بالريدانية.

قرأ حجاج ما بعين صبور من قلق عرف مبعثه فأراد أن يختصر أقاويل الشيخ ابن الطولوني المستفيضة كعادته فسأله:

– والأمراء الكبار يا عمنا؟

– خرج معه الأمير يزبك المكحل وأقباي الطويل والأمير علان وجان بلاط أبو ترسين وأبرك رأس الجلبان وأنسباي.

– أنسباي، أنت متأكد؟

– نعم، رأيته على فرسه حوله مماليكه.

– مماليكه؟

– نعم مماليك الأمير أنسباي حاجب الحجاب.

التقط صبور أنفاسه وداخله شيء من الاطمئنان وهو يستمع إلى الشيخ حسن وعرف أن حافظته قوية وعلى أتم الاستعداد أن يذكر أمامهم أسماء الأمراء القادة ومماليكهم واحدًا واحدًا، عاد القلق يناوشه فقد يكون الأمير ططر رافقهم ومعه أنس، عند هذه الفكرة قرر صبور أن يحسم الأمر فنهض وقبل أن يستأذن أفصح الشاب الصغير ابن زنبل عن نبأ لم يسمعوا به بسبب بقائهم بالبيت:

– اليوم أرسل السلطان وهو في وطاق الريدانية مناديًا يطوف بالقاهرة وينادي أن الرحيل يوم الجمعة القادم حادي عشرينه59 فلا يتأخر أحد من العساكر المعينين للسفر ولا يحتج أحدهم بحجة أو عذر.

– أي أن السلطان يهجر الريدانية بعد خمسة أيام؟

– نعم، حتى يعطي الفرصة كاملة لبقية الأمراء للتجهز للسفر.

– تفتكر يا شيخ حسن، تقوم حرب؟

باغتهم عشير ابن ناحور بالسؤال الذي لم يخطر في بال الجميع، رغم تهيئة السلطان الغوري للخروج فإن وقوع حرب بينه وبين ابن عثمان لم يخمنه أحد من قبل، التفت ابن الطولوني للعجوز السائل وعرف من سحنته ووشم النجمة المدقوق بظهر يده أنه يهودي، هذه المرة قدّمه صبور:

– عشير ابن ناحور، جارنا.

– ولو فيه حرب يا معلم عشير سينتصر فيها السلطان ويعود وعلى سن سيفه رأس ابن عثمان.

– لكن المصيبة لو يكبس علينا ابن عثمان وعلى سن سيفه رأس الغوري.

كلماته التي نفثها عشير كالسم الزعاف في الجالسين ألجمت ألسنتهم وغرزت لأول مرة الخوف في نفس صبور من نتائج لم تمس خياله من قبل، رفع ابن زنبل سبابته أمام عشير ويؤكد:

– عرفنا أن نية السلطان الوصول إلى الديار الحلبية ويمكن أبعد، فلو وقعت حرب بينه وبين سليم بن عثمان وجيشه تكون بعيدة عنا وهناك الأمراء التابعون للغوري بطول البلاد الشامية وعلى ابن عثمان محاربة كل هؤلاء ولن يقدر.

نهض عشير وابتسامته وضيق عينيه يشككان في كلام الشاب أحمد لكن صبور انتبه تمامًا لما يقول تلميذ الشيخ الطولوني واستراح لرأيه، لم ينصرف وأيضًا لم يقعد فأحرج من وقفته فقرر أن ينهي موقفه بالاستئذان منهم والذهاب فورًا إلى الأزبكية، فوجئ بالشيخ حسن ينهض في تثاقل ويشكو ألم ركبتيه، يصافح حجاج.

– أي شيء يا حجاج تطلبه، أنا ألبّيه، والدك له أفضال علينا.

– شكرًا شيخ حسن، شكر الله سعيك يا أحمد، مستورة والحمد لله، لكنك تتألم يا شيخ حسن.

– لعن الله وجع المفاصل.

– اشربْ مغلي الدمسيسة فإنه يخفف ألم الركبتين.

– عندي منها لكنها ملعونة تجعلني أتبول باستمرار.

نهض ابن زنبل وصافح حجاج فوجدها صبور فرصة أن يرافقهما إلى أول الدرب ثم إلى الأزبكية، تمشوا معًا فعاد صبور يسأل:

– لكن موكب السلطان كان عظيمًا يا شيخ.

– السلطان خرج بكامل عدته وقد فرغ خزانته من الأموال التي جمعها من أوائل سلطنته إلى أن خرج في هذه التجريدة وذلك للإنفاق في سفره وعرفت أيضًا أنه أفرغ حواصل الذخيرة وأخذ ما فيها من تحف وآلات السلاح الفاخرة التي كانت من ذخائر الملوك السالفة من سروج ذهب وبلور وعقيق وغير ذلك وحملها جماعة من مماليكه على خمسين جملًا وسمعت مائة جملٍ.

صمت ابن الطولوني وتأكد صبور من صدق الرجل؛ فمعروف عن السلطان الأشرف قانصوه حبه الشديد للمال وعشقه للتحف وامتلاك الأشياء الثمينة وعدم ثقته في أحد وخشيته أن يتغلب واحد من الأمراء الباقين على حرسه ويستولون على أمواله وما يمتلك عنوة أثناء غيابه بالبلاد الشامية على ما أذيع من وجهته، اقتربوا من جامع عمرو فتوقف ابن زنبل والتفت إلى صبور.

– غرضي في سرج لفرسي يا معلم صبور.

– في أقرب وقت تجده جاهزًا.

– لما تذهب يا أحمد أحضر لي ما يعطيك إياه حجاج بن زيتون من أعشاب.

– أمرك يا شيخي.

– إيه على الدنيا، الشيخ زيتون غريب عن المحروسة لكنه محبوب من طوب الأرض، رحمه الله.

انصرفا فاستدار صبور مسرعًا وتوالت خطواته حتى بوابة قصر الأمير ططر، ألقى السلام على الحارس ففتح له الباب، سار مباشرة نحو الإسطبل فاستقبله تمرباي، دون أن يسأله باغته صبور بصوت لاهث:

– أنس يا اسندر، رافق السلطان؟

ضحك تمرباي ومال برأسه إلى الوراء وهو يدعو صبور للجلوس على الدكة ويقدم له قلة الماء، أجاب عيني صبور المملوءتين بالقلق:

– لا، الأمير أنسباي لم يرافق الأمير ططر إلى الريدانية.

– وسبب ضحكك؟

– كنت على وشك أسألك: من اسندر؟

– لا تنس اسمك يا رجل!

– آه يا معلم صبور، لو أعود إلى لاتا وأروي عطش الغربة بماء نهر كودوري بشربة هنيئة لا أظمأ بعدها أبدًا، بعدها أموت.

دمعت عينا تمرباي وأطرق رأسه فرقّ صبور له وتمنّى حقيقة أن يتحرّر المملوك الأبازي من رقه ويقضي بقية أيام حياته ببلده ويدفن فيها قرير العين ونفسه مطمئنة، ربت صبور على كتفه وظلا صامتين إلى أن رفعا رأسيهما في آنٍ واحدٍ لصهيل قادم من بعيد، تهيأ تمرباي لاستقبال الفارس القادم إليه فنادى:

– ولد يا صخر!

خرج فتي من باب الإسطبل وأمسك بلجام الفرس وتمرباي يعاون الأميرة بركة على نزولها.

– حمدًا لله على سلامتك يا مولاتي.

– نزهة جميلة وحصان هادئ.

– أنس يا بنيتي، الأمير أنس أين هو؟

انتبهت الفتاة لوجود صبور واستغربت سؤاله، انتبهت أيضًا لأمها الجالسة في مكانها المفضل أسفل تعريشة العنب فأشارت إليها وقبل أن تذهب أجابت:

– أخي مع رفاقه.

– فعلًا الأمير أنسباي مع صحابه بالحديقة الخلفية يتناولون الشواء احتفالًا بخروج السلطان.

– وأنس يشرب يا اسندر؟

سأله صبور والأميرة بركة تبتعد نحو أمها ونصير الخادم يقبل على الإسطبل، التفت إلى تمرباي وأعاد عليه السؤال فأجابه مطمئنًا:

– يجيبك عنه نصير ها هو قادم، الأمير أنسباي يسكر يا نصير؟

– لا، منذ صغره وأنا أبعده عن الخمر والبوزة وتدخين التنباك وحشيشة الدماغ.

– بارك الله لك يا نصير.

– فعلت رغبة للخوند عنود، هي من أمرتني ألا أعطيه فرصة ليجرّب ما يغيبه ويلهيه عن الصلاة و...

– خوند عنود تطلبك يا نصير أنت والسراج.

قاطع حوارهم وقوف الخادم وحديثه في أدب فتقدم نصير صبور ومشيا نحو الخوند وابنتها أميرة بركة وصبور يعد تمرباي أن يعود إليه، سارا حتى تعريشة العنب ووقفا على مقربة من السيدة الجليلة.

– اجلسْ يا شيخ صبور.

– عفوًا.

– قلت لك اجلس وأحضر له يا نصير فاكهة ومشروبًا، كيف حالك؟

– بخير سيدتي، وأرجو أن يكون الأمير بخير.

– رحل مع السلطان.

– عرفت أنهم ما زالوا بالريدانية.

– نعم، لكنهم يرحلون قريبًا، المهم ابنتي بركة تحب عفيفة وأنس لا يستغني عنها وأهداها فرسة أخرى أريدك أن تصنع لها سرجًا مريحًا.

– غدًا يكون عندك سيدتي.

– بهذه السرعة.

– من أجل خاطر ابنتي بركة، أقصد خوند بركة.

– أستأذنك يا أمي للداخل.

– آه، فقدتُ الأمل في أن ألد يا عم صبور، لكن الله الكريم رزقني ببركة.

– فتاة جميلة، ربنا يحفظها لك.

– أسميتها بركة على اسم خوند بركة.

– أم الأشرف شعبان؟

– نعم وعرفت من أخبارها التي رواها لي مرة الشيخ أبو البركات ابن إياس أنها كانت شديدة الكرم وبُنيت لها مدرسة هي مدرسة أم السلطان بها سبيل لسقاء الناس وحوض لسقاء الدواب.

– من يفعل الخير يجده عند الله وما جاء بي إلى هنا غير قلقلي على أنس.

– لا تقلق عليه، أقنعت الأمير قبل سفره ببقاء أنس هنا؛ ليرعانا وأيضًا حتى لا أعرضه للسفر المهلك وخطر الحرب.

– ربنا يكرمك ويحفظ لك الأميرة بركة.

– خذ هذا المال يا شيخ صبور.

– كثر خيرك علينا سيدتي، مكافأتي الكبيرة يوم أن يعرف أنس أصله ويعود إلى أهله.

– يحدث يا صبور ولكن ليس وقته وأبوه، أقصد الأمير ططر مسافر.

– صحيح سيدتي، وعزائي الوحيد أنه معك، أستأذنك.

– يمكنك أن تنصرف ولكن من باب الحديقة الخلفية للقصر ونصير معك.

قالتها خوند عنود وهي تهوّم برأسها وتبتسم فأدرك مغزاها، تريد أن يرى أنس قبل أن يعود للدرب فنسي وعده برجوعه إلى تمرباي، سار خلف نصير حتى زكمت أنفه رائحة شواء، بين دفتي كانون عالٍ يقلب الخادم أسياخ الحديد وبها أرانب جبلية وطيور مهاجرة اصطادها أنس ورفاقه، اقترب صبور وطافت نظراته بالشباب فوجدهم لا يختلفون عن تمراز وشبل وصفواي أما أنس فمميز عنهم ببشرته الغامقة بعض الشيء ليس كوجوه الجراكسة المشربة بالحمرة، التفت أنسباي وصاح:

– أعرفك، المعلم صبور السراج، كيف حالك؟

– بخير، بخير سيدي الأمير.

همّ أن يقترب أكثر ويحضنه لكن أنس استدار ووقف أمام الشواء وتضاحك مع رفقائه، سُرّ صبور لوجوده لكن قلبه لا يزال متقلبًا فقد يطلبه الأمير ططر في أي وقت فيلحق به في معسكر الريدانية، تمنّى أن تنطوي الأيام ويسافر السلطان مع أمراء المماليك دون أن يلحق بهم أنس، غادر الحديقة وهو قرير العين لرؤية حفيده في كامل صحته ووجهه منحوت من وجه أمه عفيفة، عند الباب الخلفي الصغير هوّم برأسه فأكد عليه نصير وعده بأن يرعى الأمير ولا يغيب عن ناظريه.

***

انقضت بقية أيام الأسبوع ولم يأت ابن الطولوني أو يرسل ابن زنبل ليأخذ السرج الجاهز وطوال الوقت دأب صبور على الجلوس مع حجاج لاستقبال المعزين حتى بعد أن فتح الدكان والغلامان عبده وعشري يعاونانه وصبور مبسوط لعلاقتهما معًا فلم يعامل عشري عبده على أنه ابن عمته مسكة بل عامله كأخيه وحجاج بقلبه الطيب لا يفرق بين ابنه وابن أخته اليتيم، سأله صبور عن بيت الشيخ حسن ابن الطولوني وهمّ أن يذهب إليه بنفسه، لكن الشاب الصغير أقبل عليه يركب حمارًا قويًا وينزل من عليه أمام الدكان، يلقي السلام فيستقبله صبور ببشاشة.

– مرحبًا يا أحمد، السرج جاهز.

– والشيخ حسن يسلم عليك ويعتذر عن عدم حضوره لتعبه.

– انتظر وأجهز لك الأعشاب.

انشغل حجاج في وزن الكثير من النباتات اليابسة فجلس ابن زنبل على الدكة، أطرق إلى نعله فوجده مفتوقًا من جنبه، خلعه وقام عبده بأخذه منه إلى بسيط الإسكافي فقلبه وهز رأسه أنه سيخيطه في الحال، مع علم صبور برحيل السلطان أمس من الريدانية لكنه أراد أن يسمع أخبارًا أخرى فسأل ابن زنبل وهو متردد من أن يكون الشاب الصغير ذا الست عشرة سنة يعرف شيئًا:

– وما أخبار رحيل السلطان؟

– هجر السلطان وطاق الريدانية وقبل رحيله انضم إليه الكثير من الأمراء المتأخرين.

– هل تأخر عنه أمراء من المماليك؟

– أمراء وغير الأمراء، لكنهم لحقوا به ومنهم طبيبه محمد ابن الرئيس شمس الدين القوصوني ورافقه من نواب السادة الشافعية القاضي شمس الدين بن وحيش وجمال الدين الصابوني المفتي ومن نواب الحنفية السيد الشريف البرديني ومن المالكية معين الدين بن يعقوب ومن نواب السادة الحنابلة الشيخ شهاب الدين الهيثمي وفي صحبتهم إخوة الشريف بركات أمير مكة.

توقف ابن زنبل عن الكلام لضيق نفسه فقدم له عشري قلة الماء أعقبه بطبق تمر أتى به من الداخل، دهش صبور من انطلاقة الشاب الصغير وذاكرته الحافظة فلم يقطع كلامه وتركه يدلي بما يعرف، ركن الكوب وسكت ليختبر رغبة صبور في أن يكمل له أم لا، نهض بسيط وقدم له الخف بعد أن خصف جلده بخيط متين، همّ أن يعطيه أجره لكن الإسكافي الكريم رفض.

– حاجة بسيطة أبقى نخدمك في تفصيل مركوب كامل.

– إذن خذ مقاسه من الآن.

أحضر بسيط قطعتين من الجلد فوضع ابن زنبل قدميه عليهما، أدار بسيط قلمًا من الغاب حولهما ثم سحب القطعتين.

– يومان وتأتي لتأخذه.

– المهم يا ابني، من رافق السلطان؟

– بعض من سادة أشراف القادرية وخليفة السيد أحمد البدوي والشيخ عفيف الدين شيخ مشهد السيدة نفيسة حتى مغني الدكة نور الدين المحوجب والجمع الكثير من المماليك القرانيص60 والجلبان*61.

– والشيخ أبو السعود الجارحي، رافقه يا ترى؟

– لا، بقي الشيخ أبو السعود بزاويته ومنقطع للعبادة.

– ومن نائب السلطان في غيبته؟

– قبل رحيله خلع على طومانباي كاملية بسمور وجعله نائب الغيبة بالقاهرة إلى أن يرجع وخلع على القاضي بركات بن موسى وجعله نائب الحسبة وخلع على الأمير ألماس بأن جعله واليًا على القاهرة.

– وأين وصل الآن؟

– سمعت أنه نزل سرياقوس.

في قفة مضفورة من السعف رص حجاج ما طلب الشيخ ابن الطولوني فنهض ابن زنبل وركب حماره، ركن حجاج القفة أمامه فرفع الشاب الصغير يده بالتحية ووعدهم بالعودة لأخذ المركوب، أدار الحمار نحو أول الدرب وصبور في غاية الإعجاب بقدرة ولد صغير في السابعة عشر على ذكر كل هذه الأسماء ممن يستبرك السلطان برفقتهم من مشايخ وأرباب الأشاير 62غير جند

المماليك الذين رافقوا السلطان وعرف من الناس أن نوابه بالبلاد الشامية يحشدون أتباعهم لمواجهة سليم بن عثمان ملك الروم.

***

-٦-

ترتحل الأسابيع رتيبة وأصحاب الحوانيت لا حديث لهم إلا عن أخبار تجريدة السلطان الكبيرة وغيبته التي قد تطول لشهور، حجاج يرتب زنابيل التوابل والبهار ويعاونه عشري وعبده، بسيط يقعد أمام ذراع حديدية يثبت عليها النعال ليقص جلدها ويخيطها، ينشغل صبور في إتمام خياطة قماش برذعة طلبها منه أحد تجار حارة برجوان، أقبل التاجر ويبدو على وجهه القلق فسأله صبور:

– ما بك يا عبد الموجود؟

– اسكت يا معلم صبور، عبد الموجود من يومين كان ممكن يكون غير موجود.

– خيرًا يا رجل؟!

– جماعة من المنسر هجموا على الحارة خطفوا البضائع من الدكاكين ورمحت خيولهم واختفوا كالعفاريت.

– ولم يلحق بهم أحد من حرس الأمير ألماس؟

– اختفوا كأن الأرض انشقت وبلعتهم.

– المنسر وجدوها فرصة بعد رحيل السلطان وعادوا لنهب الناس.

– عندك حق يا بسيط، فاكر من أسابيع قبض شيخ العرب أبو الشوارب على خمسة من المنسر شاع أمرهم في القاهرة فأمر السلطان بتوسيطهم بمن فيهم كبيرهم ويسمى أبو عزرائيل.

– ربنا يسترها على الدرب.

– لا تخف يا حجاج، دربنا ضيق ولا يدخله إلا قاصد الأعشاب والبهار والعليق وما فيه غير مساتير الناس ولا مطمع لمنسر أو غيرهم فينا.

– الخوف ليس من المنسر بل من المماليك الباقين في القاهرة وأعوانهم.

– إلهي ينقطع نسلهم ومن يبتلينا بهم من النخاسين، سمعت أن عجوزًا من تجار المماليك اسمه الأمير نوروز من أمراء الطبلخانات وكان من مماليك الأشرف قايتباي مات فاستولى الأمير ماماى على ما يملك من خيول وبغال ومال، أستأذنكم يا جماعة الخير.

ونهض من فوره حاملًا البرذعة على حمارته وركبها، ودعته نظرات صبور وعاد القلق يرج صدره مما سمع؛ فربما يستغل أمراء المماليك الفرصة ويغير بعضهم على قصور الجراكسة الغائبين بعبيدهم وحرسهم ومماليكهم وقد يعجز عبيد أنسباي بقصر الأمير ططر عن دفع الغارة عليهم، ابتلع ريقه ومال برأسه إلى الوراء وعاد الاضطراب يأكل قلبه رغم ما وصله أن الأمير ألماس والي الشرطة أمر بتعمير الدروب بالحسينية وقنطرة الحاجب وسوق الدريس وخوخة القطانين وغيرها وأن يعلق كل تاجر على دكانه قنديلًا وألا يخرج أحد من بيته بعد العشاء وهذا لاستتباب الأمن ومع ذلك روى أحد زبائن حجاج أن واحدًا من الطواشية اسمه عنبر يسكن قرب القلعة، نزل عليه بعض الحرامية ليلًا فقتلوه وقتلوا عبده وجاريته وأخذوا ما معه من مال مما أجبر الأمير طقطباى نائب القلعة على غلق أبوابها بعد المغرب، أفاقه خرير الماء خلف الباب، مدّ نظراته إلى بعيد فوجد عربة معتوق السقاء تركن أول الدرب فانتظر حتى ينتهي كريم ويخرج فيسأله عن أبيه:

– أخبار أبيك يا كريم؟

– العلم عند علام الغيوب يا عم صبور، لكن سمعت وأنا أفرغ القرب ببيت للأمير بخشباي أن السلطان دخل غزة واستقبله نائبه عليها دولاتباي وبقي بها خمسة أيام وبعدها رحل، آه يا عم حجاج توسلت لأبي أن يختبئ ولا ينفذ أمر خدمة أمراء المماليك لكن ما باليد حيلة وأجبر على الرحيل معهم.

– معتوق من كبراء السقائين ويحتاجونه وغيره لخدمة توفير ماء الشرب طوال الطريق.

– يرجع بالسلامة يا كريم.

– يسمع منك ربنا يا عم بسيط واحذروا يا جماعة من اللصوص والمنسر، واحد منهم لم يجد معي غير قربة ماء فأخذها.

حمل كريم قربه الفارغة إلى أول الدرب، مر بقية النهار وصبور لا يتكلم ولم يفكر في شيء غير الأمان الذي لم يعد يشعر به بعد رحيل السلطان عن الديار، التفت فوجد بسيط يدخل عدته بالدكان ويغلق مصراعيه وحجاج أتم رص الزنابيل والزكائب الصغيرة وبدوره يعلق القفل، تمشّى نحو دكان عشير ففوجئ بقرب فراغه من الأكياس والزنابيل، ولأول مرة تقف زوجته دينه خلفه وهي تلملم بعض الأشياء، تشبهه إلى حد كبير، دخلت البيت من بابه القصير بالدكان، أحب صبور أن يتباسط معه ويكسر حاجز العزلة التي فرضها على كل من تعامل معه.

– ربنا يعوضك بالخلف الصالح يا عشير.

– نحمده يا شيخ صبور، ربنا لم يرد أن يجوعوا أو يقتلوا.

– لا تتشاءم وتفاءل بالخير تجده، وزوجتك تقرب لك؟

– بنت عمي نفتالي وبنت العم تشيل الهم.

– صدقت ولكن ملاحظ أن دكانك...

– فاضي، ما فيه بضاعة والطرق مقطوعة، أستأذنك يا شيخ صبور.

استغرب حوار عشير فالطرق ليست مقطوعة ولا يزال حجاج يأتي بما يريد على الأقل ليس دكانه مكنوسًا من التوابل والبهار والغلال والعليق كدكان ابن ناحور، وقف أمام حجاج وعبده يعاونه في إدخال الزكائب.

– عشير يقول أن دكانه فارغ وبضاعته شحيحة بسبب الطرق مقطوعة.

– أقول لك يا جد صبور.

– وأنا أسهر فوق السطح أراه يترك الدرب وعلى كتفه كيس، يعود بعد فترة ومعه رجل يحمل أكياسًا من بيته إلى عربة أول الدرب.

– ربما يبيع بضاعته ويرتب نفسه للرحيل وإن فعل فالأولى أن تشتريها أنت يا حجاج.

– طول عمره يتاجر مع الغريب ولا يتعامل معنا، يخشى أن نعشم في أشرفي أو دينار وعلى كلٍ أنا لا أتعامل معه، عشير لا يحفظ العشرة ويستغل الحاجة والعوز ويفرض ما يريد.

لم يبال بما أخبره به عبده وخاله حجاج، قلّ المارة بالدرب فشعر أن الناس يخشون التجول ليلًا فيلتزمون منازلهم، دخل البيت خلف حجاج وعبده وعشري يلعبان مع بعضهما وأيديهما متشابكة فنهت جدتهما العجوز ساقية عن لعبة المصارعة وأمرتهما بالقعود حول الطبلية بينما جلست صافية ومسكة وأمينة حول أم حجاج فباغتهم عبده بخفة دمه الموروثة من أبيه جمعة:

– أربعة رجال وأربع سيدات، رأيكم لو نلعب الكرة؟

– احتشم يا عبده.

امتدت الأيدي لتناول العشاء وكانت مسكة أول القائمين، لتأتي بشراب النعناع البارد وتصب في الأكواب، التفت عبده إلى جدته وسألها:

– قولي لي يا جدة، لم تجد المحروسة أمك لكِ غير اسم ساقية؟

ضجّ صحن البيت بالضحك من سؤال عبده الجريء، وبكفها ضربته أمه على رأسه لكن جدته مالت عليه وقبلت خده ومسحت شعره.

– أسماني أبي يا مقصوف الرقبة والساقية تصب الماء يعني الخير.

– «وجعلنا من الماء كل شيء حي».

– صدق الله العظيم، صحيح يا عشري، وبمناسبة الماء حكى لنا كريم بن معتوق السقاء أن كثيرًا من اللصوص والمنسر يكبسون على البيوت والدكاكين وينهبونها أو يوقفون الناس ويسرقونهم فأرجوكم لا تخرجوا ولا تطلعوا من الدرب.

شعر صبور بثقل رأسه فنهض إلى بيته، فأمسك عشري بكفه، فقد اعتاد أن يبيت معه ليؤنس وحدته، التفت إلى ابن عمته ومازحه:

– نمْ يا عبده في حضن أمك.

– أحسن من النوم بمفردي وفي الصباح يغير لك جدك هدمتك المبلولة.

تارة أخرى تبادلوا الضحكات ومسكة خجلة من رد ابنها السريع وتعض شفتها، عرضت أمينة أن تحضر لجدها مشروبًا فامتنع بحجة أنه سينام على الفور، شمل صبور الفتى عبده بنظرات المحبة وبدوره مسح على رأسه.

– صورة من أبيه جمعة الله يرحمه.

التفت إلى صافية الصامتة طوال الوقت، سألها إن كانت تريد شيئًا لكنها شكرته بصوتها المبحوح، صعب عليه اختناق صوتها وكان يأمل أن تشفى تمامًا بمرور الأيام بعد أن أصيبت بالتهاب في الزلعوم وظل الشيخ زيتون يجهز لها الترياق الشافي إلى أن برئت قليلًا لكنه ترك أثرًا على صوتها؛ جعلها تؤثر الصمت طوال الوقت وتكتفي بالإشارة إلى أمينة أو مسكة بما تريد.

استدار نحو الباب وما إن خرج حتى طلب من حجاج أن يغلقه بالضبة والمفتاح وفعل نفس الشيء بعد دخوله بيته، صعد أمامه عشري وهو يمسك المصباح الزيتي، يركنه على المنضدة الكبيرة، تمدد الغلام على فراشه لكنه نهض حين سمع عبده ينادي عليه من السطح، قفز ولبس الخف وصعد السلم فابتسم صبور للصغار الذين سيقضون سمرهم تظللهم السماء وتشارك النجوم مرحهم، حسب أنه

سينام بمجرد استلقائه لكنه أخذ يتقلب وأخيرًا نهض، قرب المنضدة وزاد من ضوء المصباح، أمامه الأوراق المخيطة، قلب فيها يتصفّح ما كتبه خلال السنوات الماضية.

«في العاشر من ذي الحجة لعام ٩٠٨ من الهجرة63، ليلة النحر قام السلطان الأشرف قانصوه الغوري بعمل وليمة عظيمة حضرها الخليفة المستمسك بالله يعقوب والقضاة الأربعة والأعيان وأمراء المماليك وزُينت الشوارع من باب زويلة وعلقت تنانير بها قناديل ومُدت أسمطة حافلة بأطايب الطعام احتفالًا بإتمام بناء مدرسة السلطان البهية التي جاءت من محاسن الزمان وقرّر الشيخ برهان الدين بن أبي شريف مشيخة المدرسة».

أعاد قراءة الخبر وقد بهت حبره وسرح في أحداث السنوات الفائتة حين صلى في مسجد الغوري الكبير وسمع أنه نقل إليه بعضًا من الأثر النبوي الشريف والمصحف العثماني وبنى لنفسه ضريحًا ليدفن فيه أما المدرسة فاهتم ببنائها وزخرفتها ورخامها فكانت في غاية الجمال والظرف ولكن الناس شنعوا على الغوري لأن مصروف عمارة هذه المدرسة جاء بظلم فقد استولى على رخام القاعات واشتراه من تجاره بأبخس الأثمان.

«وفي هذا العام مات عالم جليل هو الحافظ تقي الدين بن الأوجاقي من مشايخ الحديث وكان عالمًا دينًا خيرًا فاضلًا، مدّ الله في عمره وحسُن عمله فقد جاوز المائة سنة».

نقط من عرقه سالت على الورقة فمحت الحبر من طرفها، بخرقة قماش مسحها برفق حتى لا تفسد بقيتها، شعر بعطش، جرّ قدميه ومشى نحو القلة المركونة جوار أختها أمام المشربية، شرب ماءها البارد وخطا نحو الباب، أصوات عشري وعبده وأمينة مختلطة بدبدبة أقدامهم وهم يلعبون على السطح، عاد لقعدته على حافة السرير وأوراقه أمامه، تعجب مما كتب بها من أخبار ليست مرتبة على السنين والأعوام؛ فإنه قد يهجرها سنوات طويلة بل ويتناساها وحين يهم بالكتابة، يدون فيها ما يتذكر من وقعات أو شخوص يرى أنهم يستحقون الكتابة عنهم، مطّ شفتيه وقرّب المصباح وقرأ بصوت منخفض:

«سنة ٩١٩ من الهجرة64 كان مستهل الشهر يوم الأربعاء فأمطرت السماء مطرًا غزيرًا لحظ الناس فيه الحصى وهبت رياح عاصفة ألزمت الناس على البقاء ببيوتهم،

وفي أول فصل الربيع عاد شر المرض إلى الظهور فتفشّى الطاعون ومات الكثير من الأطفال والجواري والعبيد ودخلت الخماسين فزاد انتشار المرض فأرسل عدد من أمراء المماليك نساءهم وعيالهم إلى الطور فرارًا من تفشي الطاعون فلما تزايد الموت فتحت مغاسل السبيل وعانى الناس من ندرة الطعام فغلا الدقيق وعدم الخبز وانتشر الموت ومن الجنائز المشهودة التي رأيتها بأم عيني، جنازة سليمان بن أحمد بك بن السلطان أبو يزيد بن عثمان ملك الروم حضر إلى مصر فرارًا من عمه سليم شاه بعد أن تولى حكم مملكة الروم، وقد أصيب بالطاعون وخرجت

جنازته من منزله ببولاق فنزل السلطان وصلى عليه ودفن في تربة البجاسي65».

توقف عن القراءة بعد أن شعر بحرقة في عينيه، قلب صفحات الكتاب ونوى في الصباح أن يطلب من حجاج شيئًا لتخفيف الرمد، غسل وجهه مرات وفتح المشربية فانساب الهواء الطري، تمدّد على سريره وأغمض عينيه، عاد يفكر في أمر خروج السلطان لملاقاة ابن عثمان وتركه الديار المصرية ويا عالم يرجع أم لا.

***

نهار أحد الأيام التالية اقترب رجل من عتبة دكان بسيط العالية وفي بطء نزل من على بغله، أثار قِصره انتباه صبور، كرشه السمين يكاد يبظ من زناره الملفوف على وسطه ووركاه الغليظتان تملآن المئزر، وقف أمام الإسكافي يطلب خفًا كبيرًا لقدمه المفلطحة، بيده التي عركتها الدربة رسم بسيط مقاس النعل وحسب أجره وطلب منه أن يأتيه بعد أربعة أيام.

– لكني متعجل يا مقدس، جهزه من الساعة وأدفع لك.

لحظ صبور لكنته الغريبة واختطافه للحروف، كلماته قليلة وإجابته مقتضبة، تأمله وابتسم لرأسه الكائن على كتفيه دون رقبة، دعاه صبور للشراب الذي أتى به عبده ومن طرف خفي رآه يضحك من هيئة الرجل الغريب، بدأ صبور بالكلام:

– يلزم التخلص من شحوم جسمك يا شيخ...

– إيهسان، معاون لتاجر حرير ومسافر غدًا في السفينة إلى دمياط ومنها إلى البندقية.

– من حلب أو ديار بكر على ما أظن؟

– أبعد، من طرابزون.

– طرابزون، لا أعرفها.

– بلد بعيد على البحر الشمالي وكان يحكمه سليم شاه أيام أبيه بايزيد.

صمت الرجل وخمّن صبور أن اسم إيهسان الذي نطق به في سرعة قد يكون إحسان المعروف في العربية، هزّ رأسه غيظًا من عبده الذي عاد ومعه عشري ليشاركه الفرجة على ضيفهم فأشار لهما ألا يبرحا دكة دكان السروج البعيدة عنهما، قرر ألا يتمادى في حواره وخاصة بعد أن عرف بلده وأصله؛ فقد يغضب إن أمسك أحد بسيرة سلطانه فعاد إلى نصيحته الأولى:

– يجب التخفيف من وزنك الزائد.

– أكيد يا سيدي، متعب أنا من فرط الشحوم.

– ربنا يكون في عون البغل.

في حدة التفت صبور إلى عبده المبتسم بعد أن رمى كلماته وعشري يكتم ضحكته، أدار إيهسان جسمه كله فحبس الولدان أنفاسهما للمباغتة غير المتوقعة، ابتسم البدين ملء فكيه وهو يشير إليهما فتشجعا على مواصلة الضحك، أشار لهما صبور أن يتركا الدكان فهز إيهسان يده.

– اتركهما، ولدان جميلان.

– عذرًا يا معلم إيهسان.

– لا عذر، أريد إجابات عن سؤال، ما أخبار السلطان؟

– لم يصلنا خبر عنه.

– آه، ربنا ينجيه ويرجع غانمًا حياته، سليم بن بايزيد أعرفه، رجل قاسٍ، يقطع رقاب ويحب التشفي في أعدائه.

– ربما يتصالحان.

– واهم، سليم لا يتصالح مع أحد، إما يحارب وإما يرجع بلده.

– حدثني عنه يا إحسان.

– سليم بن بايزيد، مولود في أماسيا، اعتمد على جند الإنكشارية وحارب أباه بايزيد وطارد أخويه الأمير أحمد والأمير قرقود وقتلهما.

– أنا شاهدت جنازة سليمان بن الأمير أحمد بن بايزيد، عاش هنا ومات بالطاعون.

– رحمه الله، مصيره أهون من مصير غيره فقد دخل سليم مدينة بورصة وقتل أبناء أخيه جميعهم ليخلص له الحكم.

– يا له من رجل بلا قلب، يقتل أبناء أخيه؟!

– ويقتل ابنه إن عصاه.

– كأنك لا تحبه يا إحسان؟

– أنا تاجر، ولا يهمني غير الأمان لتجارتي، وسليم منذ أن تولى سنجق طرابزون وهو يكلفنا ما لا نطيق ولا يقبل عذرًا أو يرحم ضعيفًا.

– ها هو مداسك يا شيخ.

قاطع حوارهما بسيط وهو يقدم الخف الكبير إلى التاجر الغريب، حاول أن يميل ببدنه الثقيل ليلبسه فوجد صعوبة، قام بسيط بإلباسه الفردتين فنهض وتمشّى قليلًا وأبدى انبساطه بليونة الجلد وراحة قدميه، مدّ أصابعه الغليظة وسلم على صبور، خطا نحو البغل وركبه في صعوبة، أدار اللجام وقاده إلى خارج الدرب، تهالك صبور على الدكة فلم يلتفت إلى تعليق عشري وعبده الذي قلد مشية إحسان وصوته الرفيع مما جعل بسيط وحجاج يضحكان.

يسترجع ما رواه الرجل من سيرة سليم واختشع قلبه حين فكر أن السلطان الأشرف قانصوه قد يُهزم أو يغدر به أحد أتباعه والأمراء المماليك معروف عنهم كراهيتهم لبعضهم والغدر بأقرب الناس إليهم.

***

الأيام التالية تسرّبت على غير ما توقع صبور من زعزعة الأمن بعد أن أشيع خبر المنسر؛ فقد ضبط الأمير طومانباي الدوادار الأحوال ورسم للأمير ألماس والي القاهرة بأن يطوف كل ليلة بعد العشاء إلى طلوع الفجر وعيّن له مائة من المماليك الجلبان لمعاونته فانضبط أمن القاهرة وما حولها أثناء غيبة السلطان وإمعانًا في ضبط الأمن كان الدوادار نفسه يركب كل يوم ومعه عدد من أمراء العشراوات فيسيرون نحو المطرية وبركة الحاج وعند عودتهم يدخلون من باب النصر وكل هذا حتى لا يطمع المنسر أو العربان في الناس ويظنون أن ما بالقاهرة أو الفسطاط عسكر يدفع عنها الخطر.

نهارًا بعد أن مرّت أيام من جمادى الآخرة سمع كريم بن معتوق يغني وهو يفرغ قربة الماء بالزير المركون خلف الباب:

يا حبيب يا حبيب، النيل أوفى في أبيب[66]

وبقينا نفرح ونعيد، يا حبيب يا حبيب

ناداه صبور وسأله:

– ما من أخبار عرفتها من قصور المماليك يا كريم؟

– سمعت أن السلطان بعد أن أمضى بدمشق أسبوعًا رحل إلى حمص.

– إلى أين يصل؟

– العلم عند الله، لكن بشرة خير، النيل وفّى قبل موعده.

– صحيح يا كريم.

– والله يا عم بسيط، رأيت بعيني الأمير الدوادار طومانباي على حرّاقة[67] وفي صحبته الأمراء ومنهم طقطباي نائب القلعة والأمير أرزمك الناشف ففتح السد وجرى الماء في الخلجان بعزم قوي.

انصرف كريم وكعادته يجلس حجاج مكان أبيه على الدكة، ينهض من حين لآخر إن طلب منه أحد أعشابًا أو علفًا، بسيط يدق النعال ويخيطها وينهض فيدخل بيته ويغيب ثم يعود لقعدته أما صبور فلم يطلب منه أحد سرجًا ولا برذعة وكأن الخيول كلها رحلت مع السلطان، عاد يفكر في ما سمعه من تاجر الحرير إيهسان عن ملك الروم سليم بن بايزيد وقتله لإخوته وأبنائهم فمتحجُّر القلب مثله قطع رحمه بعداوة أبيه وقتل ذويه ما له خير في إنسان آخر، وبكل تأكيد قادة جيشه وعسكره مثله لكن

السلطان الغوري ومن معه من المماليك والجلبان أرباب السيف والخيل ولا يكرون على عدو إلا ويلحقون به الهلكة وسينكسر جند ابن عثمان إن حدثت بينهم حرب.

أفاق من سرحانه على يدي عشري تمسكان بينهما قفة بها البتاو والبيض المسلوق والجبن والمورتة التي يحبها بسيط، يعزم صبور على بسيط فيدخل بدوره البيت ويخرج حاملًا طبق البصارة وناولته زوجته رءوس البصل، افترشوا الأرض ففوجئ صبور بدينه زوجة عشير تخرج في سرعة من بيت بسيط، لم يبال بسؤال جاره ونادى عبده بن جمعة وتناولوا طعامهم ساكتين ولم يأكل بسيط غير الخبز والمورتة فحذره حجاج:

– لا تكثر منها يا بسيط؛ ملحها يسبب حصوات البطن وتربي دهون الكرش.

– مرة لا تؤذي.

ما كاد يتم جملته حتى اقتحم الشق فرس قوي وصاحبه يقوده نحوهم فتحفزوا لدفع الكلفة تحاشيًا لعصفه بهم، دون أن ينزل الفارس سأل:

– من منكم السرّاج؟

– أنا.

– أنا آقباي الحارس، من مماليك الأمير سودون الأتابكي ونريد أربعة.

– لا سروج جاهزة، يومين وتجدها.

لم يعقب المملوك وأدار لجام فرسه وغادر الدرب بعد أن ألقى كيسًا وقع على الأرض فأسرع عبده بأخذه ووضعه على منضدة صبور، بمللٍ نهض وقرّر ألا يبدأ في ما طلب المملوك وحين يأتيه يماطله لكنه وجد نفسه يقطع بطالة وقته في تجهيز ما يلزم للسروج وانفض النهار وهو منشغل في العمل تارة ومراقبة الغادين والرائحين تارة أخرى لعله يظفر بخبر عن السلطان حتى تسحبت العتمة فأغلقت الدكاكين ومن فرط تعب اليوم صعد إلى حجرته وأغمض عينيه ونام.

***

انطوت أسابيع والسروج معلقة بمشاجب حديدية مدقوقة بالجدار، دهش من طريقة المملوك آقباي في طلب السروج على وجه السرعة وها هي الأيام تفوت ولا يأتي، خفتت الأخبار وعمّ هدوء غريب في الشوارع ودروب الصناع والأسواق والبيوت والمصلون يؤدون الصلاة ويسعون إلى أرزاقهم دون جدال أو تتبع أخبار الأمراء، أخذ يطيل النظر للسروج وبمنشة من السعف نفض ما عليها من تراب، واتته فكرة عزم على تحقيقها، طلب من عبده أن يحمل سرجين، وقلده عشري فحمل

الآخرين، مشى أمامهما خارجين من الدرب والولدان متشجعان على حمل السروج وطوال الطريق يتكلمان، ظلّ صبور يسير حتى وصل إلى قرب قصر الأمير سودون العجمي بسويقة السباعين، لحظ الناس تترامح وصراخًا بعيدًا، تاجر يغلق حانوته وآخر يحمل جوالًا ويهرول به، أوقف واحدًا من مجاوري الأزهر عرفه بزيه المميز وسأله:

– فيه حاجة؟

هزّ الشيخ الصغير رأسه في تأففٍ ومسح عرقه الناز قبل أن يجيب على قسمات صبور التي اعتلاها القلق:

– ما سمعت الخبر يا شيخ؟ جنود عادوا من الديار الشامية وقالوا.. قالوا...

– السلطان يتأخر في الرجوع؟

– حدثت عركة بين الأمراء المماليك وجيش سليم بن عثمان وانكسر المماليك شر كسرة والسلطان نفسه اختفى.

– هرب؟

– ناس تقول هرب وآخرون يقولون أنه.. قتل في المعركة.

– قتل، لا حول ولا قوة إلا بالله.

بادر الشاب بالابتعاد وصبور يضرب كفًا بكف وعيناه ذاهلتان، تنبه إلى وجود عشري وعبده فلف ذراعيه حولهما وقرر أن يسلم السروج ويعود بهما إلى الدرب، صراخ من قصر الأمير سودون العجمي، أطلّ من الباب المفتوح عن مصراعيه، الحرس منسحبون إلى الداخل، توجه إلى الإسطبل فأوقفه آقباي، تخلص الغلامان من السروج بإلقائها ولفت انتباههما تقطيب الرجل وملامح وجهه تشي بحزن عظيم، انتظرا سؤال الجد صبور ولم يتأخر:

– ماذا حدث؟

– جاء حارس الأمير سودون وأخبرنا أنه قتل وهو يحارب جند ابن عثمان.

– وأين الحارس؟

– هناك والخوند دخلت القصر مع الجواري.

سار صبور خلف آقباي نحو رجل مطرق الرأس على دكة بين نخلتين وملبسه الرث يوحي بأنه وصل بعد أن ذاق كل صنوف مرارة الترحال وشقائه، ربّت صبور على كتفه فرفع الحارس رأسه وشعره مشعث واحمرار عينيه الدامعتين يكتب مدى ما قاسته نفسه من خوف، في رفق سأله صبور:

– صحيح أن السلطان قتل؟

– لا أحد يدري، كل ما أعرفه أن أميري سودون رأيته يقاتل إلى أن وقع من على فرسه وكبس جند ابن عثمان بعد أن علت الأصوات بمقتل السلطان ففر حرسه الجلبان من حوله والكثير من الجند رجعوا حلب.

– وأنت رجعت معهم؟

– أنا هربت مع من هربوا، تنقلنا في البلاد ومعي الكثير من العبيد والحرس حتى وصلنا.

– والأمير ططر؟

– لا أحد يعرف مصير أميره لكن واحدًا من حرسه اسمه صخر رجع معنا.

برقت عينا صبور وتأكد أن الحارس صخر بكل تأكيد الآن في قصر الأمير بالأزبكية، دون استئذان أمسكت يدا صبور بالولدين الساكتين طوال الوقت وأسرعت خطواته مغادرًا القصر وسويقة السباعين كلها قاطعًا الشوارع وصدره ينهج من فرط الإجهاد، الناس من حوله يتلاغطون بالأخبار فلم يلتفت لأحد وظلّ يسير بخطى سريعة حتى وصل درب العطارين، أتاه عبده بقلة الماء فانتظر حتى هدأ قليلًا وشرب، بدأه حجاج وبسيط بأسئلة متداخلة عما حدث فتأرجحت نظراته بينهما قبل أن يجرع المزيد من الماء ويجيب:

– السلطان قتل وأمراء الجراكسة بأتباعهم ومماليكهم انهزموا، المهم لا أحد يطلع أو يخرج من الدرب حتى أرجع.

– ترجع من أين والدنيا مقلوبة؟

– لازم أطمئن على أنس يا حجاج.

أدرك حجاج أن حماه سيذهب من فوره إلى بركة الأزبكية وفعليًا يلزم البقاء بالدرب لئلا يتحيّن المنسر أو اللصوص فرصة الزعزعة التي خلفتها أخبار السلطان ومماليكه في الشام ويهجمون بغية الاستيلاء على أي شيء، دون اتفاق أغلق حجاج وبسيط أبواب الدكاكين، سرح صبور نظره إلى آخر الدرب فوجد جيرانه من التجار أغلقوا حوانيتهم وأبواب بيوتهم، مثلهم فعل ابن ناحور ورآه يطل بوجهه من نافذة أعلى سطح بيته، نهض ومشى إلى أول الدرب، تمنّى لو أن فتحته الضيقة بها

باب خشبي قوي كأبواب القصور فيغلق على الدرب وأهله فلا أحد يدخل أو يخرج لحين انجلاء الأخبار.

وصل إلى الأزبكية وبيوت الأمراء الكبيرة وقصورهم متسربلة بالفاجعة التي نزلت على أصحابها، قرع الباب ففتح له الحارس، أدخله بعد أن سأل عن تمرباي، أسرع نحو الإسطبل فأشار إليه أحد العبيد أن كبير الجفتاوات في الحديقة الخلفية، استدار نحوها فوجد نصير خارجًا من باب القصر.

– أنس يا نصير؟

– بخير يا عم صبور، لكن الخوند والأميرة بركة في الأعلى و...

– لا يهم، سمعت أن...

– صخر وصل ومع الأمير بالخلف.

رافقه نصير حتى سكن العبيد والخدم في آخر الحديقة الخلفية، وقفوا أمام غرفة أشبه بكوخ مبنيّة بالطوب والطين ومسقوفة بفلوق وجريد النخيل، بابها الخشبي مفتوح وسمع صوت تمرباي وهو يحادث الأمير.

– اجلس يا مولاي.

– لا، حتى يحكي لنا ما مرّ به.

– يحكي يا مولاي لكن بعد أن يفيق ويتماسك.

حسب صبور أن الحارس العائد في غيبوبة أو أنه مصاب بجراح أجهدته غير الرحيل الطويل وعطش الصحراء وضراوة الخوف، في ضيق لزم الوقوف خارج الكوخ إلى أن يستأذن له نصير فدخل ثم خرج مع تمرباي وبينهما صخر يجرر قدميه خلفه أنسباي بقامته فانشرح صبور لوجهه رغم القلق البادي عليه، أراحا الحارس على المصطبة وأتى واحد من العبيد بكرسي خشب كبير فجلس الأمير دون أن ينتبه لوجود صبور، التفت صخر وعيناه زائغتان، ارتعشت شفتاه وهو يبدأ كلامه:

– يعلم الله يا سيدي أني لم أقصّر في حماية مولاي الأمير ططر.

– الأمير يعلم ذلك يا صخر لكنه يريد أن يسمع منك خبر الواقعة.

– بل أريد أن يحكي كل شيء، منذ مغادرة الريدانية إلى أن وصل فجر اليوم.

– برفقة السلطان وصلنا غزة فاستقبلنا نائبها دولاتباي ووجد الأمراء عنده بالغ التكريم ونصبت الخيام لإقامة الجيش ولم يشكُ أحد من قلة ماء أو زاد، أيام وطويت وطاق الأمير ططر وتركنا غزة وسرنا يتقدمنا السلطان مع جلبانه.

– مررت ببيت المقدس؟

– لا يا أمير، ليتنا زرنا ثالث الحرمين الشريفين وتبركنا بالصلاة هناك ولكن ذهبنا مباشرة إلى دمشق فلم أر استقبالًا للسلطان والأمراء وكل من معهم كاستقبال الأمير سيباي نائبها، دمشق المحروسة تزينت لمقدمنا فكاد السلطان يسقط من فرسه من شدة زحام الناس للسلام عليه فشق جموعها ونزل بمصطبة السلطان بالقابون68 وسكن الأمراء ما بين المدينة والغوطة.

– ومولاك الأمير؟

– نصبنا وطاقه قرب منزل السلطان وبقينا هناك تسعة أيام منها جمعة صليتها بجامع بني أمية الكبير وخطب فيه قاضي القضاة الشيخ كمال الدين الطويل.

– وبعد؟

– سمعت أن السلطان قرر ألا يتأخر سفره بعد ذلك فأمر كل أمير يطوي وطاقه ومواصلة الرحيل دون فتور فرحلنا.

– إلى أين؟

– إلى حمص ولم نستقر بها ثم سافرنا مباشرة إلى حماة واستقبلنا نائبها جان بردي الغزالي ثم رحل الجيش كله إلى حلب وبقينا بها والأمراء والسلطان يريدون معرفة نية ملك الروم ابن عثمان.

– وصلنا أن السلطان أرسل لسليم بن عثمان قاصدًا.

– نعم هو الأمير مغلباي ولكن مساعيه خابت واحتجزه ابن عثمان عنده وكنت في خدمة الأمير ططر عندما جاءنا الأمر بالرحيل إلى جيلان69 ثم وصلنا بعدها إلى ساحة مرج دابق ونصب العبيد وطاق السلطان وكل أمير أقام وطاقه وحوله خدمه وحرسه ومماليكه.

– وكبس ابن عثمان وعسكره عليكم في مرج دابق هذه؟

– نعم يا أمير أنسباي، وكلنا أطعنا أمر الأمير ططر وبقينا نحرس خيمته الكبيرة ومن بعيد رأيته يهجم على جند ابن عثمان وغيره من أمراء المماليك القرانصة فرأيت الأمير جان بلاط أبو ترسين والأمير علان والأمير قانصوه كرت وتنمر الزردكاش وغيرهم يهجمون بمن معهم من مماليك وحرس وعلا الغبار ونفذت أمر مولاي ططر بألا أبرح الخيمة حتى...

– حتى ماذا يا رجل؟

– صبرك بالله يا تمرباي.

– عاد إلينا اثنان من المماليك وأخذا ينهبان ما بالخيمة من صناديق.

– تقصد أتباع منا هجموا على خيمة أبي؟

– وغيرها يا أمير ونهبوا ما بها وفروا كما جاءوا وسمعت مناداة بأن السلطان صُرع وأمر بالعودة إلى حلب لكني والله لم أنفذ الأمر إلا بعد...

أطبق صخر فمه واحتبست الكلمات داخله وأنسباي يشعر بوخز خنجر بجنبه من نهب الأمراء لمال بعضهم في وقت يجب الاتحاد فيه، قدم نصير لصخر قلة ماء فشرب القليل.

– أكمل يا صخر.

– انطلقت فرقعات ورأيت جند ابن عثمان يرفعون البندق ويطلقون منها النار فأصيب الأمراء المقدمون ومن بعيد رأيت الأمير ططر يرفع سيفه لكنه ترنّح ووقع وأصوات العبيد تعلو بأن ننجوَ فرمحت مع من رمحوا مبتعدين عن الوطاق ومن حولنا يصابون بنار البندق ولم أشعر بنفسي إلا بعد أن خفتت الصرخات وأصوات المكاحل.

– رجعت حلب؟

– لا ركبت بغلًا شاردًا وظللتُ أسأل عن الطريق حتى انضممت إلى فارين آخرين وقاسينا الجوع والعطش، نستريح قرب بيوت الطريق فقدم لنا أهلها الكرماء الماء والخبز والجبن على قلة حالهم ثم واصلنا الرحيل، إلى أن وصلت مع حارس الأمير سودون وعلمت ونحن في الطريق أنه قتل.

***

ظلّ صبور طوال الوقت ساكتًا مدهوشًا مما يسمع ومنتبهًا غاية الانتباه لما يرويه الحارس ويدقق في أسماء المدن التي ذكرها فمنها ما هو معروف ومنها مناطق أول مرة يسمع عنها، لم يحفل بما جرى للأمراء ولم ينغز قلبه حزن نحو الأمير ططر وهو من حرمه أنس وكاد واحد من عبيده يقتل الست الطيبة أم سعد، فكل ما يهمه أن يكون أنس بخير هو وخوند عنود وابنتها بركة فلا ذنب لما اقترفه ططر وغيره من جرائم، تشجّع في مواساته للخادم المصري المطيع:

– حمدًا لله على سلامتك يا صخر.

التفت إليه أنس وحدّجه بنظرة مستريبة كأنه أول مرة يراه في جلستهم، أدار عينيه إلى تمرباي فبادر باحتواء الموقف:

– صبور السرّاج يا مولاي أحضر سرجًا جديدًا لفرسك وأراد أن يطمئن عليك.

– نعم يا بني، أردت الاطمئنان عليك، فكل ما يهمني أن تكون في خير وأمان، وأرجوك تحذر الأيام القادمة فلا ندري ما يمكن أن يحدث.

– شكرًا.

– وأقدم لك واجب العزاء في الأمير ططر رحمه الله.

– لا جنازة تقام لمن يستشهد، وعلى كلٍ شكر الله سعيكم.

صمتوا بعد عبارة الأمير المخنوقة وتركوه يخطو مبتعدًا عنهم وصبور يود لو يحضنه أو يأخذه لبيته فيبتعد عن القصر وما يتهدده من تجرؤ الزعر والأوباش والمنسر على قصور الأمراء وخاصة بعد غيبتهم، نهض وهمّ أن يغادر؛ حتى يستريح صخر ففوجئ به يفصح دون احتراز:

– الأمير طيب القلب كأمه، يصف أباه المجرم بأنه شهيد، والله يا نصير وحياتك عندي يا عم تمرباي لو بيدي لقتلته بنفسي.

– ماذا تقول يا صخر؟

– ططر كغيره من مماليك لا يرعون حرمة لأحد، كل همهم المال، في حلب أمر مماليكه بالهجوم على بيت كبير لواحد من تجار حلب واستولوا على ما عند الرجل من مال وثياب وخيول وهموا بقتله لولا رجاء عياله.

– يا ساتر لكنهم في غربة ولا يرجون من الله غير العودة سالمين غانمين.

– غانمين غضب ربنا، فيكم من يكتم السر، خطف مماليكه سيدة وأتوا بها إلى خيمته وبعد أن فعل بها الأفاعيل تركها لهم وحاول بعض الخدم أن يقلدوا سيدهم لولا أن خلصتها منهم والله أعلم كيف عادت لأهلها.

– الأمير ططر؟

– ططر النجس، الوسخ، الملعون، ربنا صبّ عليه غضبه وانتقامه لهتكه أعراض الناس، أذاقه الموت والكلاب نهشت جيفته النتنة، خسارة فيه ابنه العفيف وزوجته الخوند الرحيمة وابنته النسمة.

– معقول ما تقول يا صخر؟

– أنا لا أكذب وما فعله هو أقل مما فعله غيره.

استدار صبور وفي صدره نيران متقدة وقلبه يرجل في حمّى الغضب مما روى الحارس، وأيقن أن مصيبة نزلت بأمراء المماليك وأتباعهم، سار خلفه تمرباي ونصير حتى الباب الصغير للحديقة الخلفية.

– أرجوكم، أتوسل إليكم، عيونكم على أنس.

هوّم نصير وأشار إلى عينيه، لم يعلق تمرباي، تركهما صبور وعاد يفكر في ما قاله صخر لكنه لم يتعجّب مما فعله ططر فقبلها حرمه من أغلى شيء.

ترددت الكلمات بقلبه وأيقن بقرب استرداد ابن عفيفة، تمتم وهو في طريقه إلى درب العطارين:

– تسرق وتفحش في الناس وأنت في غربة وفي شيبتك، وترجو من ربك الستر وحُسن الختام؟! الله يلعنك ويلعن اليسرجي الذي باعك على دكة المماليك.

***

-٨-

كريم بن معتوق مقرفص أمام بيته على حصير ووجهه مدفون في عب جلبابه، لم يرد على سلام صبور المار عليه فتوقف وأقعى أمامه، رفع وجهه فوجده مغرقًا بالدموع، أدرك سبب انكفائه فربت على كتفه وطيّب خاطره:

– أبوك يرجع بالسلامة إن شاء الله.

– ما في أمير رجع يا عم صبور وخدمهم وحرسهم حكوا أهوالًا، أبي كان في خدمة جلبان السلطان والناس حكت أن السلطان ومن معه أهلكهم جند ابن عثمان.

– إشاعات، كثير من الأمراء والخاصكية هربوا، يا ولدي، اجعلْ الأمل في الله، الطريق طويلة ومعتوق يرجع عن قريب إن شاء الله.

– دعواتك يا عم صبور.

تركه صبور وعاد إلى بيته، الدكاكين والبيوت مغلقة فلم يهتم باستدعاء صافية أو أي من الصغار، من المشنّة تناول رغيفًا وأكل لقيمات بالجبن والزبد، غلى قرون القرض وبرّد ماءه قليلًا وأخذ يحسو

في تمهُّل، استعاد ما سمعه وسط لمّة أمام جامع عمرو، عبد الله العائد من الديار الحلبية واحد من زبائنه القدامى وعمل معه منذ شهور مع يوسف النحاس بالرميلة، كان من حملة السنجق70 والتخت71 السلطاني، عاد وحكى عن وقعات مهولة وطلب منه مقابلته فوعده بزيارة قبل الليل، نام على السرير وبالمنديل جفّف عرقه، طفق يحرّك قطعة من طومار72 ليستحث الهواء ويبرّد حرارة وجهه، هدأت روحه وانتظمت أنفاسه، ما كاد يغفو حتى تناهى لمسامعه صوت ينادي، نهض من فوره وباعد جانب المشربية فإذا بعبد الله، أشار إليه أن ينتظر وفوجئ بعشري يسرع على السلم من السطح وينزل، يفتح الباب للضيف ويغلقه، يقوده لأعلى فيستقبله صبور ويعود الفتى للبيت عن طريق السطح كما نصحه جده، تحرّر عبد الله من نعله وألقى عمامته وخلع جلبابه وبقي بالسروال الطويل والصدار، يزفر نفسًا حارًا ويأتيه صبور بقلة الماء فيجرع وتتحرك تفاحة آدم لأعلى وأسفل، يقعد على الأرض ويفرد ساقيه.

– عندي منقوع نعناع بارد وأعصر لك بعده الليمون.

– شكرًا يا صبور.

– وأنت عند جامع عمرو بدأت في حكاية ولكنك ابتعلت الكلام.

– خفت أن ينقله واحد من البصاصين للمحتسب بركات بن موسى أو للدوادار نفسه أو للأمير ألماس.

– لا تخف مني.

رجع عبد الله بظهره إلى الوراء وندت عنه ضحكة خفيفة، قبالته قعد صبور ووضع المسند خلف ظهر ضيفه، قرّب منه قدح منقوع النعناع المنعش ليهدئ حرارة شهر شعبان، زفر نفسًا وهو يقول:

– رمضان قادم وربنا يعيننا على صيامه.

– الحمد لله، ربنا نجاني يا عم صبور ولولا رحمته الواسعة لهلكت.

– احك لي يا عبد الله.

– والله يا صبور كل الجركس من قرانصة وجلبان لا يستحق الواحد منهم تكرمة وقليل فيهم ما فعله ابن عثمان، ما إن دخلوا حلب إلا أخرجوا أهلها من بيوتهم واستولوا على أموال أشرافهم.

– وصلني شيء كهذا.

– من قبل أن ينكشف أمر ابن عثمان أخبر الأمير كرتباي السلطان أن أهل عنتاب73 أغلقوا أبواب بلدهم لما سمعوا ما فعله المماليك بأهل حلب ومن قبلها بأيام قرر الغوري إرسال قاصد إلى ابن

عثمان واختار الأمير مغلباي ومعه عشرة من المماليك ارتدوا أفضل ما عندهم من ملابس الحرب لكن ملك الروم لم يقرأ رسالة السلطان وحنق من مشهد مغلباي وجنوده فأمر بقتلهم أمام عينيه وحبس الأمير نفسه بقلعة رملطو وعوّقه يومين ثم أفرج عنه وأمر ببهدلته غاية البهدلة فحلق ذقنه وأمره الحرس فحمل الزبل من تحت الخيل في قفة على رأسه وألبسه طرطورًا وأركبه على حمار أعرج وعندما عاد أقر للسلطان نية سليم بن عثمان في حربه فنقل إليه رسالة.

– رسالة؟

– نعم أمره ابن عثمان أن ينقل للغوري: قل لأستاذك يجتهد جهده وها أنا حضرت إليه كالبرق الخاطف والرعد القاصف وليلاقينا في مرج دابق.

– عيني عينك أعلن على السلطان الحرب، لكن ما دفعه أن يقتل أتباع مغلباي، الرسل لا تُقتل!

– أغاظه ملبسهم بالحديد وكامل الأسلحة وظن أن الغوري أرسلهم على هذه الهيئة ليخوف جنده رغم أن السلطان قانصوه أكرم قاصد ابن عثمان قراجا باشا وخلع عليه خلعة سنية، فلم يقابل ابن عثمان المعروف بالمعروف.

– ونواب البلاد الشامية، عاونوا الغوري أم تخلوا عنه؟

– رأيت بعيني الأمير سيباي الشجاع يقبض على خاير بك نائب حلب ويجره إلى السلطان وهو يقول له: يا مولاي السلطان اقتل هذا الخائن إن أردت أن تنتصر على عدوك.

– ولمَ خاير بك بالذات؟

– عرف الأمير سيباي أن خاير بك ملاحٍ74 على السلطان وموالس عليه ويستحث ابن عثمان على حربه.

– يا الله، معقول، وقتله؟

– لا، نصحه جان بردي الغزالي بألا يفعل حتى لا يفتن العسكر والمعركة لم تبدأ بعد فسمع لكلامه وأمرهم السلطان أن يحلفوا له ألا يخون أو يغدر أحد بالآخر وسار السلطان وسط آلاف من مشترواته الجلبان وقدم الأمراء القرانيص بمماليكهم وأتباعهم.

– لكن غرضي أعرف، الأمير محمد بن قانصوه أين هو؟

– أمره أبوه السلطان أن يبقى بحلب وبعد ما انتهت المعركة صحبه مماليك أبيه إلى هنا.

– لم أسمع أنه رجع.

– سيرجع، أنا هربت قبلهم، يوم المعركة بانت العساكر العثمانية براياتها وذهلت لعددهم وبعضهم يجرون المكاحل الكبيرة وأول من بادر بالهجوم على عسكر ابن عثمان الأمير أصلان ابن بداق نائب حمص تبعه سيباي وسودون وجان بلاط وغيرهم بمماليكهم وقاتلوا بشدة وجندلوا الكثير من جند ابن عثمان رغم بندقهم والسلطان وسط مماليكه لا يتحركون حتى أتاه واحد من الأمراء القدامى وزعق في وجهه: نحن نقاتل بأنفسنا مع النار وأنت واقف تنظر إلينا ما تأمر أحدًا من مماليكك يهجم مثلنا.

– بعدها هاجم السلطان؟

– في الحقيقة يا شيخ صبور، المماليك كلهم كانوا مختلفين في رأيهم فاسدي النية ما يعرضه أحدهم يعارضه آخر.

– والمهاجمون؟

– واجهوا مكاحل ابن عثمان والبندقيات بصدورهم وظلوا يقاتلون حتى أحاط بهم الجند ولفهم الغبار، وبينما كنت خلف التخت بمدورة السلطان75 سمعت أحد الأمراء وعرفت فيما بعد أنه خاير بك أو جان بردي الغزالي يرفع صوته: الفرار الفرار، السلطان سليم أحاط بنا وقتل الغوري والكسرة علينا، فلم أر السلطان وظننت كما حسب الجلبان أنه قتل وجروا بخيولهم قاصدين حلب.

– والسلطان، كيف قتل؟

– لا أعلم، رجعت مع من رجعوا إلى حلب وبعدها ركبت بغلة وهجرت الديار الحلبية إلى أن وصلت دمشق فبعت البغلة وأضفت ما معي من مال واشتريت حصانًا من سوق دمشق ووجدت قافلة عائدة عن طريق الشاطئ فصحبتها دون تردد ورجعت.

– حمدًا لله على سلامتك، قدّر ولطف.

– أهوال يا صبور، أهوال وربنا يستر على البلد.

– ماذا تقصد؟

– وأنا بدمشق سمعت من تجار قادمين من أزمير وبورصة أن ملكهم لا يشبع ويريد أن تكون له البلاد الشامية.

– قد يأخذها من نواب السلطان ليأمن على مملكته.

– قلبك أبيض، سمعت أنه يطمع في المحروسة نفسها.

– يا للمصيبة، يأتي بعسكره هنا، محال.

نهض عبد الله والمغرب يؤذن، ارتدى جلبابه ولف عمامته، فدعاه صبور لتناول العشاء معه لكنه أصر على الانصراف قبل إيغال الليل، رافقه صبور إلى أول الدرب وأثناء رجوعه رأى عشير ابن ناحور يقف أمام التاجر معروف ويتهامسان وحين لمح صبور أدخله عشير بيته وأغلق الباب في سرعة، لم يعط الموقف أي اهتمام فما حدث ملك عليه تفكيره، تارة أخرى تمدد على سريره وعاد يفكر في ما سمع من روايات عبد الله وحارس الأمير سودون وصخر وأيقن أن الأسوأ لم يُخبر به بعد.

***

«رمضان مستهله السبت، ومن قبله بأيام عاد الكثير من الأمراء الفارين من وجه عسكر ابن عثمان وأتباعهم ممن نجوا من اصطياد البندق لأجسامهم، رجعوا متعبين مهزولين يعلوهم غبار الطريق ورأيت واحدًا من الأمراء وهو الأمير أركماس في محفة وبلغ منه المرض ونزل بقصره بالأزبكية فتعجبت مما كان فيه من تكبر قبل خروجه إلى البلاد الحلبية وحاله بعد أن كتبت له السلامة من الموت هناك وعودته عليلًا مع زمرة من نجا من الأمراء».

اتكأ بكوعه على حشية عريضة ومن طرف خفي ألقى نظرة على ما خطه من خبر، أراح رأسه إلى الوراء وداخله سؤال: ما جدوى كتابة الأخبار؟ فلستُ منتظمًا في روايتها كما يفعل الشيخ أبو البركات محمد بن إياس، أو ذاكرتي واعية لما يجري كما يروي بمهارة الفتى ابن زنبل.

همّ أن يقلب أوراق الكتاب ويقحمه في الكيس الجلدي ويلقيه في صندوق الملابس، فيريح نفسه مما يكتب، فقلب غلافه وأدخله برفق في الجراب السميك، تركه على المنضدة جوار الدواة وعود الغاب المدبب، في حنو نظر إليه وأبعد عن ذهنه فكرة أن يهجره فقد ورثه من جدوده وعفيفة كانت تعتز به غاية الاعتزاز، يذكر يومًا قالت له في بدء زواجها بابن عمها مصري: حين يرزقني الله بمولود، أعلمه وأجعله يقرأ ويكتب الأخبار بأوراق جدي الأكبر عبد الله السرّاج.

رحمك الله يا عفيفة يا قرة عيني أنت وزوجك الشهيد وأعدكما أن أحفظ أنس ما دام في صدري نفس يتردد وما وسعتني القوة، أغمض عينيه وعاد يفكر في حال المحروسة التي لم تهنأ برؤية هلال الشهر الكريم وكأن البلد كله في هم وغم ونكد مما سمعوا من كسرة سلطانهم.

لم يشعر بدبدبة عبده بن جمعة خلفه عشري وهما يصعدان السلالم حتى وقفا لاهثين من فرط الجهد وعطش الصيام في هذا اليوم الحار، ترك عبده لابن خاله الفرصة للكلام:

– واحد اسمه نصير يسأل عنك يا جدي.

نهض من على سريره، ارتدى جلبابه ونزل وفي رأسه تتوالد التخمينات عما جرى لأنس، نزل في سرعة ورآه يقف في أسفل مظلة قماش فردها بسيط بين دكانه ودكان زيتون.

– خيرًا يا نصير؟

– لا تقلق يا شيخ صبور، أردت أن أخبرك أن أنس، أقصد الأمير أنسباي، لم يسمع لنصيحة الخوند وأخته بركة بالبقاء بالقصر وخرج في صحبة تمرباي وصخر.

– كنت منعته يا نصير.

– أنا أمنعه يا معلم صبور؟!

– المهم أين هو؟

– عرفت أنه في طريقه إلى قصر الأمير أبرك رأس الجلبان بالصليبية قرب قلعة الكبش.

– كان قصد جاره الأمير أركماس بالأزبكية.

– الأمير أركماس رفض أن يقابل أحدًا.

– إذن لا نضيع الوقت وأرافقك إليه ولكن أرجو ألا يتضايق من وجودي.

– لن يفعل.

لم يعلق صبور وظن أن نصير يقول ذلك لأن أنس متسع الصدر ولا يعلوه الغضب سريعًا، أشار إلى حجاج ومشى جوار نصير.

– أقول لك لن يفعل يا عم صبور، فقد سمعته يسأل خوند عنود عنك فأخبرته أنك قريب أمها وأنكَ تحبه منذ مولده في قصر الفشن.

– ربنا وحده يعلم كم أحبه وأخاف عليه، المهم وماذا يريد من الأمير أبرك؟

– يسأل عن أبيه، أقصد الأمير ططر.

صمت نصير وظل يسير كتفه بكتف صبور ورغم عطش الصيام والشمس الفتية تشتد إلا أنهما ظلا سائرين حتى تناهت لمسامعه إقامة صلاة الظهر من مسجد السيدة زينب فدلفا المسجد، أديا الصلاة ولم ينفل صبور وخرج مسرعًا، اقتربا من مسجد أحمد ابن طولون بمئذنته الملولبة ومن بعيد تسمق

قلعة الكبش على جبل يشكر، تخطيا مسجد صرغتمش76، أمامهما سور قصر الأمير أبرك وبوابته الكبيرة، مملوك طويل أشار لهما أن يتوقفا، فبادره نصير.

– تبع مولاي الأمير أنسباي ابن ططر.

– الأمير الصغير هناك ينتظر الأمير أبرك.

في آنٍ واحد نظرا إلى حيث يشير الحارس، فرآه صبور يجلس أسفل مظلة خشبية وتمرباي وصخر يقفان عن يمينه ويساره، سار صبور ناحيتهم ونصير خلفه، ألقى السلام عليهم فردّ تمرباي بصوت خفيض، لم يلتفت أنس إليهما وصخر يرفع مروحة من الريش ويخفضها في محاولة لجلب الهواء على رأس سيده، لم ينتظروا طويلا وبرز الأمير أبرك من باب قصره في خطى ثابتة خلفه خادمه فنهض أنسباي وسلم عليه في إجلال، جلس الأمير وأمامه جلس أنسباي.

– رمضان كريم أو يأتي الخدم بالماء والفاكهة.

– الله أكرم يا سيدي، حمدًا لله على سلامتك أيها الأمير، أبي لم يعد؟

– الأمير ططر حارب جند ابن عثمان خلف مماليك الأمير علان والأمير سودون العجمي وغيرهما ممن تقدموا لكن أصابته بنادقة جند ابن عثمان وسقط من على فرسه وانشغلنا في المعركة.

– ربما أصيب و...

– يا ولدي من طالته نيران بندق ابن عثمان لم ينج منها، يصوبونها وتخرج من أفواهها نيران فصرعوا جندنا قبل أن يصلوا إليهم.

– لكن سمعنا يا أمير أنكم ألحقتم بهم مقتلة عظيمة.

– حدث، وبعدها عرفنا بموت السلطان وإحاطة جند ابن عثمان بنا فرجعنا في سرعة إلى حلب وكنت مصابًا في ذراعي والحمّى أجهدتني فحملني عبدون وغيره من الخدم إلى بستان بعيد عن حلب، وحين تعافيت ركبت إلى دمشق ومنها إلى هنا، أيام طويلة عشتها مرعوبًا من أن يلحق بنا العدو حتى وصلت.

– ولم يدفن أبي؟

– أبوك شهيد يا أنسباي وأحسن الله عزاءك فيه والبركة فيك.

بحدة قالها الأمير أبرك ونهض من فوره معلنًا إنهاء المقابلة السريعة، أشار إلى الخادم عبدون ليصحبهم خارج الحديقة، سار الخادم أمامهم حتى خرجوا من باب القصر وتمشى معهم إلى أن ابتعد

بهم وأنسباي يكاد يقع على الأرض من فرط الحزن على نهاية أبيه وتمرباي يمسك لجام فرسه بينما يقبض صخر على لجام فرس أنسباي وبغلته.

– ليسترح الأمير قليلًا في ظل شجرة الكافور.

مالوا نحوها وأسفل الشجرة يربض زير ليشرب منه السائرون ودكة عتيقة، استراح أنسباي عليها وقسمات وجهه الغضة محتقنة، دعاهم للجلوس فأبوا لكن تمرباي صمم على أن يجلس صبور فقعد جوار حفيده وود لو يفصح له أن من يحزن عليه لا يستحق، فوجئ بعبدون يقول:

– اعذرني يا أمير، ما أقوله قد يطير رقبتي لو عرفه غيركم.

– قلْ يا رجل!

– احلفوا لي.

– دون أن نقسم ثق بنا فالفاجعة طالتنا.

– ما قاله الأمير أبرك حقيقة لكن ما لا تعرفونه أن السلطان غُدر به.

– غدر به، ممن؟

– من الأمير خاير بك نائب حلب، وكما قال لكم الأمير أبرك، لجأنا إلى بستان بعيد عن حلب حتى يتعافى من الحمى ويشفى جرحه ونزلت حلب المدينة مرتين لشراء الطعام، أولاهما بعد انكسار السلطان وعرفت هناك أن خاير بك خامر على الغوري وانسحب بأتباعه فانكشف وطاق السلطان وحدث ما حدث.

– والمرة الثانية؟

– تسللت إلى حلب بعد دخول ملك الروم سليم بن عثمان فاستولى هو وجنده على ما كان يبقيه السلطان من قناطير دنانير الذهب وأنصاف الفضة والأمراء يونس العادلي وإبراهيم السمرقندي وغيرهم التفوا حول سليم بن عثمان وهنأوه على النصر وصاروا يتقربون إليه بذكر مساوئ أستاذهم الغوري وأمرائه ويظهرون له معائبهم وقبائحهم ونسوا إحسانه وإنعامه عليهم من شقق حرير ومال وسمور وأعطية جزيلة وجعلوا كل همهم إرضاء ابن عثمان.

– الكلاب الخونة، والله لئن ملكت رقابهم لأطيرها بسيفي.

– ربنا يبارك في شبابك ويطير سيفك رقبة ابن عثمان نفسه إن ملكته فو الله ما رأيت ملكًا محبًا لسفك الدماء مثله، قتل رسل السلطان ممن كانوا في صحبة الأمير مغلباي وجرّسه.

– عرفنا بهم.

– والأبغض أنه أسر الشيوخ كمال الدين بن الطويل ومحيي الدين الدميري وشيخ الحنابلة شهاب الدين ولم ينج منه غير محمود بن الشحنة الحنفي فقد هرب.

– وخلفاء المشايخ يا ترى عادوا؟

– لم يعودوا يا تمرباي، حين جُمعوا عنده أمر بضرب رقبة خليفة العارف بالله أحمد البدوي وخليفة سيدي إبراهيم الدسوقي و...

– كفى، كفى.

فاه بها أنسباي وهو يفرد كفه على جبينه فعاونه صبور على الوقوف وأتى له نصير بحصانه، امتطاه دون أن يبادل أحدًا كلمة واحدة، في حدة نغز بطنه فانطلق به فأشار صبور إلى تمرباي أن يلاحقه فركب فرسه وصخر اعتلى بغلته وانطلاقا في أثر الأمير، التفت صبور إلى عبدون وسأله في جدية:

– والسلطان يا عبدون ما مصيره؟

– لا أحد يعرف، كل ما أعرفه أنه لولا موالسة الأمراء لانتصر السلطان، والله يا جماعة سمعت أن الجراكسة قاتلوا حتى انكسر جند ابن عثمان، فهمّ بالهرب وطلب الأمان لولا مخامرة خاير بك وانسحابه.

– لا حول ولا قوة إلا بالله، مات من مات وعاد من عاد ولا أحد من الأمراء الكبار يعرف مصير السلطان.

هوّم عبدون برأسه وأحاطهما بنظرات متوسلّة ذات مغزى، طمأنه نصير بكتمان ما أفصح عنه، استدار صبور وعند مفترق الطرق أوقفه قبل أن يعود إلى الأزبكية.

– أنس يا نصير.

– في عيني يا عم صبور، لا تقلق.

– كيف لا أقلق وما سمعنا غير كل تدبير بالشر؟

– ربك هو الستار.

– ونعم بالله.

قالها صبور وزفر نفسًا ممطوطًا، عاد أدراجه إلى درب العطارين والناس من حوله لا سيرة لهم غير نكبة الغوري وما وقع على الأمراء من أهوال يشيب لها رأس الغلمان.

***

-٩-

«ما عندنا من نسلطنه إلا أنت، ولا محيد لك عنها طوعًا أو كرهًا.. ترددت هذه المقولة على ألسنة الناس في الشوارع والأزقة، بين الجالسين في المقاهي والمصلين، فقد أجمع الأمراءُ على تولية الأمير الدوادار طومانباي سلطنة المحروسة وصحبه الأمراء المقدمون ومنهم الأمير علان وأنسباي حاجب الحجاب والأمير تمر وطقطباي نائب القلعة وغيرهم إلى كوم الجارح حيث زاوية العارف بالله الشيخ أبي السعود الجارحي وأعلموه بسلطنة الدوادار وامتناعه فأحضر الشيخ مصحفًا وحلف عليه الأمراء أنهم إذا سلطنوه لا يغدرون به ولا يوالسون عليه ويرضون بقوله وفعله فحلفوا جميعًا على ذلك.

وأخبرني من كان حاضرًا اجتماع الأمراء ببيت الشيخ أبي السعود أنه رآها فرصة أن يستوعد الأمراء بألا يظلموا أحدًا وأن يبطلوا المظالم التي كانت محدوثة بأمر الغوري وفي شجاعة ذكرهم الشيخ أبو السعود أن الله تعالى ما كسرهم وسلّط عليهم ابن عثمان إلا بدعاء الخلق عليهم في البر والبحر من فرط ظلمهم للناس فقالوا: تبنا إلى الله تعالى من اليوم عن الظلم وانفض المجلس على ذلك وذكر الحاضر أنه كان يوم الأحد الخامس عشر من شهر رمضان الكريم للعام ٩٢٢ من الهجرة[77]».

ابتلع ريقه ومسح عرقه، انتابه شعور بإجهاد العطش، أطلّ من نافذة المشربية فأوحى له ميل الشمس قرب أذان العصر، بقي ساكتًا ساكنًا محتارًا من أمر الأمراء ومخامرة بعضهم على السلطان وهم في غمرةِ حربٍ قد تطحن بين حجريها كبيرهم وصغيرهم، داخله سؤال عن ثمن ما يرجونه من هذه الموالسة فلو كان المقابل هو بقاء رءوسهم على أكتافهم فلبئس الثمن وسيعيشون تحت نعال سادتهم العثمانيين بعد أن كانوا هم سادة البلاد والسلطان واحدٌ منهم ولن يجني أهل المحروسة غير مزيد من سلب خيراتهم وأكل عرقهم.

لا يدري لمَ طفر أمامه وجه مظلوم العريان وربابته التي لا يكف عن جر عودها وترديد مواويل وسير القدامى، ترى هل وصله في أسيوط رحيل السلطان الأشرف قانصوه وسيرة موته بعيدًا عن الديار، ناوشته وجوه كل معارفه وود لو يلملم

عدته ويعود إلى دفء بيته وصحبة يوسف النحاس لكنه أنس، أنس بن مصري الحبيب ابن عفيفة الحبيبة.. أأتركه وأرحل والبلاد على كف الرحمن وربما تصدق الأراجيف التي يروجها العائدون من الشام بأن ابن عثمان بعد أن خشي التجوين[78] في البلاد المصرية جهز جنده وتقدم حتى حاز دمشق دون حرب، ماذا يمكن أن يحدث لك يا صغيري لو كبس سليم وجنده على أبواب القاهرة

والفسطاط وخرّب بيوت المماليك وقصور أمرائهم نكاية في حربهم له بالبلاد الحلبية، من يحميك يا حبيبي؟

– جدي! تكلم نفسك؟

– لا يا عشري! كنت أفكر بصوت عالٍ.

– أبي يقول لك أن معتوق السقاء رجع لبيته.

– صحيح يا ولد! معقول! لازم أسلم عليه.

– أبي هناك مع عمي بسيط وأنا وعبده بالدكان.

***

في سرعة نزل وتوالت خطواته إلى أول الدرب، الباب مفتوح على مصراعيه والسيدات يحطن بأم كريم ويهنئنها على عودة زوجها بالسلامة، قطع مجاز البيت وفي غرفة منزوية بلا باب تزاحم معارف السقاء وجيرانه، ألقى صبور السلام فأفسح الرجال ومنهم من سلم على معتوق القاعد على الحصير واستأذن في الانصراف، زغرودة طويلة ترج البيت فصاح كريم في السيدات بألا يكررنها، معتوق مغطى بملاءة خفيفة ويبدو عليه التعب وأمارات الهزال فبرزت عظام وجنتيه ونفرت عروق رقبته، وجهه شديد السمرة وعيناه دامعتان، نهض رجلان فصحبهما كريم إلى الخارج بعد أن سلما على أبيه وهو يردد على مسامعهم: رمضان كريم يا جماعة، ويرجوهم إعادة الزيارة بعد المغرب ليقوم معهم بواجب الضيافة، تبعهم حجاج وبسيط ووعداه بزيارة قريبة بعد أن يستريح، مال صبور نحوه وقوّس ذراعيه حول ظهر الرجل وربّت على كتفه فانخرط في البكاء، انتظر حتى هدأ.

– حمدًا لله على سلامة رجوعك لبيتك وأولادك.

– تسلم يا صبور.

– والله يا معتوق في غيبتك كأن شيئًا ينقصنا.

– وأنا كنت فاقد الأمل في رجوعي لولا حكمة ربنا ومساعدة أهل الخير.

– استرح وأزورك بعد العشاء.

– تشرّف، غرضي أتكلم معك.

من فوره نهض صبور ورافقه كريم، خرج فوجد عبده يحمل قفة بها بتاو طري وعشري بين يديه مرجسية79 مغطاة تفوح منها رائحة طبيخ الكوسا بهبر اللحم، انتظرهما صبور حتى خرجا وزوجة معتوق تودعهما بالدعاء لأم حجاج ومسكة وصافية بالصحة وطول العمر، عادوا وفي سرعة امتدت أيدي عبده وعشري في حمل الزنابيل والأكياس إلى داخل الدكان، بقي القليل على أذان المغرب، فعجّل حجاج بإغلاق الباب لولا تراكض فرس قادم عليه من أول الدرب، نزل أحد المماليك وفي سرعة طلب من حجاج:

– أريد مطحون الإسقنقور80.

– ممكن في الصبح، الكيس في حاصل التخزين.

– لو أمكن الآن، سيدي الأمير يريده.

في تأفف غاب حجاج دخل البيت وخرج وبيده لفة صغيرة فأمسك بها تابع الأمير ونقد حجاج ثمنها، لم ينتظر حتى يوضح له حجاج طريقة استخدامه، أدار لجام فرسه وابتعد مع الأذان فدخلوا البيت، قدمت صافية عصير الليمون فشربوا وحين تحلقوا حول الإفطار ابتسم صبور للسيدة ساقية وقال:

– أصيلة يا أم حجاج.

– الجود بالموجود، والنبي وصّى على سابع جار ومعتوق لا يتأخر عن خدمتنا.

انشغلوا في تناول الطعام وكعادته قضم صبور عدة لقيمات وشرب ما في القلة، نهض فعرضت عليه صافية بصوتها المخنوق أن تغلي له عشبة الشيح ففرد كفه أمامها وتركهم إلى بيته بعد أن كرر تحذيره لعبده وعشري ألا يخرجا من البيت.

ـــ تارة أخرى طفق يعب الماء حتى شعر بامتلاء جوفه، انطرح على السرير وجسمه مفكك من أثر الصوم، استراح حتى أذان العشاء، كسل أن يسعى لأداء الصلاة بجامع عمرو فصلى الفرض وارتدى جلبابه، وجد الصبيين ينتظرانه أمام الباب فابتسم لهما ورافقاه إلى أول الدرب، توقع أن يجد المزيد من زائري معتوق، الباب مفتوح وكريم يقف وسط المجاز، رحّب بهم وأدخلهم لأبيه فخاب توقعه فلم يجد غير عشير ابن ناحور فبدا على تقاسيم وجهه التأفف من زيارة صبور، جلس وظهره يسنده الجدار وعبده وعشري عن يمينه وشماله، أحضر كريم قلة ماء فتناولها منه صبور مباشرة وروى عطشه المستمر، دخل معتوق ورائحة الحموم تفوح منه، تهالك أمام ضيفه واتكأ بكوعه على وسادة عريضة، أحضر كريم طبق الفاكهة ووضعه أمامهم، أصابع عشير الرفيعة أول ما امتد فتناول حبة تين كبيرة.

– أكيد في الشام أشجار التين على الجنبين.

– بلاد جميلة يا معلم عشير وبها خيرات ربنا.

– كنت أحضرت لنا حلوى دمشق المشهورة.

– أحضرت نفسي والحمد لله.

– قل له حمدًا لله على سلامتك يا عشير.

– عمك عشير يا ابن جمعة، تأدب يا ولد.

زغر صبور لعبده فسكت على الفور ولم يتجرأ على الرد، تناول عشير ثمرة أخرى وشرب الماء، التفت إلى معتوق وسأله:

– أنت الوحيد من يصدقنا يا معتوق، ما خبر السلطان؟

– السلطان قُتل والعثمانية في طريقهم إلى هنا.

برده القاطع حسم معتوق أي خبر آخر فنهض عشير من فوره وزاغت عيناه المرعوبتان بين وجوههم.

– العثمانية يكرهوننا وسيوفهم ستطول رقابنا.

بدا وجهه مصفرًا وجحظت عيناه أكثر حتى كادتا تخرجان من محجريهما، دق على الباب ولم يطل بقاؤه وانصرف على الفور وعبده وعشري يضحكان عليه، التفت عبده وقبل يد معتوق.

– الكل استوحش غيبتك، السمك في النيل كان ينادي عليك، وفي مرة كنت على الشط وطلع لي قرموط ولاعب شاربه وسأل عنك.

تعليق عبده كان له أثر السحر على نفس السقاء فضحك ومال بظهره إلى الوراء وانفردت تجاعيد وجهه الجهمة، وصبور يحدّق في الصبي ويلومه، أما كريم فرفع حبة خوخ وأعطاها لعبده ومثلها لعشري المبتسم في هدوء، ربت معتوق على كتف عبده في حنو.

– كأن جمعة يقعد أمامي، وجهه وملامحه وكلامه الظريف.

– رحمه الله، ارجع يا عشري أنت وابن عمتك للبيت.

– حاضر يا جدي.

– فيه واحدة خلف المشربية سألت عنك يا عم معتوق واشتاقت لتلمسها وترفع غطاءها وتسكب ماءك بجوفها.

– من يا عشري؟

– القلُة.

هذه المرة اهتز صبور من الضحك لدعابة عشري التي اكتسبها من طول ملازمته لعبده، بقبضته ضرب معتوق الهواء ونظراته تودع ظهري الولدين المبتعدين، التفت إلى صبور وفاجأه:

– يشبه جده، كأن زيتون العلوي هو من تكلم.

– لكن عشري منضبط في هزاره، عبده لسانه منفلت.

– ربنا يحفظهم ويبعد عنهم الشر القادم.

– الشر القادم؟! خيرًا يا معتوق!

– واثق أنك لا تبوح بكلمة مما أقول يا صبور لكن احلفْ لي!

– أقسم بالله ما أفشي سرًا تقوله يا رجل، ولو قلته على مسمع من بسيط وحجاج، ما في إنسان يضرك، كلنا عشرة عُمر.

– السلطان يا صبور.

– سمعنا أنه قتل وهو يحارب ولكن ما في حارس أو أمير عرف جثته والأمراء هنا سلطنوا الدوادار وانتهى الأمر ببيت الشيخ الجارحي.

– لكن أنا أعرف ما حدث للسلطان.

– أهو حي يرزق أم قتل كما أشيع؟

– بل مات ودفنته بيدي.

– الغوري مدفون وله قبر، أين؟

– تعرف أني كنت كبير السقائين وأرشد غيري بتوزيع الماء، فطلب السلطان من خاصكيته أن أكون مسئولًا عن إمداده بالماء في أي مكان يكون فيه، كنت أملأ القرَب وأزوّد بها مدورة السلطان حتى

يوم الواقعة، أول من بدأ قتال جند ابن عثمان أمير كبير سودون العجمي فتقدم مماليكه الألف تبعه جان بلاط أبو ترسين وأنسباي حاجب الحجاب وبخشباي وتاني بك النجمي وكرتباي الوالي وحده جعل جند ابن عثمان يفرون من أمام مماليكه، فصدموا الروم وأهلكوهم وقتل من مماليك الأمراء الكثير بعد أن ضرب الروم من بعيد بالمدافع والبندقيات.

– عرفت من صخر خادم طظر وعبدون حارس الأمير أبرك وعبد الله والناس زادت على ما وصلها من أخبار.

– ما لا يعرفه الناس أن القرانيص اغتاظوا من السلطان لأنه لم يأمر جلبانه بمشاركتهم القتال.

– عرفت أخبار الفتنة بين السلطان والأمراء الكبار.

– لما حميت المعركة كنت خلف وطاق السلطان والغبار أحاط بنا وسمعت صوتا يقول: الفرار الفرار، السلطان سليم أحاط بنا ومات الغوري والكسرة علينا.. تبعه الكثير من المماليك حتى جلبان الغوري نفسه أداروا ألجمة خيولهم ظانين الخبر صحيحًا، فابتعد عنه بقية الأمراء، تمراز نائب طرابلس والأمير علان وسيباي وأقباي الطويل، الواحد منهم يفر ويكر وبقي الغوري وحده حوله نفر قليل من المماليك وحامل السنجق فنادى بأعلى صوته: يا أغوات، هذا وقت المروءة، هذا وقت النجدة.. فلم يُسمع له.

– وحرسه ومماليكه؟

– كل منهم منشغل بنجاة نفسه، عندها تخطيت التخت واقتربت منه وأنا مرعوب من الصراخ والغبار ورأيت الأمير تمر الزردكاش يقترب وأمر حامل السنجق أن ينزله ويطويه ويخفيه وعلا صوته حتى يسمعه السلطان: عسكر ابن عثمان أدركنا، انج بنفسك وادخل إلى حلب.

– وهرب؟

– ليته أسرع واحتمى بحلب، أدار الأمير تمر فرسه وأخفاه الغبار، رأيت بعيني وجه السلطان تكسوه صفرة وأيقنت أنه أصيب بالفالج[81] فأبطل شفته وأرخى حنكه، طلب الماء فقدمت له طاسة مملوءة، شرب القليل، دارت عيناه وركب الفرس.

– وهرب به؟

– لا، انقلب من على الفرس فاقتربت منه فوجدت الدماء تبك من حلقه، بيدي هذه مسحت وجهه وأسبلت عينيه، التفت فوجدت الأمير علان وآقباي الطويل ينزلان من على فرسيهما فأخبرتهما بموت السلطان.

تحامل معتوق ونهض، خطا وهو محني الظهر، أطلَ من فتحة الحجرة وغاب للداخل، سمع صبور صوت صرير باب البيت وغلقه بالضبة، عاد وبين يديه قلتان ملفوف عليهما ليف النخيل المبلول بالماء، ناول إحداهما لصبور فشرب الماء البارد، قربه قعد معتوق ودارت عيناه وهو يهمس:

– الحمد لله، كلهم ناموا وتأكدت من قفل الباب، قلت لك أن الأميرين وقفا أمام رأس السلطان.

– نعم، هل غسلوه وصلوا عليه ودفنوه و...؟

– قلبك أبيض يا صبور، لو شحاذ مات ببيته لحدث معه ما تقول، السلطان لم يمت في سريره حتى تنوح عليه زوجته وجواريها ويغسل ويكفن ويصلى عليه ويدفن بمسجده، المعركة كانت شديدة واستحر القتل في الجند؛ فلا وقت لغسل وكفن، سمعت الأمير علان وأقباي يتكلمان فقال الأمير علان: إن نحن تركناه ورحلنا يأتي العدو فيقتلونه ويأخذون رأسه ويطوفون بها جميع بلاد الروم، فعرض على الأمير أقباي الطويل أن يقطع رأس السلطان ويلقيها في بئر وسمعته يقول: الجثة بلا رأس لا يعرفها أحد.

– تقصد نفذ علان ما رآه.

– ألقى إليّ بسكين حادة وأشار لكني بكيت ورفضت فأمر واحدًا من عبيده فأبعدني وحز رأس السلطان وخلصه من كتفيه وألقاه في الجُب.

قفز صبور من مكانه ودون أن يشعر ركل القلة فانقلبت وسال الماء منها، أمسكها معتوق وشد جلباب صبور وهو واقف يحيط رأسه بكفيه غير مصدق ما يروي جاره وصاحبه.

– آه يا معتوق، لو أي إنسان غيرك روى مصير السلطان ما صدقته.

– اجلسْ يا صبور واسمع، صعُب عليّ السلطان وفكرت في ما قاله علان وقلت في نفسي قد يعرف جند العثمانيين جثة السلطان من ملبسه أو أي علامة بجسمه وعندها يقطعونه أو يشهرون به، التفت والغبار من حولي يتصاعد، تذكرت أن السلطان قبل أيام أمر الرختوان82 أن يحفر شقًا طويلًا خلف كرسيه وضع فيه صندوقًا كبيرًا به ملابسه الثمينة والمصحف العثماني أنا نفسي ساعدته في ذلك.

– وبعد؟

– رأيت مقبض باب الصندوق الحديدي فرفعته، الملابس لا تزال مرصوصة عليها خنجر غمده مرصع بالياقوت والعقيق، قطعت الرأي ورفعت الصندوق الثقيل ووجدت من المشقة ما جعلني أفكر أن أفرغه لكن لا وقت وأصوات البندق يقترب، أخرجته وأزحته بعيدًا، في سرعة سحبت جثة السلطان إلى الشق وليسامحني الله، أمسكت بالمصحف الكبير المكسو بالجلد فوضعته مكان رأس السلطان المفصولة، بكل جهدي أهلت التراب بيدي حتى ردمت الشق بالكامل.

التقط معتوق أنفاسه وأطبق شفتيه ليمنح نفسه فرصة استعادة هدوء صدره الذي يعلو ويهبط من فرط الكلام، طوال الوقت صبور صامت يستمع لكل كلمة ويلحظ تأثر معتوق وقسمات وجهه المنقبضة وانبساطها في آخر كلامه حين أراح ضميره وستر السلطان، رغم ما يتجاذبه العوام ويرويه أمراء المماليك فلا أحد منهم على دراية بمصير السلطان إلاه ومعتوق والأمير علان ورفيقه آقباي الطويل ولا أحد يعرف مصيرهما، أسف على نهاية سلطان ملأ الأرض بسيرته وكان معروفًا عنه حبه للتمتع بأطيب الروائح وأزكاها فيشم رائحة عطره من يمر أمام القلعة ها هو يقبر في حفرة ويلقى رأسه ببئر وضريحه بمسجده يقاسي فراغه، هوّم برأسه وهو يقول في أسى حقيقي:

– سبحانه، يهب المُلك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، يعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير.

– وما فعلته يا صبور؟

– إنه الخير، أنت اجتهدت في وقت صعب واختار لك الله الرأي الصواب.

– أستحلفك بالله يا صبور ألا...

– لا تقلق يا صاحبي، سرك في بئر مع رأس السلطان، لكن لي عتاب، ما كان يلزم وضع المصحف أعلى بدن السلطان، كتاب الله لا يدفن مع ميت.

– عندك حق يا صبور ولكن لا أعرف ما دفعني لأن أمسك بالمصحف العثماني الذي كان يقرأ فيه وألفه بالحرير وأثبته مكان رأس الغوري.

– وبقية الأمراء؟

– بعد ما انتهيت جريت وأنا أتلفت خلفي فرأيت الأمراء حصدهم الرماة بالبندق، أنا نفسي شعرت كأن سيخًا من حديد متوهج كوى فخذي فوقعت على الأرض ودار رأسي ثم أفقت فوجدت عسكر ابن عثمان وصل إلى وطاق الغوري والجند يستولون على ما به وأحدهم فتح الصندوق ففرح بالغنيمة الثمينة من ذهب وفضة وملبوس وتحف ملقاة في الوطاق، شيء لا يصدقه عقل يا صبور، الجراكسة أنفسهم نهبوا بعضهم، كل من يقدر على سلب شيء حمله، ما إن يخر الواحد منهم مصروعًا بنار البنادق حتى يخلع خدم رفيقه ما عليه من ملبس وخواتم وسلاحه الثمين وسيوف أغمادها غالية.

– صدق القائل، لكل شيء آفة من جنسه، وما فعلت بعدها؟

– بخرقة ربطت فخذي وتحاملت على نفسي وركبت بغلًا شاردًا، هجرت المرج والأبدان ملقاة فيه ونار البندق يطيش من حولي، عدتُ مع من رجعوا إلى حلب فأغلق أهلها البلد بابها في وجوه عسكر

المماليك وأمرائهم الناجين فتفرقوا في النواحي، أما أنا فبلغ مني التعب وقلة النوم فانكفأت على ظهر البغل وشعرت بحوافره تدق الأرض حتى وقف، رفعت رأسي فوجدت نفسي أمام حظيرة والبغل يمد رقبته ويقتات من التبن، دارت بي الأرض وهويت من عليه وحين أفقت كنت راقدًا على دكة أمامي يقف رجلٌ من أهل الناحية.

– أهل حلب كرماء.

– صدقت، استضافني ببيته أيامًا ما رأيت أرحب منه ومن عياله حتى شفيت فاستأذنت منه لـ...

– العودة لمصر.

– لا، دخلت حلب نفسها في يوم جمعة وكانت مزينة لاستقبال ملك الروم فصلى الجمعة بجامع الأطروش[83]، لا أدري يا صبور كيف ألبسني الله كساء الصبر لأعرف ما يريد سليم بن عثمان أن يفعل، لكن أريد أن أعرف، رجع ابن الغوري أم لا؟

– عرفت أن محمد ابن الغوري رجع إلى بيته الذي تركه له أبوه في البندقانيين[84].

– بقي ابن عثمان بحلب ثم غادرها بعد أن غنم هو وجنده ما اختزنه الغوري بها وفي طريقه رأى خلفاء المشايخ الذين كانوا مع الغوري و...

– أمر بقتلهم.

– نعم ضرب جنده أعناقهم جميعًا وهذا ما أريد تأكيده يا صبور فالرجل قلبه حجر ولا يقبل شفاعة في عدو حتى لو سلم نفسه، تواق لسفك الدماء لا يتورّع عن الفتك بمن يشعر من ناحيته بالخطر وسمعت أنه.. أنه...

– أنه ماذا؟

– سمعت من أحد جنوده أنه قتل أخاه وأبناءه...

– وصلني خبره.

– رجل يفني لحمه ودمه فماذا يفعل بمن يراهم مماليك يباعون ويشترون!

– ربك هو الستار وخلاف الظنون، يمكن يرجع بلده ويكفينا شره.

– لا أظن، التف حوله أمراء يشجعونه على امتلاك البلاد الشامية وما بعدها.

سكت معتوق وتثاءب فلم يثقل عليه صبور بالسهر أكثر من ذلك، نهض من فوره فقام معتوق ورافقه إلى الباب فمرت عليهما نسمات منتصف الليل الرخية، أمام البيت استطرد معتوق في عجالة:

– نسيت أكمل لك، رحلت من حلب قبل خروج العثمانية منها، وصلت دمشق واسترحت يومين وبعدها صحبت قافلة إلى بيت المقدس، أمنت بزيارة المسجد

الأقصى وحين عزم ريس القافلة الرحيل إلى المحروسة رافقته.

– نوّرت بيتك وجبرت خاطر عيالك، استرح ونكمل كلامنا فيما بعد وأقولها لك أنا يا معتوق، حذار أن يعرف أحد بما أصاب السلطان، المماليك ما لهم أمان.

– حاضر يا صبور، من الغد نسمع عن أخبار جديدة.

***

«رأيت الغوري صبيحة دفن زيتون العلوي، طويل القامة غليظ الجسد، له كرش كبير، وجهه المدور أبيض، مشحم العينين، مستدير اللحية، يجأر بصوته في مماليكه الجلبان وخدمه وعبيده يوفرون له صنوف الطيب فإنه كان يحب التطيب بالمسك والعود والعنبر ويألف نشق الأزهار، يلبس بأصابعه خواتم بفصوص الياقوت والزمرد والألماس وعين الهر، كان له جلسات يحب فيها المزح والشعر وسماع الآلات والغناء، عُرف عنه عشقه للبناء فأنشأ جامعه وبنى الحواصل والوكالة والربوع خلف مدرسته عند المصبغة ولا أحد يصلي بالأزهر إلا ويعجب بمئذنته التي أمر ببنائها برأسين، وشيد دكاكين خان الخليلي وبين السورين وأنشأ الميدان الذي تحت القلعة ونقل إليه أشجار من البلاد الشامية وجدد عمارة قنطرة الحاجب وقنطرة الخرنوبي85 وقناطر السباع وغير ذلك.

فيوم أن أشيع مقتله زعل عليه المماليك الجلبان القاطنون بطباق القلعة وعزموا النزول منها قاصدين خان الخليلي فيحرقون حوانيته ويقتلون التجار الأروام وأشاعوا أن هؤلاء التجار منهم أتباع لابن عثمان وشمتوا بأستاذهم لما طالته الكسرة ومات فلما بلغ الدوادار ذلك استقدم أغوات الطباق وطلب منهم إخماد الفتنة فمنعوهم من النزول وكفيت البلد من خراب محتدم».

أقحم قلم الغاب في قنينة المداد، الحروف بهتت فأيقن بنفاد الحبر، همّ أن يطلب من عشري يأتيه بالمزيد من دكان أبيه لكن المغرب على أذان واليوم آخر أيام رمضان ولا أحد يشعر بالعيد فكسرت إحدى جاراته مواجير العجين من حزنها على ابنها الغائب في حرب الشام، لحظ إغلاق حوانيت الحلوى فامتنع الخبازون من عمل الهريسة والرقاق الحلو، لزم أهل الفسطاط بيوتهم وكأن كلًّا منهم له ميت.

تكاسل عن النزول فأتت له أمينة بإفطار المغرب، تناول اللقيمات وشرب الماء في نهم، لا يدري سبب رغبته الملحاحة في الكلام مع معتوق، توكأ على عقصة عكازه وذهب إليه، فاستقبله السقاء كأن أول مرة يراه فيها، رمقه صبور بنظرات امتنان لا يدري كنهها، ربما لأنه وارى سوءة السلطان فلم يتركه تقطعه سيوف وحراب العثمانية ثم تنهشه الكلاب، برغم معرفته أن معتوق شديد الكراهية للمماليك ومثله مثل عموم الناس ذاق منهم ما ذاق من صلف وظلم وأكل الحقوق فإنه أعجب بما فعل؛ فجاره صاحب المروءة لم يتشف في جثة بلا رأس بل سترها في وقتٍ كان الناجي منهم يسلب المصروع ما معه من مال ويفر في رعونة، ربّت على كتفه وأحاطه بنظرات الرضا فهو الوحيد من أخبره بمصير السلطان، قرن معتوق حاجبيه وسأل:

– سمعت أنهم سلطنوا الدوادار طومانباي.

– وحلفوا له عند الشيخ أبي السعود الجارحي.

– ليتهم يوفون ولا أحسب الواحد منهم يصدق.

– لا الوقت ولا الموقف يدفعهم لشيء غير الوقوف في ظهر طومانباي، ربما يتجرأ ابن عثمان ويغزو مصر.

– لسوف يفعل يا صبور، التف حوله خاير بك وإبراهيم السمرقندي وجان بردي الغزالي وغيرهم، الواحد منهم يود لو يلحس الأرض أمام قدم ابن عثمان قبل أن يدوس عليها.

– وما مصلحتهم؟

– كل منهم يطمع في الحكم ومن قبلها الاحتفاظ برقابهم على أكتافهم، غير كراهيتهم لبعضهم بعضًا، سمعت خاير بك ينحني في تذلل ويقول لابن عثمان بعد أن أصبحت حلب في حوزته: يجب أن تلاحق أولاد الصُرم86.

– إن كنت رأيته يا معتوق صفه لي.

– أعوذ بالله من غضب الله.

– أهو دميم؟

– لا، لكن عليه نظرة توقف القلب وتنشف الدم، على كلٍ فهو واسع العينين، مربوع القامة، وافر الأنف، مليء الجسد، حليق اللحية وله شارب، واسع الصدر، كبير الرأس وعليه عمامة صغيرة، سريع الغضب ولا يتورّع في إصدار أمره بالقتل.

– إذا كان قتل إخوته وأبناءهم فما تنتظر منه؟!

– وي وي، وصلك ما سمعته؟

– وأكثر، أدعو الله أن تملأ حلب ودمشق وغيرهما عينه ولا يأتي إلى بلادنا.

– بل الضد هو ما يفعله بتدبير المواسين؛ خوفًا من انتقام طومانباي والعائدين من مرج دابق.

– ربك هو الستار يا معتوق، أتركك تستريح ونتقابل في الغد إن شاء الله.

– في الصبح العيد وعيدي أن أملأ أزيار بيوت دربنا والأسبلة وصهاريج جامع عمرو وأسقي أي إنسان عطشان أو حتى الدواب، استوحشت النيل وغرضي أحضن ماءه وأشم ثراه.

تركه صبور وعاد إلى البيت، استقبله عبده وعشري وفي يد كل منهما ثوب العيد، سلمت عليه صافية وأمينة، لكنه لم ير أم حجاج أو أخته مسكة، فشعر بمدى ما تقاسيانه من حزن لأول موسم يمر دون زيتون، لم يشأ أن يطلب محادثتهما ويقلّب عليهما المواجع فصعد إلى حجرته، تحرّر من

ملابسه وتمدّد بالسروال والقميص الداخلي الخفيف، تقلّب على السرير فشعر به كجمرات النار، التقط نفسه وانزرقت قدماه بجلد القبقاب، صعد إلى السطح فشعر بفرق الجو، القمر غائب والنجوم المنثورة ترتعش في قبة السماء السوداء، مسحت عيناه أسطح البيوت الغاصة في العتمة، من بعيد ترتعش مسرجة أو شعلة يرفعها أصحابها ويشاركونه الأرق، بقي جالسًا على الزيار الواطئ، بزغ رأس صافية وبين يديها قفة مفلطحة مملوءة بملابس مغسولة، قبل نشرها على الحبال الممتدة زادت في عصرها؛ لتخلصها من الماء الزائد، التفت إليها صبور وسألها:

– كيف حال أم حجاج؟

– أصرت على الصوم، لكنها تعبت وعاجزة عن الوقوف غير بكائها على عم زيتون.

– ربنا يصبرها، اهتمي أنت ومسكة بشربها للماء وربنا هو الشافي وإن كانت لا تقدر على الصوم فلا تصوم الستة أيام من شوال.

– تريد صوم الاثنين والخميس.

سكتت صافية بعد أن آلمها زورها من الكلام، أنهت نشر قطع الملابس ونزلت، عاد صبور إلى تأمله وراقته الفسطاط الملفوفة بالسكون فتمنّى أن يديم على المحروسة نعمة الأمان كليلته الهادئة.

***

لاهثًا جاء بسيط الإسكافي وتهالك على مصطبة بيته، من فوره نهض حجّاج واقترب منه أما صبور فترك السرج الذي يخيطه، آتاه عشري بقلة الماء فترع بسيط ما بها، دارت عيناه وهو يخبرهم:

– حضر أولاقية[87] من عند ابن عثمان فقتلهم الأمير علان.

– يا ساتر استر يا رب، اهدأ واحك لنا ما سمعت.

– لم أسمع لكني رأيت، كنت أحضر خشب القباقيب من عند تاجر بالرميلة، فتجمع الناس قرب ثلاثة ملابسهم غريبة وعرفت أنهم من عند سليم ملك الروم وحين رآهم الأمير علان غضب وشهر سيفه وضرب أعناقهم وصعد إلى الديوان.

– وبعد؟

– لا أعلم لكنه فأل نحس وأكيد ابن عثمان سيقلب الدنيا لمقتل الأولاقية.

– أكيد، آه، معتوق قادم، ما الخبر يا معتوق؟

– أرسل ابن عثمان رسلًا إلى طومانباي يطلب منه أن تكون السكة والخطبة باسمه88 فسمعت أنه رضي بذلك ليجنب البلاد حرب ابن عثمان وغاراته لكن قدر ربنا أن يراهم الأمير علان ويقتلهم ويصر على الحرب هو والأمراء العائدون من البلاد الحلبية.

– الأمير علان يثأر من مقتل رفاق مغلباي لما قتلهم ابن عثمان.

– ويثأر مما حدث لهم في مرج دابق.

أغمض صبور عينيه وفتحهما، مسحت نظراته بيوت درب العطارين وحوانيته، دار في باله دخول العثمانية البلد وجنودهم يكبسون على الناس كالوحوش الضارية، فإذا نجا دربهم من هجمتهم لا ينجو من الزعر والعياقين والمنسر ممن يتحينون الفرص فينهبون ويعيثون في الأرض فسادًا، ثبت نظرته على فم الدرب، واتته فكرة قديمة قد عرضها يومًا على يوسف النحاس عندما كان بأسيوط.

– اجمع كل رجال الدرب يا بسيط بعد العصر ولما نجتمع أعرض عليهم أمرًا.

انشغل كل منهم بدكانه فمرّت الساعات وعبده وعشري يخمنان ما يريده جدهما من أهل الدرب وشعرا بأنهما كبرا لمشاركتهما تلك المقابلة، فإذا ما تردد أذان العصر دار بسيط على البيوت وأصحاب الدكاكين فلبّوا طلبه، ترك كل منهم دكانه وأخرج بسيط وحجاج ومعتوق ما في بيوتهم من دكك وفرشوا الحُصر، توافد الرجال وعددهم تسعة من قاطني الدرب وبقية البيوت مغلقة أو اتخذها التجار حواصل ومخازن لبضائعهم، قعدوا ووسطهم صبور، همّ أن يتكلم لكن حجاج بكرمه المتوارث قدّم لهم أكواب المشروبات ولم يتوان عبده وعشري في مساعدته، بدأهم عشير:

– ولا يوجد مع المشروب كعك العيد!

لم يرد صبور إضاعة الوقت في التندر بين عشير وأي واحد آخر ممن يحبون الهزار معه، دارت عيناه في وجوههم فصمتوا.

– نأكله مع العثمانية.. لا قدر الله.

– تعرفون أنه يمكن تقوم حرب بين السلطان وابن عثمان.

– ممكن.

– لكن هذه المرّة ليست بعيدة في نواحي حلب.

– اعرض غرضك يا معلم صبور.

– نضيّق فتحة الدرب ونبني جدارًا يسمح بدخول رجل.

– ونقل البضاعة بالحمير والبغال والجمال؟

– يبقى نجعل الفتحة بمقدار دخول حصان ولو فيه خطر نسدها بالأحجار وعروق الخشب الكبيرة؛ فنحمي بيوتنا وحرمنا من الزعر والمنسر.

همهم المجتمعون وهوّموا برؤوسهم أمارة الموافقة فمن سابق تجاربهم هاجم الدرب الكثير من اللصوص وحتى تابعين للمماليك واقترفوا السلب والنهب معتمدين على قربهم من أمراء الجراكسة، من فوره نهض عشير ابن ناحور وأشارح بذراعه في وجوههم وأعلن:

– أنا ضعيف ولا عافية عندي لحمل حجارة وبناء جدار، وإن كان العثمانية قادمين يبقى الأفضل نرحل من هنا.

– ونترك بيوتنا وحالنا؟

– حبيبي أنا لا بيت لي وسطكم وسأرحل من فوري لا إلى البلاد الشامية بل إلى الإسكندرية.

– لو تركت الدرب يا عشير تضيع، هنا أنت في أمان.

لم يبد من ابن ناحور أية استجابة لحوارهم فغمز لمعروف وغادر جلستهم إلى بيته، هزّ حجاج رأسه لكنه غير مستغرب تصرف اليهودي الطارئ على دربهم منذ أن استولى على بيت شريكه وأسف أن السنين مرت وهو ينعم وسطهم ويأكل أكلهم وعندما يأتي أوان الشدة يتخلى عنهم، أمال التاجر معروف رأسه رغبة استئناف الكلام:

– ولو انقطعنا عن الشارع الكبير المؤدي لجامع عمرو أو حتى النيل وعجز معتوق عن إحضار الماء ما نفعل؟

حقيقة لم يعمل صبور حسابًا لما قاله معروف واحتار في الإجابة فلا يمكن أن يخاطر معتوق وابنه كريم بالخروج وحدث أن عطش الدرب كله في زمن جائحة الطاعون بعد أن لزم كل منهم بيته اتقاء العدوى، أغاثه معتوق برده:

– من اليوم نحفر بئرًا.

– بئر، أين؟

تارة أخرى صمت المجتمعون، رغم غرابة الفكرة لكنهم آمنوا بإمكان تحقيقها لكن يبقى مكان حفر البئر، فالدرب ضيق متعرّج فلا يصلح حفر بئر بأرضه ولا يطيق أي منهم أن تكون البئر ببيته ومعظمهم يتخذون من الحواصل والأفنية أمكنة لتخزين بضائعهم غير وجود بئر في بيت به سيدات وأطفال يضايق صاحبه عند طلب الماء، عبده يجلس جوار صبور فيفرد كفه على رأسه ويمسح

شعره، نهض الفتى من فوره وهذه المرة رفع يده مستأذنًا في مشاركة الكبار حوارهم، لم يلتفت إليه صبور وأشار خاله حجاج أن يصمت لكن معروف شجعه:

– ما تريد يا ابن جمعة؟

– بيت أبي مقفول وأنا أعيش مع أمي هنا في بيت جدي زيتون، نحفر البئر في بيت أبي.

سحابة صمت أظلتهم مع غروب الشمس وحلول نسمات الهواء الرطبة، برقت عينا صبور والتفت إلى بيت جمعة البعيد في آخر الدرب لا يظهر منه سوى بابه، قوّس ذراعه حول كتفي عبده وقبّل رأسه لتلك الفكرة التي ترفع الحرج عن كل بيوت الدرب، التفت إلى حجاج فهو خاله وصاحب الرأي الأخير، توقع أن يستشير أخته مسكة لكنه وقف وأعلن قراره:

– كما قال عبده، نحفر البئر في بيت جمعة ويوارب الباب وكل من يحتاج الماء يدلي الدلو وينزح.

– ويبقى الأمر سرًا لا أحد يعرفه غيرنا وإلا...

– وأنا كفيل بحفره مع من يساعدني وأبني جداره وأعلق عليه الحامل والدلو.

– ميسّرة إن شاء الله.

نهض الرجال وكل منهم استحسن الفكرة وأثنى على عبده بن جمعة وترحموا على روح أبيه وذكروا له مواقفه المفرحة ونفسه الراضية المرحة وهزاره مع الجميع فلا أحد كان يحادثه إلا وينبسط من كلامه، فرح عشري من فكرة ابن عمته وحضنه وتواعدا أن يعاونا الكبار وحمل الأحجار لبناء جدار البئر.

رافقهم حجاج لبيت زوج أخته، البيت يسد الدرب وتحوطه جدران البيوت من كل ناحية، المجاز ضيق والغرفة اليتيمة بلا باب، الحوش المكشوف متسع قليلًا وسطه نخلة قصيرة وأسفل السلم محل قضاء الحاجة، جوار النخلة رسم معتوق دائرة متسعة وأشار إليها.

– هنا أصلح مكان للبئر.

– الحمد لله، بعيد عن بئر الكنيف وإلا...

تداخلت ضحكات الملتفين حول الدائرة من كلمات عبده وانفضوا من داخل بيت جمعة وبقي حجاج مع عشري وعبده وصبور، هز حجاج رأسه وهو يقول في أسف ويربت على كتف ابن أخته:

– في يوم بعد رحيل جمعة عرضت أبيع بيته لكن أبي غضب ورفض ووقف في وجه عشير وطمعه حين عرض على جمعة نفسه بيع بيته.

– أكيد يرفض لأنه ذكرى وفوق كل ذلك ينفع عبده لما يكبر.

– ما قلته قاله أبي يا عم صبور وزاد عليه بكلمة فاكرها قال: يرثه جمعة من أبيه ونبيعه، بيت جمعة كله خير وبركة.

– وانا أسمي البئر يا خال، بئر جمعة.

مال صبور برأسه من الضحك وتارة أخرى لف عبده بذراعه وصحبهم إلى الخارج بعد أن أغلق حجاج الباب، عشير يقف أمام بيته المغلق خلفه زوجته دينه ملفوفة بشقة سوداء، دون السلام عليهم حمل بقجته الكبيرة وشملهم بنظرات الشماتة وخطا نحو أول الدرب وانتبه صبور لعدم حمله أية أمتعة فأجاب بسيط على سؤاله الذي لم يفصح به:

– طوال الأيام الماضية نقل كل ما يريد لدى قريب له.

– تقصد أنه خطط لرحيله؟

– هو والكثير من تجار اليهود بحارة برجوان وأسواق خان الخليلي ومرجوش سيرحلون من الفسطاط والقاهرة بأكملها.

لم يبال صبور بل رضي أنه لم يكمل حضور اجتماعهم وإلا قد يخبر أي إنسان بفكرة الجدار والبئر، فوجئ ببسيط يخرج عدة مقاطف وزنابيل مضفورة من السعف ومجرفة حادة وأتاهم مصطفى تاجر العلافة بحبال غليظة وحبال مفتولة من الليف فتفاءل صبور خيرًا بيسر حفر البئر ومن الغد يتطوّع رجال الدرب وشبابهم في حفرها.

***

الأيام تمر ولم يفتر أهل درب العطارين في حفر البئر ومنهم من حمّل بغاله وحميره بالأحجار وقوالب الطوب المناسبة لبناء الجدار وعبأوا الغرفة بها داخل البيت، دون أن يطلب أحد يعلن أحدهم أن الغداء عنده فتجهز زوجته الطعام ويتحلّق العاملون في الحفر ببيت جمعة أو أمامه ويتناولون الطعام ثم يعودون إلى الحفر، يومًا قابل صبور مسكة أم عبده وطمأنته أنها راضية عن حفر البئر ببيتها وأثنت على أن الفكرة من دماغ ابنها المعروف عنه أن دماغه فاضية من كثرة هزاره، رغم انشغالها برعاية أمها المريضة التي لم تتوقف عن الصيام فإنها جهزت بنفسها السنبوسك[89] فتناولها الشاب بشهية وعادوا إلى الحفر وإخراج أكوام التراب من باطن البئر.

مصطفى ومعروف وغيرهما من أهل الدرب يلتفون حول الفتحة ويأملون أن تكون آخر ضربة لمجرفة حجاج، فما إن هوى بها حتى تفجرت المياه فتشابكت صيحاتهم بالفرحة وصعد وحلّ دور

البناء فنهض بعمله وأتم استدارة البئر ورفع فتحتها بمقدار عشرة مداميك90 لأعلى ونصبوا عليه حاملًا معلقًا عليه بكرة من الخشب ملفوفًا عليها الحبل وقام عبده بربط الدلو الخشبي بنفسه.

قام مصطفى بالنزول في البئر وتنظيفها من بقايا الأحجار والطين وتارة أخرى تولى عبده وشاركه عشري في رفع المياه المخلوطة بالطين ورشها بالحوش وظلا ينزحان حتى تم رفع الماء العكر وظهرت المياه الزلال فشرب عبده وصاح كل من كان حاضرًا وملأ حجاج قلة كبيرة وذهب بها إلى صبور بالدكان فروى عطشه وهنأهم بالبئر وأوصى حجاج وكريم بن معتوق بإغلاق البيت فلا يفتح إلا للضرورة.

***

الأخبار المقلقة تأتيهم أن السلطان أرسل تجريدة تضم كبار الأمراء والمقدمين فواجهوا تقدم ابن عثمان بجيشه في بيسان وكان باش العسكر العثمانية سنان باشا يقود الجيش فكبس على الأمراء وقاتلهم بفرقه الكثيرة فقتل منهم كبار الأمراء مثل خدابردي وعلبباي السيفي والأمير أزدمر وغيرهم ونجا الفارون من أمامه نحو غزة.

وتوالت أسوأ الأنباء بصدام قائد ابن عثمان فرهاد باشا بعسكر المماليك فلاقتهم الينكجرية91 السكة والخطبة باسمه: أي تكون النقود باسمه ويدعى له في الصلاة.

لم يرد صبور إضاعة الوقت في التندر بين عشير وأي واحد آخر ممن يحبون الهزار معه، دارت عيناه في وجوههم فصمتوا.

برش البندق فيوقعون الفارس من فوق فرسه فغُلب الأمراء وعاد الفارون من هناك بنكبة الهزيمة والانسحاب وتركوا الكثير من الجند بغزة فكبس عليها سنان باشا بجنده وتارة أخرى وقعت الهزيمة وقتلوا من أهل غزة نحو ألف إنسان.

لعب المرجفون دورهم في نشر فظائع جند ابن عثمان بغزة وغيرها من البلاد التي تملكوها وحكى الفارون أن العثمانية كالجراد المنتشر، معهم رماة البندق الذين يقتلون دون الالتحام في معركة.

هلّ عيد النحر وأهل الفسطاط والقاهرة منشغلون بخبر تجهيز السلطان طومانباي للحرب الكبيرة التي تطرق الأبواب، لكنه طلع في موكب حافل فصلى صلاة العيد والناس في وجل من تواتر توغل عسكر ابن عثمان حتى بلغ قطيا92 فوجدها خالية من العسكر، فعاهد أحمد بن بقر شيخ بني وائل وأولاده على ما بيدهم ولم تشرق شمس يوم الاثنين حتى نزل السلطان إلى الزردخاناه93 الشريفة وأمر بتجهيز العربات التي تحمل عليها مكاحل النحاس وحملت الجمال البارود والرصاص والحديد والرماح الخشبية واصطفت التجريدة الكبيرة، وصبور تأتيه الأخبار وهو يعاون جيرانه في بناء جدار ملاصق لأول بيت بالدرب فيقيه كما اتفقوا وجعلوا من حجرة أمامية لبيت حمزة مخزنا لألواح الخشب والحجارة الكبيرة، ما إن غسل يديه من بقايا الطين حتى أتاه عبده يرتعد.

– الجدة ساقية متعبة وعاجزة عن النفس.

هرول إلى بيت زيتون وعند الباب علت صرخة مسكة وأمينة، دخل فوجد صافية تلطم خدها وصوتها المخنوق لا يكاد يخرج من حلقها، ربت على كتف حجاج وأخرجه من البيت، شاع الخبر في الدرب فأقبلت الستات، في سرعة تعاون معتوق ومصطفى ومعروف ومعهم بسيط الإسكافي في إحضار الماء من بئر جمعة وعبده يجهش بالبكاء على جدته أما عشري فمتماسك ويهدئ من حزن ابن عمته.

السيدات لم يتلبثن في غسلها وتكفينها فحين أشارت أم كريم إلى زوجها معتوق السقاء بأن الأمانة جاهزة، حملت أكتاف الرجال النعش إلى جامع عمرو فصلوا عليها، جال صبور بعينه فوجد المشيعين أكثر بكثير ممن رآهم يوم وفاة زيتون نفسه، داروا بالنعش نحو مقابر السيدة عائشة فتوقفوا للطبول والزمور والكوسات 94 الينكجرية: وتسمى الإنكشارية وهي فرق من العسكر العثماني.

التي تدق.

أخبره معروف أن السلطان والأمراء ومماليكهم خرجوا من باب الميدان إلى الرميلة إلى باب زويلة فشقوا القاهرة والناس تتزاحم للفرجة والستات من فوق الأسطح تزغرد وسمعه يدعو مثل بقية الأصوات بالنصر على ابن عثمان الباغي، تقدّم المشيعون ووصلوا إلى حوش زيتون، قام حارسه بتجهيز القبر وواروا أم حجاج التراب وسط الأصوات الهامسة من بين مترحم وقارئ للفاتحة وذاكر للسيدة ساقية مآثرها الطيبة وكرمها المتناهي لأهل الدرب، تقبل حجاج وصبور وعشري وعبده العزاء، أغلق الحارس الحوش وهم في طريقهم إلى الدرب اعترضهم قريبهم نهر العنجي فدفن وجهه في كتف حجاج وانخرط في البكاء والاعتذار أنه لم يعلم بوفاة أمه إلا صدفة، ربت حجاج على كتف العجوز وطيّب خاطره، جفلت قدما صبور قليلًا وعاد بذاكرته طيف يوم وداع زيتون العلوي.

شعر بالأيام تتشابه فيوم دفن زيتون كان وداع الغوري السائر بجنده إلى البلاد الشامية واليوم أم حجاج وطومانباي يربض في الريدانية، ضرب كفًا بكف وتمنّى أن يثأر السلطان لهزيمة أستاذه وقتله بعيدًا في مروج الديار الحلبية.

صدم كتفه واحدًا من زبائنه القدامى فسأله عن آخر وجهة للسلطان فأخبره أن الموكب ظلّ في طريقه حتى خرج من باب النصر ورافقه الكثير من الأمراء وأولاد الناس95 الطامعين في الثأر لآبائهم المقتولين في مرج دابق، خفق قلبه وانتابته رعشة خوف من أن يكون أنس مع عصبة من شباب أولاد الناس متجمعين للاشتراك في حرب ابن عثمان.

***

لم يعد معهم للدرب، عند مفترق الطرق غادرهم دون أن يستأذن من حجاج وأوصى عبده وعشري أن يرافقا العائدين ويبقيا مع حجاج حتى يرجع، زاغت عيناه والتاث عقله وهو هائمٌ لا يدري أين يذهب، إلى الريدانية أم القلعة واستقر إلى الإسراع نحو قصر الأمير ططر بالأزبكية، شعر بالوقت يبطئ وهو يخطو في سرعة إلى أن وصل فاقتحم الباب ومن حُسن حظه وجد نصير يحمل كيسًا فأشار إلى الحرس أن يتركوه، تسارعت خطواته خلف صبور اللاهث من فرط ما بذل من سير، واجمة قابلته خوند عنود والمروحة بيدها تذب عنها حر اليوم، عرفت من جحوظ عينيه ما يخشى سماعه لكنها وبجرأة أخبرته:

– حاولت منعه ما قدرت.

– أرافقه أحد من الحرس أو العبيد؟

– لا، ذهب مع أصحابه، ابن الأمير طراباي وابن الأمير بخشباي وابن الأمير خشقدم وغيرهم.

بصعوبةٍ ابتلع ريقه وأدرك أن أولاد الناس من أبناء الأمراء سواء المفقود منهم بعد هزيمة الغوري أو من نجا يريدون الثأر ويدفعهم حماس الشباب بلا تفكير أو روية ظانين المبارزة بالسيف هي ما سيمارسونه مع العدو كما يفعلون مع بعضهم أثناء تدريبهم، همّ أن يقول شيئًا لولا دخول الأميرة بركة.

– تمرباي لم يرد أن يذهب أنسباي بمفرده.

– رافقه؟

– نعم، ركب فرسه وتبعه.

– الحمد لله يا صغيرتي، الأمراء لا يعرفون أن جند ابن عثمان منهم رماة النار بالبندق فيصطادون الفارس من بعيد دون مبارزته بالسيف ويلزم أن أعيده من هناك، سمعنا أن ابن عثمان غادر بجيشه قطيا في طريقه لبلبيس.

– أعده يا شيخ صبور، أعد لي ابني أنسباي، ابنك أنس...

التفت إلى الخوند فرأى وجهها ممتقعًا والخوف الصادق بادٍ عليه، انتفضت الأميرة الصغيرة وسحت الدموع على خدها المرتعش فزاد عزم صبور على الذهاب إلى الريدانية ولا سيما بعد أن عرض عليه نصير مرافقته ووافقت الخوند على أن يمتطيا فرسين فقاده نصير إلى الإسطبل وأسرج له فرسة ففرح لركوبها وبرفق يضرب رقبتها وهو يهاتفها بصوت عال:

– هيا يا عفيفة، ولدك في خطر.

ركضت الفرسة وتبعها حصان نصير حتى اقتربا من الريدانية فزاغت عينا صبور بين جموع الجند؛ فلم يكن يتخيّل أن يخرج كل هؤلاء الأمراء ومماليكهم بعد أن شاع أن كبراءهم اختلفوا مع السلطان وقت توزيع الجامكية وثمن الأضحية بسبب خواء الخزينة بالقلعة؛ لأن الغوري أفرغها من المال والذهب ونفائس التحف والسلاح مما جمعه من متاع الملوك والسلاطين السابقين له، وحملت جماله وبغاله كل هذه الثروة معه في سفره وهذا الكثير هو ما استولى عليه جند ابن عثمان في مرج دابق وقلعة حلب على ما روى له معتوق السقاء.

نزلا وربطا دابتيهما بجذع شجرة سنط، همّ أن يسرع فأوقفه نصير وفرد كفه أمام عينيه، تضايق من تمهل الخادم لكنه صبر وحملق في الاتجاه الذي أشار إليه فأسرعا إلى أن وصلا إلى أعمدة خيمة نشط العبيد في إقامتها، نادى نصير على تمرباي فالتفت إليه أما صبور فعلا صوته في الشاب المولية ظهره:

– أنس، أنسباي.

التفت أنس وزغر لصبور بعينه مستنكرًا مناداته دون مولاي الأمير أو أي من ألقابه، خطا نحو نصير ورفع سبابته أمام وجهه وكز أسنانه.

– ما كان يجب ترك القصر، أنا ممكن أجلدك هنا.

– الخوند تريد رجوعك يا مولاي وأوصتني أعيدك.

– وبم أوصتك أمي يا معلم صبور؟

– أمك أوصتني أن أحفظك.

– عجوز مخبول خرف.

– أنا جدك، أقصد في مقام جدك لأمك ويجب أن أمنعك من...

استدار أنسباي نحو حصانه الواقف في شموخ فأمسك صبور بذراعه ثم تجرأ وأحاط كتفه والشاب يتملّص ليتخلص منه وهو مستغرب إصرار السرّاج على ملاحقته حتى إذا ما وصل إلى ظهر الحصان سحب الكرباج فأقعى صبور على ركبتيه وهو يضم إلى صدره ساق أنس ويتوسّل إليه فرفع الشاب السوط عندها جرى نحوه تمرباي وأمسك بذراعه المرفوعة في حين عاون نصير صبور في النهوض وقد اخضلّت لحيته الخفيفة بالدموع، لا يدري أنس لِمَ رقّ قلبه للرجاء الصادق من السرّاج فأفلت الكرباج من يده وهنا تدخل نصير.

– حقيقة يا مولاي، والدتكم الخوند وأختك الأميرة في حال يرثى له بعد مغادرتك القصر.

أطبق أنسباي شفتيه وهزّ رأسه كأنه عزم على عمل شيء، سار نحو خيمة أخرى بعيدة وحادث أقرانه ثم عاد إلى خادميه، ركب حصانه وأداره فتبعه تمرباي ونصير وصبور إلى أن رجعوا إلى القصر، استقبلتهم خوند عنود بالفرح وترنو إلى صبور بنظرات الإشفاق، مدّت يدها وسلمت عليه وأسبغت عليه كلمات الشكر، برموش بللتها الدموع نطق صبور بصوت مختنق:

– ابق هنا يا ولدي، تحرس أمك وتحمي أختك وتنجو بنفسك من نار بندق العثمانية.

– وثأر أبي؟

– ثأرك في أن تحفظ أمك من الشر.

– شكرًا لك يا.. يا جد، ارجع لبيتك واسترح.

لم يجد صبور بدًّا من العودة بعد أن اطمأن أن أنس بالأزبكية فرافقه كل من تمرباي ونصير حتى باب حديقة القصر والأمير الصغير مدهوش من تصرف السرّاج العجوز فالتفت إلى الخوند وسألها:

– ما حكاية السرّاج، يأتيني في المعسكر ويتوسّل لي أرجع ويتعلق برجلي ولا يدافع عن نفسه حين رفعت السوط لأجلده.

– ضربته؟

– لا، منعني تمرباي، ما حكايته؟

– قلت لك، كان صديقًا قديمًا لأبي وفي منزلة الأخ له وأنت ابن بنته، أقصد في مقام جدك.

– لكنه لا يظهر لأختي بركة نفس الاهتمام.

– أختك لا تترك القصر أما أنت فارس مغامر ويخاف عليك فهو رجل طيب ويتمنّى لك الخير و...

همّت عنود أن تجهر بالسر الذي ضاق به صدرها لكنه أحجمت قبل أن تنطق فليس هو الوقت المناسب ليعرف أنس حقيقة أصله، ربما ينهار أو يهجر القصر هائمًا على وجهه بالإضافة إلى أنها وابنتها بركة في حاجة إلى قوة وجوده بعد تواتُر الأنباء بقرب الحرب بين السلطان وجيش ابن عثمان، فإن استقر الأمر وأمنت على نفسها وابنتها ستعترف له وتعيد له حقيقة حملت همّها بين جوانحها أعوامًا طويلة، مدّ أنسباي عينيه نحو باب الحديقة الكبير حيث يلتف خدمه حول صبور، ارتخت شفته السفلى وهزّ رأسه في استعلاء ولسان حاله يقول: من أنت يا صانع السروج يا فقير لتعتبر نفسك أحد أقربائي حتى لو كنت صديقًا لوالد أمي وأنا من أنا ابن الأمير ططر،

أنصال من قلق تنغرز في صدر صبور وانكسارات وجهه تشي بما يرجوه فربّت تمرباي على كتفه وهو يطمئنه على أنس ونطق نصير بتأكيد قاطع:

– خدمته منذ ولادته وكنت معه كظله، لا أفرط فيه الآن.

– لكنها الحرب يا نصير، مهما قال صخر عما رأى في مرج دابق لكنك لا تعرف ما حكاه غيره عن مكاحل ابن عثمان ونار بندق جنده، الواحد منهم يصطاد الفارس من بعيد ولا يدري من أين أصيب، لعن الله من صنعها.

– ربك هو الستار يا معلم صبور، عد إلى بيتك.

– نعم يجب أن أرجع، أم حجاج ماتت ولولا جزعي على أنس ما تركته.

– أبلغه عزاءنا.

تركهما صبور ومضى ومن حين لآخر يلتفت خلفه ليطمئن أن أنس لم يغادر القصر حتى ابتعد عن الأزبكية في طريقه إلى جامع عمرو والأفكار تتخاطف في ذهنه ويتمنّى أن يُبقي أنس معه في الدرب الفقير الضيق ليحميه واشتطّ تفكيره إلى أن يصحب معه الخوند وابنتها الأميرة بركة لكنه عاد إلى رشده فلن تتحمّل عنود ربيبة النعمة سواء ببيت أبيها أو بقصر الأمير ططر هي وابنتها العيش يومًا واحدًا ببيوت سقوفها واطئة وأرضيتها غير مبلطة والأبراص والسحالي تمرح بين شقوق الحيطان وتفتقد إلى الرفاهية التي تمرغتا بها طوال حياتهما.

وقف أمام الجدار الذي شيده أهل الدرب ورضي عن ضيق فتحته، صوّب نظراته نحو بيت جمعة البعيد وخلف بابه البئر التي تضمن لهم الماء إن تعذر خروجهم، تهالك على الدكة جوار حجاج الصامت فقدم له بسيط كوبًا، شرب وطلب آخر وهذه المرة رفع عبده أمامه قلة فترع الماء حتى سال من شدقيه.

– من البئر.

– لكن احذر يا عبده أن يعرف أحد بأمرها.

هوّم الولد برأسه وجلس جوار عشري، ألقى معتوق وابنه كريم السلام وجلسا قبالة معروف ومصطفى وأظلت الجميع سحابة من صمت وخشي كل منهم أن يتحدّث بما سمع من أخبار حتى لا يزرع مزيدًا من الخوف على عائلاتهم وبلدهم.

***

أقفلت الحوانيت بعد خشية التجار المتزايدة فمنهم من واصل هجعة القيلولة بالليل ويسترقون النظر من خلف الأبواب ومن أسطح البنايات ويتخاطفون نتفًا من الأخبار المتضاربة، وأغلقت الطواحين وقلّ الدقيق فعمدت صافية ومسكة إلى الرحى في جرش القمح والفول، معروف يعلن أنه سيرحل بعياله عند أهله في جهينة فاختلى بصبور ومعوق، فرد أمامهم ورقة وأخبرهم:

– عشير ابن ناحور باع لي بيته قبل رحيله فخذ عقد البيع يا عم معتوق أمانة لحين عودتي.

– في الحفظ والصون.

– وإن لم أرجع لا قدر الله فهو هبة مني لك بل لكل أهل الدرب.

– غريبة أنه يبيع.

– وهو كان بيته أصلًا وكما قال لا بيت له وسطنا فقد رحل ويظل طوال أيامه يرحل لا بلد يلمه.

– لكنك دفعت له يا معروف!

– لا يهم وأستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه.

تركهم وغادر مع عياله وشيعه معتوق وصبور وحجاج لأول الدرب، وفي قرارة نفس صبور أن معروف لو لم يفعل معروفا طوال عمره غير استعادة البيت من ابن ناحور لكفى، عاد معتوق مع صبور وأقحم المفتاح في قفل البيت، انفرج الباب فجال صبور بنظراته على البيت الخالي تمامًا وكأنه طوال الأيام الماضية كَنَسَه، فلم يُبق به غير الهواء بين جنباته، أعاد إغلاق الباب وعادا إلى دكة حجاج المشغول في حمل القفف إلى داخل الدكان، قبيل إغلاقه لمح شابًا ينزل من على ظهر بغلته ويدخل فتحة الدرب أولًا ثم يقود البغل فانبسط صبور للفتحة الضيقة التي لا تمكّن غير فرس واحد من ولوجها فيسهل سدها إن لزم الأمر بالأحجار والأخشاب المخزونة بأول بيت بالدرب، تقدم الشاب فنهض صبور وسلم عليه.

– مرحبًا بابن زنبل، غيبتك طالت يا ولد؟

– معذرة يا كبير السرّاجين، انشغلت في أشياء كثيرة وسافرت إلى بلدنا المحلة.

– كنت بقيت فيها؟

– وعملي هنا؟ زيادة على ذلك أحب أن أكون قريبًا من القاهرة والفسطاط ومصر العتيقة لأكتب عن الناس.

– تكتب؟

– نعم مثل الشيخ الطولوني ولي في أبي البركات الشيخ أحمد بن إياس المثل والقدوة.

– سمعت أن السلطان أمر بقتل الزيني بركات بن موسى.

– آه، نعيش في بلد تكثر فيه الإشاعات، أقول لك: غضب الشيخ أبو السعود الجارحي على بركات بن موسى لأنه جار على الدمراوي بائع الجلود.

– أعرف الدمراوي، هو من يعطيني الجلود المدبوغة لأصنع منها النعال.

– نعم يا عم بسيط فشكاه إلى الشيخ الجارحي واحتمى ببيته من بطش الزيني فاستدعى الشيخ ابن موسى ووبّخه وأمر بضربه.

– وضرب المحتسب؟

– بالنعال على رأسه حتى كاد يهلك، أنت تعرف الشيخ الجارحي، لا يخشى في قول الحق لومة لائم لكن السلطان لم يقتله.

– وما حكاية تشاجُر السلطان مع الأمراء بسبب الأعطيات.

– لم يتشاجروا لكنهم طلعوا إلى القلعة وكان السلطان جالسًا بالحوش على الدكة وقرر لكل مملوك ثلاثين دينارًا فلم يرضوا بغير مائة دينار فأكد لهم أن الخزائن خاوية وعرض عليهم أن يترك كرسي السلطنة ويسير إلى مكة أو أي من البلاد فحدث تغير منهم ولكن يوم الخميس طلعوا له كلهم وكان بينهم محمد بن السلطان الغوري فقال لهم طومانباي: هذا ابن أستاذكم فاسألوه إن كان أبوه ترك في الخزائن شيئًا من المال يخبركم بذلك وإن كنتم تسلطنونه أنا أول من يبوس له الأرض فقرر الجلبان المشاركة في الحرب حتى لو لم يُصرف لهم جامكية، أما القرانيص فرفضوا لكنهم عادوا إلى الصفوف بعد أن أحسوا أن الأمر سيسلب من بين أيديهم.

– الله عليك وعلى دقة أخبارك، صدقني أنا معجب بك، ماذا تريد؟

– الكثير من الأعشاب الشافية من قرنفل وزيت زيتون وزعتر وقرفة وكمون وقرون القرض وأي شيء يخفف ألم البطن وغيرها من أمراض، ربما تطول الحرب ويلزم كل منا بيته.

من فوره نهض حجاج لجمع ما طلبه ابن زنبل يعاونه عبده وعشري، فاقترب بسيط أكثر وجلس قبالة الشاب ذي الوجه النضر المليح، رفع سبابته وأسبغ على نبرة صوته الصدق:

– سينتصر السلطان فقد أرسل له حاكم رودس نجدة كبيرة.

– هذه إشاعة أخرى يا عم بسيط، زعم البعض أن صاحب رودس أرسل مراكب بها بارود وألف رام يرمون بالبندق الرصاص لتعين السلطان في حربه ضد ابن عثمان الباغي وأن هذه المراكب وصًلت دمياط لكن تجار دمياط أنفسهم حلفوا أنه لا توجد سفن من رودس ولا غيرها.

– لكن التجار في نواحي القاهرة والفسطاط نقلوا بضائعهم.

– في هذه عندك حق ومنهم من خزّن بضاعته في الأماكن المنسية في الحارات والمدارس والزوايا والمزارات.

– المهم يا أحمد، السلطان، حالة السلطان؟

– في أحسن حال، رأيته بأم عيني يحمل على كتفه الأحجار مع البنائين لبناء حائط يستر المكاحل واقتدى به الأمراء فحملوا التراب مع الفعلة لحفر الخنادق من سبيل علان إلى الجبل الأحمر ومن السبيل إلى غيط المطرية.

– الله على الهمّة، الأشرف طومانباي يفعل ما لم يفعله غيره من السلاطين!

نهض الشاب أحمد بن زنبل وأمسك بالكيس الكتاني الذي حوى كل ما طلب ونقد حجاج ثمن الأعشاب والبهار، لحظ صبور احمرارًا بعين ابن زنبل اليسرى فاستوقفه قليلًا وأشار إلى حجاج فأحضر قارورة صغيرة، من القلة سكب عبده الماء فغسل ابن زنبل وجهه وعينيه جيدًا، أمال رأسه إلى الوراء فنقط صبور بعينه قليلًا من ماء العوسج96 ونالت اليسرى السليمة نصيبها اتقاء العدوى، شعر بابتراد عينه الرمداء، تارة أخرى مسح وجهه بالماء.

ـــــ أقبل معتوق عليهم وهو يرتعد وانكسارات وجهه تشي بمعرفته حدثًا خطيرًا، التقط أنفاسه وقال في صوت متلجلج:

– رأيت رءوسًا معلقة على باب زويلة وباب النصر وعرفت أنها لجنود عثمانية.

– ليس بالخبر الجديد يا عم معتوق، العربان من السوالمة وغيرهم صاروا يقبضون على من يجدونه من العثمانية ويقطعون رءوسهم ويرسلونها إلى السلطان فيأمر بتعليقها؛ حتى يقوّي همم الناس والأمراء في الخروج للقتال بل والأنكى من ذلك أن واحدًا من البدو أتى السلطان برأس الخائن إبراهيم السمرقندي فأعطاه السلطان ألف دينار.

– السمرقندي من الذين انحنوا لابن عثمان ولحسوا الأرض تحت قدميه وحسّنوا له امتلاك مصر ولقي جزاءه كخائن للبلد الذي آواه.

– لكن الحرس أغلقوا أبواب النصر والفتوح والشعرية وباب البحر وباب القنطرة!

– السلطان يحتاط بكل ما يملك من سعة.

ركب ابن زنبل بغلته وشكر صبور على ماء العوسج وأعطاه حجاج القليل منه في قنينة أخرى، أدار لجام البغلة ليغادر الدرب فوقف حين رأى كريم بن معتوق يهرول نحوهم ويخبرهم:

– الناس تتكلم أن عسكر ابن عثمان كالجراد المنتشر في الريدانية وانقسموا فرقتين: فرقة جاءت من تحت الجبل الأحمر وفرقة من ناحية الوطاق والأمراء يقاتلونهم مع السلطان في كل مكان هناك.

– والمكاحل والخنادق والتساتير التي بناها السلطان بنفسه؟

أطبق كريم شفتيه فلم ينطق بإجابة فأسرع ابن زنبل ببغلته وصبور وبسيط وحجاج ومعتوق وابنه وانضم إليهم بقية تجار الدرب إلى خارجه فرأوا الناس يجرون هائمين على وجوههم متخبطين في بعضهم بعضًا، كل منهم يبادر بغلق دكانه وباب بيته والصيحات تنطلق من الحناجر محذرة من الخروج والسيدات من خلف المشربيات يصرخن وينادين على عيالهن وأزواجهن، في سرعة عاد صبور إلى البيت وأمر حجاج وابنه عشري وعبده بن جمعة ألا يخرج أحدهم مهما كان السبب، على السطح أقام سلمًا خشبيًا وصعد درجاته، أجال بصره في كل النواحي فلم ير غير الكثير من الناس كل منهم يرتقي أعلى مكان ببيته ليعرف أخبار القتال الدائر بالريدانية، من جديد نغزته خناجر القلق على أنس واعتورته أنصال الخوف عليه ودار رأسه في دوامات الشك وطفح التساؤل فتلجلج به لسانه: ترى لزمت القصر يا أنس أم عاندت وذهبت إلى الريدانية؟

***

-١٢-

ما بين جامع عمرو والكنيسة المعلقة تجمهر قاطنو المنطقة وغيرهم من تجار ومجاوري الأزهر الغرباء وأصواتهم المتداخلة لا يفهم منها ما يريدون، انزرق صبور لعله يعرف أخبار قتال السلطان مع ابن عثمان نهاية يوم الخميس ومن شدة التزاحم التصق ظهره بجدار المسجد والتقط أنفاسه، وقعت عيناه على وجه خادم الأمير طظر وهو يدفع بذراعيه المعترضين طريقه، فتعثرت خطواته حتى لحقه وأوقفه، علا صوته ليسمعه:

– صخر، الأمير أنس بخير؟

– ذهب ظهر اليوم إلى الريدانية.

– ماذا، لكنه وعد أن يبقى بالقصر لأجل أمه وأخته؟!

– رغم مرض الخوند لكنها أمرت تمرباي ونصير بتتبعه.

– ما لها، ألف سلامة؟

– تقاسي ألم جوفها ودكاكين الأعشاب مقفولة و...

– تعال معي.

قاطعه صبور وقاده نحو الدرب، علا صوته بمناداة حجاج فأطلّ عشري من المشربية وأخبره أنه بالكنيف، أمره بالنزول وحين وقف الغلام أمام جده طلب منه شيئًا يشفي ألم البطن، فتح عشري باب الدكان وفي قرطاس كبير غرف خلطة الكمون والميرامية فتناولها صخر ورافقه إلى أول الدرب، أسرع صخر والتفت صبور حوله والناس تهرول والفرس العجوز مربوط بوتد مدقوق في الأرض داخل مجاز بيت المكاري عطية وبابه مفتوح، فأقلق راحة الفرس وحرمه وجبة الدريس، استعاره دون أن يخبر عطية، قاده بين دروب القاهرة وسط الهائجين حتى خلف البيوت والحارات والشوارع الكبيرة إلى الريدانية ففوجئ بلفيف من أتباع الأمراء ينسحبون وأصواتهم تتعالى، الغبار يرتفع وأصوات رصاص البندق يختلط بصليل السيوف وحمحمة الخيول وصراخ الفرسان، نزل من على الفرس وحاول جاهدًا يستوقف أحدًا ليسأله فلا يستطيع، أحد الفرسان يجأر بصوته وفرسه يتراكض:

– قتلنا ابن عثمان.

لحظ صبور ازدياد همّة الفرسان فعاد نفر منهم للكر والفر وهم يقاتلون جند ابن عثمان المتقدمين كالغربان، شعر بالإجهاد ينتاب بدنه المكدود، همّ بالعودة فقبضت أصابعه على اللجام ودوى رصاص البندق وصفر بأذنيه فجفلت سيقان الفرس وأطلق صهيله ونفث من منخاره أنفاس الألم، خطا قصبتين ثم ثقلت سيقانه وصبور يجاهد ليسحبه بعيدًا عن مرمى النيران، برك على الرمال والدماء متفجرة من ثقوب بطنه وصدره فأيقن من إصابته، مالت رقبته وتمدّدت على الأرض، فجحظت عينا صبور وضرب كفًا بكف ولا يدري ما يقول لعطية، صعب عليه ترك الفرس الأصيل تنهشه جياع الكلاب وود لو يسحبه بعيدًا لكنه نهض من فوره وجرى فاصطدم به رجلٌ وانزلقت قدماه فوقع، سعل بشدة وتدبر أمر نهوضه، يدٌ قوية عاونته على الوقوف واتسعت عيناه لوجه نصير، نهض في سرعة وتلجلجت شفتاه وهو يسأل:

– أنس يا نصير؟

– أصابه رصاص البندق فحمله تمرباي إلى القصر.

– إليه.

سارا خطوات حتى أوقفه نصير أمام فرس قوي فأركبه خلفه وابتعدا عن الريدانية، صامتًا يرقب صبور إسراع الناس والشمس في طريقها إلى الأفول، وصلا إلى الأزبكية ويكاد يهوي من خلف الحارس الأمين، قاد نصير الحصان إلى الإسطبل فمادت الأرض من تحت قدمي صبور وتسارعت

خطواته نحو القصر وهو يخمن شدة إصابة أنس ويدعو ألا يكون الرصاص أصاب صدره، قاده صخر فوجد الخوند تغرق خرقة في الماء وتمسح بها الدماء من أعلى كتف أنسباي، سقط قلبه بين ضلوعه وفحص الجرح فوجدها إصابة رصاص لكنها ليست خطيرة، ما إن رآه أنس حتى ضاق بوجوده لكنه كظم حنقه وعضّ شفته لشعوره بالألم جراء مسح جرحه بالقليل من المطهر اللاذع، تراجعت الخوند والأميرة بركة وصخر وتركوا صبور ينظف موضع الإصابة ويأتيه تمرباي بدهن البلسان فيضعه على الجرح بقماش نظيف عدة مرات، واجهه صبور وهو يقول:

– تلزمك الراحة فلا تخرج من القصر.

– تأمرني؟

– أنصحك حتى لا يتلوث جرحك.

– لكن جند ابن عثمان في الريدانية والسلطان يقاتل.

– السلطان وبقية مماليكه تركوا الساحة بما فيها من مكاحل ومؤن.

التفت صبور لنصير وشعر كأن السماء انطبقت على الأرض للخبر المفزع، فلا يتقهقر السلطان إلا بعد هزيمة محققة وتفرُّق الجراكسة من حوله، ألجم لسانه عن السؤال فأجاب نصير:

– بعض الناس رأوه وسط الأمراء يفر نحو بركة الحبش.

– لكني سمعت أن ابن عثمان قتل.

– ليس هو إنما كبير قادته سنان باشا وتناقل الأمراء أن الأمير علان قتل واحدًا من قواد ابن عثمان اسمه محمود بن رمضان وكرتباي الوالي قتل بدوره القائد علي بن شهوار.

– وابن عثمان نجا؟

– نجا.

– ما دام رأس الحية لم يقطع فالهزيمة محققة لأنه سيثأر لقواده وهم كما نسمع كالجراد ويكبسون كالبهائم، أرجوك يا ولدي، أتوسّل إليك تبقى هنا مع أمك وأختك وبيتك وخيلك، هم في أمس الحاجة إليك.

تارة أخرى شعر أنسباي بالغصّة تخنق روحه من وجود السرّاج وسطوته التي ترضى عنها أمه ولا تعارض كلمة يقولها، مال صبور على رأس أنس ليقبله فأشاح الشاب طالبًا منهم أن يخرجوا فقابل

صبور رغبته بالابتسام مما أشعر أنس بالدماء تغلي في رأسه من سلوك الشيخ المتسامح لدرجة إهدار كرامته، جرّر قدميه وغادر الغرفة فتبعته عنود وهي تشكره:

– أخبرني صخر أنك أعطيته قرطاس الأعشاب.

– الدكاكين كلها مغلقة فأعطيته من دكان حجاج بن زيتون زوج بنتي صافية.

– خالة أنس.

تسمرت قدماه وبدّل نظراته الضعيفة بأخرى قوية وهو يحدّق في وجه الخوند التي لم تهضم حقه في حفيده وفي ذات الوقت يدرك بحكمته تمام الإدراك أن الوقت غير مناسب لتفصح لأنس عن حقيقة أصله؛ فزوجها وصاحب القصر والمال الأمير ططر قتل مع مماليكه الأقوياء في حلب ورحى المعركة جرشت السلطان ومماليكه نهار اليوم وابن عثمان وجنده قد يطاردون الجراكسة وأتباعهم دون رحمة فأنس هو الباقي لهما لحمايتها، يعي هذا ولم يثقل على الخوند في طلبه المتكرر، دقّق النظر في عينيها وقرر محادثتها في الأمر للمرة الأخيرة:

– اسمعيني يا ابنتي، واسمحي لي أن أعتبرك مثل عفيفة رحمها الله، أقسم لك أن أنس لم ولن يلقى تربية ورعاية كما لقيها وهو تحت جناحك وأعرف مدى حبك وحاجتك له في أيامنا العصيبة ولكن لي رجاء.

– تأمر يا أبي.

– إن ردّ الله كيد ابن عثمان وجيشه وأمنا في بلدنا تخبرينه بالحقيقة.

– أقسم لك يا عم صبور كنت لأفعل لولا موت ططر ولو رغبتك أخبره الساعة أدخل عليه وأحلف له على مصحف بأنك...

– لا يا سيدتي، لتطمئن قلوبنا أولًا وبعدها يكون ما يكون.

– وبعدها أخبره ويعرف فضلك عليه.

ابتسامة صبور الراضية ألجمت لسانها فلم تجد كلمات يمكن بها أن تشكر السرّاج العجوز فكان في إمكانه أن يفشي السر اليوم ويجعل نصير الخادم يقسم أمامه بالحقيقة لكنه أثر على نفسه ولو كان به خصاصة لحقه المهضوم منذ أكثر من عشرين سنة فكتم ما في نفسه مراعاة لفضلها في تربية حفيده، مدّت يدها مسلمة عليه ومالت برأسها فقبلت ظهر يده، هز رأسه وتركها، سار إلى الإسطبل القريب فاستقبله تمرباي مرحبًا به كعادته فرد عليه صبور:

– احفظه يا اسندر.

– اسندر يا له من اسم أرتاح لسماعه منك يا رجل يا طيب وربنا وحده يعلم أني أرعاه ما وسعني الجهد.

– أحضر لي عفيفة أرجوك.

نهض راعي الإسطبل العجوز محني الظهر وغاب قليلًا فخفق قلب صبور لسماعه صهيل عفيفة، مسح شعرها، سالت دموعه وهو يحتضن رقبتها الطويلة ويربّت على كتفها، انتشى لدفء جسدها فغاب لحظات بترتها يدٌ قوية تدفعه في عنف فاتسعت عيناه لأنسباي الواقف أمامه وبيده السيف.

– تحبها، إن كنت لا أؤذيك كرامةً لأمي فأوجع قلبك على عفيفة.

رفع السيف وهمّ أن يهوي به على رقبة الفرسة التي صهلت في حدة واستجابت من فورها لقبضة صبور التي أبعدت عنقها، صرخ في وجه أنس وكفه تقبض على معصمه، هرول تمرباي وانفلتت طاولة الشراب التي أتى بها، قاد الفرسة إلى حظيرتها وأنسباي يسبه حتى لا يفعل، أبعده صبور وهو يلهث ويشير إليه في رجاء مألوم:

– لو كنت طعنتها لعشت طول عمرك تندم.

– لا أندم على ذبح فرسة عرفت أنها من حصان مصري.

في قوة دفع أنس جده فالتصق ظهره بشجرة عتيقة، شعر بجذعها الناشف كأشواك تنكأ جرح كرباج تمربغا على ظهره، جاهدًا يحاول تمرباي تهدئة غضبة أميره ويحول دون وصوله إلى العجوز الواقف في خشوع ممسكًا بتلابيب الصبر، رمقه أنسباي في غيظ وهز رأسه وهو يتوعد:

– لا أدري قيمتك عند أمي لكني لو رأيتك هنا أقتلك.

خطا نحو القصر ومن آن لآخر يضرب بسيفه الهواء فربت تمرباي على كتفه وألجم لسانه عن كلمات يطيّب بها نفس السراج المكلوم، تشجع صبور وانتصبت قامته وهو يواجه السائس:

– يحسب أني أغضب عليه أو أكرهه، لا، لا أغضب منك يا ابن عفيفة الغالية ومهما تفعل وأنت جاهل بأصلك سأحميك بروحي.

***

لا يدري كيف وصل إلى درب العطارين أو بات ليلته، تعشّى أم لم يذق طعامًا، قابل صافية أم لم يرها، زاره عشري وعبده أم لا، كل ما يدركه الآن أنه يقبع على سريره ويغطي جسمه المرتعد بحِرام من الصوف الثقيل والتعب يدب بأوصاله، رسخ في نفسه شيء واحد، ألا يتواجه مع أنس لئلا تأخذهً فورة الشباب فيرتكب في حقه إثمًا يندم عليه، تشابكت رموشه وشفتاه ترتعشان بهذيان فتباعدا

في رعب لنصل السيف البرّاق وأنس يدفعه في قلب الفرسة عفيفة ثم يرفعه ويهوي به على رقبتها فتخضب الدماء شعرها المنسدل الناعم وتدمع عيناها وهي تبرك على الأرض وسلاسل الحديد الملفوفة على ذراعيه تعجزه عن إنقاذها، فانفلت لسانه بصرخات الغوث المرير ويردد: أمك، عفيفة أمك يا أنس، أمك، أمك.

– جدي، جدي!

يدٌ تهزه فجحظ عينيه ليطالعه وجه عشري بسمرته، تلفت يمنة ويسرة ونهض جالسًا على السرير، أطرق رأسه مستغفرًا وطيوف كابوسه تغادر خياله، طلب الماء فرفع الغلام القلة، شرب القليل ونهض، قرّب إليه عشري القبقاب، توكأ على كتفه ووقف، حمد ربه أنه حلم ثقيل، شمر عن ساعديه.

– أحضر الطست يا عشري لأصلي الصبح.

– الصبح، تقصد العصر يا جدي.

– معقول، نمت طول النهار!

توضأ وصلى ما عليه من فروض وفي كل سجدة يدعو بأن يحفظ الله أنس وأهل مصر كلهم من عدوهم، أقبلت أمينة بطاولة الطعام فأكل في همّة لخواء جوفه من ظهر أمس.

– ارعي أمك وعمتك مسكة يا أمينة.

– حاضر يا جدي، اهتم بصحتك ولا تخرج من الدرب، من فوق السطح رأينا العثمانية من بعيد.

– العثمانية دخلوا القاهرة.

في سرعة ارتدى عباءته الثقيلة ونزل ليعرف الأخبار فوجد اللمة أمام مصطبة بسيط العريضة، أفسح له حجاج ليجلس وصوّب عينيه لأول الدرب فوجد الشباب رصوا أحجارًا بطول قامة رجل فسدوا الفتحة ولأن بيت معتوق على ناصيتين وله بابان واحد يفتح بالدرب والآخر الكبير يفتح على الشارع فضمنوا أن يخرجوا منفردين ليتشمموا الأخبار، تحمل الريح الباردة أصوات إطلاق رصاص وزعقات وصيحات بعيدة، دون أن يسأل صبور عما حدث اليوم روى معتوق:

– العثمانية نهبوا وطاق السلطان ودخلوا على بيوت القاهرة وأحرقوا باب المقشرة وأطلقوا ما بها من محابيسهم، جماعة منهم دخلت الطواحين وقادت البغال والخيول ونهبت الدقيق وجمال السقائين وسرقوا شون القمح ببولاق.

– بمناسبة القمح والدقيق، كل منا يقتصد ويحفظ ما عنده قدر الإمكان، ربما لا نقدر على شراء ما يلزمنا.

– لا تقلق يا عم صبور، كأن قلبي أحسّ بما نواجه واشتريت بكل ما معي قمحًا وتعرفون أني أعيش مع زوجتي بمفردنا والحمد لله على نعمته، من يحتاج الدقيق أو القمح ليطحنه يأخذ.

– أنت كريم يا حاج مصطفى وربنا يؤجرك خيرًا.

– وعمنا معروف، أين هو؟ بيته مقفول.

– معروف عمل معروفًا وهجر الفسطاط إلى أهله في الفيوم، وأعطاني مفتاح بيته إن احتاجه واحد منا.

– فيك وفيه الخير يا بسيط.

– كلنا أهل يا عم صبور وأضيف أن عندي جرارًا وقدورًا من الزيت تكفي لشهور.

– الله عليك يا عم بسيط، لكن احذر أن يكون زيت تليين جلود النعال.

رغم شعورهم جميعًا بالنكبة السوداء تطبق على نفوسهم فإنهم تبادلوا الابتسام لدعابة عبده السريعة ولم يشأ حجاج أن ينهر ابن أخته كعادته فشاركهم الضحك الخفيف وعادوا يتكلمون بجد فأكمل كريم بن معتوق:

– اليوم نهبت فرقة من العثمانية بيوت أعيان المباشرين والأمراء منهم بيت الأمير يونس الترجمان والزعر نهبوا بيوت مساتير الناس و...

سكت كريم لإقبال العجوز عطية يضع عكازًا تحت إبطه يتوكأ عليه، ألقى عليهم السلام وتكاد الدمعة تفر من عينيه، بأظافره الطويلة حكّ ذقنه وأعلن لهم مصيبته التي فوجئ بها:

– فرسي سرق يا جماعة، واحد من الزعر سرقه من مجاز البيت.

– فرسك لم يسرق يا عطية، رغم مرضه وحركته الثقيلة فإني ركبته في سرعة وذهبت به إلى الريدانية وأصيب برصاص بنادق ابن عثمان ومات هناك.

وجموا جميعًا لإفصاح صبور بما فعل وصعب عليه عطية الضعيف بعاهته وقصر قامته الملحوظ أن يفقد مطيته وسبب رزقه الزهيد لكنه ربت على كتفه وأعطاه عدة دنانير وبادر حجاج الذي فهم على الفور سبب ذهاب حميه إلى ساحة المعركة بعرضه على المكاري الفقير:

– أعدك يا عطية أشتري لك بغلًا قويًا بعد أن تهدأ الأمور.

– وإن كان على الخبز والطعام لا تقلق نفسك، الخير كثير والحمد لله.

– أنا والفرس فداؤك يا عم صبور، والعوض عند الله ونحمده أنه ما انسرق، كان أمينًا وصاحب عشرة، في يوم تاه مني عند الطاحون ورجع وحده بعد يومين.

– احمد ربنا أنك ما كنت راكبه وإلا تهت معه.

هذه المرة علت ضحكاتهم وحجاج يعض شفته ويستنكر هزار عبده مع جارهم الأكبر منهم سنًا، هز عطية رأسه ورفع سبابته.

– المرحوم جمعة بشحمه ولحمه.

– كل واحد يلزم داره ويا رب تنتهي الغمة على خير.

رغم ما رواه معتوق وكريم وغيرهما من واقعة الريدانية وارتداد السلطان بمن معه من أمراء إلى بركة الحبش وسمعوا أنه توجه إلى مطرح غير معروف فإنهم شعروا بالأمان لوجودهم بدرب العطارين المغلق عليهم، من حين لآخر يختلس كل منهم النظر إلى فتحة الدرب المحصنة بالأحجار ثم إلى بيت جمعة وبه بئر الماء فيزداد اطمئنانهم لحين انقضاء الأيام التي يرجون ألا تطول وأن تنتهي بالأمان لأهل المحروسة.

***

«قال شهود العيان أن طومانباي في ذلك اليوم المهول يوم الريدانية، اقتحم مع نفر من شجعانه وطاق ابن عثمان هناك وقبض على قائده الكبير سنان باشا وقتله وهو يظنه ابن عثمان وقاتل الأمراء بمن معهم لكن مكاحل العثمانية التي كانوا يوجهونها في سرعة صبّت نيرانها على عسكر المماليك ورشتهم بنار رصاص البندق فقتلت منهم الكثير أما مكاحل السلطان فدفنت بالرمال ولم تكن تتحرّك وانحاز لسليم بن عثمان الخائن خاير بك وجان بردي الغزالي وقد نقل ابن عثمان وطاقه الكبير من بركة الحاج إلى الريدانية، بعد أربعة أيام مرت على فرار السلطان دخل الخليفة محمد المتوكل على الله في صحبة وزراء ابن عثمان وعساكره باب النصر قدامه المشاعلية تنادي في الناس بالأمان في البيع والشراء ولا أحد من العسكر العثماني يشوش على أحد من الرعية وقد أغلق باب الظلم وفتح باب العدل ومن كان عنده مملوك چركسي ولا يدل عليه يشنق من غير معاودة والدعوة للملك المظفر الخنكار سليم شاه بالنصر».

شعر بالهواء البارد ينساب عبر نافذة المشربية المواربة فألقى قلم الغاب من بين أصابعه، ونهض من فوره فأحكم إغلاقها، قرب المصباح الزيتي ورمق الدواة وقد نضب الحبر منها، نادى على

عشري فصعد خلفه عبده، طلب منه ملء القنينة الصغيرة فنزل وعاد بعد قليل وعبده منشغل في النظر من بين فتحات خشب المشربية، قرّب عشري الكتاب وقرأ الكلمات الأخيرة.

– عرفت يا جدنا أن السلطان يتسلطن، والخنكار؟

– الخنكار يتخنكر يا ذكي.

مع اعتياده على قفشات عبده التلقائية لكنه لم يضحك أو يبتسم فتلبّسه ضيق الصدر وانشغال باله بما انتهت إليه الأمور، أمال رأسه إلى الوراء فوقف عبده وعشري متجاورين، همّ عبده أن يلقي بتعليقه فوكزه عشري ليسكت ثم تركا جدهما صامتين، لم يبال بنزول الولدين وعض شفته لما حدث اليوم من وقعات فلم يلتفت العساكر العثمانية لنداء الأمان فصاروا يكبسون على بيوت أولاد الناس وأمراء الجراكسة المشهورين فيقبضون عليهم والشاطر الغالب من الواشين يدلهم على بيوت المماليك غير المعروفة في الربوع فيفتشونها بحجة البحث عن الهاربين فينهبون ما بها من تحف وأقمشة ثمينة فلم يبقوا قليلًا ولا كثيرًا إلا استولوا عليه لأنفسهم وأمر ابن عثمان بمطاردة الجراكسة فوجدوا بعضهم مختبئًا في الترب وفساقي الموتى وغيط المطرية فأحضروهم فأمر ابن عثمان بضرب رءوسهم بين يديه.

أفاق على خطوات فظن الولدين قادمين مرة أخرى وتهيأ لأن يأمرهما باللعب بعيدًا عنه لكن وجه حجّاج أطلّ عليه خلفه صافية بين يديها العشاء، ركنته على المنضدة وجلست جوار أبيها، لحظ حجاج الهم يطفح على وجه صبور وكمدًا أصاب روحه وترك اصفرار وجهه دالًا عليه، واجمًا يحملق في ابنته ويربت على كتفها ويحذرها:

– لا طلوع ولا خروج من الدرب يا صافية أنت وأمينة ومسكة.

– ولا حتى من البيت نفسه.

أجابته صافية بحشرجة صوتها ونهضت من فورها وبقي حجاج فسأله بعد تأكده من انصراف زوجته:

– كنت في الأزبكية؟

– قرّبت منها وعرفت أن قصر ططر استولى عليه جند الإنكشارية وعسكروا في حديقته.

– وأنس والأميرة وابنتها؟

– لا أعرف عنهم شيئًا، قابلت واحدًا من العبيد وكل ما قاله لي أن الأمير ركب فرسه وغاب ولم يرجع والعثمانية استولوا على الخيول ولا أحد يقترب من القصر أو الأزبكية كلها.

– ربنا يطمئنك عليه، يمكن استطاع أن يهرب وينقذ الخوند وبنتها، آه يا عم صبور، لو تلقاه ونخبئه معنا هنا.

قالها حجاج وتثاءب وهو يقف فلم يعتد السهر إلى هذه الساعة من منتصف الليل، لف حول جسمه العباءة ونزل بعد أن أعاد ملء المصباح الزيتي، أمال صبور رأسه إلى الوراء وترددت كلمات حجاج وتمنّى فعليًا أن يخطف أنس ويأتي به إلى هنا، تتاهت لمسامعه أصوات بعيدة لكنها علت فجأة فأطلّ من المشربية، في الظلام ميّز بسيط يقف قبالة حجاج ويعلو صوته بكلمات غير مفهومة، انتعل القبقاب ونزل، تبعهما إلى أول الدرب والقلق ينهشه حتى لحق بهما ببيت معتوق السقاء دخل ففوجئ بكريم يرفع ساطورًا على شاب ملقى والدماء ترعف من كتفه وأبوه يحاول منعه، مال صبور نحو الشاب فجحظت عيناه لوجه غسّاق الغائب عن الوعي، انتصبت قامته فأجاب معتوق على عينيه الحائرتين:

– سمع كريم خبطًا على باب البيت من ناحية الشارع ووجده مكوَّما، حملته لهنا وهو يريد قتله.

– تقتل جريحًا يا كريم؟!

– غسّاق واحد من الزعر، نسيت يا عم صبور لما كان يجري قدام أوباش المماليك ويدخل الدرب ويفرض علينا دنانير ندفعها له.

– لكنه مصاب، يلزم نداويه وبعدها يروح لحال سبيله.

فحص حجّاج جرحه فوجده ضربة بلطة أو طبرزين قوية فكتفه مشجوج والجرح غائر في اللحم، دون أن يطلب آتاه معتوق بالماء فغسل الجرح وبخرقة داس عليه ليوقف النزيف، تلفت فلم ير بسيط فطلب من حجاج أن يأتيه بمطهر لكن معتوق أخبره بوجود قشر البطاطا، عاد بسيط معه إبرة وخيط، قرّب المسرجة ومرر الإبرة على ذبالتها حتى احمرّت، بردها بالماء ولضم الخيط بها، أمال اللص على جنبه وشرع يخيط الجرح وفي الغرزة الأخيرة تأوه وعض شفته وفتح عينيه يستطلع من حوله ثم أغلقهما وغاب، أنهى صبور خياطة الجرح وضع عليه عجينة قشر البطاطا المخلوط بعسل النحل، لف الكتف جيدًا وربطه، نهض وهو يؤكد لمعتوق:

– في الصبح أحضره.

تركوا بيت معتوق فأغلقه كريم جيدًا، واحتاط لوجود غسّاق بالبيت فقيّد رجليه بالحبال المتينة.

***

نوم متقطع وأحلام متخالطة ببعضها، نهض بعد أن نفض كابوسًا كاد يطبق على صدره، أشعة الشمس القوية تسللت عبر فتحات المشربية، فقام من فوره عازمًا على الذهاب لبيت معتوق فنزل ليطالعه وجه عشري الملهوف.

– صحيح يا جدي قبض كريم السقاء على واحد من الزعر؟

– يمكن يكون واحدًا من الجراكسة متخفيًا.

– بلا مهاترة أنت وهو.

– أريد أن أراه يا جدي.

– لكن لا كلام.

جريا وأمام الباب الموارب وقفا، قرع صبور الباب فسمع صوت معتوق من الداخل يطلب منه الدخول، اتسعت عيناه حين رأى غسّاق على الحصير وظهره بعيد عن الجدار وموثوق القدمين، أمامه طبق به جبن وعلى ملبسه الرث رغيف، لمح إجهاد السهر باديًا على معتوق فأدرك صبور أن جاره لم يغمض له جفن لوجود غريب بالبيت وليس كأي غريب بل لص وزوجته وزوجة ابنه كريم وبنتاه في الدور العلوي، أقعى صبور وفك الحبل الملفوف حول قدمي غساق فتأوه وبدت على عينيه المنكسرتين علامات الإجهاد.

– كلْ يا غساق.

– وتعرف اسمي؟

– ما في واحد ينسى أنك تجري بين خيول المماليك وتساعدهم في سلبنا.

سكت الشاب ونحّى الطبق جانبًا، تأوه ووضع يده على الضماد الملفوف حول كتفه، حاول النهوض لكنه عجز، تناول صبور الخبز وقدمه للشاب الضعيف، طاوعه وأكل من الجبن والعسل، أنهى الرغيف فقدم له معتوق آخر، طفق يأكل وعبده يهمس في أذن عشري:

– شكله قبيح ورائحته عفنة.

– اسكت وإلا جدي صبور يغضب منك.

– من اليوم أنت ضيفي حتى يشفى جرحك، تعال معي.

افترت شفتا معتوق عن ابتسامة إعجاب لصبور وتقديره لوجود لص غريب في بيته ومعه حُرَمه، وأدرك أن جاره الذي يعيش بمفرده في البيت لا يضره استضافة الشاب يومًا أو يومين وبعدها يغادر الدرب لحال سبيله، ذهل عشري من طلب جده غير المتوقع، أما عبده فمن حين لآخر يمسك طرف جلباب غسّاق السائر جوار صبور في تأنٍ ثم يشم يده، صعد صبور سلم البيت وغسّاق خلفه وما إن وقف وسط الحجرة حتى انهار على الحصير، أمر صبور عبده أن يضع ماعون الماء على الكانون ويحمله إلى الحمام فسار مع عشري، أمامه قعد صبور والشاب يريح رأسه إلى الوراء.

– تشعر بحرارة جسمك لكنك بعدها تخف.

– أنت؟

– صبور السراج.

صامتًا يتفرّس صبور وجه الشاب المخيف بشعيرات ذقنه المتناثرة وأسنانه الأمامية متنافرة عن بعضها وإن فغر فمه تبدو أنيابه مسنونة، بطول خده جرح قديم وبرقبته ندبة كبيرة، أشار إليه عبده فنهض وأتى بقميص نظيف وسروال وصدار من الصوف، عاونه في الوقوف ورافقه عشري حتى باب الكنيف وعاد إلى حجرة جده، ويقف أمامه مستغربًا.

– أنا خائف منه يا جدي.

– لا تخف فالولد مصري والمصري مهما جار عليه الزمن إلا أنه يحفظ الجميل.

– وماذا لو أنه مثل ذئب أكل أمه النعجة بعد أن أرضعته صغيرًا.

– الذئب حيوان يا عشري وغساق إنسان ولو كان واحدًا من الزعر أو المطرودين ونعرف حكايته وبعدها نحكم عليه.

راقت لعشري فكرة حكاية اللص فطلب من جده أن يبقى معه ليسمع ويعرف قراره الأخير بعد أن يشفى، يبقى أم يغادر الدرب، انتصبت قامته وهو يعلن:

– أبقى معك يا جدي لأحميك من اللص فلو غدر أقطع يده.

– لا أعض يدًا مدت لي يا ولد، فإن غدرت اقطع رقبتي لا يدي.

في حدة وخوف التفت الولدان لصوت غسّاق من خلفهما وشعره القصير ينقط منه الماء وقد بدا أفضل بكثير مما رأياه، أتم تنشيف رأسه فمد له صبور جلبابًا ثقيلًا وعباءة قديمة، شعر بالدفء بعد ارتدائهما وتارة أخرى تقرفص على الحصير فأقعى صبور أمامه يفحص جرحه المخيط، دهنه

بعجينة ثوم وأعاد لفه بضماد جديد، صعد حجاج وهو يصوّب نظرات اللوم لصبور فابتسم له وانتحى به خارج الحجرة.

– لا يبقى ببيت معتوق.

– يتركنا في حالنا ويمشي.

– بعد شفائه هو نفسه يتركنا فمثله لا يطيق البيوت.

– لكنه...

– لا تقلق وجهز له دجاجة مسلوقة، وشيئًا آخر، أذكر أن المرحوم زيتون تكلم أمامي عن عشبة شافية للجروح يأتي بها تجار اللومبارد97 أو صقلية أو كريت كان اسمها زهرة القطيفة98 أو عشبة زبيدة.

– زهرة القوقحان.

– ربما.

– موجود منها القليل.

– جهزها له بعد الغداء.

حجاج شديد الثقة في صبور وبخاصة بعد موت أبيه زيتون فهو دائمًا يحتاج لمن يأمره بعمل شيء أو يوجهه فطرد القلق من نفسه ونزل، عاد صبور إلى الحجرة وكلا الولدين يجلس في ترقب على السرير وعشري يمسك بيده عصا قصيرة ومن حين لآخر يزغر لغسّاق والشاب ذاهل العينين، قدم صبور مشروبًا ساخنًا فشفط غسّاق بصوت مسموع مما أضحك عبده وهم بالسخرية فأشار له صبور أن يصمت، ثبت عينيه في عيني الشاب وسأله في جدية:

– مَن جرحك؟

– أحكي لكن في وجود السقاء وأهل الدرب؛ ليعرفوا أني ما رضيت عن وجود العثمانية المجرمين.

– اهدأ وعرّفني بنفسك، اسمك غسّاق؟

– لا، اسمي عمار.

– ابن ياسر؟

– لا ابن شداد.

– تبقى عنترة لا عمار.

ضاق صبور بمهاترة عبده السريعة فأشار إليه أن يصمت وهدده بطرده إن لم يطبق شفتيه فهز غسّاق رأسه ولأول مرة يبتسم فرهب عشري أسنانه الممتدة وإحداها تركب أختها، أنهى احتساء كوب القرنفل الساخن فتغيرت رائحة فمه، تارة أخرى عض شفته وهو يتحسّس جرحه، اعتدل في جلسته وقال:

– أبي كان يحمل أكياس القمح بطاحون قرب جبل المقطم وبيتنا هناك، كنت صغيرًا حين دخل جيراننا البيت يحملون أبي ورأسه وجسمه مهروسان وأمي تصرخ وتلطم خدها وعرفت أنه كان يرفع حجر الطاحون فوقع عليه، الأيام مغبرة لكني أفتكر أن أمي كانت تخبز في قصر واحد من المماليك وتصحبني معها وفي ليلة مشت وأنا في يدها والتفتُ للفرس خلفنا، وقفت أمي فنزل المملوك وأمسك يدها، جرّها نحو عشة من البوص فأبعدته ونهرته، زعق في وجهها بكلام فشتمته، أذكر سبها له، قالت: امش يا مملوك لا أب لك.

– والله صدقت.

– هاجمها وأنا أضربه بجريدة ناشفة فشاطني برجله وحاول أن يوقع أمي فضربته على خده وتفّت عليه، اغتاظ منها ورفع سيفه وطعنها الواطئ ابن الواطئ في بطنها وصدرها، بقيت أنادي عليها وهي تتألم وبعدها سكتت والدم يسيل من بين أسنانها، بكيت وشافني رجل عجوز أمسك يدي ومشى.

– وأمك الشريفة؟

– قام أهل الخير بدفنها يا عبده.

– صحيح يا عم صبور، الرجل الكبير مشى بي ناحية الجبل وهناك في مغارة رقدت مع أولاد، وكان يصحبنا إلى الغيطان فنسرق له الفاكهة والخضروات.

– وبيتك؟

– لا أعرف مكانه ولما كبرت دربنا خاطفي على سرقة الدكاكين في الأسواق، كنت أسرق مواعين النحاس والسروج والكنابيش والمراكيب من المساجد أي شيء أي شيء يقع بأيدينا.

– وشيخ المنسر؟

– مات بشتك العاجز، وأصبحت تبع ابنه ولما كان واحد من المماليك يطلب حرسًا يقدمني له بالسلاح لأحرسه وهو يجبر أهل الحارات على الدفع.

– واسم غسّاق؟

– أطلقه عليّ بشتك.

– أو تعرف معناه؟

– كنت لا أعرف معناه لكن في يوم طلعت على واحد من مجاوري الأزهر وقلت له أنا غسّاق القاهر أعطني ما بجيبك، رد عليّ بثبات وقال: القاهر هو الله ولسوف يقهرك أما غساق فإنك ما يسيل من جلود أهل النار، ارتخت يدي الممسكة بالبلطة وتركته لحال سبيله.

– ربنا يهديك ويصلح حالك وتبقى مسك وريحان.

تمتم بها صبور ونهض من فوره، لحظ ارتخاء جفنَي غسّاق وحاجته إلى الراحة بعد فقده للدماء فطلب منه النوم، تمدد على الحصير فغطاه صبور وعشري وعبده متأثران بما سمعا، رافقا صبور إلى الشارع وبسيط يجلس على المصطبة دون أن يفتح دكانه، التفت إليه وسأله:

– ما حكايته يا عم صبور؟

– لما يقوم يقول بنفسه.

– نائم في بيت معتوق؟

– لا نائم عندي فوق.

– عندك، يا لطيبتك يا عم صبور، ممكن يسرقك.

– ممكن.

التفت إلى عبده وعشري وأراد أن يعرف رأيهما في ما روى اللص عن حياته، أطرق عشري حين سأله جده عن رأيه ثم رفع رأسه.

– لو عاش أبوه لكان صالحًا أو تعلم بالأزهر.

– وأنت يا عبده؟

– أبوه مات في الطاحون قدره ومكتوب له، لكن لولا عملة المملوك الكلب السفيه لربته أمه.

– ولو أن رجلًا صالحًا هو من عثر عليه واتقى الله فيه لكان أفضل لكنه القدر، يفعل في الإنسان الأفاعيل ولا نقول لو، لو، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وربما يصلح حاله.

– إن شاء الله يا جدي، وأنا مشتاق لأعرف كيف جرح.

صعد الولدان ومضى الوقت وبسيط يعيد ما سمع من حوادث العثمانية بالمماليك وصبور ينتابه القلق على أنس ويود لو يخرج من الشق ليبحث عنه وكثيرًا ما سرح ولم يلتفت إلى كلام بسيط ويخمن ما حدث للخوند وابنتها ويرجو أن يكون أنس نقلهما لبيت آمن قبل فراره ولكن لا يوجد بيت آمن بالقاهرة أو الفسطاط أو حتى مصر العتيقة، ظهر حجّاج وبين يديه طاولة خشبية عليها أطباق، وعشري يحمل قفة الخبز، نهض صبور وسار أمامهما إلى أعلى فوجد غسّاق يسند جنبه غير المصاب على الجدار، ركن أمامه الطاولة ورفع أغطية الأطباق الفخارية فانتشت أنفه برائحة الملوخية والدجاجة المسلوقة، قطع صبور كسرة خبز وغمسها في الملوخية وأقحمها في فم غساق والشاب تتسع عيناه لما يراه من معاملة صبور، أكلا معًا وأصر صبور أن يتناول ثلاثة أرباع الفرخة واكتفى بتناول الورك الأخير، نهض إلى الحمّام فابتسم حجاج وهو يفصح:

– عرفت حكايته، قالها أبو لسانين.

ابتسم صبور لوصف حجاج لابن أخته عبده بن جمعة وفي قرارة نفسه يعجب بشخصيته المنطلقة غير عشري الكتوم ولا يتكلم إلا بحساب ولا يهزر إلا مع من يعرفه فكلاهما عكس بعضهما فعشري فيه الكثير من صفات خالته عفيفة، قطب حاجبيه حين تذكرها وتارة أخرى أظلته سحابة القلق على أنس، وأضمر في نفسه أمرًا.

دخل غسّاق فأجلسه صبور وشلح جلبابه، كشف جرحه ومسحه بالماء، جففه جيدًا ورفع حجاج أمامه طبقًا صغيرًا، حرّك إصبعه وتناول القليل من مخلوط عشبة القطيفة بعسل النحل ومررها على الجرح أكثر من مرة وتعمد أن يكبس الغائر منه وغسّاق يكز أسنانه ويتأوّه حتى إذا ما أنهى صبور دهن الجرح لف عليه مزقًا نظيفًا من القماش وربطه بإحكام، بعد قليل فتح عينيه وابتسم.

– أحس براحة.

– ويلتئم إن شاء الله بعد مرات.

– مرات، يجب أن أمشي الليلة.

– امش في الصبح على الأقل تسترد عافيتك.

– استرح وبعد المغرب نتكلم.

تركه صبور ونزلوا جميعًا، هيأ بسيط المصطبة وقرّب عشري وعبده الدكة العتيقة، وسوس صبور في أذن عبده فجرى نحو بيت معتوق وعاد في سرعة وهو يومئ برأسه أنه أوصل الرسالة، جلس الغلامان وعبده يحترق شوقًا في سماع حكاية أخرى من اللص ضيفهم لكنه أقنع نفسه أنه ليس لصًا إنما هو.. هو.. لم يجد وصفًا له فأراح تفكيره وانتظر، جاء معتوق وابنه وتربعا على المصطبة، لم يأت الشيخ مصطفى وعرفوا أنه يسعل بشدة لألم صدره من البرد، ومعروف لم يعد بعد أن هجر الدرب إلى أهله في الفيوم، ودّ عبده أن يصعد فيستدعي غساق أو عمار على ما أسماه أبوه وأمه ولوهلة انتابه إحساس بالندم على إهانته، جلس حجاج على الدكة ومن حين لآخر يميل عشري برأسه نحو بيت جده وأخيرًا ومع أذان المغرب توالت خطواته خارجًا من البيت، دون أن ينطق قعد وسطهم وكريم يصوّب إليه نظرات شزراء ويتوعده إن بان عليه شر فلن يرحمه، تتأرجح نظرات معتوق بين غسّاق وصبور وأعجب بالأخير لرأفته بالشاب المجروح فعمل على نظافته وإطعامه ودوائه فبدا أحسن من ليلة أمس، دون مقدمات بدأهم:

– كلكم تعرفون أني من الزعار وأتبع شيخ منسر لكن ما لا تعرفون أني قاتلت العثمانية عند الريدانية، صعب عليّ أن يحارب الأمراء مع السلطان وأنا وغيري كل همنا ننهب الناس.

– وغيرك؟

– نعم عصبة كبيرة من الزعر هاجمت الينكجرية وأنا نفسي قتلت منهم الكثير ورؤوسهم معلقة عند باب النصر.

– أنتم؟

– وغيرنا، بلدنا ولازم ندافع عنها.

– أصيل يا غساق.

– من غير سخرية يا ابن السقاء، كنت مدرك رغبتك أن تقتلني وأنا مجروح بكتفي لكن لو تعرف الحقيقة تغير رأيك.

– وما الحقيقة؟

تحامل على نفسه ووقف وسطهم، دارت عيناه في وجوههم جميعًا فجذب انتباههم لما يفعل، رفع يديه كأنه يدعو: وانصر اللهم السلطان ابن السلطان ملك البرين والبحرين، كاسر الجيشين وسلطان العراقين وخادم الحرمين الشريفين الملك المظفر سليم شاه، اللهم انصره نصرًا عزيزًا وافتح له فتحًا مبينًا يا مالك الدنيا والآخرة يا رب العالمين.

سكت غسّاق وتلاقت أسنانه الأمامية وهو يكشر فبدا متوحشًا، حقيقة جميعهم سمعوا هذا الدعاء أمس الجمعة لكنهم لم يهتموا به، انتظروا أن يفصح عما في نفسه بعد أن كرر الدعاء كما هو ولم يجعلهم ينتظرون فأردف:

– هذا ما أغاظني، الدعاء لمن يصفونه بكل الصفات، إنه الملك المظفر والحرم الشريف بريء من أفعاله، والله ما رأيت أقبح من وجهه وهو ينظر إلى رؤوس الأمراء وأولاد الناس تتدحرج أمامه والدماء تتفجر من الرقاب المقطوعة دون أن تطرف له عين اللعين قاتل إخوته.

رفع صبور حاجبه لمعرفة غسّاق بخبر عن سيرة سليم بن بايزيد وحقيقة دهش لإعادة الدعاء بنصه دون أن يخطئ في كلمة وقسمات وجهه المستنكرة تشي برفضه الدعاء، هوم صبور برأسه ليكمل.

– ليلة أمس كنت وحدي وهاجمت أربعة منهم، نطيت وسطهم كالعفريت وبالبلطة شطرت رأس أقربهم وفتحت بطن الثاني فتدلت مصارينه العفنة، الثالث رفع بندقيته وطاش الرصاص في الهواء فرميته بالبلطة فأصابت وجهه، انتهز رابعهم انشغالي ولف حولي وضربني بطبرزين كبير، تعاركنا فأوقعته ولكمته ولويت رقبته حتى انكسرت، تركتهم ورمحت فطاردني المشاعلية وجريت، جريت ولقيت نفسي عند بيت عم معتوق دخلت وقفلت الباب واستسلمت لابنه لما أوقعني وتمنيت أن يقتلني على الأقل أموت بيد مصري لا عثماني مجرم.

– أنت فعلت هذا يا غسّاق؟

– ولو مدّ الله عمري ووصلت لملكهم أقتله بيدي.

ران الصمت على الجالسين وتلاقت نظراتهم بين معجب ومندهش وغير مصدق لما يرويه واحد من الزعر أو المنسر الذين يكرههم الناس ولا يطيقونهم ولو وقع واحد في أيديهم لا يرحمونه، سكت غسّاق وبدأ يستأنف حكايته في هدوء:

– قبل قتالي وإصابتي دفع واحد من جند ابن عثمان المقدس يوسف بن بولس صاحب دكان الحلوى بخان الخليلي وقال له بلغته المتكسرة: امش يا كافر.

مثّل مخايل يقلد غسّاق طريقة الجند العثمانيين كأنه واحد منهم ومن حين لآخر يمسح شاربًا وهميًا بين كل جملة وأخرى مما دفع عبده لأن يضحك على طريقته وكلماته التي يبتر حروفها، ضرب صبور كفًا بكف وحوقل بصوت عالٍ، هز معتوق رأسه وهو يفرد كفه.

– والله دخلت كل بيوت الفسطاط والقاهرة وملأت قدور وأزيار الكنائس والجوامع ما فيه فرق بينا.

– بسيط وعم حزقيال هنا من قبل أن أولد وما رأيت أفضل من جيرتهم.

– ولا أمن أبي على بيتنا إلا في جواركم يا حجاج، فاكر لما سافرنا أسيوط عند عمي، أمي تركت مفتاح البيت لخالتي ساقية تغير الماء والغلة للبط والحمام.

– أنا مغتاظ منهم وأخرج الليلة لألتقي مع صحابي ونقاتل مع السلطان.

– مع السلطان، تعرف مكانه؟

– لا، لكن سأعرف مكانه، أشكرك يا عم صبور على كرمك، صدقني ما ينالكم مني بعد اليوم غير حمايتكم.

– لو تمشي أغير لك جرحك.

– وتتعشّى عندي يا ريس غساق.

قالها كريم بن معتوق في حماس وهو يغطيه بنظرات الاحترام، نهض إلى بيته أول الدرب بينما رفع حجاج الجلباب، فمسح صبور ما بقي من أثر لعجينة القطيفة بالعسل ونظف الجرح بالماء وملطه بعجينة جديدة وزاد فيها، لفها بالقماش فأرخى ملابسه، رد صبور على عينيه المستفهمتين:

– لما ترجع لنا بالسلامة، تلاقي جلبابك القديم مغسولًا.

نهض من فوره ومد يده مسلمًا على بسيط وحجّاج ومعتوق وعشري، مال على عبده فقبل رأسه وقرص خده، رافقه صبور حتى أول الدرب فدخلا بيت معتوق وقبالة الباب المؤدي إلى الشارع الواسع مد كريم له لفة.

– إن كنت لا تأكل معنا فاقبل مني عشاءك.

هز رأسه فحضنه كريم وربت على كتفه وكأنه يعتذر له عن تسرعه في الحكم عليه، بإشارة من صبور وقف كريم جوار أبيه، سار مع غساق متجاورين فأوقفه بعد عدة خطوات.

– أطلب منك رجاء!

– تأمرني يا شيخ صبور يا طيب.

– لو كنت مع السلطان أو مع واحد من الأمراء وعرفت أميرًا اسمه أنسباي فاحمه بقدر استطاعتك.

– الأمير أنسباي حاجب الحجاب؟

– لا، أنسباي ابن الأمير ططر، قصره في الأزبكية.

– أعرف الأمير ططر، لم يرجع من حلب لكن لا أعرف ابنه.

– ابنه شاب صغير في العشرين من عمره لكنه شجاع مثلك ومتهور وكنت أعرف جده لأمه فهو مصري وأوصاني به فإن لقيته احفظه وابعد عنه الأذى.

– أمرك يا عم صبور، أرعاه وأحميه وأفديه بدمي وروحي من أجل خاطرك.

– أشكرك يا بني وربنا يكتب لكم النصر ويكتب لك النجاة من بندقهم.

اتسعت ابتسامة غسّاق وارتمى في حضنه فشم منه عبق رائحة أبيه القديمة التي تمنّى أن تدوم حتى إن عاش فقيرًا محتاجًا يكسب لقمة عيشه من حمل أكياس القمح بالطاحون.

***

-١٤-

«السبت أول المحرم من عامنا الجديد ٩٢٣ من الهجرة99 رأيت الإنكشارية يقفون عند البوابة يمنعون النهابة من نهب البيوت، ولم يتوقف جنده عن القبض على الجراكسة وسوقهم إلى وطاق ابن عثمان فتحز رءوسهم وتعلق، عرفت أن البدو قبضوا على الأتابكي سودون الدواداري وأحضروه إلى ابن عثمان فوبخه وأمر بتجريسه فأركبه الجند على حمار وألبسوه عمامة زرقاء وقد رأيته يطاف به وفخذه مكسور وفي حال الأموات فخرّ من على ظهر الحمار ميتًا ولم يتوقف الينكجرية عن مطاردة الجراكسة وضرب رقابهم فصارت جثثهم مرمية من سبيل علان إلى تربة الأشرف قايتباي فجافت منهم الأرض وهم أبدان بلا رءوس ولا يعرف جثة المملوك من الأمير وقيل أن سليم بن بايزيد يثأر لقتل الكثير من جنده بالريدانية ومن العجب أن ابن عثمان أعطى ورقة أمان لمحمد بن الغوري وسمح له أن يسكن في مدرسة أبيه التي بناها في الشرابشيين قرب مسجد الغوري واستغرب الناس من ابن عثمان تكليفه للزيني بركات بن موسى أمر الحسبة.

وفي اليوم الثاني جاءوا لسليم بمفاتيح قلعة الجبل فأرسل صوباشي100 بفرقته فملكها لكنه لم يسكن بها واختار نقل وطاقه إلى بولاق آخر الجزيرة الوسطى على شاطئ بحر النيل وصار جنده يقبضون على كل من يلبس زنطًا101 أحمر فيقتلونه فارتدى أولاد الناس وأولاد أمراء الجركسة العمائم بدل الزنوط الحمراء».

ألقى قلم الغاب وهمّ أن يمزّق الورقة التي كتبها لكن ذلك سيفسد الكتاب فأحجم وأدخله الكيس الجلدي، ركنه على رف خشبي عال صنعه له خصيصًا، ضاق صدره من حبسة البيت وتذكر صافية حين أتت له بالغداء أخبرته أن حجاج متضايق من قلة القمح ويستحي أن يطلب من أي من جيرانهم فكل منهم في حاجة إلى الزاد، نهض من فوره وصدره يفور كآبة من قلقه على أنس فمنذ أيامٍ لم يتجرأ على الذهاب إلى الأزبكية بعد انتشار جند ابن عثمان كالنمل في نواحي القاهرة

والفسطاط ولا هم لهم سوى البحث عن الجراكسة المختبئين في الحارات والأزقة الضيقة والتلهي بضرب رءوسهم وسمع أن أولاد الناس صار الواحد منهم يشتري حياته بكل ما يملك من مال فيدفع للزعر والعياق البراطيل حتى لا يفتن عليه.

أمام البيت جميع الأبواب مغلقة، تناهت لمسامعه حركة فالتفت إلى آخر الدرب، زوجة مصطفى ترفع على رأسها ماعون الماء وتخرج من بيت جمعة وصغيرها يغلق الباب، خطا نحو بيت معتوق، صفق بيده فأطلّ كريم من المشربية الصغيرة ولم يلبث أن نزل، فتح الباب فخطا صبور عابرًا المجاز إلى الغرفة المجاورة ففتح له بابها المفتوح على الشارع الكبير المؤدي إلى جامع عمرو، خيول الينكجرية تركض متجاورة، توالت خطواته نحو الكنيسة المعلقة فتخطاها وظل ماشيًا إلى أن أوقفه فرس أسود وفارسه مزهو بشاربه المنتصب في قوة:

– قف يا شيخ، أنت من جراكسة؟

انعقد لسان صبور وتطلّع إلى وجه الجندي وعيناه الزرقاوان تشعان بريق الطمع، لا يدري بما يجيب فتشجع أن يعلن عن نفسه لكنه خشي أن يقول أنه سرّاج فيجبرونه على العمل معهم، رفع الفارس سيفه فالتصق صبور بالجدار وأغمض عينيه ونطق الشهادتين.

– لا يا حضرة الجربجي102، إنه من درب مجاور وأنا أعرفه.

فتح صبور عينيه فجحظتا وسقط قلبه لخيبة أمله التي رآها ماثلة أمامه فمن منع قائد العثمانية عنه هو غسّاق فانقبض قلبه للشاب الذي منع كريم من قتله وآواه وداوى جرحه وها هو يستدير على البلد ويرشد العثمانية على من يريدون قتله، انطبقت شفتاه وتأمل القائد بجبته من الجوخ الأحمر وعلى رأسه قلنسوة بريشة وخفه أصفر، أدار القائد لجام فرسه وقاده إلى بعيد وعشرة جنود مشاة خلفه وحولهم الرعاع تأخر غساق وتلفت زائغ العينين.

– تطلع من الدرب في ساعات الخطر يا عم صبور؟

– طلعت أبحث عن دقيق أو قمح لكن الله يلعنك وجدتك تعمل مع العثمانية.

– لا وقت لدي، قريبًا تسمع أخبارًا ترضيك و.. والأمير الذي أوصيتني به مع السلطان.

– رأيته؟

– سألت عنه وعرفت أنه من جملة عساكر طومانباي وقريبًا نقاتل.

ركض غساق مبتعدًا وهو يمسك بعصا غليظة طرفها سن حديد مدببة، ثقلت قدما صبور وداخله شك في نوايا غساق لكن إنقاذه من موت محقق مثير للإعجاب بجرأته على صرف قائد الينكجرية عن

قتله فلو واحدًا ممن كانوا معه أشار إليه بإصبعه لطارت رقبته وعلقت على أحبال أمام وطاق ابن عثمان، تمالك نفسه ولفّ حوله العباءة، سار نحو بيت حمزة تاجر الغلال ففوجئ بثلة أخرى من الجند تسير شاهرة بنادقها أمامهم واحد من الزعر يغمز إليهم نحو بيت كبير فهاجمه الجند ولحق بهم آخرون ففتحوا حواصل الخوند سيدة البيت فرآهم بعد قليل يخرجون بقماش فاخر وأوانٍ غالية وغيرهم يسوق أمامه الخيل والبغال ويأمر الخادم أن يقودها وغيرهم يسوق جاريتين أمامه والبنتان تبكيان فلم يسع صبور إلا أن غادر المطرح بعد أن سد أذنيه العاجزتين عن سماع الغوث الصادر من القلوب، لا يدري كيف قادته قدماه نحو بيت حمزة، قرعه ولا مجيب، صبر حتى هدأ الشارع فسحبت قطعة خشبية ورمقته عينان بنظرات الشك، عرف نفسه وكأن دهرًا مرّ عليه قبل أن ينفتح الباب ويدخل في سرعة، استقبله حمزة ودون مقدمات رفع صبور أمامه كيس الدنانير.

– لكن القمح شحيح يا صبور والله ما أعزه عليك، العثمانية كبسوا على الصوامع وطومانباي أحرق الشون.

الانكسار هو ما يتلبس كل من يقابله صبور فاحتبس صوته ولم يرد أن يثقل على الرجل وفضل العودة سريعًا إلى الدرب والشمس في طريقها إلى المغيب، أوقفه التاجر وفك رباط تليس103 مملوء نصفه، فتح زكيبة وبالصواع وزن كيلة وأفرغ القمح بزكيبة صغيرة وربطها جيدًا، حملها صبور.

– أشكرك يا حمزة.

– معذور يا صبور ولولا القلة أنت عارف.

– عارف يا حمزة وإن شاء الله ربنا يزيل الغمة.

أغلق الباب وتلفت صبور، سار في حذر ومن بعيد يرفع الجند المشاعل ويهاجمون بيتًا لجركسي فسار جوار الحيطان إلى أن عاد إلى الدرب، ما إن فتح له كريم حتى حمل عنه الزكيبة فالتقط صبور أنفاسه وسار في بطء نحو البيت، وجد حجاج قد تصرف وأحضر كيلتين وبسيط بدوره أعطاه زوج أخته كيلة، في وسط البيت قعدت صافية أمامها الرحى ومسكة تمسك اليد الخشبية معها وتلقم فتحة الحجر بالقمح وأمينة من حين لآخر تغرف الدقيق الخشن من الأسفل، على مصطبة بسيط قعد صبور وأقبل كريم بين يديه قفة الخبز، أتى بسيط بالجبن القديم وحجاج قعد وركن أمامهم طبق البيض المسلوق وقشر الواحدة تلو الأخرى ويقدمها لصبور.

– أعط عشري وعبده.

– زهقت من البيض يا جدي، بعدها أصيح ويمكن أفقس.

– احمده يا عبده، غيرنا يتمناه.

– صحيح يا جدي، اخشوشنوا فالنعمة لا تدوم.

– أبوك غير موجود يا كريم؟

– يملأ الأسبلة وأحواض إسطبلات خيل العثمانية.

– ما اليوم يا خال؟

– الأربعاء يا عبده.

– خمسة محرم، حالًا مرت خمسة أيام من السنة الجديدة.

لحظ حجاج أن حماه لا يأكل ففطن لانصراف نفسه وزهدها عن الزاد لقلقه على حفيده، لكنه عزم عليه أن يأكل فلاك لقيمات معدودة قبل أن ينتتر ويقف فجأة لصوت رصاص البنادق يطلق في كل مكان، رمحوا لأول الدرب وتزاحموا أمام باب حجرة معتوق على الشارع الكبير، الناس تجري في اختلاط وأصوات تركض الخيول ترتفع، دوى صوت فرقعة عظيمة فأيقن صبور أنها لواحد من المكاحل، التفت إلى كريم وأمره:

– تبقى أنت هنا تنتظر أباك فإن عاد افتح له ونحن نعلي جدار فتحة الدرب.

انتابتهم حماسة لا حدود لها فحملوا الأحجار من بيت عطية ورصوا أثقلها على الجدار حتى علا وأمالوا فلوق النخل عليها فاحتجب الدرب عن العيون وعبده يود لو يتسلق ليرى ما يحدث، عادوا إلى المصطبة وبسيط ينفض عن جلبابه التراب ويلملم بقية الأطباق، ترع صبور قلة الماء وبص حواليه فلم يجد الولدين وسمع صوت عبده على سطح البيت: يا رب يا متجلي، أهلك العثمانلي، وعشري يردد وراءه في حماس فنهرهما:

– انزل يا عبده، يصيبك نار البنادق يا مقصوف الرقبة.

عبده جريء لكنه يسمع الكلام فنزل من السطح، قرص صبور أذنه ولامهما أشد اللوم هو وعشري على عدم حذرهما.

– الخناقة بين عسكر مصر وعسكر ابن عثمان بعيدة يا جد.

لم يكد يتم عشري كلماته حتى دوى صوت الرصاص وأصابت طلقة خشب مشربية نافذة بيت معتوق فتراجعوا إلى منظرة بسيط المظلمة وبادر بإشعال المسرجة الكبيرة فأضيء المطرح، بقوا واجمين ولا يدري لم طفر وجه غساق في خيال صبور وتردد في ذهنه ما أخبره به فدار بداخله أن السلطان جمع أشتات جنده ويقاتلون الآن العثمانية في الطرقات وأهل البلد أدرى بأسرار مداخل ومخارج الأحياء والشوارع ولسوف يتصيدونهم ولن تفلح بنادق الإنكشارية في الظلام.

برقت عيناه وحكَ راحتيه ببعضهما البعض ونفخ فيهما ليبعث الدفء، هزّ رأسه وابتسم أمامهم فلم يلبث أن غاض البشر السريع من وجهه حين تذكر أنس يقاتل مع السلطان، وربما يطرشه رصاص البندق الطائش فيصيبه، انقبضت قسمات وجهه وشبّك أصابعه، راودته فكرة أن يغادر الدرب ويتلمس الوصول إلى.. إلى.. توقف تفكيره فأين يذهب للبحث عن أنس وهو يجهل موضع المعركة الدائرة، استحصن بالصبر وهو يدعو أن يعود معتوق بخبر عما يحدث خارج الدرب، ساعة تطرد أختها فاستأذن صبور من بسيط إلى بيتهم فصعد الولدان وبقي صبور مع حجاج فانضم إليهم بسيط وهو يلف شالًا من الصوف حول رقبته.

– اطلع فوق واسترح.

– لا يا حجاج، ليس قبل الاطمئنان على معتوق، اطلع أنت.

فجرر قدميه ودخل بيته وبقي صبور وبسيط متدثرين بالصمت والعتمة حتى نزل عشري بفانوس كبير مضاء بالزيت خلفه عبده بين يديه مشروب ساخن فاعتبر صبور أنه جاء في وقته، رشف في بطء وشعر بالدفء يسري بأوصاله، لفت نظره تراقص ذبالة الفانوس فتمايل الظلال على الجدار، لا يدري لمَ توهج وجه يوسف النحاس وودّ لو سمع كلامه وعاد معه إلى أسيوط بعيدًا عن القتال الدائر، فإن فني جند ابن عثمان وضم قبر رمته يعود طومانباي إلى السلطنة وإن انكسر الجراكسة لن يتورّع ابن عثمان في إعمال سيفه بأهل المحروسة انتقامًا منهم على معاونة السلطان، خاطر راوده أن يبقى مع كريم بن معتوق وإن لزم الأمر يبيت عنده الليلة لكنه عدل عن الفكرة؛ حتى لا يكلف كريم ضيافة وسهرًا وربما يكون نائمًا الآن وشجعه على الصعود استئذان بسيط بعد أن رشق البرد أبدانهم فأمر عبده أن يغلق الباب جيدًا وطلع إلى غرفة بالأعلى.

***

قبل تناوله الإفطار نزل مسرعًا والشمس تتوسط السماء، لا يدري كيف امتدت ساعات نومه إلى ما بعد الظهر، خطا نحو بيت معتوق فوجد بسيط سبقه فيقرع الباب، صوت أم كريم الباكي يعلو من خلف المشربية:

– والله يا شيخ صبور كريم طلع أول النهار.

لم تكمل السيدة وانخرطت في نحيب محموم فأدرك أنه ذهب ليبحث عن أبيه، لم يجد بدًّا من العودة إلى البيت لكنه وقف أمام الفلوق المنصوبة فقرب له بسيط حجرًا اعتلاه ودارت عيناه يستطلع الماشين ويصيخ السمع فتردد أن عراكًا نشبت نيرانه بين السلطان وعسكر ابن عثمان، همّ أن يرجع فلمح عطية المكاري يقبل في بطء فحسب أنه يدق باب معتوق ليدخل من باب حجرة الشارع لكنه وقف أمام سد الأحجار ووضع صرة صغيرة في عبّه وصعد في همّة فتناولته أيدي بسيط وصبور إلى الناحية الأخرى.

– أنت بخير يا عطية؟

– نحمده يا معلم بسيط يا غالي، تفضل يا عم صبور افطر معي.

– المهم يا عطية، معتوق لم يعد من الليل وكريم يبحث عنه.

– ربنا هو العالم، البلد خربة من الليل والمماليك والعثمانية طحنوا بعضهم.

– سمعت حاجة؟

– سمعت أن السلطان حرق وطاق ابن عثمان في بولاق.

– حرقه؟

– وقتل منهم العشرات، عن إذنك لأني مزنوق بالماء.

تركهما ودخل بيته، هم صبور أن يدخل خلفه فأحجم وقرر مرافقة بسيط للجلوس عند المصطبة والانتظار، عافت نفسه الإفطار الذي أتت به صافية، ركنت الأطباق بين أبيها وبسيط.

– وحجاج؟

– فيه ألم بصدره وعملت له أمينة مشروب نعناع ساخنًا.

– لا يخرج ولا يطلع من البيت اليوم والدكان مقفول.

– حاضر.

شجع بسيط جاره على تناول لقيمات قليلة، وحين أطرق برأسه رفعه لشهقة بسيط السريعة ونهوضه المفاجئ، من بعيد كريم يقف أمام البيت فأسرعا نحوه، يقف محنيًّا ووجهه ممتقع، دون أن يسأله أحد تناثرت كلماته:

– أبي فص ملح وذاب.

– اهدأ يا كريم من أجل خاطر أمك وقل لي.

– لا أقول ولا أعيد، ما أحد رآه بالليل أو النهار، رجعت وأنا أتمنّى أن يكون بالبيت.

– لا حول الله، ربنا يرجعه بالسلامة.

– خائف أنه يكون أصيب و...

– يا ولدي، تفاءل بالخير تجده، معتوق صحب السلطان إلى حلب وعاد وهو يعرف يدبر حاله أكيد لبد في مطرح ومنتظر العركة تهدأ ويرجع.

– يسمع منك ربنا يا عم صبور، الناس كلها تحكي أن السلطان بعسكره أحاط بوطاق ابن عثمان وساق عليه جمالًا محملة ببوص وأشعل فيها النار فاحترقت خيام كبار جند ابن عثمان ببولاق وقاتل الجراكسة ولم تفلح بنادق العثمانية في الليل فقتل منهم ما لا يُحصى.

– تعال معنا.

– لا أبقى هنا يمكن يطب على غفلة.

– نبقى معك.

– تشرّف يا عم بسيط.

دخلا إلى الحجرة فوارب صبور بابها وراقب الشارع فلا أحد مرّ قريبًا من الدرب ومن بعيد الإنكشارية يصوّبون بنادقهم ويطلقون الرصاص ثم همدت حركة الشارع تمامًا، همّ أن يغلق الباب فلحظ شبحين أحدهما يتسنّد على الآخر يقبلان نحو الدرب، اتسعت عيناه حين اقتربا ووضح وجه شاب غريب يعاون معتوق في السير، فتح الباب ورمح يتبعه بسيط وكريم إلى منتصف الشارع فحمل أباه على كتفه وأسرع به، أراحه على الحصير فأغلق بسيط الباب، صرخة مكتومة أطلقتها زوجته حين اقتحمت الغرفة الضيقة فأشار لها معتوق أنه بخير وطلب منها تسخن الماء، خرجت السيدة ودموع الفرحة تبلل خدها، حدّق صبور في وجه الشاب فبادره في سرعة:

– انكتب له عُمر جديد، أصابه رصاص بندقية لكن ضربة على ظهره هي التي أتعبته.

– شكرًا يا ولدي، ربنا يستر والديك.

– أنا الباشق صاحب غسّاق وأمرني أرجع السقاء لبيته.

– وهو؟

– يقاتل مع جند السلطان.

– ووجدته في أي مطرح؟

– كان ممددًا جوار جامع ابن طولون.

– لكن سمعنا أن القتال في بولاق!

– عسكر ابن عثمان في كل مكان وفعلًا قاتلهم السلطان وأحرق خيامهم وأنا مع بقيتنا رجمناهم بالمقاليع وفيها حجارة ولما طلع النهار انضم الأمير علان الدوادار وفتك بعسكر ابن عثمان وطردوا من الجزيرة الوسطى إلى قنطرة باب البحر وقنطرة قديدار وسمعت أن العربان نهبوا وطاق العثمانية بالريدانية وقتلوا حرسه وذاق ابن عثمان وجنده ما أذاقه للجراكسة فصاروا يكبسون البيوت التي سكنها عسكر ابن عثمان فيقتلونهم.

– صار الطالب مطلوبًا.

لم يعِ كلمة صبور الأخيرة فسكت حين تناول كريم من أمه ماعون الماء الساخن لكن معتوق فضل أن يَذهب به إلى الكنيف فغابا بالداخل وخرج بسيط من بيت معتوق فالتفت صبور إلى الشاب الغريب وسأله:

– قلت لي اسمك؟

– الباشق.

– سمعت عن أمير من أولاد الناس في عسكر السلطان اسمه أنسباي؟

– الأمير أنسباي، أعرفه، عليه ضربة سيف لا تخيب وقتل من إنكشارية ابن عثمان فوق الثلاثين وغسّاق يحميه من ظهره.

– اللهم احفظه ونجه من الكرب.

– تعرفه يا شيخ؟

– أنا عمك صبور السراج، والأمير له معزة عندي وأرجوك تحميه.

– الحرب يا عم صبور وما أدراك ما الحرب كر وفر بالليل والنهار ورصاص حولنا وكل واحد بالكاد يحمي نفسه، سمعت أن السلطان يجتمع بعسكره عند جامع شيخو104 ومن هناك يوزع جنوده، أما العثمانية فطردوا المماليك من جزيرة الفيل وكبسوا على زاوية الشيخ عماد الدين بالناصرية ونهبوا ما بها من قناديل وقتلوا الجراكسة وأحرقوا البيوت من حولها.

– أشد ما آلمني يا صبور أنهم أحرقوا بيوت المصريين وقتلوا الشيوخ والصغار ولا ذنب لهم.

– تعال يا معتوق، استرح.

فحص صبور ظهر معتوق وأيقن أن اللطمة قوية يتوجّب وضع قشر البطاطا ليمتص الألم ولفها جيدًا بالقماش، أما كتفه فالإصابة خفيفة، فقام بتضميده ولف الجرح بشريط من الكتان وربطه، وأحضر له كريم الطعام وأكلوا معًا فعجل الباشق بإنهاء طعامه ونهض من فوره.

– ربنا وحده يعلم أني خاطرت بحياتي من أجل عم معتوق.

– شهم يا باشق وربنا يحفظك لشبابك وسلامي لغسّاق.

قالها صبور والشاب القوي يفتح الباب ويغادر البيت في سرعة وكأنه يطير من فوق الأرض، نهض صبور ليستريح جاره ثم يزوره بالليل فطلب منه معتوق البقاء قليلًا، تأكد من إغلاق الباب فتنهد وهو يؤكد:

– السلطان مهزوم لا محالة.

– لكن وصلنا أنه بهدل وطاق ابن عثمان.

– المشكلة في الجراكسة أنفسهم يا صبور، وأنا عند السبيل سمعت اثنين منهم يتفقان على البقاء ببيتيهما ويتركان السلطان لمصيره.

– لا حول ولا قوة إلا بالله، مصيره يكون كمصير الغوري.

– وأشنع، السلطان همته عالية ومن حوله عندهم صبر على القتال لكن بنادق العثمانية صيّادة، آخر خبر سمعته أن طومانباي صار يركب بنفسه ويكر من الصليبية إلى قناطر السباع في نفر قليل من العسكر ورسم بحفر خنادق عند الرميلة وحدرة البقر وجامع ابن طولون وأنا هناك عند مقام السيدة سمعت أنه نوى يحرق خان الخليلي لكن من حوله منعوه وقسم جيشه إلى فرق لكن بعضهم خاف واختفى في الإسطبلات.

– ربنا ينصر القلة القليلة على الكثرة الباغية.

وقف صبور وعض شفته، ربت على كتف معتوق وطلب منه الراحة التامة فلا يخرج أو يحمل قرب الماء وطمأنه أن بئر بيت جمعة مياهها تزداد حلاوة كلما نزحوا منها ولا يتوجّب عليه الخروج من بيته على الأقل الأيام الآتية، عاد إلى البيت ويداه خلف ظهره، احتار من أمر غسّاق، تارة يُصاب وهو يحاربهم وتارة ثانية يدلهم على بيوت المماليك وحواصل ثرواتهم وتارة ثالثة يوصي صاحبه الباشق أن يعيد معتوق لبيته وهذا الباشق يخبره أن غسّاق يحمي أنسباي إذن فالولد يحفظ الجميل وينفذ وصيتي، فلماذا يدل جند ابن عثمان على بيوت المماليك؟

قالها صبور بصوت عالٍ ثم تلفت حوله لئلا يكون عبده أو عشري هنا، سكت قليلًا وتفطن إلى فكرة عزم على تنفيذها صباح الغد، مد يده إلى الكتاب لكنه تركه، وأشار إليه.

– لا وقت للكتابة، يجب أن أجدك يا أنسباي حتى لو ضحيت بحياتي من أجلك.

***

قبيل المغرب، باب الدكان الموارب يخفي قامته وهو يلف حول صدره وظهره شريطًا عريضًا من الجلد ويربطه بإحكام، انتعل خفًا متينًا ذا رباط من الخيط لفه على قصبة رجله، في الزنار ثبت غمد الخنجر المسنون، ارتدى جلبابه ولف حول جسمه عباءة يوسف النحاس القديمة، الشملة حول رأسه تقيه البرد، اعتصرت أصابعه رمانة الشومة الحديدية، خطا وأغلق باب الدكان، رفع رأسه إلى مشربية حجرة حجاج فقد كان سيغادر الدرب صباح اليوم لكن حجاج زادت سخونة جسمه فبقي معه يغطس خرق القماش في الماء البارد ويمررها على جبينه ورجليه وصافية تسقيه الحلبة الدافئة وبعد قليل تستبدل بها النعناع ومسكة تعاون في تغيير خرق القماش أما أمينة فسلقت أرنبًا وتناول القليل من نسائر لحمه، عشري يبكي لكنه قال له:

– لا تبك، الرجل لا يبكي وادع له بالشفاء.

بقي معهم إلى الظهر وفوجئ بالدعاء للسلطان طومانباي بالنصر المؤزر فأيقن بهزيمة ابن عثمان بعد أن ظن أنه ملك البلد وربما الليلة أو في الغد يطارده المماليك وهو يولي هاربًا صوب الصحراء فقرر الذهاب إلى الصليبية واستعادة أنس من هناك، بعد العصر اطمأن أكثر على حجاج بعد أن عرق وخفضت حرارته، استحم بماء بارد ورآه يقعد على السرير وصافية لا تبخل عليه بالأعشاب الدافئة، دون أن يخبر أحدًا خطا نحو بيت معتوق وقرع الباب، وقف السقاء أمامه وبظهره انحناء من أثر ضربة البارحة.

– اسمع يا معتوق، أنا ذاهب إلى جامع شيخو ولو تأخرت أو جرى لي حاجة ابقى أخبر حجاج.

– يرافقك كريم.

– لا، إن تم مرادي أرجع أنا لا يهمني جراكسة ولا عثمانية، عليهم لعنة ربنا كلهم أغراب وما لهم عمل غير سلب قوتنا.

– يحفظك ربنا يا صبور وترجع بالسلامة وأنت في الطريق تجد بيوتًا كثيرة مفتوحة الأبواب ومنهوبة، اختبئ بها إن رش جند ابن عثمان رصاص بنادقهم وهاك بلطة ضعها تحت العباءة.

تمنع صبور لكن معتوق أصر فثبت يد البلطة الخشبية بالزنار ولامس رأسها الحديدي فاطمأن إلى حدتها، غادر البيت وسار يتلفت حوله، ظل يسير حتى بدأت العتمة تتسحّب، ودوي الرصاص يتعالى كلما اقترب من مقام السيدة، يمّم بصره إلى بعيد فطاشت رصاصة جوار رأسه، ارتجف ورجع بظهره إلى الوراء حتى دلف بيتًا بابه مهشّم، خشي أن تفضحه أنفاسه اللاهثة، لم يتحرك شبرًا حتى إذا ما اطمأن قليلًا أطلّ برأسه واخترقت عيناه الظلام البعيد لكن المشاعل التي يحملها أناس يجرون أنارت الشارع فوجدها فرصة الانضمام إليهم فجرى واندس وسطهم وسمعهم

يتلاغطون بأنهم يلحقون المقاتلين عند جامع ابن طولون، تعمّد أن يكون في وسطهم لئلا يُصاب برصاص البنادق، وصدق ما توقع فما إن اقترب من جدار الجامع حتى طرشهم الرصاص فخر البعيدون عنه صرعى وصرخاتهم ترج المطرح ورفاقهم يتركونهم وهم يجرون متفرقين، لا يدري كيف لمح هيئة غسّاق يختبئ خلف جدار متهدم لكنه دهش لوقوفه مع غيره من الزعر وتصويبهم مواسير البنادق ويطلقون الرصاص من حين لآخر، جرى نحوهم وأمسك بذراع أحدهم فلم يجده غسّاق أو الباشق، خفق قلبه من الطلقات المتداخلة، أسرع إلى ظهر شاب وخبط كتفه فالتفت إليه وحدّق.

– السراج، أنت هنا يا عم صبور؟

– أنسباي يا غساق؟

– كنت معه حتى العصر لكنه ركب فرسته واختفى.

– فرسته؟

– نعم فرسة قوية كان يناديها بعفيفة.

أغمض عينيه وكاد يفقد وعيه، فأقعده غساق ومدّ له قربة صغيرة بها ماء لكنه أشاح برأسه وتماسك.

– وتركته يا غساق أم دليت عليه كما...

– بريء يا عم صبور، كنت أضلل العثمانية وأرشدهم لبيوت وحواصل مهجورة وأعرف معسكر قوادهم وأنقلها للأمير كرتباي الوالي فيهجم عليهم بمن معه.

– أدفع لك ما تريد وتصلني لأنس.

– خيركم سابق يا عم صبور وأقسم أني لم أره وسرت نحو مصر العتيقة لأقتل العثمانية هناك.

– ماذا فعلوا؟

– هجموا على مشهد السيدة نفيسة وداست حوافر خيولهم على قبرها وأخذوا الشمع وقناديلها الفضة وقتلوا الفقراء المحتمين بزاويتها.

همّ أن يتكلم لكن واحدًا من الزعر ارتمى على الأرض وثقب بصدره ينزف، رفع غسّاق رأسه وجحظت عيناه لوجه الباشق يلهث وكأنه جرى بطول النيل، ابتلع ريقه فرفع صبور إلى فمه القربة، شرب وشفتاه ترتعشان، مسح جبينه من العرق فانتثرت كلماته:

– جند ابن عثمان صعدوا مئذنة الجامع وضربونا بالرصاص.

– جامع، أي جامع؟

– جامع المؤيد شيخ105 وأطلقوا على كل من بالشارع نار رصاصهم حتى طلع لهم الأمير أنسباي ومن معه وقتلهم شر قتلة.

– تقصد أنسباي ابن ططر يا باشق؟

– نعم يا عم صبور، أنسباي من أوصيتني به، نظف جامع المؤيد من نجاسة جند ابن عثمان.

– وأين هو؟

– لا أدري جرينا والرصاص حولنا فأصبت.

– لا تتكلم يا باشق.

أطبق الفتى شفتيه وارتخى جسمه، فهمّ غساق بحمله لكن كتيبة من الينكجرية اقتحمت الميدان وأطلقت الرصاص في كل مكان دون تفريق، شخر الباشق وهمد بدنه فأيقن صبور من موته، أسبل عينيه ولم يجد شيئًا يغطي به وجهه، أصابع قوية تقبض على معصمه ويشده في قوة فتبع غساق على الفور وعلا صوته:

– الباشق مات.

– أعرف ولازم نصل إلى الرميلة.

لم يكن بمفرده الراكض مبتعدًا عن مرمى النيران تتخبط أقدامه في جثث مرمية وتارة أخرى يدوس رأسًا فيصرخ من فرط رعبه الملفوف بالسخط، بيت بابه مخلوع جريا نحوه وتواريا بظلامه، عينا غسّاق تبرقان وهو يأمر صبور:

– مهما حدث يا شيخ لا تخرج وأنا أحاول أن آتيك به.

نهض من فوره وجرى فأطلّ صبور، جحظت عيناه للمشاعل التي أحالت الساحة الواسعة إلى نهار محترق بفعل الرصاص والغبار، رغم برودة المكان فإن العرق يتفصّد من جبينه فمسحه بكم جلبابه، من خلف الجدار ارتجف قلبه فالمماليك على خيولهم يقتحمون جموع جند ابن عثمان وما إن يصل أحدهم

حتى يطير سيفه الرقاب ويطعن الصدور في سرعة وخفة والمشاعل تلقى على الأرض وصرخات الموت تلفظها الحناجر، يظل الجندي يقاتل فإن أصابه نار الرصاص في رأسه أو صدره انهار من على فرسه ودهسته حوافر الخيول، ميز قامة غساق وهو يتقافز ويضرب بسيفه يمينًا ويسارًا وواحد من العثمانية يرفع بلطة ويهم بفلق رأسه فلم يجد نفسه إلا راكضًا نحوه ودافعًا الجندي من وسطه فألقاه بعيدًا، رفع خنجره وطعنه في صدره ونهض من فوره فرفع بلطة معتوق وظل يقطع لحم من يقترب منه، لسعته شعلة ملقاة على الأرض فرفعها، جحظت عيناه لنصير الواقف جوار فرس يدفع بحربته كل من يقترب من جند ابن عثمان، جأر صبور بصرخته حين أبصر أنس على الفرسة يضرب بسيفه ومزيد من الجند يكبسون من كل ناحية وفوجئوا بالرصاص ينصب عليهم من علاوي البيوت فارتجّ الميدان ومن معه درع رفعه على رأسه فأصاب الرصاص صدره وبطنه فوقع من فوره يخبط الأرض بيديه، علا صوته في غساق:

– قل لأنس ينزل من على فرسته.

لم يسمع الشاب لكن صبور رأى أنس ينفلت من صهوة الفرسة ويقاتل حر الحركة والرصاص من حوله يدوي فانتفضت عفيفة وصهلت في حدة قبل أن تركض مبتعدة عن مرمى النيران فأوقفها وجود العربات الخشبية المقلوبة، رآها صبور تجفل وتميل رقبتها ثم تبرك وحوافرها تدق الأرض، منحنيًا جرى نحوها، الرصاص اخترق عينها اليمنى وصدرها والدماء تغزر من قلبها، ساقها تعلو وتهبط وارتعش مشفراها ثم همدت حركتها، احتبست الصرخة في حلق صبور وفرد ذراعه على بطن الفرسة، قبل جبينها ومسح رقبتها وشعر بروحه تشرخ فرفع البلطة بيد والخنجر بالأخرى وجرى يضرب كل من يقابله ووقف فجأة لغسّاق يحمل على كتفه جسدًا ويبتعد به جواره يحمي ظهره الخادم نصير فأدرك أنه...

أنسسسسسس.

صرخت روحه وهو يهرول نحو حفيده وغسّاق تتسارع خطواته ثم تجفل فجأة وكاد يقع لولا صلابته، ثقلت قدماه وظهره يتلقى الرصاص، ترنّح وانهار على ركبتيه فحمل نصير جسد أنس، قبض صبور على ذراع غساق لكنه أشار إليه أن يبتعد، انكفأ على وجهه فلم يجد صبور مفرًا من رفعه على كتفه وسار به خلف نصير قيد خطوات فأسعفه باب بيت مفتوح على مصراعيه فدلفه وأراح الشاب، نزع القربة الصغيرة وأراد أن يسقيه لكنه مال برأسه فأيقن أنه قتل، أراحه ووقف أمام رأسه، رمقه وهو مجزوع على الشاب المصري ومروءته التي لا تضارع، خلع عباءته وفردها عليه، غادر البيت ومن بعيد يتماوج ظهر نصير بحمله الثقيل تسارعت خطواته وصدره ينهج من فرط ما لاقاه من جهد، لحق بهما وخطوات نصير تبطئ، واراهم سواد الليل فقاد نصير نحو زاوية لمقام لا يعرف صاحبه، دخل وبرفق أراح أنس وصدره يعلو ويهبط، مال على قلبه وأذنه ملصوقة بثوبه الرث، نبضات قلبه دفعته لأن يلهج لسانه.

– حي.

– وجروحه؟

– نفحصها.

مزق جلبابه ومسح الدماء من رأسه، يبدو الجرح وكأن الرصاص قشر الجلد دون اختراق الرأس، رفع رداء القتال المتين فوجد الرصاصة مخترقة الصدار الجلدي ومستقرة أسفل العضد، أخرى أصابت فخذه فلف صبور عليها مزق القماش الطويل وربطه بإحكام، كلاهما قد بلغ منه الجهد ويبدو على نصير أنه لم يذق سِنة من نوم طوال أيام فمال برأسه وعيناه مغلقتان وكأنه اطمأن لوجود صبور، هزه فلم يجب وأنفاسه تهدأ رويدًا، نهض وأطلّ برأسه، البقعة ليس بها صريخ ابن يومين على ما يضرب به المثل ومن بعيد يتناهى لصبور فرقعة المكاحل وأصوات رصاص البنادق الخافتة.

اعتدل نصير في رقدته، بكفه تأكد صبور أن قلبه يخفق ولا إصابات، تارة أخرى نهض وجالت عيناه في الملقة106 المقفرة، لا يدري أين قادتهم أقدامهم فكل ما رضي عنه أنه ابتعد عن خطر الموت المحقق في ساحة جامع شيخو، من حين لآخر يهز أنس فترتعش أجفانه ويتأوّه وجده يعض شفته هلعًا عليه، انهار على الأرض وظهره يسنده الجدار، مكث ساكنًا ساهمًا واستحسن بقاءهم حتى ينال نصير قسطًا من الراحة تمكنه من السير، أمال رأسه إلى الوراء ومضت ساعة وأخرى ولم يؤذن للفجر وكأن الوقت لا يريد أن ينقضي فتغرق المحروسة في دوامات سواد الليل، بقي على حالته من السكون حتى توالى نباح الكلاب فهب من قعدته ودار في رأسه أن الشمس طلعت ويحمل أنس فيلفت الأنظار وربما يشير إليهم واحد من الزعر فيبيعهم للعثمانية.

العتمة لا تزال مطبقة ويلزم العودة إلى الدرب في أسرع وقت، هز نصير فتململ الخادم وفتح عينيه، ارتعد أول الأمر وفي الظلام ميز وجه صبور المائل عليه

وصوته يهمس:

– لا بد من العودة للدرب، هناك أمان وأعالجه وأداويه وبعدها يدبرها ربنا.

نباح الكلاب يقترب وصوت ينهرهم، بص نصير على القادم من بعيد، رجل يمتطي حمارًا بطيئًا ومن حين لآخر يضرب بعصاته الكلاب.

– امشوا الله يلعنكم، أنتم والعثمانية والمماليك علينا!

في حركة مباغتة اعترض صبور طريق الرجل فمال بظهره إلى الوراء وجزع من العفريت الذي طلع له من الخرابة.

– بسم الله الرحمن الرحيم، سلام قولًا من رب رحيم.

– لا تخف يا شيخ، أنت مكاري؟

– خدامك.

– نريد أن ننقل ولدي المصاب.

– لو مملوك أو من أولاد الناس يبقى اتركوني، أنا صاحب عيال والعثمانية يقتلوني أنا وحماري الأجرب.

– لا مصري وابن مصري لكنه مجروح و...

– المهم تدفع لي دنانير.

– أدفع لك كل ما تطلبه.

نزل العجوز وخطا نحو المقام، في سرعة حمل نصير أنس وأنامه على بطنه فوق ظهر الحمار، احتاط المكاري وفرد على ظهره كيسًا كبيرًا من الصوف فلم يظهر منه شيء وساق الحمار وصبور يوجهه ونصير يتعجّل حتى انفتق النور من جوف العتمة وهم على مشارف الفسطاط فاستقبلهم هواء النيل البارد فرشق ظهر صبور، ارتجفت أوصاله لكنه ظل يسير جواره ويدعو ألا يقابلهم أحد من المشاعلية أو حتى الزعر، تخطوا مرسى السفن، النور يضيء الدنيا والحمار الأعجف يخطو ونصير يسير وهو يوازن جسد أنس وصبور يمسكه من الناحية الأخرى والمكاري يلهث من طول الطريق الذي لم يتوقعه، مروا بجامع عمرو فلم ير صبور أي أحد من المارة والحوانيت جميعها مقفلة والمشربيات مسدولة ولا شيء غير كلاب السكك تعوي حين يمرون أمامها، مال الحمار نحو الشارع وانحرف إلى الدرب فالتقط صبور أنفاسه لوقوفهم أخيرًا أمام الباب، بقبضته توالت طرقاته في عنف، فتح معتوق فحمل نصير أنس ودخل في سرعة، أعطى صبور المكاري أجره وزاد عليه فرضي العجوز وأدار الحمار مبتعدًا به.

أغلق خلفه الباب وهذه المرة حمله صبور وسط اعتراض نصير وطلب معتوق أن يبقى لكنه حمله وقاده السقاء للباب الثاني فخرج وسار في هدوء وصبر حتى البيت، تناول معتوق المفتاح وفتحه على مصراعيه فدخل صبور وصعد السلم، نطق الشهادتين حين أراح أنس على السرير وانهار جواره وهو يبكي ونصير يربت على ظهره ومعتوق يقوس ذراعه حول كتفيه ويهنئه:

– حمدًا لله على سلامتك وسلامة أنس يا صبور.

لا يدري ما يفعل، يرقص ويغني أم يقفز لتعلو رأسه عنان السماء، يصرخ بأعلى صوته فيصحو أهل الدرب أم يصمت ويظل يكحل عينيه بوجه أنس، أخيرًا ابن مصري وعفيفة في حضنه، رفع يده واكتفى بتقبيلها، سحب عليه الغطاء والتفت لنصير.

– إغماؤه طال.

– من طلق الرصاص على رأسه لكنه يتنفس.

– صحيح يا صبور، إصابة الرأس تفقد الإنسان وعيه وتصيبه بصداع والأفضل أن يترك فيفيق على مهلٍ.

أمال ذبالة المسرجة فأوقد عظام الذرة والحطب اليابس بالماجور، غاب قليلًا وأتى ببيض فكسره بالوعاء وغرف عليه السمن، وضعه على الماجور وحرك الملعقة الخشبية بهدوء، طلب من معتوق تجهيز البيض وغاب بالحجرة المجاورة وأتى بقفة الخبز البارد وطبق به قطع الجبن، قلب الخبز حتى احمرّ، وعاد نصير من الكنيف والماء يغرق رأسه.

– اصبر وأسخن لك الماء لتستحم.

دون أن يطلب مدّ الخادم يده ليسكن جوفه المتضوّر من شدة الجوع، أكل في نهم وشاركه صبور ومعتوق تناول نصف رغيف ونهض من فوره، فتبعه صبور واختلى به في حجرة الخزين.

– إياك يا معتوق يعرف أي مخلوق بأنس.

– ما في مخلوق غيرنا في الدرب.

– ومصطفى وبسيط و...

– مصطفى ملتزم البيت وبسيط عند أخته مريم لأن ابن أخته جاءه وأخبره أن أباه أصيب وعطية ساعة ينام وتظنه لا يصحو وساعة يميل رأسه ويتكلم مع مخاليق لا يعرفها إلا هو.

– ربنا يكون في عونه.

مشى معتوق وعاد صبور إلى الحجرة فوجد نصير لحس البيض ومال بجسمه إلى الجدار، جلس أمامه وسأله:

– طلبت منه ألا يترك القصر.

– أصر على اللحاق بفرق السلطان عند جامع شيخو، وأمرتنا الخوند أنا وتمرباي أن نتبعه.

– وأين تمرباي؟

– رحمه الله.

– مات؟

– وهو يدفع العثمانية عن الأمير أنسباي، أقصد أنس.

– لا تهتم، عليه رحمة الله والله إنه لرجل طيب حتى إن كان من المماليك، مات وهو يتمنى العودة لأهله رحمك الله يا اسندر، رحمك الله يا تمرباي.

– وبقيت أتبع أنس كظله وشاركني واحد من الزعر.

– غساق، أنا طلبتها منه والشاب وفّى بوعده.

– إلى أن مات.

– والخوند وبنتها وجواريهما وخدمهما؟

– لا أعرف عنهم خبرًا، كان كل همّي أحمي الأمير.

– ومكافأتك عندي كبيرة يا نصير.

– مكافأتي عند ربنا يا عم صبور، وأرجو أن يسامحني ويكفر عني ذنب السكوت عن خطفه من حضن الست العجوز وهي تحاول بكل جهدها أن تحميه وتخلصه من يد ططر المجرم حتى قتلها ضبع الحيوان، الله لا يورده على الجنة ولا يشم ريحها.

– استرح وأنا أبقى جواره حتى يفيق.

– لا، يلزم العودة إلى القصر والاطمئنان على سيدتي، معذرة، أكلت كل الـ...

– عيب يا رجل، اصبر وأجهز لك الماء.

– لا وقت، أطمئن على القصر.

رافقه صبور إلى بيت معتوق وخرج من باب غرفة الشارع، طلب صبور من معتوق أن يعاونه في تطبيب أنس، فرافقه حتى بيت زيتون، دخل واطمأن على حجاج فوجده أحسن من ذي قبل لكنه يشعر بهمدان جسمه، لم يشأ أن يعلن عن وجود أنس حتى يستريح ويمهد له ولهم، طلب من حجاج جراب أبيه زيتون الذي يحتفظ فيه بعدد وأدوات كان يستخدمها في قص الشعر والكي وخياطة الجروح وغيرها، كعادته لا يسأل فمد يده في طاقة بالجدار وأعطاه إياه وطلب منه أن يطهرها بالماء المغلي، نزل في سرعة ورافقه معتوق إلى أعلى، خلع جلبابه وركن ماعون الماء على الماجور، سحب صبور العدد الرفيعة من الجراب الجلدي العتيق، وضعها في الماء وزاد من النار

وانتظر حتى غلت، نظف يده وسكب من زجاجة نبيذ القليل ففرك أصابعه ثم غسل يديه مرة أخرى ومعتوق يفعل مثله.

على قماش أبيض نظيف رص العدد وفي همة خلع معتوق عن أنس ملابسه القطعة تلو الأخرى وكشف موطن إصابة فخذه واختبر عمق الجرح، أقحم صبور الملقط الرفيع وحركه وأنس يتأوه، في رفق سحبه وبين مشفريه الحادين رصاصة مستديرة، مسح الجرح ونظفه من الدم المتلزج حوله، دهنه بعجينة زهرة زبيدة ولف حوله مزق القماش وربطه جيدًا، فحص معتوق الإصابة الثانية وتأكد أنها ليست رصاص البندق إنما طعنة سيف غائرة، فنظفه صبور وكبس الجرح بمطحون قشر البطاطا، ودهنه بالعجينة الشافية، أما جرح رأسه فما كاد يمسحه بالماء حتى أبعد يده كالملسوع لعيني أنس المحملقتين في سكون ووجوم ودهشة ما بعدها دهشة، حاول النهوض فعاونه معتوق حتى قعد والاستغراب يتلبس قسمات وجهه الغضة، قرر صبور إنهاء مداواة الجرح الأخير فدهنه بمطهر واستسلم أنس للف القماش الطويل حول رأسه ورفعه ولا يدري ما يقول للعجوزين الواقفين أمامه، مال صبور نحوه وأراد أن يقبل رأسه فأبعدها ببطء وصوّب نظراته في وجه السرّاج فأشار صبور إلى صدره والابتسامة ملء وجهه.

– أنا جدك يا أنس.

***

-١٦-

لم تكد الشمس تتوسّط السماء وترسل دفأها على أرض الدرب الباردة حتى صحب معتوق الخادم نصير العائد من الأزبكية إلى بيت صبور فوجده كما هو منذ أن تركه جوار حفيده، وأنس يقعد على السرير وحشية تسند ظهره وساقاه ممددتان، الصداع يطن برأسه وأحيانًا يحس أنه لا يسمع فاستسلم لحالة اللا قدرة على الاعتراض وصبور يطعمه اللقمة تلو الأخرى المغموسة بعسل النحل لحين إحضار دجاجة مطبوخة طلبها من صافية فشرعت في تجهيزها لضيف أبيها الذي لا تعرف من هو، تركه أنس يطعمه بعد أن كادت مصارينه تتقطع من شدة الجوع فلم يذق لقيمة من يومين كاملين وإذا أضيفت جروحه وما فقد من دماء فقد تلبسته كل صنوف الضعف وتهيأ بعد إفطاره أن يستجوب السرّاج عما جاء به إلى هذا البيت الحقير ونومه على سرير قديم مرتبته زنخة.

دبدبة الخطوات القادمة تلفت انتباه صبور لكنه لم يهتم بغير إطعام أنس وهو مشدود النظر لوجهه المطابق لابن أخيه مصري ولابنته عفيفة، دخل معتوق يعقبه نصير فاعتدل أنس في جلسته ووقعت اللقمة من بين شفتيه، مال الخادم على رأس سيده وقبله وهو يدمع فبقي أنس واجمًا وتشابكت أفكاره فلم يجد لها تفسيرًا يقنعه بوضعه الحالي في بيت يجهل صاحبه والسراج يطعمه والخادم يأتيه مع عجوز غريب، أغمض عينيه وتنفس في بطء، قبل أن يتكلف السؤال بادره صبور:

– تريد الاستحمام، الماء الساخن جاهز وملابسك نظيفة.

تارة أخرى وجد الانصياع في صالحه فإنه يحتاج الحمام ويرغب في خلع ملابسه التي يعبقها عرق مضمَّخ برائحة الدماء، دلدل ساقيه فألبسه صبور القبقاب، تحامل على كتف نصير ورافقه إلى الحمّام، أراد الخادم أن يدخل معه؛ ليعاونه في خلع ملابسه لكنه أشار إليه فأحجم وأغلق على نفسه الباب، وجد ملابس نظيفة تفوح منها رائحة طيبة معلقة على مشجب خشبي مدقوق بالجدار.

في الحجرة قدم صبور لنصير الشراب الساخن، وأطرق رأسه فلحظ صبور امتقاع وجهه فسأله:

– الخوند بخير؟

– لا أعرف، الأزبكية كلها سكنها إنكشارية ابن عثمان وجنينة قصر الأمير ططر نصبت بها خيام وقائدهم في القصر.

– متوقّع يا نصير ولعل الخوند والأميرة هربتا قبل أخذ القصر.

– الله أعلم ولا أدري كيف أخبر الأمير، أنا أعرفه ممكن يغامر ويهجم على القصر وهناك...

– لا تقلها يا نصير، وعزة جلال الله ما يمس ابننا أحد بسوء، هو معي وفي حضني ولا أفرّط فيه بعد اليوم لمخلوق.

– أكرمك الله يا عمنا لكن أنا، ما لي بيت أسكنه.

– تسكن معنا يا نصير ومنه ترعى الأمير.

– بالله عليك لا تكررها يا معتوق حفيدي ليس أميرًا، إنه أنس، أنس بن مصري يجب أن يعرفه كل من بالدرب بهذا الاسم وإلا...

– فهمتك يا عم صبور؛ حتى لا يقتله العثمانية أو يدل عليه واحد من الطامعين في رضاهم.

– وما أكثرهم من خونة!

ما إن نطق بها حتى هبّ من جلسته وأسرع خارج الغرفة يتبعه نصير، عاونا أنس الواقف أمام الكنيف على العودة إلى الغرفة، برفق ينشف نصير شعر رأسه وصبور يفحص جرح فخذه ويزيل الضمادات المبلولة، أعاد دهنه بالمرهم الشافي ولف القماش النظيف حول كتفه ورأسه، عاوناه على ارتداء ملابس ثقيلة ولف عليه صبور عباءة جديدة كان قد أهداها له تاجر مغربي نظير صناعة عدة سروج، في رفق استراح على السرير وهم صبور أن يغطيه لكنه أشار له فوضع خلف ظهره حشية كبيرة، شعر أنس بالراحة وخف طنين رأسه لكن الصداع يؤلمه، ركن صبور التنكة على أوار الماجور الهادئة وبها خلطة النعناع بالزنجبيل وانتظر حتى غلت وصبها في كوب فخاري وحلاها بالعسل، أنس لا يزال في وجومه لكنه مستريح لأمان لا يدري كنهه، تناول من يد صبور الكوب

وطفق يشرب ونصير يتريث حتى أراد أن ينحّي الكوب فأصر صبور على شَرب كل ما به، في ارتباك تكلم نصير:

– مولاي الأمير، الخوند والأميرة لا أدري مصيرهما، العثمانية استولوا على القصر و...

ألجم لسان نصير وانحدرت دموعه على خده فمد أنس يده وربت على كتفه ولم يبد عليه أي أمارة للغضب أو الثورة لخبر فقد قصره فخمن صبور أن يكون أنس نفسه احتاط للأمر ونقلهما من القصر قبل معركة الصليبة وما حولها، أنهى ما بالكوب فأخذه منه معتوق، نظر إليه فعرّفه صبور:

– معتوق السقاء.

لم يبال به وأوجس في نفسه ترفعًا تربّى عليه منذ نعومة أظافره، مطّ شفته ودار في باله أن العثمانية قاتلي أبيه الأمير ططر والغوري في حلب دخلوا المحروسة ووصله أنهم ينهبون ما تطوله أيديهم فما بعد ذلك إلا الهوان فلا بأس أن يكون في بيت سراج ويقعد معه خادم ويحادثه سقاء وجميعهم وغيرهم كان الواحد منهم لا يجرؤ على أن تمس قدمه الأبسطة المفروشة على سلم القصر، التفت إلى نصير وهزّ رأسه في وهن وهو يجاهد كي يتكلم بثبات:

– أعلم مكان أمي وأختي.

صدق ما توقعه صبور، من فوره نهض وغاب عنهم قليلًا، عاد بين يديه الطعام، قرّب معتوق المنضدة فركن طاولة الأطباق الكثيرة وألقي نصير بآخر كلماته:

– أنا والمعلم صبور حملناك إلى هنا.

انبسط صبور من إخبار أنس بإصابته وإغمائه ونقله حتى يعطيه الفرصة لأن يجهر بعد الغداء بالسر المكتوم منذ ولادته وعزم ألا ينقضي النهار ويكون أنس قد عرف بكل ما يريده وينوء بكتمانه طوال أعوام، رفع الأغطية وفاحت رائحة الملوخية ومرقة الدجاج، قرب منه الطعام فمد يده وأمر صبور كلًّا من معتوق ونصير لكن الأخير لا يجرؤ على مشاركة سيده فرفع معتوق طبقين وافترش الأرض داعيًا نصير فجلس قبالته وصبور يخلص لأنس نسائر اللحم ويعطيه النسيرة تلو الأخرى فاستطاب أنس الطعام المطبوخ وأقبل عليه في شهية فتناول الشوربة وتلذذ البتاو الساخن فشعر بالامتلاء وصبور لا يكف عن تهيئة الطعام له حتى أشار أنه شبع فرفع وعاء الماء فغسل يديه وفمه وأنهى نصير ومعتوق غداءهما فأحضر صبور كرسيين وتحلقوا حول السرير، انفرجت أسارير أنس عن ابتسامة وهز رأسه وهو يرمق صبور في رضاء:

– أشكرك يا عم صبور واعذر لي معاملتي لك بقسوة، حقيقة ظننتك متطفلًا على أمي.

– لا تفكر في شيء يا أنس غير أنك هنا بعيد عن القتال والخطر.

– لكن يجب عليّ معرفة مكان السلطان واللحاق به لقتال العثمانية والثأر لأبي.

– لا، يجب عليك معرفة الشيء الأهم.

أطبق صبور فمه وثبت عينيه في عيني حفيده وشعر بحقه في أن يسمعه ويعرف سبب مخاطرته لإنقاذه، تأرجحت نظرات معتوق بين الشاب والعجوز وأراد ببديهته أن يمهد أكثر لأنس ما يريد صبور أن يفجره فرفع سبابته وهو يخبره:

– الأمير ططر حارب ومات وهو على جواده.

– ومن أدراك يا...

– كنت سقاء السلطان طوال سفرنا إلى البلاد الشامية حتى مصيبة مرج دابق.

قرن أنس حاجبيه وكسته علامات الاهتمام بمعتوق، التقط نفسًا عميقًا وزفر في هدوء، خشي صبور أن يروي معتوق ما كان من ططر وغيره من مماليك مما حكاه الحارس صخر من خياناتهم وتلهفهم في جمع المال دون الاهتمام بمؤازرة غيرهم في المعركة، غمز معتوق لصبور بعينه ولوى رأسه إلى أنس وشرع يروي ما مر بهم منذ خروجه والتحاقه بخدمة السلطان والأمراء ودهش صبور من قدرة معتوق على اختزال الحوادث التي لاقاها وأعجب أنه اكتفى بالتأكيد أن الأمير ططر حارب ومات برصاص بندق العثمانية وهو على جواده حتى إذا ما تناول مصير السلطان قانصوه أمسك لسانه فسأله:

– والسلطان يا عم معتوق؟

– لا أحد يعرف ما جرى له، ناس تقول أنه هرب ومات في الصحراء وناس تقول أنه لم تعرف جثته وسط جثث القتلى وآخرون يروون أن واحدًا من عبيده دفنه في قبر مجهول.

لا يدري أنس ما داخله من شعور تجاه السقاء الفقير فلم يحك أحد من العائدين حقائق مثل ما رواه معتوق على كل ما جرى من إهلاك الأمراء الجراكسة في مرج دابق، رضيت نفسه بالتعرف على شاهد عيان للمعركة استخف بوجوده أول الأمر، تأرجحت نظراته بين خادمه والسقاء وفكر في ما رواه كل منهما، اصطدمت عيناه بعيني صبور الصقريتين فانتابه إحساس بأن السرّاج العجوز لديه الأهم من وقعات المعركة فاستطابت نفسه دفء الحجرة الضيقة والماجور تومض نيرانه فلا بأس من المكوث لساعات وسط ثلاثة من العوام ويتفضّل للاستماع لهم لكن دهشة من نوع ما نغزته فلا يُعقل أن سراجًا يخاطر بحياته وهو على حالته من الشيبة وثقل أعوامه التي قاربت الستين لمجرد أنه كان على معرفة بجده لأمه فأيقن أن الأمر فيه سر مختلف، نهض صبور وغادر الغرفة، غاب قليلًا وعاد فأغلق خلفه الباب، أطلّ من المشربية فوجد الدرب غارقًا في صمت وبيوته جميعها مغلقة

الأبواب وتوفيق من نوع ما حالفه بعدم زيارة حجاج وصافية له في ذلك الوقت حتى عبده وعشري لم يسمع لهما صوتًا، أمال خشب المشربية وقرّب كرسيه من السرير.

– اسمح لي يا حبيبي أن أناديك بـ أنس، أعرفك أكثر بنفسي فأنا صبور بن محمد بن الحسن بن عبد الله السرّاج، كنت أعيش بأسيوط ولي بها بيت ودكان وكان لي بنتان عفيفة وصافية، وفي نهار أحد الأيام منذ أكثر من عشرين سنة قبض عليّ مماليك الأمير تمربغا وقادوني إلى قصره وعفيفة ابنتي بقي لها أيام وتلد و...

ران الهدوء وصبور يروي ما مرّ به ومعتوق يرقب قسمات وجه صبور تنقبض تارة وتنبسط أخرى وصوته يحجم ويقدم وأعجب بطريقته التي لم يباغت بها ذهن الشاب الصغير فيصدمه بحقائق تصفع نفسه وقد يكذبها أو تصيبه لوثة من جنون لأصله المزيف الذي نشأ عليه وسمعة الأمير الذي سرقه من أهله، فصبور يستدرج أنس رويدًا ويمهد له الحقيقة العظمى التي يجب أن يعرف سرها اليوم، أما أنس فلم يجد شيئًا يخصه في رواية السرّاج عن هروبه ببنتيه في سفينة فرارًا من انتقام المماليك وأكبرهما في شهرها الأخير فتلد وتمرض وتموت وحين يذهبون لدفنها بمقابر قرية ينتزع واحد من المماليك الطفل الرضيع، ظل يستمع وصبور يسترسل في روايته دون أن يفصح عن كون الأمير أو الخوند التي وصفها بأنها صالحة، صمت ورفع القلة وشرب، مسح شفتيه واتسعت عيناه.

– خدعني الأمير واحتال على زوجته النبيلة وملك حفيدي، الأمير هو ططر وزوجته الطيبة خوند عنود وولدي ابن مصري وعفيفة...

امتقع وجه أنس واتسعت عيناه، تدلّى فكه ونتر الدثار من عليه، همّ بالنهوض وهو لا يصدق أن...

– والرضيع هو أنت يا أنس.

نصير ومعتوق يحاولان مساندته فأبعدهما بذراعيه القويتين، كاد يقع من ألم فخذه وهذه المرة أحاطه صبور بذراعيه فارتعشت شفتاه غير مصدّق، أعاده إلى السرير وسكت؛ ليعطيه فرصة استيعاب الحقيقة، ثقل جفناه فغامت الرؤية أمامه، أغمض عينيه، طافت بذهنه ذكريات شتّى لكن جميعها تؤكد أنه ابن الأمير ططر فكبر في قصره بالإسكندرية الذي كان يعمل في حاميتها وكلف ثلاثة من شيوخ مسجد أبي العباس المرسي بتعليمه القراءة والكتابة وتحفيظه سورًا من القرآن الكريم وعهد إلى سيف الدين بن صقر وهو فارس من مماليك الأمير قجماش الإسحاقي الظاهري والي الإسكندرية في عهد الأشرف قايتباي أن يدربه على كل فنون القتال فأتقن الطعن بالسيف وسهمه لا يخطئ عين طائر البحر في السماء وحربته تشق بطن الحوت، يهترئ ظهر الفرس حين يمتطيه، مرة واحدة قضى عدة أسابيع في بيتهم الكبير بالفشن الذي وصفه السراج بدقة، بعدها عاد إلى الأزبكية ومن يومها وهو يرى الأمير ططر يتجبّر في خدمه وحرسه فيقلده أحيانًا ولا يعرف من حياته سوى أنه الأمير أنسباي ثم يأتي سراج فقير فيبدد حياته في قعدة واحدة، وكان يتعجب من قرب السراج من مملوكه تمرباي راعي الإسطبل ومن أمه نفسها التي أخبرته أنه قريبها وفي مقام جده، حتى ضاق به صدره يومًا وهمّ أن يجلده ويقتل الفرسة عفيفة ليغيظه، الفرسة عفيفة، عفيفة قال أنه اسم أمه التي

ثكلت زوجًا تمتع بقتله المماليك ومدفونة بمقابر الفشن، تلك القرية التي عرف أنه ولد ببيتهم الكبير فيها و... آآآآآ هـ هـ هـ هـ هـ.

صرخ وهو يمسك رأسه بكفيه والصداع يطبق عليه، نهض صبور وأماله ليستريح على الوسادة، جسمه ينتفض فسحب نصير عليه الغطاء، ابتلع ريقه وزاغت عيناه قبل أن يغمضهما فتعرجت الدموع بين أخاديد وجه صبور لكن معتوق طمأنه بأنه من أثر الصدمة وبعدها يستفيق، مسح دموعه وأبعد الكرسي عن السرير إلى أسفل المشربية العريضة وبدورهما حملا الدكة الصغيرة وجلسا أمام صبور الصامت لا يدري إن كان اختار الوقت المناسب ليعرف أنس سر أصله أم لا لكن السر أفشي ولا مجال للتراجع وبقي أن يخبره بحياته هنا، ثم آخر المطاف وهو إخبار صافية بوجود ابن أختها هنا وليعرف عشري وأمينة أن لهما ابن خالة كان أميرًا جركسيًا من أولاد الناس.

***

كأن كابوسًا يجثم على صدره فدفعه لأن يتململ في رقدته وجبينه يتفصّد عرقًا رغم الشتاء القارس هذا العام، لا يصدق ما سمع وتمنّى لو قتل في المعركة عند جامع شيخو ولا تطعنه حقيقة بأشد من جرح رأسه وفخذه وصدره، لا يدري ماذا يفعل، يغادر هذا البيت الذي يجهل أن يكون بالمحروسة أم يبقى، يلحق بالسلطان أم يعود إلى القصر لأمه وأخته، لكن أي قصر وهو ليس صاحبه والخوند أصبحت غريبة عنه وبركة الجميلة ليست أخته ولا ميراث له في قصر الأمير على الجملة، يميل رأسه ومن بين رموشه المبتلة يرمق من طرف خفي السرّاج العجوز وتومض كلمات أمه: كان يعرف جدك ويحبك كحفيده.

تذكر جيدًا أنه حضنه في أول لقاء بينهما حضنه بقوة وكأنه يريد أن يدخله بصدره، كلماته حين هم بطعن الفرسة تتردد: لو قتلتها لندمت بقية حياتك. لا يدري لمَ اختار عفيفة بالذات ليمتطيها ويلحق بالسلطان قرب جامع ابن طولون وينتقل مع العسكر عند جامع شيخو، ويصيبها رصاص بنادق العثمانية فتموت على ما أخبره نصير، نصير هو من كان يقف جوار فرس الأمير ططر حين قتل المجرم ضبع السيدة العجوز التي كانت تحمله، ذكر له اسمها لكنه غاب عنه في تلك اللحظة، نعم نصير، يجب أن يؤكد نصير كل ما قاله السراج، تشجّع ونحّى الغطاء، همّ بالنهوض ولا تزال الدموع تسكن عينيه، التفت ثلاثتهم وأول من اقترب منه خادمه المتفاني في حمايته وخدمته وهو يعرف أنه ليس أميرًا، أعاد الحشية خلف ظهره، رفع أنس وجهه وسالت دموعه حين ثبت عينيه في نصير، التفت فوجد مصحفًا كبيرًا أعلى رف الخشب، بكلتا يديه حمله ووضعه أمام سيده، فرد كفه عليه.

– أقسم بكتاب الله أن الأمير ططر ليس له أبناء من صلبه غير الأميرة بركة وأن كل ما قاله الشيخ صبور السرّاج حقيقة وأنه جدك لأمك والله على ما أقول شهيد.

دفن وجهه في كفيه وأجهش بالبكاء، أشار معتوق بتركه يفرغ ما بداخله من هول الحقيقة المرّة التي صدمت روحه، سكن وتجلد قليلًا، وقر في نفسه بأن واجبًا عليه أن يؤديه تجاه السيدة التي أحسنت

تربيته كابنها وفتاة رقيقة فردت عليه جناح عطف الأخت على أخيها فلا ذنب لها في حقيقته، دار في باله أنه ربما يكون ما عرفه هو الخير فتردد بين جوانح صدره قول شيخه أبي الوفاء بن أحمد السكندري: واعلم أن إرادة الله كلها خير فمنح الله عطاء ومنعه عطاء وما أعطاك الله فاقنع به وما سلبك إياه فارض به.

كفكف دموعه وقدّم له نصير منديلًا أبيض فمسح عينيه، قرّب منه معتوق طست الماء النحاسي فغسل وجهه ومسحه بالمنشفة، لا يدري ما يقول فاستبدل صبور الفعل بالقول، أماله نحو صدره ولف ذراعه حول كتفه، قبّل شعر رأسه وربّت عليه، زفر نفسًا حارًا وتواترت كلماته مكسوة بالحسرة:

– آه لو تعرف حين كنت أدور حول قصر الأزبكية وأتمنّى رؤيتك ويتقطع قلبي لما أعرف أنك لا تزال في الإسكندرية.

– لا أتركك يا جدي.

برقت عينا صبور لسماعه كلمة جدي فاهتز وكاد يقع، لا يدري كيف انثالت دموعه مغرقة خديه، رفع صوته وعيناه ذاهلتان:

– ابنك في حضني يا عفيفة، أنس بن مصري عاد، يا ريس حميد، يا يوسف النحاس يا أم سعد، أنس ابن عفيفة عاد.

سكت وشفتاه تبتهلان بالحقيقة التي أفرج عنها، شعر بأن أحجار الهرم الكبير زالت عن صدره دفعة واحدة، نهرًا من رضاء فاض وأزبد فروى عطش العالم، لم يعد يشعر بغضب على أحد فتصالح مع أي عدو لم يستعده وتسامح وتراحم وتعاطف وتوادد مع مخلوقات الله فلن يدهس نملة تدب على الجدار، ربّت معتوق على كتفه فرفع رأسه إليه.

– نصير يتعشّى معي.

– أرسل لي حجاج.

– حاضر.

جاره اللمّاح يريد إتاحة الفرصة ليقدم أنس إلى خالته وابنيها وحجاج وأخته مسكة وعبده دون أن يكون غريبًا بينهم حتى هو، بعدها يتدبر إقامة نصير، نزلا فالتفت أنس إلى جده.

– قلت أن أبي مصري قريبك؟

– ابن أخي، مات أبوه وتزوّجت أمه في بلد بعيد فربيته وزوجته عفيفة.

– رحمهما الله، المماليك يقتلونه وأحدهم يسرقني منك!

– والله يا بني حين رأيتك وأنت في اللفة والجواري حولك قرّت عيني، ولما كبرت وأصبحت فارسًا حمدت الله على كل حال فلم تكن لتنال عُشر عُشر ما نلته من تربية وطيب عيش وأنت معي وكنت على يقين أنك في يوم تعرفني.

– عرفتك يا جدي، ويدك ورأسك أقبلها وخفك على خدي.

– لا يا أنس، أنت رجل وأعتز بك وعليك أن تدبّر مساعدة خوند عنود وابنتها.

– أنت تعرض عليّ مساعدتهما، صدقني فكرت في هذا.

– أصدقك لأنك أصيل ولا تجحد من ربتك وهي تعرف أنك لست ابنها.

– لكنه أمري وأنا كفيل به، لا تتعب نفسك فيه يا جدي.

– ما في تعب، أمرك أمري، بعد أن أعرّفك بخالتك وزوجها وأولادها نفكر كيف نصل لهما.

في بطء دلف حجاج الحجرة، نظراته تتأرجح بين صبور وضيفه الصغير، مطّ شفتيه حين رأى العصابة حول رأس الشاب وبقع الدماء تخضبها، فتح صبور خشب المشربية فتسللت شمس العصاري والهواء البارد يدور حول نفسه ويجدّد الغرفة المكتومة، توقع حجاج أن يعرفه حموه بواحد من أبناء أصدقائه أو معارفه القدامى بأسيوط ولكن ما كل تلك الجروح برأسه وصدره ورجله ملفوف عليها القماش، فرد صبور كفه نحو حفيده.

– أنس يا حجاج، أنس بن مصري.

ذهل حجاج ومد يده مصافحًا، تفرس وجه الفتى البادي عليه نعمة الثراء، ملامحه تتشابه مع ابنه عشري وأكثر شبهًا بابنه الكبير حيدرة، تمتم بالرحمة على روحه فلو عاش لكان قريبًا منه.

– المعلم حجاج بن زيتون زوج خالتك وتاجر البهار والأعلاف والأعشاب الشافية، هو من جهز عشبة زبيدة.

– مرحبًا يا عم حجاج.

– حتى لا تسأل، أنس أصيب عند جامع شيخو ونقلته أنا ونصير إلى هنا، من الساعة يا حجاج، اجمع الأولاد إلى هنا.

– أمرك، شرّفت بيتك يا أنس أم أقول الأمير أنسباي؟

– لا، أنس.

استدار حجاج ونزل، قرّر صبور أن ينبه عليهم ألا يفصح أحد عن وجود أنس حتى يتم له الشفاء من إصاباته بعدها يعلن أن حفيده رجع من سفر.

– والبيت هنا بيتك؟

– لا يا أنس، استأجرته من المرحوم زيتون العلوي والد حجاج وفتحت دكان السروج وبعد زواج خالتك صافية من حجاج رفض الإيجار، آه لو تعرف زيتون رحمه الله لكنت عرفت نوعًا من الرجال لا يحمل همًّا للدنيا ولم يرد سائلًا أو يمنع طالب معونة، مات يوم رحيل الغوري إلى البلاد الحلبية، ساقية أم حجاج كانت أطيب وأجود إنسانة، ماتت هي الأخرى ليلة خروج طومانباي إلى الريدانية، مسكة أخت حجاج تزوجت من جمعة رحمه الله ولها ابن تتبسط من معرفته اسمه عبده.

– وأبناء خالتي؟

– أمينة وعشري وكان لهما أخ يشبهك، حيدرة مات في وباء الطاعون.

دبدبة وأصوات متداخلة تعلو شيئًا فشيئًا، دخل حجاج خلفه صافية بقامتها الممتلئة، ترددت مسكة للغريب المستكين على السرير، جوارها وقفت أمينة وتلكأ عبده وعشري فنادى عليهما صبور، دخلا صامتين ووقفا أمام مسكة، عبده أول من تكلم وهو يشير:

– لازم تعرفنا على واحد من الزعر يا جدي!

بكفه ضرب حجاج رأس ابن أخته، صمت صبور وتركهم يتطلعون لأنس وعشري لا يظن أنه من الزعر أو اللصوص فوجهه الأبيض وشعره الفاحم، هيئته كلها تشي بأنه من أولاد الناس، رمقته مسكة وانتظرت أن يفصح صبور أو حجاج عن ضيفهم أما صافية فخفق قلبها لوجه ألفته لكن تفكيرها الضيق لم يسعفها لمعرفته وخمّنت أن يكون من أسيوط، هز صبور رأسه وأمسك بيد ابنته.

– ابن أختك يا صافية، أنس بن مصري.

وكأن جنيًّا حطّ على كتفي صافية فبرقت عيناها ورفعت ذراعيها وخفضتهما مرات والتوى لسانها فعجزت عن قول شيء، لمعت في ذاكرتها أطياف الماضي حين كان مولودًا فحملته بين يديها في السفينة، ارتعشت شفتاها وهطلت الدموع غزيرة وعاونها أنس بأن مدّ لها يده فباغتته بحضنها وقبلت رأسه وخده ويده وهي تبكي وينثر فمها كلمات عبثية وأصواتها لا تبين ما تقول، هدأها حجاج وأبعدها قليلًا لكنها لم تطاوعه وتركها أنس تحضنه مرة أخرى فقبل يدها وميز كلماتها التي تدعو فيها على من حرمهم منه، كما بدأت صاخبة هدأت قليلًا فسلمت مسكة عليه ومد عشري يده فحضنه أنس وقبل خده أما عبده فوقف أمامه وصافحه وفاجأه بالسؤال:

– أنت من أولاد الناس؟

– نعم، أقصد كنت، لكن أنا أنس بن مصري.

– لازم تختفي، الزعر يدلون العثمانية على أولاد الناس فيقتلونهم.

– كلامك صح وأنا اليوم في حماك.

– سلم على بنت خالتك أمينة يا أنس.

– مرحبًا أمينة.

– حمدًا لله على سلامتك.

على استحياء ردّت وهي تتفرّس الشاب الغريب عنها، وجدته لا يشبه أمها أو جدها صبور فربما يشبه خالتها عفيفة التي وصفتها أمها أكثر من مرة، أشار صبور لمسكة أن تنزل وطلب من الغلامين مرافقتها ومعهم أمينة.

– يستريح أنس وعندنا الوقت ليحكي كل منكم معه.

– أبقى معه، حبيبي يا أنس، تشبه أمك تمام الشبه، أنا حملتك وأنت في اللفة لكن المملوك الله يهلكه، سرقك من أم سعد وكنا ساعتها ندفن أمك.

انقلبت فرحتها إلى بكاء حار وشهقة تتبع الأخرى، وتردد كلمات لم يفهمها أنس لكنه ربت على كتفها، تحامل على نفسه ومال على رأسها وقبله، وقفت فجأة وحضنته للمرة الثالثة، أبعدها صبور وأمرها أن تجهز العشاء.

– نتعشّى أحسن عشاء يا غالي يا ابن الغاليين.

– معذرة يا أنس، خالتك صافية طيبة وأصابها مرض في زورها جعل كلامها فيه صعوبة.

– يكفي أن لي خالة، عشت سنوات لا أعرف لي عمًّا أو خالًا ولا يؤنسني في الإسكندرية غير ركوب الخيل على الشط والتدريب على القتال.

– أنت ماهر في القتال، ربنا يغفر للأمير ططر لتربيتك.

تهدل رأسه وزال انشراح صدره بعد معرفته لعائلة أقربائه المستورين ولا يدري كيف يرد أو يصف من خدعه بأنه أبوه، دار في رأسه الوجه الآخر للمماليك وأولاد الناس المتكبرين على كل الناس

حتى على أبناء جلدتهم ودار في ذهنه ما كان يفعله هو وأبوه وغيرهم من إجحاف الناس وفرض الكلفة والمكوس عليهم بمناسبة وبدون مناسبة ويعتبرونه حقًا لا جدال فيه مدعين حماية الناس من العدو، انجلت الحقيقة التامة بأنهم كانوا هم العدو، والآن ينتقم الله منهم بسيف الظالم قبل أن ينتقم منه، ابتسامة خفيفة زينت وجهه البريء فمال صبور على رأسه وقبله، تمدد ففرد عليه الغطاء الثقيل، أمام الباب أوصاه بالراحة التامة وبالليل يتحدّث معه في أي شيء يريده.

***

-١٧-

حجاج كأبيه، يتحايل على الأيام كي تمر بسلام، لا يريد من دنيته إلا أن يحيا بأمان، لا يُهدد ولا يتسبّب أحدٌ في زعزعة حياته، فلم يهمه أن ينكسر السلطان ويحتل جند ابن عثمان الغرباء نواحي القاهرة والفسطاط وأمسى الجراكسة الظلمة طرداء لعسكر الإنكشارية وأوباش الزعر فالأهم تحاشي عائلته الخطر أيًا كان؛ فاطمأن تمام الاطمئنان لماء بئر جمعة وما يستطيع جلبه من قمح وشعير غير المخزون عنده من توابل وبذار وأعشاب شافية، لم يحفل باستعادة صبور ابن بنته وهو الأمل الذي ظل يعيش على تحقيقه منذ سكنه بالدرب، فأنس ابن خالة أولاده لكنه كان يرهب أن يفشي أحد لجوءه وسطهم وعندها تكون المصيبة الكبرى على الدرب كله والتي لا يدري عاقبتها، فنبّه على أخته مسكة وعبده وابنيه عشري وأمينة ألا يتكلم أحدهم بسيرة أنس أما صافية فاستبدل التحذير الغليظ بالتنبيه؛ لما اعتاد عنها من انفلات اللسان وأكد لها أنه يموت لو عُرف مكانه ويذبح أبوها معه فرأى في عينيها رعبًا حقيقيًا، أما نصير الخادم فقد أسكنه معتوق ببيت جمعة جوار البئر ورضي الحارس المخلص تمام الرضا ويكفيه قربه للأمير كما أبدى، يدٌ توضع على كتفه فاستفاق من سرحانه على عشري الواقف جواره.

– جدي يطلبك يا أبي.

نهض من فوره وذهب إليه مصطحبًا عشري وعبده، وكأن صبور لم يبرح مكانه على حافة السرير أمامه أنس وقد عادت إليه بعض من نضارة وجهه وذهب عنه اصفراره، طلب من عبده جمع عظام الذرة من السطح ويجهز عشري الشعير الساخن لشكوى أنس من ألم جنبه، التفت إلى حجاج وسأله:

– أنس يريد العودة إلى قصر الأزبكية.

– لكنه خطر عليك يا أنس.

– يلزم الاطمئنان على أمي، أقصد الخوند وأختي بركة فإن لم تكن بنت أبي وأمي فهي أختي في الرضاعة.

– تعرف مكانهما؟

– أعرفه لكن قبل ذهابي أريد أخبار السلطان.

– كل ما عرفناه أنه بقي يقاتل وحوله نفر قليل من العبيد الرماة وبعض المماليك منهم الأمير شاد بك الأعور وحين سقط الكثير من الأمراء العشراوات وتفرق بقيتهم هرب السلطان إلى بركة الحبش وانقطعت أخباره، ربما يعرف معتوق أو ابنه كريم مصيره لكن...

– أكمل يا عم حجاج.

– أخبرك حتى تقرّر الذهاب إلى القصر أم لا، وأرجو أن يكون لا.

– أقلقتني، ما حدث؟

– بعد هروب السلطان اجتاح العثمانية بيوت الصليبة ورآهم يرمون كرات النار في جامع شيخو فاحترق سقف الإيوان والقبة الكبيرة وتكسر ما به من رخام وقراميد بيضاء بنقوشها القرآنية والنوافذ المطعمة بزجاج أسود والتهمت النيران كل ما فيه من بُسط ومفارش الصوف.

– يحرقون بيت ربنا!

– وأشعلوا النار بالبيوت المجاورة للجامع بدرب ابن عزيز وقبضوا على الشرفي يحيى بن العداس خطيب الجامع وأمر ابن عثمان بضرب رقبته.

– وقتل الإمام؟

– شفع فيه الخليفة وخلصه من القتل، هذا كل ما عرفته لكنهم عازمون على ملاحقة أي جركسي وأولادهم الهاربين والمختفين في الحارات والدروب.

كزّ حجاج أسنانه عند الكلمة الأخيرة فأدرك أنس مغزى ما يريد زوج خالته لكنه يشعر بواجب تجاه السيدة التي ربته ولم يشعر منها بغير الأمومة في منتهاها، الأخبار غير كافية فطلب نصير، دخل عبده بسطل مملوء بالشعير أما عشري فأعطى جده كوب القرفة الساخن، طلب صبور إحضار نصير فجرى عبده نحو بيت أبيه، دقائق وجاء وراءه الخادم، بوجه منشرح ألقى التحية وقرب منه عشري الدكة الصغيرة، استأذنهم حجاج في النزول وأمر الولدين مرافقته فخرجا على غير رضا وخاصة عبده الذي يريد أن يسمع.

– أريد العودة إلى القصر يا عم نصير.

– عم نصير، الله يحفظك، أنا خادمك وحارسك يا مولاي، لا تفعل.

– الخوند وأختي.

– على الأقل ليس هذه الأيام فالأخبار من سيء لأسوأ.

– قلها لي.

– السلطان.

– عرفت أنه هرب.

– العثمانية أصابتهم لوثة فدهموا الحارات والبيوت وقتلوا كل من يقابلونه: الجراكسة، الزعر، الشباب والعجائز حتى الصبيان والجثث مرمية في الطرقات من باب زويلة لسوق الخيل للرميلة لقناطر السباع لمصر العتيقة وكبسوا جامع الأزهر وابن طولون وجامع الحاكم وكل المدارس والزوايا وساقوا من وجدوه من الجراكسة وغيرهم وقتلوهم أمام ابن عثمان وعلقوا رءوسهم ورموا جثثهم في البحر، تعرف الأمير قانصوه رجلة نائب قطية؟

– أعرفه.

– رأوه مرميًا عند سبيل السلطان والكلاب تنهش شحمه ومصارينه.

– كفى يا نصير، لا حول ولا قوة إلا بالله.

جأر صبور بأمره لما سمع ورغب في تجشؤ ما بجوفه من سواد الأخبار التي حاقت بالجراكسة وآلمه أنهم قتلوا الأبرياء من أبناء البلد فأخذوا الصالح بالطالح، حسب أنس قد اقتنع بعدم مغادرة مكمنه لكن الشاب رفع رأسه في همّة وخرجت كلماته حازمة حاسمة لا تراجع فيها:

– أذهب الليلة، العثمانية مشغولون في مطاردة المماليك في الحواري والجوامع وأحرقوا البيوت أما الأزبكية فسكنوا قصورها.

– وجرحك؟

– شفيت والحمد لله.

قالها ونهض من فوره، أمسك سيفًا صدئًا معلقًا على الجدار ولاعبه في خفة ومهارة واجتهد ليخفي ألم ساقه المصابة، اعتدل نصير في جلسته وخفض بصره لدخول صافية بطاولة الطعام، ركنتها وابتسامتها متسعة لرؤية أنس يشمخ بقامته ويشهر السيف، خفضه وقبّل يدها فربتت على كتفه وانصرفت.

– نأكل وبعدها يحلها الحلاّل.

***

أدار عينيه يتأمّل فلوق الغرفة المسقوفة بالجريد، ما كان يرضى أن يسكن واحد من حرسه أو عبيده في مثلها، وها هو يستلقي على سرير وضيع تؤلم ألواحه ومرتبته المحشوة بالصوف ظهره، نهض ووقف وسط الحجرة، دارت الأفكار في باله من تغيُّر الأيام، من أمير يخدمه طوب الأرض وأب ينتهي نسبه إلى مملوك السلطان قايتباي إلى إنسان وجد نفسه بقدرة قادر ينتسب لعائلة عريقة، جدٌ سرّاج وخالة طيبة لدرجة العته وزوجها وأخته وأولادهم لا يرجون من الحياة غير قوت يومهم.

أشعة الشمس تنفذ من خصاص خشب المشربية المكسور، ظلالٌ تتراقص على الجدار فحدّق فيها، في المنتصف يجلس ططر وعن يمينه الغوري وعن يساره قايتباي وهم في أزهى ملابسهم وعمائم عشرات الجراكسة من خلفهم، عيناه تمسح وجوههم الصخرية، أشار إليهم واحدًا تلو الآخر.

– لن أقول لك يا أبي فأنت يا ططر اشتراك قايتباي يافعًا جائعًا حافيًا تستر عورتك خرقة بالية ويا عيني عليك يا قايتباي، السلطان قايتباي، الجميع يعرف أنك مجلوب، اشتراك برسباي بخمسة وعشرين دينارًا وباعك بعدها إلى الظاهر جقمق وترقيت حتى صرت سلطانًا لك قلعة عظيمة بالإسكندرية واشتريت آلاف الجلبان منهم أبي، وأنت يا أبا النصر الأشرف قانصوه الغوري امتلكك قايتباي وأعتقك وجعلك من جملة مماليكه الجمدارية كانت مهمتك الاعتناء بملابس السلطان، يا أجلاب يا قرانيص، جميعكم عبيد أرقاء تأتون حفاة عراة والواحد منكم يكتسي ويسمن من خيرات البلاد، ومنكم من يترقّى ويصير الأمير أو السلطان، السلطان! وما السلطان! مقتول تنهش جثته كلاب مرج دابق، مطارد طافش على وجهه، أمير يسرق ولدًا من أهله، أوباش يقتلون شابًا يسعى لرزقه ويترك زوجة صغيرها يرعص في أحشائها، هذا أنا، أنا، اللعنة حلت وتحل وستحل عليكم، تحل عليك يا ططر.

بالسيف الصدئ يضرب فتتساقط الرؤوس من حوله كحبات نبق هزت الريح العاصفة شجرتها، ظلّ يطعن ويضرب والدموع تسيل على خده حتى خدش السيف راحته، ألقاه ومسح الدم البسيط، حدّق في الجدار والشمس ترسل أشعتها الدافئة فشعر بسنوات حياته المدهونة بالغطرسة تذوب، برقت عيناه وأشار.

– عشت مخدوعًا، توهمت أني أمير، ولولا مصيبة ابن عثمان وجنده لعشت مثل بقيتكم لا أحسن غير ظلم أهلي وناسي ونهب ما بيدهم، لكني اليوم في وسطهم، حرٌ لا يعيرني أحد بأني مملوك ابن مملوك أباع وأشترى، تلك السيرة التي لا يريد كلب منكم أن يرددها أحد.

جثا على ركبتيه ودفن وجهه بين كفيه، بكى، ظلت دموعه تسح دون صوت، رفع وجهه وهو يتهيأ لمخاطبتهم، اصطدمت نظرته بالجدار المملوط بكلس كلح لونه وتساقطت أجزاؤه ليكشف أحجارًا عتيقة، نهض، دار حول نفسه، شعر بضيق صدره، خطا نحو الباب لم يجد غير السلم فصعد، أغمض عينيه وأفلت العنان لصدره يعب الهواء فأنعش روحه المجروحة، السطح واطئ لكنه يكشف بيوت الفسطاط والقاهرة والقلعة من بعيد تشمخ، يا ترى ماذا يفعل بها العثمانية، دفنوا المقتولين

بالرميلة أم الكلاب تنهش أبدانهم، من منهم الأمير ومن العبد والخادم، أين طومانباي، من أقبل معه ومن أدبر؟ أدبرت دولتكم يا مماليك، وكما كان شيخي العالم بأخبار السابقين الحسن الطولوني يردد: الدول كالرجال، لها إقبال وشباب وإدبار وكهولة فأقبلت دولتكم حين أذللتم الغازي ملك الفرنج في فارسكور والمنصورة وكسرتم المغول في عين جالوت، وها أنا أشهد إدبارها على يد سليم بن عثمان ويعمل سيفه في رقابكم بلا رادع.

– تكلم نفسك؟!

في حدة التفت فرآها تقف على قيد خطوة بالسطح المجاور، ابتسمت لكنه لا يزال يقطب حاجبيه، اسمها سقط من ذاكرته، خجل من سؤالها وداري ضعفه بابتسامة وادعة، اقتربت منه أكثر، دعته لأن يستريح على الزيار فجلس ووقفت قبالته.

– أحضر لك النعناع الساخن؟

– لا، أشكرك.

– لا شكر بين أبناء الخالة.

– أنتِ... أمينة.

لمع اسمها فجأة في ذاكرته فنطقه لئلا ينساه مرة أخرى، تأملها، سمارها يخفي ملامح ودودة جذبته، لا تشبه أي فتاة رآها من قبل، متوسطة الطول وخصلة من شعرها تهفهفها الريح، خجل لجلوسه ووقوفها فاتكأ على عكاز جده ووقف فمدت يدها إلى كتفه وأجلسته، لا تدري كيف فعلتها، لمست غريبًا فخفق قلبها واضطربت وهي تجلس قبالته، لكن نفسها العصية على الضعف تماسكت عند حد الفضول في معرفته، معرفة ابن خالتها الأمير ابن القصور فتشجعت وسألته:

– عرفت أنك عشت في الإسكندرية.

– ولدت في الفشن وقضيت سنواتي الأولى ببيت جدي الكبير في دمياط وخمس عشرة سنة كاملة بقصر قرب القلعة لأن أبي، أقصد الأمير ططر، كان كافل الزردخاناه هناك.

– أعرف أنها بيت السلاح.

– صحيح.

– وأمك، أقصد الخوند؟

– عنود، إنسانة جمعت كل صفات الأدب وطيب القلب ونفسها سمحة.

– لكنها وافقت الأمير وأخذتك.

– لو سمعتِ الحكاية من جدي صبور وما أقره خادمي نصير لعرفتِ أنها خُدعت مثله، ونفسها الخيّرة دفعتها أن تكفل يتيم الأبوين.

– سمعت أن الإسكندرية بلد جميل.

– أجمل البلاد، هادئة في صيفها وشتائها وهناك تعلمت على يد شيوخ أجلاء وأحسنت القتال بالسيف والرمح والسهم.

– والبندق؟

– السلاح الوحيد الذي لم أمسكه وهو سبب هزيمتنا، الواحد منهم يصطاد الفارس دون أن يبارزه.

ارتسم الوجوم على وجهه وصمت، قرر النزول لكنه خجل أن يتركها، رغم العشرات من الاستفسارات التي أضمرت مناقشتها معه فإنها لم تجد ما تقول وبدورها خجلت فبقيا صامتين إلى أن بزغت صافية على رأسها قفة الغسيل، اتسعت عيناها لابن أختها المستأنس بابنتها وجال في تفكيرها أن تزوجهما وستعرض عليه الآن، كما تتوهج الفكرة في رأسها تأفل في لحظة حين لمع وجه زوجها حجاج وأبيها فربما يغضبان من تسرعها، نهضت أمينة وخطت نحو أمها، أمسكت بأذني القفة وركنتها على صومعة قصيرة، اتسعت ابتسامة صافية وهي تحيي ابن أختها:

– حبيبي يا ابن عفيفة الغالية.

– مرحبًا خالتي.

– الله، لم يقلها لي أحد غيرك، الليلة نتعشّى كلنا معك.

– وأين جدي صبور؟

– في الدكان.

– أريده.

غادر وعينا أمينة لا تفارقه وهي تثبت الملابس حتى نزل، أكملت أمها نشر الغسيل وأطلت الفتاة من أعلى البيت فرأته يقف أمام دكان السروج، تركت السطح وقلبها يميل إلى محادثته فلم تتضايق من وجود أمها وعزاؤها أنه يتعشّى معهم وربما تعرف عنه أشياء كثيرة.

***

أطرق صبور لتصميم أنس على الذهاب للقصر، اقتنع بمغامرته فالتسويف ليس في صالح الخوند وابنتها كما أكد له وكي يطمئنه سيرافقه نصير، لكن قلبه يأكله الرعب فربما يعترض طريقهم الإنكشارية، صحيح أنهم لا يعرفون المماليك أو أولاد الناس لكن الزعر وطلاب المال يعرفونهم حق المعرفة ولا يزالون يكشفون مخابئهم وحواصل ثرواتهم لجند ابن عثمان فينهبونها معهم، ابتلع ريقه وربت على كتفه، رفع رأسه إلى السماء الملبدة بالغيوم السوداء، أدرك قرب أذان العشاء فنهض ودخل بيت حجاج وصفق بيديه حتى تتهيأ ستات البيت لاستقبالهما، الطبلية الكبيرة وسط المطرح والصغيرة على قيد خطوتين، في المنتصف جلس صبور على جانبيه عبده وعشري، أمامه حجاج، في سرعة ركنت صافية مرجسية الويكة107 بلحم الضأن وأطباق الشوربة والفريك والملوخية، رائحة الأرانب المحمرة فتحت نوافذ شهية أنس فأقبل على الطعام في حميمية غريبة ومن حين لآخر تنهض صافية وتضع في طبق ابن أختها مزيدًا من اللحم فيتمنع لكنها تطعمه بيدها وتربت على كتفه ورضي بتقبيلها خده ورائحة الطبيخ تفوح من شفتيها.

– كلْ يا غالي يا ابن الغاليين.

– معذرة يا أنس، لا يتوفر لحم العجول، كل القصابين أغلقوا دكاكينهم واشتريت لحم الخروف من واحد أعرفه.

– كله خير ربنا وأخاف أكون مثقلًا عليكم.

– عيب يا ولدي، أنت كعشري وعبده.

– لكن عبده والمحروس ابنك ما سكنا القصور.

تبادلوا الضحكات لعبارة عبده، فلفت انتباه أنس بجرأته وتعليقه الذي يلتقطه فجأة من الموقف، شرب الماء وبقطعة قماش مسح يديه وأشار إلى الفتى الذكي.

– أنا نمت على ريش نعام وأكلت من أطباق الفضة وشربت في أكواب من أغلى الزجاج وعلى حصاني سرج قربوسه مطلي بماء الذهب والمرشحة من حرير الصين، فلم يغن ذلك عن طلب العثمانية لرأس أي أمير، اليوم أخاف تضرب رقبتي بين يدي ابن عثمان.

دون اتفاق توقفوا عن تناول عشائهم، مسح حجاج فمه ونهض ليملأ القلة، اقتربت صافية من ابن أختها ولسانها يلهج بعبارات لم يفهم منها إلا أنها تفديه بروحها، من طرف خفي لمح دمعة تسيل على خد أمينة فمسحتها في سرعة لئلا يلاحظها أحد، انشغلت مسكة في لملمة الأطباق الفخارية، وقف عشري الصامت طوال الوقت وأشار إلى عبده ألا يتكلم.

– لكنك هنا لست أميرًا، أنت أنس بن مصري السرّاج.

– وإن سألك أحد عني؟

– أنت ابن خالتي العائد من سفره وجدك هو المعلم صبور السرّاج.

اتسع صدر صبور وزادت رحابته لرأي عشري النافذ، فلف ذراعه حول كتفيه وقبّل خده، سيشيع ما رآه عشري ولن يكون قد كذب على أهل الدرب فتلك هي الأمنية التي عاش عمره كله لتحقيقها وها هو أنس ابن عفيفة ومصري في حضنه ولن يفرّط فيه بعد اليوم، فوجئوا بعبده يقفز ويقف جوار ابن خاله وصوته يعلو:

– جند ابن عثمان لا يعرفون المماليك وأولاد الناس لكن الزعر السفلة يميزونهم ولو ملط الواحد نفسه بالطين.

غاض إشراق وجه صبور للحقيقة التي صفع بها عبده نفوسهم، فلو عثر الإنكشارية أو أي واحد من جند ابن عثمان على أنس وهو متخفٍ فيكفي أن يراه واحد من الزعر فيدل عليه ويقتلونه في الحال، لم يبال حجاج بما قاله ابن أخته ورفع أمامه قفة صغيرة بها طبقان وخبز.

– إلى عمك نصير يا عبده.

– وأنا معك.

خرج الولدان وهوّم أنس برأسه لجده وكأن لسان حاله يقول لا تخف فلن أقتل إلا مغلوبًا على أمري، خطا نحو الطست فأمالت أمينة إبريق الماء ليغسل يديه، ناولته المنشفة وهي تطيل النظر إليه في قلق حقيقي، مدّ صبور يديه فصبّت الماء لجدها، أشار إلى حجاج ليرافقه وطلب من أنس البقاء بالبيت، زادت أمينة من زيت المسرجة المعلقة على الجدار فجلس أنس على الدكة الصغيرة، أمامه على الأرض جلست خالته، راقب أم عبده وهي تجمع بقية الطعام في ماعون كبير وتعجنه بالنخالة، التفتت صافية إليها وخافت ألا يعرف ابن أختها الأمير ما تقوم به.

– من أجل طعام البط والإوز.

– أعرف يا خالتي.

حين قدمت أمينة كوب القرنفل المغلي لأنس وجلست جواره اتسعت ابتسامة أمها لتكشف أسنانها العريضة، ربتت على ركبته فتنبه إلى قعدتها على الأرض فنهض من فوره.

– من سوء الأدب أجلس على دكة وأنت على الأرض يا خالتي.

– لا تهتم يا نور عيني، أنت تفقق تقعد على خخ خأسي من فوق.

– أمي تقصد تقول تقعد على رأسي من فوق.

أطرقت أمينة برأسها إلى الأرض، ودار في نفسها أن أنس وإن كان قد عرف بأصله وأنه ابن بنت سراج لكنه أمير فقبوله الإقامة بينهم لأيام بسبب جرحه ومطاردة غازي المحروسة له ولأنداده وحين يتغير الموقف قد يعود لقصره، من فورها نهضت من جواره وصعدت السلم إلى غرفتها بالأعلى.

***

-١٨-

على قيد خطوات وقف صبور في الشارع الكبير جوار حمار عليه حزم من حطب ولم ينس تكميمه بلف الحبال الرفيعة حول فكيه بقوة لئلا ينهق ويفتضح أمرهم، خلفه نصير وأنس يرتديان ملابس من الخيش الخشن ونعال من جلد رخيص، أشار له معتوق ففهم أنه سيظل ساهرًا ينتظر عودتهم، تقدّمهم صبور وفي نفسه إعجاب بهمّة حجّاج العالية حين فكرا معًا خارج البيت يسترهم ظلام الدرب فعرض عليه التخفي وفي سرعة أتاه بتلك الملابس الرخيصة التي لا يرتديها غير أفقر العوام، ومدهم معتوق بحماره وربط على ظهره حزم الحطب.

أنس يتلفت حوله، لا يذكر يومًا أنه وطأ بقدميه شوارع البلد فهي المرة الأولى التي يتجوّل خلسة دون جواد يمتطي سرجه المطهّم، شيء جعله يلتفت إلى الخلف وفي حلكة الليل يرتعش ضوء واهن لشمعة أعلى السطح، لا يدري لمَ داخله شعور أنها أمينة صعدت لتودعه، أعلاها في السماء وميض برق ينذر بأمطار ويلزم ألا يتباطأ ومع استدارته شعر بقطرة نزلت على خده، توالت القطرات فأيقن صبور بهطول المطر، لف لثامه على صدغيه والتفت إلى نصير وأنس كي يؤجلا مغامرة الليلة لكن حفيده المقدام تقدمهم وجر الحمارة بنفسه، مال على رأس جده.

– المطر في صالحنا؛ يجبر جند العثمانية على دخول القصر والبقاء في خيامهم.

– البقاء في القصر؟ ظننت هذا يعطل ما تريده.

– على العكس يا جدي وترى بنفسك.

على الرغم من انشراخ محبته للأمير ططر إلى درجة كراهيته لما رُوي له من فعلته الشنعاء حين اختطفه ولما كان يفعله من جمع المال بأي طريقة فإنه أعجب بدهائه، لا يزال يتذكر أنه أمر بنصب خيمة كبيرة حول شجرة عتيقة متسعة الأغصان خلف سور حديقة القصر، وأتى بحفارين وفعلة من الفشن وأمرهم بحفر نفق طويل من خلف الحديقة إلى أسفل القصر، كانوا يعملون في إخراج التراب من بعد العشاء إلى قبل الصبح وينامون في الخيمة طوال النهار وكلما تقدموا قصبة بنوا جدارًا من الطوب الكبير والسقف من ألواح الخشب ودكوا الأرض بأحجار مستوية إلى أن انتهى النفق إلى

حجرة مستديرة جهز بها أسرة وحمامًا وأواني كبيرة للماء ولها سلم يؤدي إلى غرفة سرية خلف غرفة كبيرة استخدمها الخدم لخزين الدقيق والتوابل والمواعين القديمة وغيرها مما يهمل استعماله، بعد إتمام تجهيز المخبأ أجزل العطاء للعمال وعادوا لبلدهم، حرص ططر ألا يخبر أحدًا بأمر الدهليز السري وقبل رحيله إلى الشام دلّه على باب النفق الأرضي المخبّأ بعناية فائقة أسفل جزع الشجرة، رافقه عبر الممشى الضيق حتى الغرفة أسفل القصر، أشعل المسارج المعلقة جوار فتحات التهوية فتوهجت وأضيئت الغرفة، ليلتها حملق في صناديق المال والتحف والسيوف الغالية والفرش الثمينة التي نقلها بنفسه دون أن يُعلم أحدًا حتى زوجته وابنته بركة، قطرات المطر السريعة على رأسه ترجرج حواره معه في تلك الليلة.

– لمَ يا أبي ونحن نقدر على حماية مالنا في القصر؟

– الحيْطة واجبة يا أنسباي فإن عدتُ من الديار الشامية أزيدها وإن لم أرجع ودار الزمن عليك فتصونك وتكفيك واحذر أن يعرف أحد بما رأيت خصوصًا المماليك؛ فهم أول من ينهشونها.

قبل وقعة جامع شيخو بيوم صحب الخوند إلى الغرفة من باب حجرة الخزين وأوصاها إن هاجم أي غريب القصر فلتصحب أخته بركة إلى هنا بعد أن تنقل بنفسها خبزًا وإدامًا يكفيهما لأيام ولا تعرف الجواري بالمخبأ، وما دام أكد نصير خلو القصر من الخوند والأميرة فلا بد أنهما نفذتا وصيته، انهمار المطر دفعه ليجد في السير وتقدم الحمار وصبور تغوص قدماه في الأرض الموحلة وصفعته ذكرى تلك الليلة البعيدة حين هجر أسيوط وكان أنس ذا القامة المديدة الذي يسير أمامه الآن لا يزال في بطن أمه.

صدق ما ارتآه أنس، الأمطار كما أخافت الناس فخلت الطرقات من المارة أرعبت جند العثمانية فمكثوا بالبيوت الكبيرة والقصور التي استولوا عليها، فلا شعل موقدة ولا حرس على خيولهم، اقترب من الشجرة ذات الجذع المستدير، أشار إلى حزم من بوص وأحطاب وانحنى ليرفعها فمنعه نصير وقام هو بالمهمة فانكشف باب خشبي مائل، مد يده بمفتاح حديدي كبير وفتح ترباسه، انفرجت درفتا الباب وتقدمهما أنس تتحسس قدماه أولى درجات السلم الحجري، برفق أعاد نصير غلق الباب ويده اليمنى تمسك يد أنس وبدوره يقبض على أصابع صبور، نزل الدرج الحجري حتى وقف على مصطبة وشعر صبور باختناق أنفاسه، خطا صبور في الدهليز المعبّد بالأحجار المستوية، ظلوا سائرين في حلكة الظلام فرفع صبور يده فلم يكد يراها حتى اصطدمت كف أنس بالباب، تحسّسه واهتدت أنامله إلى فتحة المفتاح فأقحمه وأداره، دفعه فأغمض صبور عينه لتوهج المسرجة المعلقة جوار الباب، خطا أنس خلفه جده ونصير، أسرع نحو سرير جوار الجدار وجسم مغطى يتمدّد عليه فلا يظهر سوى وجه.

– بركة.

فاه بها أنس في خفوت والتفت جوار السرير فوجد الخوند مكوّمة على الأرض الرطبة ووجهها مطرق على يدها، نادى:

– بركة، بركة، أمي!

رفع رأسها واتسعت عيناه لوجهها المغرق بالدموع، تباعدت رموشها في وهن وهتفت في خفوت:

– أنسباي، أنت هنا؟

– نعم يا أمي.

جاهدت لتنهض، دون أن يطلب قام نصير بإشعال مسرجتين فأضيئت الحجرة أكثر ومسحت عينا صبور الصناديق والأثاث والأقمشة الملفوفة والأواني الذهبية المرصوصة وكأنها مقبرة لأحد الفراعين مما كان اللصوص ينبشونها، انخرطت الخوند في نوبة بكاء وهي تحضن أنس، يتأمل وجه بركة الجامد وخفق قلبه لسكونها الغريب، برفق أبعد الخوند فتلعثمت وهي تخبره:

– أختك ماتت، لو حضرت من ساعات للحقتها.

هذا هو الشيء المرير الذي لم يتوقعه أنس، فأقصى ما كان يفكر به هو بقاؤهما لحين عودته أو إرسال مَنْ يهرّبهما لكن أن تموت بركة فكأن خنجرًا شق صدره وانتزع قلبه الخافق في شدة، سالت دموعه غزيرة، لأول مرة ينتابه شعور بفقد عزيز عليه وهو الذي كان يرى الناس تُصرع أمامه وتقطع رقابها فلا يرمش له جفن، بقيا صامتين فهمّ نصير أن يقول شيئًا لكن صبور أشار إليه وهو يمسح بعينيه الحجرة الكبيرة وارتكنت نظرته على الجدار الأيمن، أضمر أمرًا لكن التنفيذ يحتاج إلى جهد وسرعة، فربت على كتف الخوند.

– أحسن الله عزاءك سيدتي، لله ما أخذ وله ما أعطى.

– لا أدري كيف أتصرّف؟

– نأخذها معنا.

– لا يا أنس و...

– أنس.

– نعم يا أمي، في الليل وسط الحرب وأرجلنا تخوض في دماء القتلى حول جامع شيخو، أصبت وكدت أموت لولا جدي صبور ونصير وغيرهما، أنقذوني وفي بيت جدي بدرب العطارين عرفت الحقيقة.

– الوقت خصمنا يا سيدي ولو طلع النهار لا يمكن الخروج.

– الأميرة تدفن هنا.

– هنا؟! أعد لنا أبوها مقبرة ليست للغوري نفسه.

– وهل دفن فيها؟ لا تدري نفس بأي أرض تموت.

– صدقت.

– هيا يا نصير، أحضر مجرفة وفأسًا لو أمكن.

– توجد مجرفة وفأس وقدوم هناك قرب السلم.

خطا صبور نحو الجدار وتناول الفأس وحذر أن يصدر جلبة تفطن العثمانية بالأعلى، فعمد إلى نزع أحجار الأرضية واحدًا بعد الآخر ونصير يركنها في هدوء وسرعة، كشفا الأرض الطينية فخلع صبور جلبابه وبدأ يحفر.

– أمي، ما حدث لبركة، تركتها في تمام صحتها؟!

– لا، صدرها كان يؤلمها، ونفدت الأعشاب الشافية، سخنت وظلت تسعل وخفت أن يفتضح أمرنا، من ليلة أمس شكت من ألم صدرها وعافت الطعام، وظلت تهذي إلى أن...

ضمّها أنس في قوة وأيقن أن أخته أصابها داء ذات الرئة108 وأهمل علاجها بسبب الكارثة التي حلت بالبلد حتى وصل لمرحلة عدم الشفاء منه، انتابه الندم على تركهما وأدرك مدى ما قاسته الخوند وقلة حيلتها وهي ترى ابنتها تموت أمام عينيها وهي عاجزة عن إنقاذها أو الاستجارة بأي إنسان؛ فالخروج من القبو معناه السبي أو الموت إن قاومت ونهب كل ما جمعه ططر من ثروة، ظلا متلاصقين وكأنها تستحلب من شبابه قوة تمدها بالعزيمة على التماسك، في رفق أبعدها وهو يرقب نصير ينزل الشق ويخرج التراب بالقفة الصغيرة وصبور يتناول منه ويفرغها.

لا يخفي إعجابه بعزم جده وسرعته في اتخاذ القرار فلا يمكن ترك ميت دون ستره وإلا تفوح رائحته وتنهشه الجرذان، عضّ شفته وارتعد لهذا الهاجس، ثبتت عيناه في ما يفعلان إلى أن أمر صبور نصير أن يخرج، دون أن يطلب أشارت إليه فرفع أنس غطاء صهريج صغير المملوء بالماء، غسلا أيديهما، وسوس صبور في أذن الخادم فهوم برأسه أمارة الموافقة، أشار إلى أنس فقاد أمه إلى سرير بعيد أجلسها عليه وفي سرعة نقل نصير الفتاة على منضدة خشبية وسط الغرفة وقام بخلع ملابسها وستر موضع العفة بخرقة قماش.

برغم الضوء الخافت المنبعث من المسارج فإن صبور لم يطق رؤية الفتاة تغسّل أمامه فلم يتوان نصير عن تناول الماء فأسبغ وضوء الفتاة وأهال الماء على جنبها الأيمن وتلاه بالأيسر ثم غمر

جسمها كله وأعاد الوضوء ونشف الجسد جيدًا، يدرك أنس أنه لا يوجد كفن فناوله قماشًا من حرير بني فلف جسد الفتاة جيدًا، ورفع أمامه زجاجة كبيرة فدلق ما بها من عطر فعبقت الرائحة الزكية المطرح الضيق، صبور في الأمام ونصير وأنس خلفه، أنهى تكبيرات الصلاة على الميت والدعاء، سلم فخطت خوند عنود نحو ابنتها وانهارت عليه تودعها ببكاء مكتوم مرير فأبعدها أنس وكفه مفرودة على فمها، حملها نصير وأرقدها في القبر على جنبها الأيمن ووجهها تجاه القبلة كما أشار إليه صبور، سحب ألواح السرير ورصها جوار بعضها على عمق شبرين وبرفق أهال التراب وساواه جيدًا، أقعى صبور وهذه المرة تعاون معهما أنس في إعادة رص الأحجار، ما إن انتهوا حتى زفر صبور نفسًا ممطوطًا واستراح نصير لكن أنس نهض من فوره إلى بعض الأكياس الفارغة وشرع يعبئها بالتراب فشق على نصير أن يتركه فعاونه حتى كنس بقية التراب وفي ركن منزو بعيدًا عن القبر ركن ثلاثة أكياس، لملم بقية كسرات الخبز والأرغفة اليابسة والقليل من الفاكهة المعطوبة وقد تغيرت رائحتها ووضعها في زنبيل، تارة أخرى غسل نصير يديه ووجهه وأشار صبور إلى سرير الخوند فتعاونوا على نقله قيد خطوات فركنوه على القبر مباشرة، التقط صبور أنفاسه والتفت إلى عنود الواجمة.

– أمر الله والموت علينا حق، صدقيني يا سيدتي ما كانت الأميرة بركة لتجهز بأفضل مما حدث فسلّمي أمرك لله وادعي لها بالرحمة.

– نعم، على الأقل دفنت في القصر.

– هيا، الوقت يمر ويجب علينا الخروج.

– إلى أين؟

– تبيتين عندنا وفي الصباح يفعل الله ما يشاء.

– لا، أسافر عند أبي وإخوتي في دمياط.

– لكن السفر يحتاج إلى وقت وتدبير وسفينة تكون مبحرة إلى دمياط.

– أكتري سفينة.

– سيدتي الوقت ليل ومطر و...

فتحت صندوقًا زاخرًا بدنانير ذهبية من أيام قايتباي والغوري، غرفت منه في بقجة صغيرة حتى امتلأت وملأ لها نصير كيسًا خشنًا من الصوف من حليها وعطورها الثمينة، أطفأ أنس المسارج المعلقة على الجدار وأبقى معه شمعة كبيرة، أمام باب الخروج ألقت نظرة أخيرة على قبر ابنتها المخبأ أسفل السرير وخرجت فأغلق أنس باب القبو وقادهم في الدهليز وقد تسللت مياه الأمطار إلى

أرضيته، يمسك يد الخوند إلى أن أوقفه نصير فتقدمه ليصعد السلم الحجري وبحذر رفع الباب، أطلّ برأسه فاتسع صدره للهواء البارد الذي طرد عطن القبو الضيق، الأمطار خفت وبقي رذاذ خفيف، تلفت حوله، البقعة غاصة في العتمة والقصر يربض في سكون مخيف، أشار لهم بالخروج فصعدوا والخوند تعيد لف قامتها بشقة سوداء، أغلق نصير الباب وأدار أنس المفتاح، أعادوا إلقاء حزم الحطب الغارقة في ماء المطر وزاد عليه أطنان البوص؛ حتى تأكد أنس بنفسه من محو أي أثر لوجود الباب، فك صبور قيد الحمار وأركب عليه الخوند، قادهم إلى بر الفسطاط فقد رأى وهم قادمون سفينة راسية هناك فلعلهم يستطيعون اكتراءها فتبحر بالخوند إلى دمياط.

***

أعلى المرسى راقبوا إنهاء تحميل أكياس العلف وتغطيتها اتقاء المطر، فلم يضيّع صبور الوقت وقابل ريس السفينة، لم يبد له أي نوع من الإفراط في عرض أجر توصيل السيدة بل على العكس تمامًا دار حواره معه بين عرض الأقل من الدنانير ثم اتفقا على الأجر النهائي عندها خطت الخوند المتخفية الممر الخشبي المتأرجح حتى استقرت قدماها وقلبها يخفق، أشار الريس إلى خُن في آخر السفينة وتركهم وانصرف لعمله، على نور المسرجة نزل نصير يتفقد الغرفة الضيقة فنظفها وأعاد ترتيب أشيائها وتوضيب سريرها المتواضع، التمس كل وسيلة ليجعل الغرفة مناسبة لساعات السفر، صعد لكن عنود جلست على دكة صغيرة ودعت صبور للجلوس جوارها، نظراته تدور وهو يرقب أشباح النوتية تعمل في همّة لتبحر السفينة قبيل الفجر.

– منذ أكثر من عشرين سنة هربت من أسيوط على ظهر سفينة الريس حميد الفرشوطي وولدت عفيفة في غرفة ضيقة ولولا وجود أم سعد ما كنت أقدر على عمل شيء.

– كنت أنا يا جدي.

– ساعتها أذّن أبو سعد في أذنك ومضغ إحدى التمرات ووضعها في فمك وحملتك خالتك صافية ورقصت.

ابتسامة باهتة افترت بها شفتا صبور وهو يحوط أنس بنظرات أودع فيها كل معاني الحنو، انقبضت قسمات وجهه وكأنه خمش حدثًا بعينه لا يريد اجتراره.

– عفيفة كانت ضعيفة قليلة الأكل واشتدت حمّى جسمها وماتت ومن رحمة ربنا كنا قريبين من الفشن والريس حميد يعرف إمام الزاوية المطلة على النيل، يا سلام على الشيخ شعيب ومروءة الرجال، أمر حريمه بتجهيزها وتكفل بالكفن والدفن في مقابر الصدقة القريبة من قصر ططر.

ما إن فاه بالاسم حتى أطرقت الخوند خجلًا من فعلة زوجها القديمة، انحنى أنس على عمامة جده وقبلها فأحاط وسطه بذراعه وحضنه، ظلتهم غمامة صمت قاتمة فصمتوا حتى لا يريد أي منهم أن يسترجع ما مرّ به ويتهم نفسه بالتقصير في منع الأمير من خطفه للرضيع، هوم صبور برأسه وكأنه

يقول لهم أن المقادير رسمت هذه الحياة ولا أحد يمكنه تغييرها، من بعيد أشار لهم الريس بأن السفينة ستتحرّك فأمسك صبور بمعصم أنس الذي احتار في البقاء مع الخوند ومرافقها إلى دمياط أم البقاء مع جده، يجب أن يحسم الأمر، جده لن يفرط فيه مرة أخرى والخوند المسكينة المطعونة في قلبها بعد ثكل ابنتها تستحق الرعاية، اعتورته الحيرة ونغزه صراع لم يقاسيه من قبل وكأن نصير أدرك ما بصدر سيده فأعلن لهم في حسم:

– أنا أرافق سيدتي عنود.

– أنا الأولى يا نصير.

– أنا خادمها يا سيدي من قبل أن تولد لكنك الأمير فلو قابلنا جند ابن عثمان في أي بر، لن يرحموك.

– صدق نصير يا أنس، ابق مع جدك فمعه أمان.

– لكن يا أمي...

– اسمع كلامي يا حبيبي.

قبل أن يفوه حرّر عامل السفينة الحبل الغليظ وتخطى السقالة الخشبية ووقف ينتظر فنهضت الخوند من فورها وحضنت أنس، أغمض عينيه، دار رأسه، زكمت أنفه رائحة عبير أمومتها، رغبة عارمة في البقاء بحضنها لا يريد مفارقته، صوت تصفيق بعيد فلم يجد نصير بدًا من مساعدة سيده أن يبعد، قاده صبور نحو الألواح الخشبية ودموعه تنهمر على خده، على البر وقف فأراد نصير إنهاء الموقف فطلب من سيدته النزول إلى الخن وساعدها حتى أخفتها الفتحة الضيقة، رفع يده لهما وفي الظلام لمح قبضة صبور المضمومة وكأنه يوصيه بها، أراد أنس البقاء لكن صياح الديكة ينذر بقرب الفجر، صعد معه السلم الحجري وأعلى حافة النيل أشار إلى نصير ولسانه يتمتم:

– احفظ أمي يا نصير.

***

تركه صبور ينام ونبّه على عبده وعشري ألا يزعجاه، قبل الظهر نفض عن نفسه الغطاء وكأن كل ما مرّ به حلم طويل وكابوس سيفيق من ثقله ليجد نفسه وسط حديقة القصر وأمه وأخته تجلسان أسفل عريشة العنب والجواري يأتين لهم بالطعام، اصطدمت روحه بواقعه بين جنبات الحجرة المتواضعة، وقع أقدام تدب وبرز صبور وبين يديه صرّة محكمة، ركنها أمامه وفتح رباطها، اتسعت عيناه للدنانير والأساور والخواتم الذهبية، رفع وجهه وهتف في دهشة:

– أنا أخذته لأمي أقصد للخوند.

– الخوند أخذت ما يكفيها وأصرت على إهدائك ما تراه وأنا أمشي جوارها وهي راكبة الحمار أوصت لك بكل ما في القبو.

– لكنه ملكها، هي الوريثة لمال زوجها الأمير ططر.

– السيدة النبيلة ونفسها الزكية تريد تعويضك عن حرمانك من أهلك، هي قالت لي ونحن في الطريق فالمال مالك يا أنس وربك هو الستار عن عيون ابن عثمان وجنده الجشعين.

أطبق شفتيه واستأذن من جده، أعاد صبور الدنانير والمشغولات الذهبية وربط الصرة جيدًا، عاد أنس وهو ينشف وجهه، فرد ذراعيه لجده فحمل الصرة وفتح صندوق الملابس القديم ووضعها فيه، جلس قبالة أنس وزفر نفسًا طويلًا.

– اسمع يا أنس، وأرجو ألا تتضايق من كلامي، كنت أميرًا صاحب قصور وضياع تأمر وتنهى ولا يسع العبيد والخدم حتى مماليك الأمير ططر إلا الطاعة، لكن قدر الحقيقة كشفه الله فتبّدل حالك إلى حال، وربنا وحده يعلم أني ما فرطت فيك أو المطالبة بك حتى لما كبرت وكان عزائي الوحيد أني رأيتك تعيش بأفضل مما كنت معي.

– وأنا معك الآن يا جدي ولا أفرّط في صحبتك.

– ليست صحبة يا بني إنما حق وواجب وقبلها حياة تعيشها معي وإن كنت تملك ثروة لا حدود لها في القبو، أرجوك تسمع كلامي وتحذر أشد الحذر ممن يعرفك من الزعر والمنسر فكلهم لا عمل لهم اليوم غير بيع أولاد الناس والجراكسة وأتباعهم لجند ابن عثمان وأنا أخاف عليك.

قالها صبور وصوته مختنق لكنه أثنى على قراره الأخير بمصارحة حفيده بآخر الحقائق حتى يحترز من ناحية ومن ناحية أخرى يتقبل حياته الجديدة التي لا تقارن بما مضى، وعى الفتى ما يرمي إليه جده، ومالت نفسه إلى معرفة ما يجري خارج درب العطارين فسأله:

– وبعد هروب السلطان، من تولّى أمر القلعة؟

– القلعة ملكها ابن عثمان لكن اليوم الخليفة المتوكل على الله كبر شأنه وابن عثمان يقبل شفاعته في الكثير من المحتمين به فها هي زوجة طومانباي ابنة الأمير أقبردي الدوادار مقيمة عنده وطالبها ابن عثمان بما عندها من مال.

– الخسيس، ما له والنساء!

– يريد الاستيلاء على أي مال يملكه السلطان أو مماليكه.

صمت صبور قليلًا فلم يشأ أنس إزعاجه بالسؤال عن أخبار أخرى قد يعرفها في وقتها، تناول الخبز والبيض المسلوق والجبن وشرب الماء وهو يرقب جده يسحب الكيس من أعلى الرف ويخرج منه الكتاب، يفتح الصفحة، أمسك بقلم الغاب الرفيع، عمد إلى سكين وأصلح السن المدبب فقلب أنس صفحات الكتاب وقرأ بعض الأخبار، علت الدهشة وجهه.

– عادة قديمة بدأها جدك عبد الله السرّاج أيام المؤيد أبو النصر شيخ المحمودي، كان يكتب بعض الأخبار وتوارثها ابنه الحسن ومن بعده أبي ثم أنا.

– شيء عظيم، تكتب مثلما يكتب الشيخ أبو البركات محمد بن إياس.

– سمعت عنه لكني لم أقابله ويوجد شاب أصغر منك يا أنس اسمه أحمد بن زنبل له حافظة واعية للأخبار.

– لا أعرفه، لكن كيف تكتب يا جدي؟

– الله يا أنس، قلبي يرقص كل ما تقول يا جدي، انظر.

«الثلاثاء حادي عشر من شهر المحرم للعام ٩٢٣ من الهجرة109، أرسل ابن عثمان مناديًا في القاهرة ونواحيها بأن أمراء العشراوات والأربعينات وغيرهم من المختفين يظهرون وعليهم أمان الله ويتوجهون إلى مدرسة السلطان الغوري فظهر الأمير أركماس أمير سلاح وطقطباي وتمر وتاني بك الخازندار ومصرباي الأقرع من أمراء الطبلخانات فتجمعوا في مدرسة الغوري ورافقهم الجند إلى وطاق ابن عثمان فألقى على مسامعهم الشتائم وأهانهم وبصق عليهم وذكرهم بظلمهم للناس وأمر بإمساكهم بالقلعة».

– ولماذا ظهروا أصلا، كان الأكرم لهم يظلون مختفين ولا يبهدلهم ابن عثمان غاية البهدلة، لو أبي كان بينهم لـ...

– لفعل مثلهم يا أنس ولا تقل أبي مرة أخرى فلا قرابة بينك وبينه.

– معذرة يا جدي، لكني متعجب من الأمير ططر، أيعقل أن يعاملني كولده من صلبه فيتولى تربيتي و...

– من أجل مصلحته، خاف على ثروته من أعدائه الكثيرين إن عاش وحيدًا ولكن لو له ولد الأمر يختلف.

– عندك حق يا جدي، ولي طلب، أتمشّى قليلًا، إلى جامع عمرو وأرجع.

– رجلي على رجلك.

ألبسه صبور قميصًا بسيطًا مما يرتديه الحمّالون وانتعل خفًا جلديًا رخيصًا، لف حول رأسه عمامة مرقعة وطلب منه ألا يتكلم أو يتحاور أو حتى يرد السلام والأفضل من ذلك أن يمسك نفسه ولا يتهوّر إن سمع أو رأى ما لا يرضيه فوعده وخرجا معًا حتى بيت معتوق فاستأذن وقاده عبر المجاز إلى الغرفة التي بالشارع المتفرع منه الدرب، تمشيا في وضح النهار وكأنه يرى الفسطاط لأول مرة في حياته، قطعا شارع السوق ومن بعيد تشمخ مئذنة الجامع العتيق، لحظ صبور الكثير من البيوت علق أصحابها أعلى الأبواب رنك110 الخليفة المتوكل على الله.

أطبقت الغصّة على صدره وهو يرى جند ابن عثمان يتسكعون وأحنقه أشد الحنق ملاقشتهم111 للنساء والصبيان حتى أن الساكن يسحب ابنه الصغير بعيدًا عنهم، تعمد قيادته نحو مرسى السفن، وانزوى به في ركن قصي بعيدًا عن الأعين تلفه الأشجار المائلة في حنو على النيل، افترشا التراب وصبور يصوّب نظراته نحو البر الآخر البعيد وأنس يمسك طوبة ويلقي بها في النيل ويتأمل الدوامات الملتوية في حلقات وتنتهي حياتها في لمح البصر.

على مبعدة منهما رسا قارب صيد صغير وجرّه صاحبه وربط حبله بجذع شجرة وابنته بين يديها زنبيل ثقيل، التفت أنس للأصوات الضاحكة، اثنان يبدو أنهما من الفلاوية112 يحوطان بجندي وبندقيته معلقة على كتفه ومن حين لآخر يرفع زجاجة ويشرب، أحدهم أشار إلى ابنة الصياد وخطا الآخر نحوها، أمسك أبوها معصمها وحاول الابتعاد فاعترضه الجندي، مد يده فدفعه الصياد، انفلت الزنبيل من يد الفتاة والتصقت بظهر أبيها فتضاحك اللصان ونهش أولهما طرحة رأسها، في سرعة نهض أنس فلم يجد صبور الوقت لمنعه، جرى نحوهم وحال دون اعتداء جندي الإنكشارية على الفتاة، لطم أقرب اللصين إليه فسحب بلطة وهوى بها، في خفة تفاداها أنس والثاني يرفع سيفًا فأمسك بذراعه ولواها مخلصًا السيف من أصابعه، هلع يتملك صبور ولا يدري كيف يخلص حفيده من معركة غير متكافئة لكن الشاب القوي أظهر من مهارته ما جعل الجندي نفسه يتراجع فقد هوى بالسيف على يد اللص فبترها وجرى وهو يصرخ ويقبض على ساعده والآخر صاحب البلطة بارزه فوثب أمامه أنس وطعنه في قلبه فخرّ يتخبط في دمه، سحب الإنكشاري بندقيته ورفعها، ضغط زنادها لكن صبور كان الأسرع في دفع أنس وتلقى الرصاص، في سرعة دار أنس ورفع السيف وطعن الجندي في قلبه وظل يدفعه حتى هوى في النيل، التقط أنفاسه وهو يرقب دماءه تعكر المياه الرائقة، أسرع الصياد نحو صبور، رفع كم جلبابه وفحص أنس جرح جده فطمأنه:

– الحمد لله، الرصاص طاش في الهواء.

– لكنه جرحك.

– خدش بسيط.

بقعب صغير أتت الفتاة بالماء ووجهها مصفر، غسل الصياد الجرح ومزق قطعة من جلبابه المرقع وربط ذراع صبور فابتلع ريقه وكلماته تنتثر:

– الكلاب يتلهون مع إنكشاري غريب عنا.

– الله يلعنهم يا شيخ ولا أعرف كيف أشكرك وأشكر ابنك.

– لا شكر يا عمنا، بنتك كأختي لكن الأهم أن نمشي من هنا.

أسرعت خطواتهما وحين التفت أنس وراءه رأى كلبين يتشممان جثة اللص وأحدهما يمد رقبته نحو الإنكشاري المنكفئ على وجهه في المياه.

***

-١٩-

هذه المرّة أيضًا لم يستطع صبور كبح جماح رغبة أنس في الخروج وتلمس الأخبار، رافقه مع عشري وعبده إلى مقام الإمام الشافعي والناس من حولهم من أصحاب حرف وباعة متجولين وشحاذين وقرادين وحاملي دنان البوزة في عيونهم كسرة وخوف، وقفوا قرب واحد من المخايلين، يفرد ستارة شفيفة ويلاعب أصابعه ورأسه من خلفها ويغني بصوت مسموع كلمات من بلاليق113 يتبذأ بها لسانه وفاجأهم بوجهه يطل من خلف الستارة ثم خرج فضحك أنس لقصر قامته وملابسه الرثة الملونة ونعله الطويل، على رأسه شربوش114 خاطه من قطع قماشية مختلفة، بيده رق يهزه فتصلصل صاجاته المستديرة، يمر على الواقفين فيجود كل منهم بما يحسن به، من حين لآخر يعلو صوته:

أنا ابن طبطبوب لا أخفى على أحد إلا لجاهل بالشمس والقمر، رضينا بحكم مملوك اشتريناه بمالنا واليوم نذل لعثماني غادر يعكر بالنا، هزّ جيبك يا أصيل، افرح وارقص يا سليم، ارفع سيفك يا أمير.

الرجل الخمسيني القصير يخطو في بطء ويمد الرق وأنس يعجب بكلماته ذات الإيقاع المنتظم حتى وقف أمامه يتطلع إلى وجهه فابتسم وهو يرفع الرق أمامهم فانفلتت أصابع صبور عن نصف فضة، عشري هز رأسه ممتنعًا، عبده قبض أصابعه وبسطها على لا شيء فابتسم ابن طبطبوب ورفع حاجبه الكثيف مستنكرًا، ألقى أنس بأشرفي115 لمع في ضوء الشمس فارتبك صبور وفي سرعة فرد منديلًا على جلد الرق، انفرجت شفتا المخايل السمين وأشار إلى أنس.

– إن كنت أميرًا أو واحدًا من أولاد الناس فاهرب، اهرب، اهرب.

صرخ بها ابن طبطوب وجرى، كالنمل تفرّق الصغار والواقفون، سحب صبور عشري وعبده من ملابسهما ونادى أنس فتراجع بظهره حتى التصقوا بالجدار، أحاط جند ابن عثمان بمقام الإمامين الشافعي والليث بن سعد وهم يصيحون في المتواجدين بعدم إخفاء الجراكسة وإلا تعلق رؤوسهم المقطوعة على أبواب بيوتهم، شهروا بنادقهم واقتحموا المقام، وأنس يعض شفته غيظًا وفي الجهة

المقابلة يقف ابن طبطوب ويرفع الأشرفي، يشير إلى أنس أن يبتعد، بدأ العثمانية في الخروج وبين أيديهم البسط الثمينة والقناديل والمشاكي الملونة، مسحت عيونهم الواقفين في خنوع، نزل قائدهم من على ظهر فرسه وخلفه أربعة من الإنكشارية يشهرون بنادقهم، أشار إلى أحد التجار وسأله إن كان يعرف أي جركسي هارب لكن التاجر أشاح بذراعه فاغتاظ القائد وأمر بطرحه وضربه فانهال عليه الجند بالعصا ولا مغيث، اقترب من صبور وأشار إلى أنس فأسرع صبور بتعريفه:

– ابن بنتي وأخو الصبيين.

– لكنه يشبه الجراكسة!

– أقسم لك أنه حفيدي.

همّ القائد بأخذه فرأى الجند ابن طبطوب المخايل يجري ويتعثر في حفرة ويضحكون لوقعته ثم ينهض إلى القائد ويهز شربوشه وهو يتمايل.

– أعرفهم حضرة جربجي، عمنا تاجر والأولاد تبعه.

دقق القائد في وجوههم وملابسهم، استدار وصبور يتمتم «وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون» امتطى الجربجي حصانه واكتفى بما نهب جنده بما في مقام الإمام الشافعي ولحق بهم من نهبوا ما في مقام الليث بن سعد وقادوا خيولهم وخلفهم المشاة بما يحملون من أسلاب، ضرب أنس الجدار بقبضته، فربت عليه جده وهو يهدئه:

– الخسارة وقعت يا ولدي ولو أنك دخلت وحاولت منعهم لقطعوا رأسك وعلقوها على باب المقام.

– واعتبروا ما فعلوا هو الانتصار بعينه.

قالها ابن طبطوب وبين أصابعه يلمع الأشرفي فألقى إليه أنس الغاضب باثنين آخرين، قادهم صبور إلى درب العطارين وطوال الطريق يطيب صبور خاطر حفيده والدعاء لتحاشي ما هو أسوأ.

– الأسوأ لم يأت بعد يا جدي، ما دام السلطان على قيد الحياة لن يكف عسكر العثمانية عن التفتيش.

– يفتشون أو لا يفتشون، أنت الآن لست تبعًا لمن يطاردونهم.

لم يرد أنس مجادلة جده أكثر من ذلك، جلس صبور على مصطبة بسيط فصعد أنس للغرفة، تمدد على السرير وصدره يفور من فرط قلة الحيلة، في قرارة نفسه تمنّى لو يجمع السلطان أشتات الجراكسة فينضم إليه ويهجمون على وطاق ابن عثمان ويقاتلونه قتال اليائس من دنياه وهنا مكمن النصر المؤزر، شطحت أحلامه أن ما يفكر فيه حدث وأمست المحروسة كلها قبورًا مفتحة لرمم جند ابن عثمان وقبض السلطان طومانباي عليه وشنقه واسترد قصره وعادت لهم سطوتهم و...

– لنا، لي، للجراكسة.

غمغم أنس بكلماته في هذيان وصفعه السؤال لماذا يتمنى نصر الجراكسة وهو ليس واحدًا منهم وما السطوة التي يجب أن تعود له، والقصر، أي قصر، إنه ملك الأميرة المدفونة أسفله والخوند اللائذة بدمياط وليس له فيه قشّة من شجر، تأرجحت الحيرة بين جنبات صدره المضطرم بنيران الكراهية لسليم بن بايزيد وكل من والس وخامر وتآمر فزين له امتلاك الديار المصرية وجنده يفعلون بها الأفاعيل.

التفت إلى تصفيق خارج الغرفة فنهض والنعاس يناوشه، أمينة تقف على مبعدة من الباب وتبتسم إليه وهي تشير إلى الماعون الكبير داخل الحمّام، لا يدري لما اقترب منها وسألها:

– إن تسمحين أريد الكلام معك!

– أنتظرك على السطح.

قالتها في صوت خافت خجول ونزلت في سرعة، تعجب من ابنة خالته فهو حقيقة يحتاج إلى حمام وتغيير ملابسه، أسرع بإنهاء استحمامه، مشط شعره وصعد فوجدها تجلس على الزيار أمامها قلة الماء وطبق التمر، تناول إحداها واستعذب طعمها الحلو، بدأته بالكلام:

– أخبرني جدي بموت أختك أقصد الأميرة بنت الـ...

– هي فعلًا أختي يا أمينة، رضعنا من أم واحدة.

– أحسن الله عزاءك.

– الحمد لله، ربنا رحيم، حفظها من جند ابن عثمان أو أسر العياق وسترها ودفنت في القصر والخوند نفسها ربنا يسّر لها العودة إلى إخوتها بدمياط وهي بعيدة عن العثمانية.

أمينة تطيل النظر في وجه ابن خالتها وشعرت تجاهه بألفة ومحبة خالصة فلم تتوقع منه التواضع وهو الذي تربّى في قصر منيف يأمر وينهى ولا أحد يعترض ولا يقبل تكرار ملبسه أو النوم على ملاءة مرتين ولديه من الخيول والجنائن والأموال ما يجعله في ترف لولا جائحة العثمانية التي حطت بسوادها على البلاد ما فرط في كل ذلك وقبل العيش هنا في درب العطارين حتى لو عرف بأصله، عند هذه الفكرة تجرأت وسألته:

– لو أن العثمانية غير موجودين وعرفت بأصلك تقبل تعيش معنا؟!

حقيقة لم يفكر في الإجابة عن هذا التساؤل، ماذا يمكنه أن يقرر لو أنه ما زال يملك قصر الأزبكية والإسكندرية وضيعة الفشن وغيرها من أموال وخيول ثم عرف بأصله الأسيوطي العريق وجده

وخالته وأولادها، انغلق تفكيره عند هذه اللحظة، أغمض عينيه ليعيد ترتيب حياته، بقي برهة فشعر بأصابعها الرقيقة تربت على كفه، فتح عينيه فوجدها ترفع أمامه إحدى التمرات وتشير إلى نخلة عالية تشمخ بجريدها الأخضر وسط آخر بيت بالدرب.

– واحدة من رُطب نخلة عمي جمعة.

– عمك جمعة؟

– البيت هناك كان يملكه عمي جمعة وتزوج من عمتي مسكة.

– والدة عبده؟

– عبده أبو لسان منفلت.

– لكنه ولد لطيف.

– مات عمي جمعة في الطاعون فقفلت عمتي مسكة البيت وعاشت معنا هنا.

– لكني أرى أهل الدرب يدخلون البيت ويخرجون بقدور الماء.

– لما اقترب العثمانية من البلد، خاف جدي وأبي وعمي معتوق وكل أهل الدرب منهم ورأوا أن أهم حاجة الماء فحفروا بئرًا قرب النخلة بحوش البيت.

– يا سلام على الناس البسطاء وتفكيرهم، وعشري؟

– أخي عشري طيب القلب قليل الكلام، كان يتردد على حلقات الأزهر لكن جدي صبور منعه بسبب الـ...

لم تكمل كلمتها وفزت واقفة ونظراتها إلى بعيد خلف أنس، وقف بدوره وأشار إلى الكثير من الجند بنادقهم مرفوعة بينهم الزعر، بعينيه الصقريتين حدّق وفغر فاه للشاب الفلاوي مقطوع اليد يحاول مع غيره سحب الأحجار التي تسد فم الدرب.

– آه لو رآني الولد مقطوع اليد لا أنجو من الموت.

– الذي قطعت يده وأنت تدافع عن بنت الصياد؟

– هو بعينه الله يلعنه.

– لا وقت، تعال معي.

أمسكت يده فتخطّى الزيار إلى بيت حجاج، قادته لنزول السلم، من حسن الحظ أن أمها وعمتها مسكة مشغولتان في الخبيز، جوار الباب نتشت مفتاحًا كبيرًا معلقًا على مسمار وواصلت الجري وأنس خلفها، في خطوتين وصلت لبيت بسيط، أدارته وفتحت الباب في اللحظة التي دفع فيها الزعر الفلوق المنصوبة خلف جدار الأحجار، وقف أنس ووجهه تجاه أول الدرب، دفعته أمينة وأغلقت الباب خلفهما وشدت المغلاق الخشبي الكبير.

– جدي؟

– لا أدري، ربما يكون عند معتوق السقاء.

جلبة في الخارج وأصوات أحجار تلقى، صيحات بعيدة وطلق رصاص، حاول أنس النظر من خلال فتحات ألواح الباب لكنه عجز عن تبين شيء، الصياح يتعالى، يقترب، رجال يجرون في الدرب والساكنون يخرجون لمعرفة ما يجرى، أبعدته أمينة عن الباب، همّ أن يتكلم ففرت كفها على فمه، صوت آمر يزعق:

– الكل يطلع من بيته: الستات، الأولاد، الرجال، ولو فيه أي جركسي يخرج وله الأمان.

من شرخ طولي بالباب اهتزّت الصورة أمامها، الأبواب كلها مفتوحة ومن لا يفتح بابه يدفعه أحد الزعر فينفرج بالقوة، جنديان على فرسيهما وبقيتهم يمشون وبنادقهم مشهرة، جدها يقف جوار أبيها ومعتوق وكريم والمكاري عطية، الشيخ مصطفى يتوكأ على عكازه، جحظت عيناها لخروج أمها تمسك بيد عشري وعمتها مسكة جوارها عبده، أشار إليها ليخرج فردت عليه أن تفتح هي بعد أن يختبئ في الرواق بالأعلى، في سرعة قادته إلى فوق، الرواق بلا باب، دخلت ومن زاوية متوارية بصّت لأسفل وأنس جوارها، وسط اعتراض الأهالي قاد الزعر عسكر ابن عثمان إلى داخل البيوت ويخرجون في سرعة بعد أن يحمل كل منهم ما يراه يستحق النهب لكن أهل الدرب احتاطوا وأخفوا ما يريدون في غرف لا يعرفها غيرهم، التزم الواقفون الصمت ومن حين لآخر يعلو صوت بأن الدرب لا جراكسة فيه ومبتور اليد يحدّق في الواقفين بعينين حاقدتين وتملكته شهوة معرفة المقاتل قاطع يده فأدرك أنس أنه لو بينهم الآن لضرب عنقه أو اقتادوه ليشنق أول الدرب، أقربهم يشير إلى الباب الوحيد المغلق، سمع جده يجيب:

– بيت المقدس حزقيال وابنه بسيط غير موجود.

– اكسر الباب.

ما إن أمر قائدهم حتى توالت خبطات أرجلهم، اعتمدت أمينة على الباب أن يصمد فيملون لكن الباب القديم انفلقت ألواحه، لم يتبين أحدهم حين انكسر المغلاق أن الباب موصد من الداخل، كالبهائم

اقتحموه لما يعرفونه عن المسيحيين ومهارتهم في تخزين القمح والسمن والعسل، سقط قلبها واصفرّ وجهها لدخولهم ولم يبق غير صعود أحدهم لأعلى ويقبض على أنس الذي رفع قضيبًا عريضًا من الحديد ليفلق به رأس أول الداخلين لكنه يدري أن بقيتهم سيطلقون الرصاص من بنادقهم ولن يفرقوا بينه وبين ابنة خالته لذلك خضع لأمرها حين سحبت من يده الحديد وبدون صوت ركنته، زاغت عيناها في أركان الرواق، ليس به غير كنبة عارية من مرتبتها وحصير كبير ملفوف في ركن بين جدارين، في سرعة فردته ودفعت أنس فالتصق بالجدار، مالت نحوه ولفت عليهما الحصير، فردت كفها على فمه فكتم أنفاسه، دبدبة تعلو وخبطات انفتاح باب الحجرة المقابلة، أشياء تقلب ومواعين تلقى، أمالت رأسها على صدره فقوّس ذراعيه حولها، أغمضت عينيها وجمدا في مكمنهما وأصابعها المرتعشة تقبض على طرف الحصير، أرجل تقتحم الرواق، أنفاس خشنة متوالية، برطمة وصوت انقلاب الكنبة، دبدبة الخطوات تغادر الغرفة، ظلا ساكنين وزاد من ضمه لها فاستشعرت توحدهما في روح واحدة بجسدين يحرص كل منهما على الآخر حرصه على نفسه، انتشت أنفها لرائحة عرقه، واستطاب لطراوة خدها الأملس وأنفاسها الوادعة تدغدغ صدره، جهل سبب استكانته الرائقة ولا تدري لم لا تفلت أصابعها طرف الحصير، استسلم لحماية صدرها وشعر أن الرواق الحقير أنعم من تعريشة العنب الرطيبة بحديقة القصر فرضيت نفسه باستدامة الخوف، الخوف دفعها لأن تفلت أصابعها طرف الحصير فينكشفان للخواء الكابي وانقسم تفكيرها نصفين، نصف استمرأ البقاء وآخر رجّح الانعتاق من توحد الروح، رفعت رأسها فمال وقبّل جبينها، برفق أبعدت نفسها، كوتد مدقوق لم يبد أي حركة، خطت إلى الخلف وأعادت لف الطرحة على رأسها، مالت نحو المشربية فرأتهم يحملون أكياس الغلال والقليل من الصناديق ويتخطون الأحجار الملقاة أول الدرب.

أمام درجات السلم ربت على كتفها فالتفتت إليه، ألجم لسانها وهي مطرقة لا تدري ما تقول، أمسك يدها وقبلها، رفعت رأسها وأهدته ابتسامة راضية، زرّت عينيها وأشارت إلى أسفل، فأدرك ألا يجب البقاء وقتًا أطول، نزلت أولًا فخطا صبور نحوها وسألها في لهفة:

– أنس يا أمينة؟

أجابت خطواته النازلة عن سؤال جده، بكم جلبابه مسح عرقه، أعادت إغلاق بيت المقدس بسيط، أمها وعمتها واقفتان أمام الباب فخطت نحوهما، وكل أهل الدرب عادوا لبيوتهم ليرتبوا ما أفسده الزعر والعثمانية.

***

الأيام التاليات عاشها أنس ملفوفًا في شرنقة الخجل فامتنع عن مقابلة أمينة بعد أن صارح جده بما حدث وبرغم أن صبور طيب خاطره فإنه لا يدري أيعتذر لها أم يشكرها لإنقاذه؛ فلو عرفه ذلك اللص الخبيث لكان رأسه تركله أرجلهم، والأعجب في الموقف أنه رأى بين جند ابن عثمان العشرين ومن رافقهم من الزعر واحدًا من أولاد الناس يصطنع الجهامة ويقتحم البيوت التي يشير

إليها قائدهم الجربجي، انسحبت دهشته بما يفعل أولاد الناس فإن كان الكبار مثل جان بردي الغزالي وخاير بك ركعوا لابن عثمان فلا عجب مما يفعله صغار الجراكسة.

أيقن بعدم جدوى العودة إلى حياة المماليك والأبقى له بعد هذه التجربة هم أهله بدرب العطارين، التمعت عيناه بدموع الشفقة على أهل الدرب والمحروسة بأكملها التي سباها ابن عثمان وجنده وها هو بالقلعة محتجب عن الناس كذئب يعوي كلما قطعوا أمامه رؤوس المستسلمين من الجراكسة ونصب وطاقه بالرميلة من باب القرافة إلى سوق الخيل وعسكره ربطوا خيولهم في الحوش إلى باب القلعة عند الإيوان الكبير وصار روث الخيل وصنانها يكره الناس على الاقتراب من القلعة التي كانت زاهرة قبل شهور بنظامها ونظافتها غير المعهودة.

– تبكي يا أنس؟!

فوجئ بجده يقف أمامه وهو متكئ بكوعه على الوسادة فاعتدل، جلس صبور جواره وحضنه، ربت على كتفه وأدرك ما يقاسيه الشاب ولا سيما بعد ما رأى وسمع وأتته الأخبار بما يفعل ابن عثمان، تنهد وغالب حزنه:

– القلعة يا جدي التي سكنها قديمًا عظماء السلاطين يوسخها روث بهائم ابن عثمان وجنده الخبائث في خيامهم بالرميلة دنان البوزة وجفان الحشيش.

– وأصبحوا بين يوم وليلة كالجراد من الصليبية إلى جامع قوصون116 إلى داخل باب زويلة إلى قناطر السباع، ما خلا منهم شبر.

– ويموت الشيخ الجليل برهان الدين إبراهيم بن أبي شريف المقدسي الشافعي وشيخي عالم الأخبار حسن بن الطولوني ولا يشعر بهما الناس.

– وكيف يشعر الناس بموت رجل علامة والواحد منهم يخشى أن يطل برأسه من مشربية بيته.

– عندك حق يا جدي، المهم ما أخبار السلطان؟

– سمعت أنه عند أولاد عمر بالصعيد والتف حوله الكثير من الأمراء الهاربين والعسكر والعربان وأشاع من قابلتهم من مجاوري الأزهر أن السلطان أرسل إلى طومانباي رسالة يعرض فيها أن تكون الخطبة والسكة باسمه بشرط الخروج بعسكره إلى الصالحية حقنًا للدماء وإلا فليقابله في بر الجيزة ويعطي الله النصر لمن يشاء.

نفض أنس عن نفسه الغطاء وهبّ واقفًا أمام جده فرأى انتفاخ عروقه واحمرار وجهه وبريق عينيه فأدرك ما قد ينتويه أنس الذي هدأ قليلًا ورمق القلق البادي على وجه صبور واهتزاز رأسه ونظرته

المنكسرة وكأن لسان حاله يقول: ارحم شيخوختي وإن كنت أنقذتك مرة عند جامع شيخو فربما أعجز في غيرها. اقترب من جده وقبل عمامته ويده المعروقة.

– اطمئن يا جدي، لا أشارك معهم ولكن الخبر يؤكد أن السلطان لم يصبه اليأس وأكيد معه الأمير علان ابن قراجا فهو أشجع الفرسان.

– نعم حوله الكثير من المقدمين وأمراء العشراوات لكن الأمير علان بعد كسر فخذه في الريدانية غلبه مرضه ومات بالصعيد دفن هناك.

– يا لخسارتك يا طومانباي!

– لكن معه الأمير شار الشجاع وصديقه الأمير قلج والأمير دولتباي كاشف منفلوط وسمعنا أن الأميرين رزمك الناشف وقيت رحبى انضما إليه بكردوس117 من الخيل.

– ألا تستحق كل تلك الأخبار أن تدون في كتاب جدودي؟

قالها أنس وهو يشير إلى الكيس الجلدي المركون على الرف فابتسم له جده وقرص خده، جلس على السرير وقرّب المنضدة، قنينة الحبر مملوءة وقلم الغاب جاهز، حسب أنس أن جده سيدون كل ما قاله وفكر فيه لكنه رآه يضيق عينيه كأنه يتذكر شيئًا ثم بدأ يكتب.

«الاثنين سادس عشر من شهر صفر نزل الفسطاط فلاحون من قلقشنده وقليوب وحكوا أن العربان بالشرقية قطعوا الطريق على جند ابن عثمان وقتلوهم وأخذوا ما معهم من مال وسلاح وخيل وجمال ونهبوا بلاد عبد الدائم بن أبي الشوارب وأحرقوا بلادًا بالشرقية فأرسل إليهم ابن عثمان تجريدة كبيرة

من العسكر على رأسها الأمير جان بردي الغزالي فخاف العربان وفروا إلى الجبال فعاد العسكر ولم يلاقوهم».

– آه، هؤلاء العربان، ينتهزون فرصة عدم وجود حرس بالبلاد ويظلمون أهلها المساكين.

– رأيك يا أنس لو تكتب أنت ما أمليه عليك.

– حاضر يا جدي.

– اكتب.

«وقام الجراكسة بقتل الأولاقية الذين أرسلهم ابن عثمان للسلطان طومانباي وكذلك قطعوا رأس قاصده وقطعت كل سبل الصلح بينهما وأصبحت الحرب لا مفر منها».

– الأولاقية، أصبحت تتكلم مثلهم يا جدي.

– أحاول نقل ما أسمعه أو أراه و...

قرع على الباب فالتفت صبور وأنس في وقت واحد لأمينة الداخلة عليهما في بطء ووجهها مطرق، ركنت طاولة كوب مغلي الشيح الذي يحبه جدها وهمّت بالانصراف فاستوقفها:

– لم تسلمي على ابن خالتك.

– أيام طويلة وابن خالتي لا يريد مقابلة أحد حتى خالته.

– لا، لا يكون هذا بينكما.

– الحقيقة أنا خجلت أن أكون أسأت التصرف وغضبتِ مني.

– لم أغضب.

قالتها وزاد تهدل رأسها واحمرار وجهها من الخجل، تنفست في سرعة فربت جدها على كتفها وابتسم لهما، همّ أن يقول شيئًا لكن صوت معتوق السقاء ينادي بالأسفل، أطل صبور من المشربية ودعاه إلى الصعود، أومأ إلى أمينة بالانصراف على وعد باستكمال كلامهما بعد مقابلة السقاء الذي دخل الحجرة ووجهه ينضح بالانقباض والهم.

– قائد لابن عثمان أمر السقائين بتجميع جمالهم وقربهم وتعبئتها من أجل حربه.

– وما لكم وخدمة ابن عثمان.

– ما أقلقني هو الناس، بيوت كثيرة معتمدة علينا وإن لم نملأ لهم الأزيار والقدور لا يجدون الماء للشرب.

– لا حول ولا قوة إلا بالله.

– المهم، جئت في خبر آخر، قابلت خادمك يا أمير أنس في سفينة راسية.

– من؟

– حارسك نصير.

– عاد من دمياط؟

– نعم والحقيقة هو مريض، يشكو ألم جوفه ويريد رؤيتك.

– أذهب إليه أنا يا أنس وابق أنت هنا.

– لا يا جدي، نصير إنسان لا يعوّض ويريد مقابلتي فلا يجب أن أتأخر عليه.

في سرعة ارتدى جلبابه المتواضع فأعجب معتوق بهمة الشاب ومروءته، نزلا وتقدمهما صبور، ألقى السلام على حجاج القاعد على الدكة، طلب منه القليل من قشر الرمان والنعناع الناشف، أمسك بالصرة الصغيرة وسار فالتفت أنس إلى الخلف فوجد أمينة على السطح، أشار إليها أنه عائد فأومأت برأسها، خرجوا من الدرب يقطعون الشوارع وصبور يتجنّب المرور أمام جند ابن عثمان حتى اقتربوا من السفينة الرابضة، في سرعة قطعوا الممشى الخشبي وأشار لهم معتوق إلى ركن حيث يتكوم رجل وهو متدثر بحِرام من الصوف، ساروا إليه ومال عليه صبور.

– شيخ صبور، سيدي أنس.

– حمدًا لله على سلامتك يا نصير، لماذا تركت دمياط؟

– خوند عنود أمرتني أعود إليك.

– وكيف حالها؟

– بخير ونزلت ببيت أبيها.

– وأنت، ما أصابك؟

– لا تقلق يا سيدي، الصبح شربت ماء النيل فانقلب بطني وأفرغت ما بجوفي.

التفت صبور فرأى أحد النوتية يقبل وبيده كوب فخاري، حين شمّه ميز رائحة القرض المغلي، لم يقبل الشراب المر لكنه غصب على نفسه ورشف القليل، طلب صبور من عامل السفينة غلي النعناع وقشر الرمان، أخذهما وابتعد، ربت أنس على كتف خادمه.

– لا بأس يا نصير، ربنا يتمم لك الشفاء.

عاد العامل الصغير ومدّ يده بقعب كبير، أصر صبور على أن يشربه كله، فلم يعترض وتوالت رشفاته في هدوء، التفت أنس فلم يجد معتوق، هم بالسؤال عنه فرآه يقبل وبيده كوز ماء، رفض نصير فطمأنه:

– من بئر يا نصير، لا ماء النيل.

أمال معتوق الكوز نحو فمه فشرب القليل، شعر بجوفه يستقر ناوله صبور ليمونة وطلب منه يغصب على نفسه ويستحلب عصارتها بعد أن يجرشها بأسنانه، أغمض عينيه واستشعر طعمها اللاذع، تارة أخرى شرب الماء وهدأ قليلا فأنهضه معتوق.

– نرجع إلى البيت وهناك نغلي كل ما نريد.

لم يجد نصير غير الإذعان لرأي أنس، وفي الطريق اعترضتهم لمّة، أثار انتباه صبور صوت المنادي يعلن بيع صناديق، فرش، أبسطة، مواعين من النحاس وفتاة لا يكاد وجهها يبين وهي تخفيه بكفيها والدموع تغرقهما، وقفوا والتاجر يزايد بضاعته ويتفق مع المشتري فيقبض الثمن وتابعه يضعه في كيس صغير، سيدة جوار الجدار تبكي بحرقة فالتفت إليها أنس، مال عليها وسألها فأخبرته أن الفتاة بنتها وانخرطت في بكاء محموم فلم يفهم منها شيئًا، شيخ محني الظهر يقدم لها رغيفًا فأبعدته في عنف، دون أن يسأله أنس أو معتوق الواقف جواره هزّ الرجل رأسه في حسرة.

– من صباحية ربنا أنا وأمها نلف ونسأل ونستقصي ولما وجدناها عجزنا عن دفع فديتها.

– ماذا حدث يا شيخ؟

– جان بردي الغزالي الله ينتقم منه، كبس علينا مع مماليكه في التل والزنكلون فنهبوا مع جند ابن عثمان أبقارنا وأغنامنا وطيورنا وغلالنا وقوت الفلاحين وخطفوا الحريم والصبيان و...

– لا تكمل يا شيخ.

الفتاة ابنة السيدة، انقبضت قسمات وجه معتوق وعض أنس شفته حين اصطدمت نظراتهما وفهما الحقيقة المرة، همّ بالوثوب على التاجر وتخليص البنت منه فقبض صبور على معصمه ولاسيما حين مرّ بالقرب منهم ثلاثة من جند العثمانية وقفوا لبرهة ثم ابتعدوا، في عنف رفع التاجر معصم الفتاة فنهرته، رفع كفه ليضربها فجرى أنس ومنعه، فاوض التاجر فانتفخت أوداجه وفرد كفه، ناوله أنس أربع أشرفيات وفي سرعة سحب الفتاة بعيدًا ووهبها لأمها التي لم تصدّق نفسها وضمت ابنتها كأنها تريد إدخالها في صدرها؛ حتى لا ينتزعها اللصوص، لا يدري صبور ما يقول لأنس فظلله بنظرات حانية وكأنه يؤكد له أصله النقي، قبل مغادرتهم رأى صبور فلاحًا يتقدم ويمد يده بثمن بقرة، يمسك خطامها ويجرها فضحك العجوز خال الفتاة.

– الفلاح يا عيني عليه، اشترى بقرته.

في تثاقل نهضت السيدة ومالت برأسها تقبل يد أنس والشاب يسحب كفه ويمسح التراب العالق بطرحتها السوداء.

– أنت أمي وهي أختي، ارجعي بها إلى بيتك.

وضع يده على كتف نصير وسار أربعتهم يتقدمهم صبور الفخور بابن عفيفة ومصري، ويود لو يقبل يد خوند عنود التي ربته فأحسنت نشأته، أما أنس فتأرجح السؤال بينه وبين نفسه: إن ما زلت أنسباي لا أنس، ترى كنت سأفعل ما فعلت؟

***

-٢٠-

رافق نصير إلى بيت جمعة ولحق بهم صبور وحجاج بعد أن جهز خليطًا من عشبة الكمون والمقدونس الدافئ، شرب واستراح قليلًا، أتى عبده بالطعام فعافت نفس نصير فأصر أنس أن يأكل، تناول القليل من الشوربة، عض شفته وفضل النوم فتركوه وعادوا إلى البيت، جلس صبور أمام دكانه فصعد أنس لأعلى، وجدها تنتظره بالغرفة وعلى المنضدة أطباق العشاء، تناولاه معًا ومن حين لآخر يمد يده إلى فمها بلقمة فتضحك.

– أنت طيب القلب يا أنس.

– يقولون ذلك.

– عندي سؤال، وأنت في الإسكندرية ألم...؟ أعرف أن بها بيوت تجار من الفرنج وستاتهم...؟

– سأصارحك، يومًا في ليلة عيد النيروز 118 ذهبت مع أصحابي إلى بيت تاجر عطور من بلاد اللومبارد، فرافقنا واحد من صبيانه إلى خلف البيت، دخلنا فاستقبلتنا عدة فتيات، رقص أصحابي معهن وشاركوهم شرب البوزة وتدخين عشبة الرأس.

– وأنت؟

– بقيت معهم ساعة وبعدها مشيت، حين تذكرت وجه شيخي ومؤدبي أبي الوفاء بن أحمد وأيضًا عصا أمي، أقصد خوند عنود، لم ترد أبدًا أن أعرف المساخر وبيوت المحارفة.

– ونعم التربية و...

بتر إطراءها خطواتُ جدها الصاعدة في تثاقل، فابتعدت قليلًا ولملمت الأطباق شبه الفارغة، وقفا فابتسم لهما وفرد ذراعيه على كتفيهما.

– يا سلام، أحفادي تحت جناحي، ابن عفيفة الغالية وبنت صافية الطيبة، أتمنى ألاعب أولادكما كما كنت أحمل الصغيرتين عفيفة وصافية في بيتنا بأسيوط وألعب معهما لعبة جمل الملح.

ألجم لسان أنس وأطرقت أمينة واحمرّت وجنتاها في خجل عارم، انفلتت من ذراع جدها وتركت الغرفة، ربت على كتف أنس وأحاطه بنظرات التمني لتحقيق

حاجة في نفسه، أدار الشاب دفة اهتمام جده.

– وأخبار السلطان؟

– كريم بن معتوق يقول أنه اقترب من المنوات أو وردان لكن...

– تريد أن تخبرني بحاجة يا جدي؟

مط صبور شفتيه وهز رأسه، بدا على وجهه أسف حقيقي فقلق أنس واقترب أكثر، رغم كراهيته للمماليك لما ذاق من إجحافهم أينما دبت قدمه ولا يزال ألم كرباج تمربغا ينكأ روحه غير قهر ططر له طوال عشرين سنة منذ خطفه أنس لكن نفسه تسامحت حين عرّف أنس بأصله واقتنع بالعيش في كنفه البسيط لكنه لم ير من ابن عثمان وما أشاعه البعض عن عدله وإنصافه للمظلوم ووفائه بالعهد ما وصف به فصدم بالضد من هذا كله وتمنّى لو يكسره السلطان ويطرده وجنده من مصر، قرر إخبار أنس بالشائنة التي وقعت اليوم وانتشر خبرها كالنار في الهشيم.

– من ساعة والناس تتكلم عن مقتل الأمراء.

– الأمراء، أي أمراء؟

– الجراكسة المحبوسون في القلعة، أحضرهم جنده فوبخهم وأمر بضرب أعناقهم في وطاقه ببركة الحبش ومنهم أركماس أمير سلاح وأنصباي أمير أخور وطقطباي وتاني بك النجمي وقانصوه أبو سنة وقاني بك ومصرباي الأقرع وماماي الصغير والأمير يوسف الأشرفي الزردكاش والأمير ألماس.

– والي القاهرة؟

– نعم، وفوق الخمسين أميرًا من مقدمي الألوف وغيرهم قطعت رؤوسهم وألقيت أبدانهم تنهشها الكلاب والغربان وخوند زوجة الأمير ماماي بذلت البراطيل للمشاعلية من مالها وجوهرها وأحضر خدمها تابوتًا ونقلت جثة زوجها ورأسه ليدفن في مدفنه بالقرافة.

– لكنهم سلموا له وأعطاهم أمانه.

– لا أمان لسليم بن عثمان، كل من تعامل معه يعرف غدره فلا يثبت على كلمة أو رأي فحقد على بقائهم أحياء وغيرهم من أمراء قتلوا قاصده.

احتبس الكلام في رأس أنس فلم يكمل حواره، امتزج أسفه بأسف جده على مصير الأمراء المفجع ومن قبل كانوا ملء السمع والأبصار بملابسهم المزركشة والواحد منهم يلف فراء السنور الثمين على كتفه وأغماد سيوفهم وخناجرهم مطعمة بفصوص العقيق وكرائم الأحجار، اليوم بخلت عليهم الأرض بقبور تستر رممهم، أشاح برأسه فلم يشأ صبور أن يشق عليه وتركه لينام.

***

– تعال يا أنس، اليوم الخميس، نذهب لشراء ما يلزم السروج من سوق مرجوش.

– أصحبك يا جدي.

انضم لهما حجاج وعبده وعشري ومعتوق ونادوا على نصير فرافقهم وهو يعرض على صبور معاونته في صناعة السروج وأنس يعده بأنه لن يشكو من قلة المال لكن الحارس ذا النفس العصية على الذل لم يرد أن يعيش دون عمل يأكل منه فقبل صبور عمله، لا حديث للناس في الشارع غير تغلب السلطان على عسكر ابن عثمان في وردان والمنوات وغيرهما من أماكن قتالهم ثم كثرة مشاة ابن عثمان وتوزيعه للرماة فأحدقوا بجند طومانباي ورموهم برصاص البندق فقتلوا منهم الكثير.

خشي صبور أن يغافله أنس وينضم إلى مقاتلي السلطان حين سمع بنصره أول الأمر لكنه وعده ألا يفعل أي شيء دون مشورته، اشترى الجلود المدبوغة وحملها نصير وانشغل حجاج بشراء ما يلزم للاحتفال بالمولد النبوي الشريف، لملموا ما اشتروا وثبت معتوق خُرج حماره ورتبوا الأشياء في الفتحتين، من بعيد علت الزمور والطبول ولفيف من خيالة العثمانية تتقدّم ومن خلفهم رجال يبدون كنوتية السفن، غيرهم من زعر ومنسر يحملون على أكتافهم قففًا وزنابيل، وقف عشري على حجر واقترب الموكب فضاعت صرخته وسط صخب الناس لما رأى من رؤوس مقطوعة والدماء تخضب وجوهها المصفرة وقد شاهت قسماتها، دفن وجهه في جلباب جده وبكى في حين مد عبده يده فلامس شعر إحداها دون خوف، ودّ أنس لو يقطع رقاب العثمانية جزاء غدر سيدهم بالأمراء المستسلمين، كاد صدره ينفجر من تهليل الناس وتشفيهم في مقتل الجراكسة، مال صبور على أذنه:

– الناس معذورة يا أنس.

– لكن ما سيرونه من ابن عثمان وعسكره هو الأفظع.

لم يرد صبور التمادي في الكلام مع الشاب الموتور لماضيه بين أبهة القصور وثراء الضياع، وتملك الخيول، قدم له حجاج حلوى الهريسة فاعتذر له واستدار للعودة فقاد معتوق حماره وساروا صامتين وكأنهم عائدون من جنازة، تركهم أنس وصعد إلى غرفته، انهار على السرير ودفن وجهه في الوسادة ولم يعد يفكر في

شيء.

***

صافية هي الوحيدة التي خبزت البقلاوة والكنافة والفطائر ورصت شرائح الحلوى في طبق كبير فعاونتها مسكة في تحليتها بالعسل، في وسط الدرب ركن عبده وعشري منضدة وفردا مفرشًا كبيرًا ذا أهدابٍ ملونة وعليه رسومات زاهية، حملا معًا الطبق ووضعاه وسطها، في حماسة واهنة اجتمع من تبقى من أهل درب العطارين أمام بيت زيتون وقعدوا على مصطبة بسيط، والستات بمجاز البيت، في حماس خافت عزم صبور عليهم بتناول حلوى مولد النبي.

– نتناول الحلوى احتفالًا بعودة المقدس بسيط.

– أشكرك يا عم صبور والعذراء مريم لولا خوفي على أختي وعيالها ما غبت عن الدرب.

– المهم هي بخير.

– نشكر الرب وأوصيت بيشوي ابنها الكبير عليهم.

شاركهم مصطفى الجلسة ولكنه لم يتناول شيئًا من الحلوى لأنها تسبب له زغللة في عينيه واكتفى بمشروب بارد، على غير رغبته تحولت جلستهم لمهاترة في معرفة أخبار السلطان فأسرع بسيط بأول خبر:

– السلطان بعد انكسار عسكره بالمنوات وتراجعه إلى أم دينار، وكثرة محاربة أمرائه لعرب غزالة أسرع إلى تَروجه[119] ويقال أنه توجه بالليل إلى سخا وهناك لقيه الأمير حسن بن مرعي مع أولاد عمه وعشيرته.

– ربنا يسترها معه والله ما قصر في محاربة ابن عثمان وما فرط في المحروسة وهرب وهو مغلوب على أمره.

– يحزنني أن كسرته قبيل المولد النبوي الشريف.

– وفيه إنسان شعر بربيع الأول كله يا شيخ مصطفى، كان العلماء والمشايخ والقضاة الأربعة يجتمعون بالحوش السلطاني وتمد الأسمطة بصنوف الطعام ويكثر العطاء للمقرئين والفقراء و...

صمت نصير حين وقف كريم بن معتوق فجأة ورفع البساط المفروش على المنضدة الخشبية، زاغت عيناه وفهم أنس ما اكتشفه السقاء.

– معقول يا جماعة، من أحضر المفرش؟

– أنا، اشتريته من تاجر مغربي لما كنا في سوق مرجوش.

اقتربوا أكثر والتفوا حول مفرش المنضدة وكل منهم يتأمل رسوماته الزاهية ويلمس نعومته ويرفع أهدابه الحريرية، أنهى معتوق دهشتهم وفي ذات الوقت صدمهم بالحقيقة التي لم يكن يتوقعونها.

– إنها قطعة من خيمة المولد التي صنعت أيام الأشرف قايتباي وزاد فيها الغوري. لما طلع سليم بن عثمان القلعة، فتحت له حواصلها فرأى الخيمة وباعها للمغاربة بأربعمائة دينار فقطعوها قطعًا وباعوها للناس ستائر وسفرًا.

– يا للخراب، أهي الخيمة التي كانت تنصب في الحوش السلطاني، سمعت أن مصروفها على الأشرف قايتباي كان ثلاثين ألف دينار.

– وكان يشرف على إقامتها خمسمائة عامل ويعلق فيها القناديل والمشكاوات والفوانيس وفوقها قبة بقمريات وبها رسومات غاية في الجمال، تباع بهذا الثمن البخس ولا يعرف هذا المخبول قيمتها؟

– إذا كان أمر بفك رخام القاعات الملونة والأعمدة ذات التيجان وأنزلها جنده في حوش القلعة ألا تهون عليه الخيمة السلطانية والله ما باعها إلا تشفيًا.

كما كانوا يتبادلون الكلام ويقاطع بعضهم بعضًا، صمتوا جملة واحدة بقيت نظراتهم تتأرجح بينهم وبين المفرش واسترجع كل منهم منظرًا أو رؤية قد تكون تائهة بين دروب ذاكرته لتلك الخيمة المنصوبة وكانت من جملة شعائر المملكة السلطانية بالقاهرة.

انتحى أنس بعيدًا فجلس على دكة دكان جده، وتفكيره منشغل في أمينة، فاستعاد ما فعلت من أجل نجاته، فلو أنها لاذت بأمها لقبضوا عليه لكنها ذات قلب صلب وودود في ذات الوقت فجازفت بحياتها وخبأته وشعر أنها تود لو تدخله صدرها وتغلق عليه ضلوعها؛ حتى تحميه، التفت إلى كتف جده الجالس جواره فنهض من فوره وقبل رأسه، دعاه إلى الصعود لأعلى فترافقا وتهيأ أنس للخطوة المقدم عليها.

– أريد خطبة أمينة يا جدي.

– لكن ابن واحد من التجار قرأ فاتحتها مع عمك حجاج!

أطلق صبور رده وحاجباه مقترنان والجهامة تعلو جبينه فوجم أنس في وقفته وانطبقت شفتاه، شعر بالفالج يبطل جسمه وتفصّد جبينه بالعرق وكأن دلوًا من ماء انصب على رأسه، فغر فمه ليقول شيئًا ثم ارتسم الغضب على سحنته الغضة، وفي حركة مباغتة شهر السيف وزعق:

– أقطع رأسه يا جدي.

انفرج وجه صبور وبدا عليه الانبساط، علت ضحكته وهو ويحضن حفيده الغضوب، ويضمه إلى صدره في قوة.

– وصدّقت يا غبي، أمينة أغلى إنسان عندي، إن لم تطلبها أنت خطبتها أنا لك وتزوجتها والسيف على رقبتك.

في حدة دفع أنس جده وقبض أصابعه وشرع في ضرب صدره وصبور يقهقه ويميل على السرير وأنس يزيد من دعابته فيبرك في لطف على جده ويقبل خده وجبينه ويده وما يطوله من صدره ثم ساعده على النهوض فتحاضنا في شوق حقيقي وكأنه أول مرة يجده بعد خطفه، تركه وأطلّ من النافذة، نادى حجاج وطلب منه يصعد السطح ومعه صافية ومسكة وعبده وعشري وطلب أنس حضور نصير وما هي إلا دقائق حتى فرشت صافية الحصير الكبير وجلس الرجال قبالتهن.

– أنس، أنس بن مصري وعفيفة يخطب أمينة.

بصوتها المبحوح عجزت صافية عن إطلاق زغرودة فانفلت من شفتي مسكة ترج السطح، توالت تهنئة حجاج ونصير وعبده وعشري أما صافية فانحنت تقبل يد ابن أختها والدموع تسح من عينيها وتذكر أمه بالرحمة، رفعوا أكفهم وقرأوا الفاتحة فاغرورقت عينا صبور بالدموع وتمتم في سره بالدعاء لعفيفة ومصري وحمد به على نعمة الصبر على ما أصابه حتى رعاه الله بالفرج وأدخل في قلبه الفرحة من حيث لا يحتسب.

***

– ضيف يريد السلام عليك يا شيخ صبور.

ميّز صوت معتوق السقاء فنهض من قعدته أمام أمينة وأنس، نظر من بين خشب المشربية وأمينة ترسل ابتساماتها العذبة لأنس وتمسح بأصابعها عقد الذهب المشغول بمهارة ففي ليلة قراءة الفاتحة منذ أيام، قدّم لها شبكتها مما أحضره من حجرة القصر السرية، كما أهدى خالته ومسكة إسورتين رائعتين وجده الحذر نبّه عليهما ألا تعرف أي واحدة من سيدات الدرب بما معهما، وقرروا جميعًا تجهيز الحجرتين وفرشهما وينتقل صبور للسكن مع نصير في بيت جمعة آخر الدرب لحين بناء غرفة علوية لكن الأمر يحتاج إلى وقت بسبب انتشار العثمانية وبحثهم عن ذيول الجراكسة وبترها دون شفقة ولا سيما بعد تسليم السلطان نفسه لسليم بن بايزيد وحجزه في الترسيم120 ببر إنبابة، استدار صبور وأشار إليه أن يتبعه فتضايقت أمينة وتعشّمت أن ينزل جدها ويبقى أنس فيكمل لها ما كان يرويه عن حياة أمراء المماليك السالفة، نزل خلف جده وهو يتوقع ضياع ساعات في الكلام مع عجوز مثل جده أو يفوقه في السن.

خرجا ففرد صبور ذراعيه للضيف الصغير وحملق فيه أنس، الشاب يصغره لكنه حاد النظرات ولاستقباله حميمية، دعاه صبور للاستراحة فجلس على مصطبة بسيط الواسعة، نادى عبده وأمره

بالماء والشراب للضيف فقدمهما صبور:

– أحمد بن زنبل وهذا حفيدي أنس بن مصري.

– مرحبًا أنس، يخيل لي أني رأيتك من قبل، خدمت في أحد قصور الجراكسة من قبل؟

– بل كنت أميرًا فأنا أنسباي ابن...

تدارك صبور خطر رد أنس غير المحسوب وأيقن أنه نسي نفسه حين وصفه ابن زنبل بأنه خادم في قصور الأمراء أو أولاد الناس، ولأنه يعرف فراسة ابن زنبل وتوقد عقله ومعرفته بأمراء المماليك فاختشع قلبه من شك ابن زنبل في شخص أنس، تمالك نفسه وتصنّع الضحك وهو يفرد سبابته ويشير إلى أنس.

– إنه يهزر معك يا شيخ أحمد، أنس بن مصري سراج ابن سراج وأصله من أسيوط وانضم إلينا من أسابيع.

– معذرة كأني رأيته قبل اليوم.

– لا تهتم يا عزيزي، تعلم أننا لا نخرج من الدرب إلا بالقليل النادر، ولي غرض أكيد في معرفة كيف سلم طومانباي نفسه رغم...

– رغم ما هو مشهور عنه بعزة النفس ورغم حربه الطويلة للعثمانية، سألت واستفسرت من أمراء وتجار وعربان وعثمانية أيضًا وعرفت أن حسن بن مرعي وشكر وعشيرتهم أحسنوا استقبال السلطان.

– من زمن وحسن بن مرعي من أعز الناس على السلطان وله عليه أفضال من أيام الغوري.

– صحيح يا عم معتوق، وحلف ابن مرعي على المصحف ألا يخون السلطان أو يدلس عليه أو يغدره.

– وأنزله ببيته؟

– لا، ودلّه على مطرح منزو يطلقون عليه هناك اسم الغابة لكثرة أشجاره ونصبوا له خيمة كبيرة على تل عالٍ لإقامته مع أصحابه في أمان ففم الوادي ضيق ومتسع بعده فيسهل حراسته ويصعب دخوله فلما استقر به أخبر مرافقيه بمنام رآه بأنه في هذا الوادي تحوطه كلاب سوداء وحين رفع سيفه ليضربها وقع من يده وسقطت عمامته فنهشته الكلاب بينهم كقطعة لحم ففسره له بعض الحاضرين بأنها رؤيا لا تدل على خير فسقوط العمامة تدل على فقدان المنصب ووقوع السيف يدل

على عدم القوة والكلاب هم الأعداء فتشاءم السلطان وطلب من الأمراء أن يذهب كل منهم في ناحية حيث يشاء.

صمت ابن زنبل ليلتقط أنفاسه وشرب من القلة، دارت نظراته في القاعدين حوله ولحظ انقباض وجه أنس وانتباهه لروايته التي يرويها بدقة وكأنه كان نائمًا معهم، ركن القلة وأكمل:

– فلجأ قانصوه العادلي إلى أصهاره من عرب قطارة وغادره الأمير شاربك الأعور إلى صديقه شيخ العرب أحمد بن بقر في منية غمر بالشرقية وكان بينهما صحبة قديمة ومحبة وتحالف.

– لكن كيف عرف العثمانية بملاذ السلطان؟

– عرفت من تابع لجان بردي الغزالي أنه تبع السلطان في نفر قليل بعد كسرته في المنوات وعرف مقصده وأخبر سليم بجهته فأمر بفرقة كبيرة يقودها واحد من وزرائه وهو فرهاد باشا ومعه الغزالي وخاير بك وإن لم يكن جان بردي فعلها فلقد أضمر ابن مرعي تسليم السلطان لابن عثمان.

– لكنه حلف له.

– وخانه، فقد ركب مع ابن عمه وخرج من الوادي يقصد ابن عثمان فلقيه فرهاد باشا وجنده عند قبيلة محارب وأخبره حسن بن مرعي باحتجازه للسلطان فخلع عليه الباشا قفطانًا مذهبًا وضمن له إمرته على مشايخ العرب ولا تفرض عليه كلفة فقادهم إلى وادي الغابة والسلطان على التل منفردًا وتخلص من درعه وسيفه وقنطاريتهوألقى الطبر والخنجر وملبوسه في البحر فلم يلبث أن أقبلت عليه العثمانية معهم خاير بك والغزالي وحسن بن مرعي وقبضوا عليه حيًا فقيدوا يديه وأركبوه بغلة وقيدوا قدميه من تحت بطنها لكنه لم يذل لهم بل أرعبهم بنظراته ولم ينحن طوال الطريق فأرسلوا إلى ابن عثمان يخبرونه بما فعل حسن بن مرعي وأنهم مسكوا طومانباي وآتون به ففرح ابن عثمان وأعلن لمن حوله: الآن ملكنا مصر، فلما اقتربوا به من خيمة ابن عثمان خرج لهم الوزير الأعظم يونس باشا وانتظم الجند فسار بينهم السلطان حتى دخل على سليم بن عثمان وهو لابس مثل العرب الهوارة وعلى رأسه زنط ويرتدي ملوطة بأكمام كبار، حادثه فرأى منه من الشجاعة وكمال العقل وتعجب كيف يسلم مثله نفسه بغير حرب وأدرك أنه أمر الله فلو شاء لهرب إلى بلاد الله ولا يستطيع أحد اللحاق به.

– وعرفت كل هذا؟

– نعم، رواه لي من حضر المقابلة، وعاتبه ابن عثمان على قتل قاصده وأتباعه حين أرسلهم إليه وهو في الشام فأكد طومانباي أن هذا الأمر فعل على غير رغبته ورضاه بل أكرمهم وأمر بإنزالهم دار الضيافة فلما رآهم الأمير علان حقد عليهم وقتلهم انتقامًا لما فعلت بمرج دابق وجرت المقادير بما أراد الرب القدير.

– وبمَ رد عليه ابن عثمان؟

– قال له: إنما خرجت لجهاد الرافضة121 وجاءني سلطانكم الغوري إلى حلب يريد محاربتي فمشيت إليه وكسرته وعسكره وما كان قصدي أذيتك ونويت الرجوع من حلب ولو أطعتني وجعلت السكة والخطبة باسمي ما جئت لك ولا دست أرضك فرد عليه طومانباي: النفس التي تربّت في العز لا تقبل الذل وهل سمعت أن الأسد يخضع للذئب؟

– وي، وي.. أقال السلطان هذا لسليم بن عثمان؟

– نعم وأكد أنهم الأشجع ولولا الخيانة لما كتب له النصر فقال ابن عثمان لمن حوله: والله مثل هذا الرجل لا يقتل إنما أخروه في الترسيم حتى ننظر في أمره.

– ومن يومها وهو محبوس هناك.

– ومن أيام سعد ابن عثمان أن جاءته بشارة أخرى فقد أخبر أن أحمد بن بقر يتحفظ على الأمير شاربك الأعور فأرسل ليأتوه به هو الآخر فلما وقف أمامه وجد عليه هيبة واستكانة ووقار وحشمة ودار بينهما حوار طويل كأن ابن عثمان يحب كلام الجراكسة قبل قتلهم فقد حاور الأمير كرتباي من قبل وشتمه بأقذع الشتائم فاغتاظ منه ابن عثمان وجرسه قبل قتله.

– أنا معجب بما تحكي يا شيخ أحمد.

– لم أعد أحكي فحسب يا معلم صبور بل شرعت في كتابة عدة قراطيس تروي واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني لكن ما يحيرني فعلًا هو اختفاء الغوري وهروبه حيث لا يعلم أحد.

– وما تفعل بمن يطلعك على هذا سر؟

– أشكره.

– وتحلف ألا تخبر أحدًا بما يرويه لك؟

– أقسم يا عم معتوق.

– تقسم وبعدها تأتي بالعثمانية للقبض عليّ.

– أنت لست من الجراكسة يا عمنا.

– على رأيك، ماذا يفعل الينكجرية بسقاء مسكين، على كلٍ سأخبرك لكن بعد أن تخبرنا أنت بسبب زيارتك لدربنا المصون.

– الأعشاب الشافية عندي قلّت وبعضها نفد وأحتاج الكثير منها.

قدم ابن زنبل ورقة إلى حجاج الواقف أمام دكانه ففردها وقرأ ما فيها، في سرعة أمر عبده وعشري بإحضار الأعشاب من الدكان والمخزن واعتذر له عن مطحون لحاء شجرة الصفصاف لكن وعده بتوفيره في أقرب وقت.

مد يده لحجّاج بكيس النقود فرآه خفيفًا، أخرج الدنانير الجديدة المكتوب عليها اسم ابن عثمان ثم أعادها إلى ابن زنبل المندهش من رفض حجاج لثمن الأعشاب، هذه المرة مزق أنس خيوط صمته الملفوفة عليه من أول الحديث الهام الذي أدلى به الشاب الصغير.

– لا تحمل هم ثمن الأعشاب يا أحمد، اعتبرني دفعتهم.

– أشكرك يا أمير.

– لست أميرًا، أنا أنس بن مصري والمعلم صبور السراج جدي وهذه عائلتي.

باعتزاز أعلنها أنس وهو يتفرّس وجه الشاب الموهوب بطلاقة اللسان وذاكرة واعية لأدق ما قيل وجرى وتأكد أنه سينفذ ما قاله بتدوين الوقائع والأخبار بأفضل مما انتهجه شيخه الحسن بن الطولوني في كتابه النزهة السنية في ذكر الخلفاء والملوك المصرية.

أمسك ابن زنبل بالزكيبة الصغيرة ورافق السقاء معتوق إلى بيته أول الدرب وصحبهما أنس، على الحصير تحلقوا وتارة أخرى حذّر معتوق الشابين من إفشاء ما سيرويه لأي إنسان وإن دوّنه ابن زنبل فلا يذكر أنه هو الراوي، تأكد من إغلاق باب المنظرة الصغيرة وابتسم لصبور الذي شجعه، تأرجحت نظراته بينهم محتارًا من أين يبدأ.

***

-٤-

تراتيلُ الضياعِ

-١-

كغيره اغتمّ أنس لاحتجاز طومانباي أكثر من أسبوعين عند ابن عثمان وأشيع أنه ينوي العفو عنه وإرساله إلى مكة ليعيش بها بقية حياته، فانكسر أمراء المماليك بعد استسلام سلطانهم ومقتل زعمائهم الجراكسة الكبار ولم يعد للإنكشارية عمل غير ملاحقة الفارين من الأمراء والاستيلاء على قصورهم وحواصل ثرواتهم وامتهن الزعار والألاضيش وأسافل الأوباش مهنة الإدلاء على الأمراء وجمع البراطيل من أولاد الناس حتى لا يدلوا عليهم عند العثمانية، وفي هذه الأيام اجتهد صبور في تجهيز الغرفتين لزواج أنس وأمينة ومنع حفيده من مغامرة الإتيان بفرش وأبسطة وأثاث غالية من قبو قصر ططر لئلا ينكشف أمره وحددوا موعدًا للزفاف وصافية فرحتها لا تسع العالم لنصيب ابنتها فلم تكن تتوقع زواجها بابن أختها عفيفة الذي كان في ماضيه أميرًا.

صباح يوم الاثنين جلس على المصطبة جوار جده والولدان يقابلهما بسيط يقدم لهم كعك العيد.

– كل سنة وأنت طيب يا بسيط.

– بعودة الأيام يا عم صبور، حدّدت فرحك يا أنس؟

– الخميس إن شاء الله.

أنس المطرق لم يبالِ بحوار جده مع جارهم ولم يلتفت لتعليقات عبده الصاخبة وهو يأكل الفطير والكعك الناعم المحلّى بالعجوة، ذهب تفكيره في السلطان المأسور لدى ابن عثمان رغم أن بعض الناس تكذّب الخبر وتقنع نفسها بأن السلطان لا يزال طليقًا وقد يعاود قتال ابن عثمان كما حدث في بولاق وجامع شيخو، لكن رواية ابن زنبل لا مراء فيها وتأكد من ذلك بعد إعلان العثمانية أسرهم للسلطان بضرب البنادق وإطلاق المدافع وأنه في الترسيم بوطاق سليم ببر انبابة واستغرب إسراع الناس بتعلق الزينات على البيوت والدكاكين فناوشته الأسئلة: ترى كيف يعاملونه، ولماذا يستبقيه ابن عثمان ولماذا لم ينفذ وعده ويرسله إلى مكة كما أشيع، عاد يفكر في خنكار العثمانية ومن حوله من عقارب المماليك وكل منهم مرد على النفاق وكراهية بعضهم بعضًا وتقديم مصلحته على من سواه ولا عمل لأحدهم غير استعداء الصديق واستثارة العدو الساكن ولن يهدأ بالهم بغير التخلص من طومانباي، رفع وجهه للهاث كريم بن معتوق وطلبه الماء فناوله عشري القلة، ترع ما بها حتى أزبد الماء بين شدقيه، تهالك على المصطبة وعيناه زائغتان.

– خرج العثمانية بطومانباي.

– إلى أين؟

– وصلوا به بولاق وسيأخذونه إلى باب النصر.

فزّ أنس من قعدته ودون أن يفكر أو يستأذن جرى إلى بيت معتوق، اقتحمه وخرج من باب حجرة الشارع ونصير خلفه وصبور ينادي عليه ولا يجيب فتبعه معتوق وكريم وعبده وعشري أخذتهما الحماسة وعدوا خلف جدهم، لم يفكر صبور بغير منع أنس من التهور فإن أراد العثمانية السوء بالسلطان فلن يمنعهم مانع وقد يقطعون رقبة أي مجابه لهم، تسارعت خطوات صبور وصدره ينهج ومن حين لآخر تجفل قدماه ثم يستمر والناس تثرثر بأنهم غادروا سوق مرجوش إلى بين القصرين وفي طريقهم إلى باب زويلة لا باب النصر كما أشيع، لم يتخيل صبور حين اقترب من باب زويلة أن السلطان حوله سرية كاملة من جند الينكجرية تزيد على أربعمائة سيوفهم مسلولة وبنادقهم مشهرة يرافقهم الكثيرون من الجاويشية والقابوجية122 فأيقن نهاية السلطان، زاغ بصره بين وجوه جمهور الحاضرين إلى أن التفت إلى عشري يشد كم جلبابه ويشير فجحظت عيناه لأنس المتحفز وليس بيده مدية يمكنه بها الدفاع عن نفسه، في سرعة كان جواره وقبض على معصمه، واليد الأخرى مفرودة على فمه لئلا يصيح بشيء فيلفت نظر العثمانية ولن يتورّعوا عن قتل كل من تسول له نفسه ويظهر اعتراضًا، أنزلوا السلطان من على البغلة وأرخوا الحبال فمسح ببصره الميدان المكتظ بجموع المشيعين، فوجئ الجميع بطومانباي يرفع وجهه وبصوت عالٍ يطلب منهم:

– اقرأوا لي الفاتحة ثلاث مرات.

ران الصمت وارتفعت الكفوف، لهجت الألسنة بقراءة الفاتحة، الوقت يمر وأنس لا يفارق وجه السلطان الثابت فإذا ما مر بكفيه على وجهه ولحيته قال للمشاعلي:

– اعمل شغلك.

لم يطق أنس رؤية السلطان الذي قاتل في معيته ليلة واقعة جامع شيخو مشنوقًا فأغمض عينيه ولطم وضغط بكفيه على وجهه وانتزعهما فجأة حين ضج الناس بالبكاء والنحيب وزعق الرجال وتوالت طلقات الرصاص فانفلت أنس من يد جده وجرى نحو الجسد المدلّى ووجهه إلى أعلى، انطلق الرصاص بين قدميه فوقع مغبرًا المطرح، أشار صبور إلى الجندي المقبل نحوهم، جر أنس إلى بعيد فحدثت جلبة عظيمة وصوت أشياء تقع دفعت الجندي للتراجع، جوار الجدار ألصق صبور حفيده ونصير زائغ العينين يقف أمام سيده ليخفيه، صاح صبور وضاع صوته الصارخ في خضم الصيحات، ارتفعت هراوات الزعر مرافقة لسيوف الجند تهدد الناس وتدفعهم للابتعاد، من بين رموشه المغرقة بالدموع تأمل أنس القامة المهتزة عليها جوخ أحمر فوقها ملوطة بيضاء بأكمام كبار وفي رجليه لباس من جوخ أزرق، لا يدري لم استجاب لقبضة جده وهو يجره بعيدًا بعد أن صدر الأمر من قائد العثمانية بالابتعاد عن باب زويلة وأحاطته ثلة من الجند وانجر بقيتهم عائدين لسيدهم.

عقله مغيب وعقد لسانه، سمعه مقفول على دخان من فِكَر متخالطة، لماذا صرختم لشنقه وتعليقه من عنقه ومن أيام علقتم الزينات لخبر القبض عليه، ما دفعك يا ابن عثمان لتقدم على إعدامه أمام الناس وكنت على وشك نفيه لمكة وكان من الممكن أن تضرب عنقه وهو في الترسيم لا يشعر به أحد، لماذا لم تهرب يا طومانباي نحو برقة في الغرب ومنها إلى بلاد المغاربة أو تركب البحر وتلوذ بإحدى الجزر ولا أرى مصيبتك اليوم؟ أم اخترت أن يشهد الناس مصرعك؟!

تعثرت قدمه وكاد يقع فاستند على ساعد معتوق السقاء ونصير الصامت يسنده من الخلف، اجتاحه غضب عارم فالناس من حوله كل منهم يستغفر ويحوقل ويحسبل ويمصمصون شفاههم يضربون كفًا بكف ولا تزال الزينات والفوانيس والأزياق الملونة معلقة على أبواب بيوتهم وحوانيتهم حين شاع القبض على السلطان، غامت الرؤية فلم يدر بغير وجه جده يجلسه على مصطبة بسيط، أقعى أمامه ويداه على فخذيه، دون أن يرفع وجهه سالت دموعه على يدي جده وانتثرت كلماته المرتعشة:

– ما حزنت لموت ططر قدر فجيعتي على شنق السلطان.

– وأشهد الله أنه ما قصر في الدفاع عن مملكته ولم يسلم نفسه لابن عثمان بغير خيانة حسن بن مرعي.

– والله لئن وقع تحت سيفي لأقطع رقبته وأعلقها على باب زويلة.

باب زويلة، بين جنبات درب العطارين ترددت الكلمة ولاكتها الألسنة فلم يطق أنس سماعها، فرد كفيه على أذنيه واحمرّ وجهه، دارت نظراته في وجوه الواجمين من حوله، تركهم وصعد لأعلى فلحق به جده وخالته بعد أن أخبرها عشري بحالة أنس، أتت أمينة وأشار لها جدها أن تجلس على الكنبة المقابلة للسرير وأنس ذاهل العينين لا يريد أن يكلم أحدًا فأحاطت صافية كتفيه ومسحت شعره، قبل يدها ومدد جسمه ووجهه للجدار ففرد عليه جده الغطاء وأشار لهم بالخروج ونفخ في ذبالة المسرجة فأطفأها وخرج بدوره بعد أن أغلق خلفه الباب.

***

على الزيار يجلس ويسرح نظراته إلى بعيد وكأنه يحاول استجلاء رؤية باب زويلة من بين سراب البيوت والقباب البعيدة، ظلٌ يقترب منه فأدار وجهه لخطوة أمينة الأخيرة وجلوسها قبالته في سماحة، قليلًا مالت شفته في محاولة يائسة لتبادلها الابتسام، ربت على كفها وكلماته المعتذرة مخنوقة:

– أعتذر عن تأجيل الـ...

– لا تأسف يا أنس، الأسبوع نفسه غير مناسب لي.

قالتها على استحياء ومدّت أصابعها بقرصة فلم يكسر رغبتها بالتمنع وقضم، مضغها في صمت فلم تثقل عليه بسيرة ما جرى للسلطان وتركته يخفف من حِمل ما مر به على ما يناسبه من وقت، رفع وجهه فتلاقت نظراتهما، عضّ شفته ورأت جفنيه تعتصرهما إغماضة سريعة.

– صدقيني يا أمينة، لو رأيته مطعونًا بألف حربة أو أصابته ألف رصاصة من بنادقهم في الريدانية أو جامع شيخو أو عرفت أنه مات على فرسه في معركة وردان ما أهمني لكن يؤسر ويذل ويشنق أمامنا ولا مغيث له فقد شرخت روحي حين ضاقت الخية حول رقبته وشدوا الحبل و... آه.

– بالله عليك لا تثقل على نفسك، ما ضاع قد ضاع ولن ترده.

– صحيح لن أرده ولكن داخلي شعور بوجوب فعل شيء، السلطان معلق من ثلاثة أيام ويجب أن أفعل شيئًا، أي شيء.

نهض من فوره وربت على كتفها، راقبته وهو ينزل السلم وحين خرج من البيت ظلت عيناها تتابعه حتى بيت معتوق السقاء لكن قلبها لم يطاوعها وأسرعت لتخبر جدها.

سار إلى باب زويلة وشمس النهار الربيعي تلفح وجهه، لا تزال أبواب الحوانيت مقفولة والعثمانية يجوبون الطرقات لاستتباب الأمن خشية هجمة انتقامية من بقايا المماليك لمقتل أستاذهم، تأرجحت نظراته بين المئذنتين المشيدتين على برجي الباب وكل منهما تسمق إلى أعلى، في وجلٍ أنزل بصره، لا يزال الجسد مدلّى ومن حين لآخر يمر شيخ وهو يبكي أو امرأة تشير إليه بمنديلها والجند واقفون كخُشب مسندة لا يتلحلح الواحد منهم قيد أنملة، أقبل القائد خلفه عشرون من المشاة، نفخ أحدهم في البوق فتراجع الحرس وحلّ محلهم آخرون غيرهم، يد تقبض على كتفه فالتفت وفغر فاه لجده خلفه معتوق السقاء وزوج خالته حجاج، هوّم أنس برأسه وهو يقول في حسرة:

– أخبرني معلمي الطولوني أن قطز ألقى رءوس المغول هناك أسفل هذا الباب والآن يعلق طومانباي عليه!

– رحمه الله يا ولدي، لنعد إلى البيت.

خطا أنس وفي نفسه إصرار على إنزال السلطان ولكن إن سمح لي قائد العثمانية ماذا أفعل بعد إنزاله؟ اهتز للسؤال الذي نغز نفسه وراقب لمّة مقبلة من بعيد فعرف صبور القاضي أصيل الطويل القادم في خطوات ثابتة حوله ثلة من الناس كل منهم يلف مزقًا من قماش حول أنفه اتقاء الرائحة، في لا مبالاة أشار لهم قائد الإنكشارية فتجاسرت الأيدي بفك أنشوطة الحبل، فأسرع أنس لكن الرائحة زكمت أنفه فثبتت قدمه ثم واصل، أراحوه في صندوق ووضعوه على عربة يجرها بغل فامتدت الأيدي بالعباءات لتغطيته، خلع القاضي عباءته وفردها على الجسد الساكن، أدار المكاري العربة وتبعها أنس وصبور يتنفس الصعداء لانتهاء الأمر فقد خشي صدام حفيده بعسكر العثمانية.

لم يجهل أحد اتجاههم إلى مدرسة السلطان الغوري، فازداد التابعون للنعش، وصلوا فتجاسرت الأيدي في حمل الصندوق وشمر القاضي أصيل الطويل عن ساعديه وغسله بمساعدة معتوق السقاء وألبسوه الكفن، صلوا عليه وأنس اختشع قلبه رهبة حين حملوا النعش ودفنوه في فسقية الحوش خلف المدرسة.

ارتفعت الأكف بالدعاء له بالرحمة وإبداله دارًا خيرًا من داره ويسكنه الله فسيح جناته ويؤمن الحضور على الأدعية، رجل يشبه حجاج يقبل وبين يديه شتلة، حفر قرب الفسقية وغرسها ورواها بالماء وأنس يرقبه ولا يريد أن يبرح المطرح حين أمره جده، سلم حجاج على الرجل فمال أنس على أذن جده وسأله عنه، دقق صبور النظر في وجه العجوز وتذكره.

– نهر العنجي، قريب الشيخ زيتون رحمه الله يعمل في المسجد وهو رجل طيب قادم من بلاد بعيدة.

تقدم أنس نحوه فقدمه حجاج إلى قريبه العجوز بأنه ابن أخت صافية وخطيب ابنته أمينة فحضنه الشيخ نهر وقبل وجنتيه، من جيبه الداخلي التقط كيسًا وقدمه إلى الشيخ ثم وضع في يده دنانير ذهبية وهو يطلب منه:

– كيس الأشرفيات تتصدّق به يا شيخ نهر على روح السلطان.

– أمرك.

– والدنانير الذهبية هدية لك.

اتسعت عينا الرجل الجنوبي للمال الذي لم يحظ به منذ نزلت قدمه أرض المحروسة، بكلمات سريعة لم يفهم أنس معظمها شكر الشاب الجميل ومال يقبل يده لكنه سحبها وربت على كتفه وأوصاه بزيارتهم بدرب العطارين وحجاج مبسوط من كرم أنس وإحسانه على الفقراء ويكفي إعتاقه للفتاة المخطوفة وبرّد قلب أمها، ربت صبور على كتف أنس ففهم وجوب عودتهم، ألقى نظرة أخيرة على قبر السلطان ولا يزال نهر العنجي يرش الماء حول الفسقية.

***

-٢-

لم يشأ صبور إطالة أمد خطوبة حفيديه فقرر مفاتحة أنس لكن الشاب اللبيب أبعد عن جده الحرج فطلب إتمام زواجه ولا سيما بعد تجهيز سكنه وأصبحت أمينة على أتم الاستعداد، ليلة الحناء اجتمع أهل الدرب وأولهم صبور وحجاج فأكل معارف وأقارب حجاج والبنات ببيت زيتون يضربن الدف وترقص الفتيات ومسكة تمسك عجينة الحناء وتزغرد.

– أحنّي قدميك ويديك كما فعلت أمي ودميانة أم بسيط لأمك.

– كانت ليلة سا سا سعيدة، الله يرحمها أيام.

بصعوبة نطقتها صافية وهي لا تملك نفسها من الفرحة بزواج ابنتها من ابن الغالية عفيفة كما تقول دائمًا، انتصف الليل الربيعي الحار وهجع الجميع لمخادعهم وأنس يحمد ربه أنه أكرمه بفتاة من لحمه ودمه فبنات الأمراء وأولاد الناس متكبرات والواحدة منهن تطلب ثقلها ذهبًا، انتبه أن زمن أمراء المماليك ولّى وانتهت عجرفتهم ومن ظهر منهم بأمان تلقاه الناس بالسخرية لملبسه الرث ولا يفرق بينه وبين الفلاحين أو الفعلة.

لم يستيقظ أي منهم باكرًا فتركوا أنفسهم يصحون على مهلٍ، تمم صبور على البيت بعد أن نقل سريره وصندوقه والحصير القديم إلى بيت جمعة للسكن مع نصير، أما مسكة فأعادت ترتيب الأثاث والزينة وانهمكت مع صافية في تجهيز عشاء العروسين، قرب المغرب حضر نهر العنجي والمكاري عطية وغيرهما من بقية المعارف والجيران، ربت حجاج على كتف أنس وقال:

– لو عمك زيتون العلوي كان معنا لطبل على الرق وردد أغنيات بلده علوة.

– أنا أغني يا أبا حيدرة، يا ولد هات الرق.

دقّ نهر العنجي على الرق وردد كلمات غير مفهومة للحاضرين ثم فسرها لهم بعد أن أمسك بعصا رفيعة ورقص بها كأنها حربة وبسيط ومعتوق يميلان من الضحك أما صبور فراقه جو المرح السائد بعد نكبات الأسابيع الماضية، ساعة من تبادل الرقصات والأغنيات وعشري بذل جهده في خدمة المجاملين أما عبده فاكتفى بالرقص والتصفيق وأكل الحلوى، نهض نصير وحمل سيده على كتفه ورقص به وهو يذرف الدموع وحين أنزله حضنه أنس في قوة وقبّل جبينه وكأنه يعتذر له عن سنوات خدمته له، هذه المرة حمل أنس عروسه المزينة إلى باب البيت، ورافقه جده إلى أعلى، فرد جناحيه على أمينة وأنس وأوصاهما:

– أنس يا ابن الغالية عفيفة، بنت خالتك لحمك ودمك في عينيك، وأنت يا أمينة، ابن خالتك جوهرة تحافظين عليها.

استحت أمينة أن تقول شيئًا فاكتفت بتقبيل رأس جدها، تركهما وأغلق الباب، نزل لتستمر سهرته مع أهل الدرب، قدم له كريم بن معتوق ماسورة الغاب ليدخن لكنه اعتذر فباغته كريم:

– آه لو يشفط أنس نفسًا، يطير مثل العصافير.

– حقه علينا نطعمه بالسقنقور المشوي لـ...

– احتشم يا كريم، السقنقور وغيره تحتاجه أنت لا الشباب.

– أكيد يا عم معتوق وما رأيك يا كريم، تاجر مغربي أتى لي بصندوق به مطحون السقنقور أو الشرشمان على ما يسمونه في بلادهم، وقال لي أنه من صحراء أدرار نفسها.

– الحقني به وحياة المرحوم زيتون، آه لو تعرف حالتي.

بقبضته وكز معتوق كتف ابنه لينهاه عن التجاوز في الهزار وترديد الكلام الفاضي، هدأ صخبهم فنهض المكاري تبعه معتوق، عاونهم بسيط في لملمة الحصر والمساند، عاد نصير مع صبور لبيت جمعة وأغلقا عليهما الباب، رفع نصير الدلو فشرب صبور ولم يشعر بالارتواء قدر هذه الليلة التي حمد ربه أنها مرت بسلام والطعام فاض منه ما جعل حجاج يعطي منه للمكاري عطية ولنهر العنجي، في صدق ابتسم صبور فأشعل نصير الفانوس الكبير فأضاء الحجرة المربعة.

– يا سلام، أخيرًا قرت عيني وأشعر بعفيفة تستريح في تربتها.

– رحمها الله يا عم صبور وربنا يعوض عليك بالخلف الصالح وربنا الرحيم كلّل صبرك بالخير.

وقف صبور أمام باب البيت ونسمة هواء رخية أنعشت روحه، مدّ بصره إلى المشربية والضوء الخافت ينبعث من خشبها فدعا من أعماق قلبه لحفيديه بالسلام والرزق والذرية الصالحة.

***

رائحة عطرة طافت بأنفه فانفرج جفناه رويدًا، تعلقت عيناه بفلوق سقف الغرفة والمصباح الزيتي يتدلّى بسلسلة من الوسط، نفَسٌ جواره فالتفت في حدة، وجه أمينة النسيمي يسكن على الوسادة الناعمة وشعرها الفاحم يخبئ عينيها، كيف مرت الأيام وبين يوم وليلة يتمدّد جوار فتاة كان في الماضي يترفّع عن النظر لأمثالها حين كان يراهن في الطرقات أو على ضفة النيل، لا يزال يتردد بين جنبات نفسه حواره مع الأمير ططر بأنه سيزوجه من ابنة أمير أخور السلطان أو حاجب الحجاب ويقيم مأدبة يحضرها السلطان الغوري نفسه فيتقوى بهذا النسب على غيره من الأمراء، ووعدته الخوند بأنها ستذبح عشرة عجول وتوزعها على الفقراء ومساتير الناس، آه ها أنا أستلقي جوار ابنة خالتي وأبوها من هؤلاء المساتير لكن العم حجاج الجنوبي الكريم متعفف عن أي شيء يمكنه أن يقلل من قدره على ما هو عليه من حياة صعبة هادئة، ماذا يمكن أن يحدث لو أن كل ما مررتُ به حلم طويل أستيقظ منه لأجد نفسي بقصر الأزبكية والأمير ططر يجهز لزفافي الذي سيتباهى به في بر المحروسة كلها، وأمي تأمر الجواري والعبيد والطباخين والخبازين والفراشين بعمل خيمة عظيمة ولا تمنع طاعمًا أو معوزًا من ورودها فيشبع ويأخذ ما يكفيه لأهل بيته وعياله، على غير رضا الأمير فعلت ذلك حين ولدت أختي بركة، كنت صغيرًا في السادسة من عمري لكني أتذكر ما أغدقت به أمي على كل من حضر يهنئها بالمولودة وتركها الأمير تفعل ما تشاء من أجل ابنتهما واهتم برعايتي هو والحمد لله.

– الحمد لله يا أمير، تكلم نفسك؟

– لا يا أمينة، وأرجوك لا تقولي لي أمير بعد اليوم ومن الغد يكون لي عمل.

اعتدلت في قعدتها على السرير وابتسمت فخفق قلبه ورآها أجمل من أمس وهي ترفل في تنورة ملابس العرس، أحاطها بذراعيه وأمالها فطاوعته، غاب في صفاء عينيها وتعاركت أنفاسهما، ومضت لحظة التصاقها به وهي تخبئه برواق بيت بسيط وتمنت لحظتها تقبيله، الآن لا حاجز ولا خوف فقربت وجهها وأطبقت على شفتيه الريانتين فتبادلا استحلاب رحيق القرب وظلا على حالتهما من الذهاب لا يفكران ولا يريدان أن ينشغلا بغير عودة تمازج جذورهما.

كلمح البصر انفرجت الأجفان وتلاقت النظرات الراضية، رويدًا رفعت رأسها فارتسم الانبساط على قسمات وجهه، قرنت حاجبيها واصطنعت عتابًا:

– أيام عيشتك في القصر أو الإسكندرية أكيد تسريت بـ...

– لو كنت فعلتها كرفاقي من أبناء الأمراء لا أخبئها عليكِ ولكني دونهم عمد أبي، أقصد الأمير ططر، صرف نظري عن مجالسة موائد الميسر والخوند أكرمها الله عهدت لشيوخ أجلاء تعليمي فألزموني منذ الصغر على الابتعاد عن الخمور ومناقرة الديوك وغيرها غير الأمير وقسوته التي كان لا يرجو منها غير تربيتي على الشدة لا التفاهة.

– أصدقك و.. وبركة، أكنت تتزوجها بعدما عرفت أنها ليست أختك؟

– بل هي أختي رحمها الله، رضعنا من أم واحدة وربتها أمها على التواضع وحسن معاملة الخدم وما قابلت فتاة من بنات الجراكسة في تعففها عن التجبر بغيرها، روت لي أمي أن إحدى الخوندات زارتها أختها فحرّمت عليها الطلوع من مخدعها فخرجت يومًا ورآها زوج أختها الأمير وعلمت أختها فجلدتها بالكرباج.

– يا ساتر!

– وأغلب فتياتهن لا أحد يطيق عشرتهن و...

قرع خفيف على الباب فنهض من فوره وفتحه، خالته صافية تزغرد وبين يديها طاولة الطعام، ومسكة خلفها تكشف طبق الكنافة والغارقة في العسل، حضنت أمينة أمها وعمتها وقبلت عشري وعبده يرمق السرير بعين خبيثة، سالت عينا صافية وهي تغرق وجه أنس ورأسه ويديه بالقبلات ومن بين شفتيها المرتعشتين فهم بعضًا من كلماتها البطيئة:

– وأنت في اللفة غنيت لك وبعد دخلتك على قرة عيني أغني لك.

على فراش العروسة اتكحرت الليمون

الشمس طلعت كفاية يا عريسنا قوم

تبادل أنس الضحكات على غناء خالته وقبّل يدها، تركهم إلى الحمام وحين عاد لم يجد عبده وعشري، ومسكة وخالته تجهزان الطعام، فسأل أنس في قلق:

– جدي صبور لم يحضر؟

– مع عمك حجاج ونصير والمقدس بسيط في درب الحدادين والدباغين وتجار الكارمية لشراء بضاعة.

– بعد رجوعهم أكلم جدي في مسألة عملي معه.

كأن خالته ومسكة لم تفهما ما قال فخرجتا وأغلقت صافية الباب وهي تشير إلى ابنتها وترسل إليها قبلة في الهواء، تناول طعامه في شهية واستمع لأذان الظهر، فصلّى في البيت، سألته أمينة:

– تريد العمل؟

– أكيد، لا يصح قعودي في البيت وجدي ينفق عليّ.

– رغم أنك ورثت ثروة كبيرة كما قلت لي!

– مال خوند عنود ليس من حقي يا أمينة، ولمت نفسي على ما أخذته عندما دفنت بركة.

– زادك الله قناعة، اعمل يا أنس، العمل يرفع قيمة صاحبه، سمعت الخبر؟

– أي خبر؟

– سليم بن عثمان يرحل عن البلد وجعل واحدًا اسمه يونس باشا نائبًا له.

– نائب الخنكار، آه سلطنتنا ضاعت ولن نسمع كلمة سلطان مصر بعد اليوم، لكن من أخبرك؟

– عبده ابن عمتي مسكة على صغره لكنه يعرف كل الأخبار.

– وعشري؟

– هادئ وطيب وكل همّه القراءة ومن مشاديد شيوخ الأزهر.

– ربنا يكرمه ويصبح شيخ عمود.

– يسمع منك ربنا.

لا غرابة في ما تروي أمينة عن نفسها ونشأتها في الدرب مع أبيها وأمها وأخيها عشري وعمتها مسكة وابنها عبده وأحب منها سيرة جدها زيتون وما كان يحكيه عن حياته الأولى في الجنوب البعيد وأخته جنة التي أنقذت جده صبور وأمه عفيفة من هلاك المماليك بأسيوط، يستمع إليها ونفسه منبسطة لكلامها العفوي، يتأمل وجهها الهادئ فيجدها تشبهه لولا سمارها المتوارث من جذورها، ظلا يتبادلان قطوفًا من ذكرياتهما فحكى بدوره عن اصطحاب الأمير له في صحراء الإسكندرية البعيدة عن البحر وتدريبه على اصطياد أرانب الجبال ومرة هاجمه كلب بري فأطلق عليه سهم انغرز بقلبه وأتى الأمير به فهنأه باصطياد ذئب بمفرده، تميل بظهرها من الضحك وتصب له مشروبًا باردًا، تحاورا حتى أذّن العصر فأطلّ من المشربية، الدكاكين لا تزال مغلقة فقلق على جده.

– لازم أطلع من الدرب وأسأل عن جدي.

لم تعارض فقد أصابها هي الأخرى قلق على أبيها فلم يتعوّد المغيب من أول الصباح إلى هذه الساعة قرب زوال الشمس وهو معروف عنه عودته بسرعة بعد شراء ما يريد، أمام بيت معتوق تأمل الأحجار التي تسد فتحة الدرب الضيقة، باب البيت موارب فصفق، من جوف المجاز المعتم جاءه أحد أبناء كريم فقاده نحو حجرة الشارع وفتح بابها وأغلقه فور خروجه، رفع وجهه تجاه البيت فاهتز وجه أمينة البازغ من المشربية، لوّح بيده فأشارت إليه، استدار يستقبل الطريق المؤدية للجامع العتيق، الدكاكين مغلقة والستات والعيال تقف على عتبات البيوت، رأى القلق يطل من العيون، رجل يركب حمارًا يتكلم مع ماشٍ يجاوره فالتقطت أنس كلمات.. العثمانية، الناس، القلعة فأوقفه أنس وسأله صراحة:

– ما خبر العثمانية؟

– جندهم الإنكشارية وقفوا على أبواب الحارات والشوارع وقبضوا على الناس وساقوهم إلى القلعة.

أدرك سبب تأخر جده ومن معه فربما الآن عند القلعة، تسارعت خطواته حتى وصل لمقام السيدة عائشة فلفت نظره قلة التجار لكن طبلًا وزمرًا يقترب فوقف يتبين الخبر فجحظت عيناه لرأس معلق مغروز في رمح يطوف به جند العثمانية وبنادقهم مشهرة ويسمع من المجاورين له أنه جندي عثماني خطف امرأة وفسق بها في إحدى الخرائب فشكته لقائده الذي رفع أمره للسلطان سليم فأمر بقطع رقبته في الحال ويطاف بها حتى يعلم أهل البلد جزاء منْ يفحش بالناس، لم يبال بالأمر فما فعله ابن عثمان وجنده أفظع من ارتكاب جندي لفاحشة واحدة، سار إلى قرب مسجد السلطان حسن، ميدان الرميلة يعج بجند ابن عثمان ومن بعيد عربات المكارية تتراص فخطا نحوها لعله يرى جارهم عطية، فوجئ بأناس خلعوا جلابيبهم وبقوا بالسراويل الطويلة والصدار الداخلي، كل قصبتين يقف رجل فيقبل أولهم بلوح رخام يسلمه للتالي وبدوره يخطو ويحمله للآخر وهكذا حتى موقف العربات الخشبية، يراه قائد المشاة فيرفع بندقيته نحوه ويأمر:

– أقبلّ ولد، شاب جميل قادر على الأحمال.

لم يهتم بما أمر به فاندسّ بينهم، الحمالون كثيرون فزاغت عيناه بينهم وحمد ربه أن القائد لم يفطن أنه من أولاد الناس وإلا لقتله وتقرّب برأسه إلى سيده، صوت عال في الناحية الأخرى فالتفت وهو يلقي اللوح الثقيل، عمود ملقى على الأرض فأيقن أنه أحد أعمدة الإيوان الكبير بالقلعة تم فكه ويُسحب بالحبال الغليظة، اتسعت عيناه لرؤية حجاج يميل نحو عجوز مكوّم والإنكشاري يرفع السوط ويصفع ظهره، سقط قلبه بين ضلوعه وهو يحسبه جده فترك الصف وجرى نحوهم، ماسورة بندقية صوّبت إلى صدره فابتلع ريقه ويدٌ ترفع البندقية.

– بدل قتله يشد العمود مكان العجوز.

تلاقى وجهه بوجه حجاج الواجم وهو محني على قريبه نهر العنجي والرجل ينازع حتى شخر فجأة وتهدل رأسه وأسلم الروح، العتمة تتسلل فانطلق بوق كبير، دون أن يلتفت القائد أمرهم.

– يكفي ما أنزلناه، ومن الغد غيرهم يكمل.

في إعياء شديد تفرق الناس ولم يتخيل أنس كثرتهم وهم يجرجرون أنفسهم بعيدًا عن الرميلة وبعضهم يسارعون خطوات الخلاص من نير حمل الرخام والعمود الكبير، حمل حجاج الميت ووضعه على بغلة وصاحبها بوجهه الأسود يذرف الدموع، ابتعدوا فبادر أنس بسؤاله:

– جدي ونصير يا عم حجاج؟

– نلقاهما عند مسجد قانيباي الرماح فقد أصيب معتوق السقاء في قدمه ونقلوه ليستريح هناك.

وجه الرجل بغلته نحو المسجد فحمل أنس جسد نهر العجوز المسكين وصعد السلم، أراحه بعد الطرقة المؤدية إلى صحن المسجد، خفق قلب أنس لإقبال جده نحوهم فحضنه ولسانه يلهج في نبرة عتاب:

– ما جاء بك يا أنس؟

– قلقت عليك يا جدي، الحمد لله أنت بخير وأين نصير وأبو كريم؟

– آخر اليوم وقع لوح على قدم عمك معتوق ونقله نصير لهنا ويضمد جرحه، ما حدث للشيخ نهر؟

– رحمه الله يا عم صبور.

– آه، مات من تعبه وقلة الأكل، المهم يا حجاج، الأجدر نعيد الرجل لأهل بيته.

– زوجته ماتت من سنة ولا أولاد له ويعيش يخدم بمدرسة الغوري، نجهزه هنا وندفنه في الحوش، اصحب أباك يا كريم للبيت ونحن نقوم بمهمتنا، هيا يا نصير.

لا الوقت ولا الموقف يجعل أي إنسان يناقش فنهض صبور ونصير مع عامل المسجد فغسّلوا الرجل وأتاهم الإمام بكفنه، حملوه على خشبة ولم تمض ساعة بعد العشاء إلا وكان مستريحًا في تربته، على ضوء المشعل يردد صبور «وما تدري نفس بأي أرض تموت» قوّس أنس ذراعه حول كتف جده وسأله في إشفاق:

– ماذا حدث يا جدي؟

– تقبضوا على كل من بالسوق وقيدونا بالحبال إلى القلعة والباقي ما رأيته.

– الكلاب، ما رحموا شيخًا أو ضعيفًا!

– أمر قواد ابن عثمان المرخمين بفك رخام القلعة من قاعة البيسرية والدهيشة وغيرها والعواميد السماقي، كل همهم إنزال ألواح الرخام ووضعها في صناديق خشبية وسحب الأعمدة بالحبال من القلعة.

– لماذا؟

– لتحميلها على سفن إلى إسطنبول، ابن عثمان اللص رأى ببلدنا ما لم يره في بنايات آبائه وأجداده وها هو يجمع أسلابه ليجمل بها بلده.

لم يرد أنس أن يشق على جده بالكلام فصمت وأبطأ مشيه مجاراة لجده المتعب من فرط عمل النهار، دخلوا بيت معتوق فسلموا عليه واطمأن أنس حين علم بأن جرحه خدش بسيط لكن العجوز الماكر أشاع أنه كسر فحملوه إلى المسجد ليتخلص من المشقة والعنت، ابتسم أنس لدهاء معتوق وهزّ رأسه إعجابًا بخطته فلا أحد يتغلب على مصري، استقبلهم بسيط بوجه واجم وأخبرهم أنه رجع منذ قليل بعد أن حمل أكثر من خمسين لوحًا من رخام إحدى القاعات، فارقهم صبور ونصير إلى بيت جمعة في نهاية الدرب، رفع أنس وجهه فرأى أمينة تمسك بشمعة صغيرة وترفع خشب المشربية فانشرحت لوجود أبيها وجدها وأغلقت المشربية لتستقبل أنس.

***

-٣-

«السبت حادي عشر من شهر شعبان كان يوم النيروز وهو أول توت بالسنة القبطية، أرسل ابن عثمان إلى خاير بك صنجقا وأقرّه على نيابة السلطنة بدلًا من يونس باشا لأن سليم بن بايزيد يتهيأ لمغادرة مصر ومن قبل سمعنا أنه أرسل أحد أتباعه يقال له علي بك ليصلح الآبار بالطريق ويمهدها

له لذلك قبض جند ابن عثمان على جماعة من السقائين من شطوط بولاق ومصر العتيقة وحجزوا جمال السقائين بالروايات التي عليها؛ ليصاحبوا ابن عثمان في سفره إلى غزة لقلة الماء بالطريق».

صمت وتناول كوب الماء من يد أمينة، جلست قبالته وهي تحدّق في أوراق جدها، فمن حين لآخر اعتاد أنس قراءة ما يكتبه جده دون ترتيب لكنه مبهور بالفكرة نفسها التي لم تخطر على باله ولم يفكر أن يخوضها واحد من أمراء المماليك ولديهم أفخر أنواع الأوراق والأحبار، التفت إلى زوجته فغامت ابتسامتها الرائقة لتقطيبه ونظرته الحادة.

– كنت متوقعًا أن يكلف واحدًا ممن ساعدوه، آه هؤلاء الخونة، تسببوا في ضياع السلطنة من أيديهم وبين عشية وضحاها أصبحوا تابعين لابن عثمان.

– ربما بعد رحيله يستعيد خاير بك كلمته.

– ربما يا أمينة ولكن كيف يستعيد سطوته والسكة والدعاء باسم ابن عثمان وأشيع أنه سيخلف هنا آلافًا من جنده عليهم أمير منهم و...

قرع على الباب فنهضت أمينة لتفتح، انشرح وجهها لصوت جدها صبور وهو يتكلم، دخل خلفه عبده وعشري، سلموا على أنس وهشّ صبور للكتاب المفتوح، رفع عشري صوته:

– نحكّم أميرنا أنس.

– لست أميرًا يا ابن خالتي ولا حكم لي في وجود جدنا صبور.

– عبده فرحان بسفر الفعلة والمبلطين والمرخمين والبنائين وصناع الزجاج والنحاس وغيرهم مع ابن عثمان ويتمنّى لو يرافقهم.

– لأرى بلادًا لم أرها من قبل.

– لو أن سفرهم للعمل عن طيب خاطر لكنهم مجبرون يا عبده، وابن عثمان اعتبرهم أسرى.

– الأسرى في الحرب لكنهم عمال.

– لا يهم سليم بن بايزيد الجند في شيء، ما يهمه الآن هو نقل ما نهبه ويجب إرفاق المهرة لبناء بلده.

– آه لو أرافقهم لفعلت الأفاعيل هناك كما فعلها جنده.

– وتقبل اقتلاعك من جذورك ورميك في بلد غريب بعيدًا عن أهلك لا تعرف فيه غير القوت والعمل المضني ويا عالم ترجع أم تموت وتدفن بأرض غريبة.

– انزل أنت وهو، أريد أنس في شيء.

بأمره سكت الولدان ونهضا لكن أمينة أصرت أن يتناول أخوها وابن عمتها قرص العجوة قبل نزولهما، رمق أنس ابن خالته عشري بعين الإعجاب فالولد به حب لموطن نشأته كأبيه حجاج لا يحب مفارقة الدرب إلا للضرورة أما عشري فتتلبسه روح التمرد والمغامرة وإضافة خبرات عن طريق التنقل والتعرف على الآخرين وهو ما يعجبه أيضًا، معًا تركا الغرفة فالتفت صبور إلى أنس والكتاب في آنٍ واحد.

– كنت أقرأ ما كتبته يا جدي إلى أن جمع جند ابن عثمان السقائين بجمالهم.

– آه، ربك نجّى عمك معتوق وابنه كريم، فما إن عرف معتوق بالأمر حتى بقي بالبيت.

– ولولا بئر جمعة لعطشنا.

– نعم يا أمينة ونصير يعتني بها وأنا مستريح في سكني معه، المهم يا أنس، أردت استشارتي في أمر.

– العمل يا جدي، أريد العمل معك.

– معي؟ تصنع السروج؟

– أصنع السروج، أليست صنعة أجدادنا فلا يمكنني أن أمضي يومي بالبيت وأكلي يأتيني، شيء لا يرضي ربنا وما خلق الرجال إلا للعمل ولشرف لي أن أقف مع عمي حجاج أبيع البهار والأعشاب أو أخصف النعال مع المقدس بسيط على أن أقعد في البيت.

– أنت يا أنس؟

ضم صبور حفيده إلى صدره وربّت على كتفه وكأن ابن اخيه مصري هو الذي في حضنه، أمينة تبتسم لزوجها ووقر بقلبها حبٌ عارمٌ منبعه إعجابها بشخصية ابن خالتها المترعرع على الحرير الناعم ويعرف طريق كنز لا يحصى وإن أنفق منه طوال عمره لا ينفد وها هو يعرض العمل بيده على قعدة البيت، لم يبال صبور بمغادرة أمينة الحجرة فأجلسه والانبساط متربع على قسمات وجهه.

– تريد التجارة أم...؟

– بل صناعة السروج.

– من الغد يدي بيدك وأعلمك إياها، والآن أعد عليّ قراءة ما كتبته أنا فقد نسيت أكثره.

– أمرك يا معلم صبور.

«أطلق ملك الأمراء خاير بك نائب السلطنة أكثر من خمسين مملوكًا كانوا في سجن الديلم فشعر المماليك بشيء من الفرج بعد الشدة...». ولكن قل لي يا جدي: أمراء المماليك بالصعيد بعيدون عن يد ابن عثمان وأكيد يأتي اليوم ويثورون.

– ليتهم يفعلون يا أنس، ولكن لن ينقضي العام إلا ويكون الصعيد إلى آخر الشلال في طاعة العثمانية وبعصا خاير بك نفسه.

– ربما يثور هو الآخر بعد رحيل سليم؟

– لا ثورة لخائن، كل همّه هو إرضاء سيده، ألم تسمع أن سليم عزم على إبقاء أكثر من خمسة آلاف جندي من الإنكشارية ورماة الرصاص وقرر واحدًا من أمرائه نائبًا على القلعة يُقال له خير الدين باشا.

– وقعنا بين خاير بك وخير الدين باشا وما بين الخيرين حساب!

ندت عن صبور ضحكة خفيفة لتعليق أنس المازح، تناول منه الكتاب وقلب بين أوراقه التي كتبها في الأسابيع الماضية، أعطاه إياه وهو يعقب:

– بل حساب وأي حساب يا أنس، سيجتهد خاير بك ملك الأمراء في جمع ما يستطيع من مال ليستبقي نصيبه ويرسل ما يُقرر عليه إلى ابن عثمان وإن لم يفعل فمصيره العزل ويتولّى من يفعل والإنكشارية له بالمرصاد ونائب القلعة التركي لن يتركه يهنأ بسلطان.

– ونحن؟

– علينا الاستكانة لحين انكشاف الغمة.

– وكيف تتكشف الغمة إن لم نكشفها نحن؟

– ربما يا بني، في زمننا أو زمان آخر يأتي من يخلصنا من شر المماليك والعثمانية.

– سيأتي يا جدي، ولكن لي شرط عنده، أن يكون مصريًا و...

قطع عبارته زغرودة تفجرت من جوف الدار، ارتدى ملابسه ورافق جده إلى أسفل فوجد أمينة تجلس على المصطبة وعمتها مسكة تقوّس ذراعها حول كتفها وأمها صافية تفرد كفها على شفتها وتطلق الزغرودة الثانية، يقبل حجاج من الشارع مستغربًا فترد مسكة على عيونهم المدهوشة:

– أمينة حامل يا عم صبور، ستصبح جدًا يا حجاج.

بهت أنس للخبر غير المتوقع فلم يكن في حسبانه أن يكون أبًا وهو في سنه الصغيرة، خفق قلبه وغمر أمينة بنظرات الامتنان المفعمة بالحب الخالص، مال صبور على رأس حفيدته فقبلها والتفت إلى حجاج وانتصبت قامته وهو يتشرط:

– إن كانت بنتا سأسميها عفيفة وإن كان ولدًا...

– اترك اسمه لي يا جدي.

– حقك يا أنس وربنا يتمم لها على خير إن شاء الله.

ما كاد يتم كلمته حتى أقبل عبده لاهثًا، من الزير اغترف الماء وشرب ولم يبال بسبب اللمة وأعلن أمامهم بصوت مترع بالحماس:

– ابن عثمان يرحل اليوم.

اتسعت عينا أنس وأشار إلى أمينة بأنه سيعود، غادر البيت خلفه صبور فتقابل مع نصير الواقف أمام بسيط يتبادلون صحة الخبر، ترافقوا إلى بيت معتوق فصحبهم إلى خارج الدرب، تسارعت خطواتهم والناس من حولهم لا سيرة على الألسنة غير نبأ رحيل العثمانية ومنهم من يكذب وغيرهم يصدق، حتى وصلوا الرميلة فوجدوا العديد من الناس والجند يلفون حول أجسادهم الحبال الغليظة ويجرون المكاحل النحاس الكبيرة متوجهين بها إلى بلبيس، وبقية الأهالي متجمعون فدقت الطبول والزمور واصطف الإنكشارية والمشاة من حاملي البنادق لساعة وأشيع أن ابن عثمان خرج من بيت مسكنه ببيت السلطان قايتباي الذي خلف حمام الفارقاني فشق الصليبية وطلع إلى الرميلة، عض أنس شفته حين رآه راكبًا بغلة صفراء عالية من بغال السلطان الغوري عليه قفطان مخمل أحمر وحوله الوزراء وبرفقته خاير بك وجان بردي الغزالي المسافر معه إلى الديار الشامية.

استدار صبور ليعود بعد أن أشيع ان ابن عثمان سينزل بوطاقه الذي نصبه ببركة الحاج وهناك يتلاقى بفرقته التي مرت من تحت الجبل الأحمر والأخرى جاءته من ناحية تربة العادل، في طريق عودتهم تطايرت زوبعة من غبار فانتحى معتوق جانبًا جواره صبور ونصير خلف أنس، راقبت عيونهم مئات الجمال المحملة بالتحف والسلاح والنحاس المُكَفّت والصيني وعلى البغال والحمير القوية تتراص ألواح الرخام الملونة وأشد ما آلم أنس أنه عرف بأن سليم بن عثمان أمر محمد ابن السلطان الغوري بمرافقته في سفره إلى بلده فخضع وود لو بقي هنا ليثأر من خاير بك وكل من تسببوا في هلاك أبيه بالديار الحلبية، استدار أنس خلف جده وعاد أدراجه إلى الدرب وقلبه مغمور بفرحة منبعها رحيل ابن عثمان عن المحروسة، والبشرى بحمل أمينة، أمام الدكان مدّ يده فأعطاه صبور المفتاح، انفرج الباب على مصراعيه وأخرج نصير الدكة الصغيرة، خلع أنس عباءته القصيرة وشمر عن ساعديه وتهيأ ليشرح له جده أسماء العدد وأنزل له سرجًا قديمًا وطفق يسمي له

كل قطعة فيه وكيفية لضمها بالأخرى وخياطة الجلد وتثبيت الخشب أو الفضة به ونصير يعاونه في تقديم العدد إليه فيجرب بنفسه وهو يضمر إراحة جده من الصنعة وتعويضه عن شقاء سنواته الفائتة.

***

-٤-

«وكانت فترة إقامة ابن عثمان بمصر قرابة ثمانية أشهر حصل لنا فيها منه ومن جنده أشد الضرر وبحثت عن نحَّاس فلم أجد فبطلت أكثر من خمسين صنعة بسبب قبض ابن عثمان على أغلبهم وإرسالهم إلى الديار الإسطنبولية ليزينوا بلده وما خرج من مصر إلا بعد خرابها وأخذ من كل شيء أحسنه وغنم هو ووزراؤه الأموال الجزيلة التي جمعت له عند القلعة التي لم يكن يفارقها إلا عند سفك دماء الجراكسة فلم يكن له أمان يعطيه لأحد وما أنصف مظلومًا وليس له قول أو فعل وكلامه ناقص منقوص محب لرؤية الرؤوس تتدحرج تحت قدميه أما عسكره فأفعالهم دنيئة يجاهرون بشرب الخمر في الأسواق ولا يبالون على صلاة ولا عندهم أدب ولا حشمة يكبسون على الأسواق كالبهائم فيأخذون ما يريدون مستعينين ببندقهم في وجه أي شاك أو معترض حسبنا الله ونعم الوكيل».

في سأم ألقى بالقلم المدبب وهمّ أن يمزق الورقة أو يميل عليها المسرجة فيحرقها كما أحرقت الكلماتً التي خطها صدره، الغصة تكاد تطبق على نفسه المغمومة من كثرة كتابة ما تكرر على ألسنة الناس من صفات سليم بن عثمان البغيضة فقرر ألا يمارس الكتابة مرة أخرى وفي الصباح يعطي الكتاب لجده، نهض إلى الغرفة الأخرى فوجد أمينة لا تزال تغط في نوم عميق، تردد في إيقاظها لتعاون أمها وعمتها مسكة في تجهيز سحور أول ليلة في رمضان، تركها ونزل، خرج من البيت فوجد عشري وعبده يفرشان البساط على أرض الدرب وتستقر طبليتان كبيرتان في الوسط، الطبلية الثالثة أحضرها المقدس بسيط أما الرابعة فكانت بيد معتوق وابنه كريم يحمل طاولة أطباق الفول والجبن والعسل، أخيرًا أتى صبور ونصير وخرج حجاج من البيت والولدان لم يتوقفا عن إحضار الأطباق، الفوانيس معلقة بين البيوت والشمع المضاء بدّد عتمة الدرب، تخرج أمينة من البيت بيدها مصباح فتدخل بيت أبيها لتتناول السحور مع أمها وعمتها، جلسوا وامتدت الأيدي وصبور يرفع وجهه إلى السماء ويدعو أن يكشف عنهم الغمة، انتبه لصوت معتوق:

– الأحد الماضي طلع ملك الأمراء خاير بك قلعة الجبل.

– رأيت موكبه يا عم معتوق، حوله خيول الجنائب وقدّامه الكثير من جند ابن عثمان وعلمت أنه أحضر البنائين والمبلطين والنجارين ليصلحوا ما طاله الخراب والنهب في القلعة.

– وأقر مملوكه كشبغا على ولاية القاهرة.

– وخلع على الزيني بركات بن موسى وجعله ناظر الحسبة الشريفة وناظر المارستان المنصوري[123] وناظر الذخيرة الشريفة و...

– كل هذا في يد رجل واحد؟

– يريد ملك الأمراء أن يريح نفسه، والخبر الأكيد أنه.. أنه..

– أنه ماذا؟

– عقد على خوند مصرباي زوجة الظاهر قانصوه.

دون اتفاق توقفوا عن تناول الطعام اصطدمت نظراتهم الزائغة، رفع صبور القلة وشرب، حدّق في وجه نصير وكأنه يريد التأكيد على الخبر الذي قاله في التو، فخاير ابن بلباي يريد فعلا أن يجمع أكبر المكاسب بيده، السلطة على الجراكسة، حكم مصر، الاستيلاء على ممتلكات المقتولين من أمراء المماليك حتى حريمهم، استدرك معتوق الأخبار:

– لكن سعادته لم تدم؛ الإنكشارية ثاروا عليه وطالبوه أن يرتب لهم جامكية كما كان يفعل السلاطين من قبل.

– حكمة ربنا، يثور عليه من عاونهم على البلاد، ويشوف منهم كل الأذى.

من فوره نهض صبور وتارة أخرى ترع الماء، استأذنهم بسيط ودخل بيته، أحضر عشري الطست والإبريق فصب الماء لوضوء جده استعدادًا لصلاة الفجر فور سماعهم للأذان فاجتهد نصير في لملمة بقية الطعام والأطباق الفخارية فأدخلها عبده وعشري للدار وحين تواترت ارتجاعات صوت الأذان أمّهم صبور وبعد انتهاء الصلاة رفع يديه ودعا بحفظ البلاد وأرواح العباد، رافق أنس زوجته لأعلى ويتمنى أن يستجاب دعاء أول ليلة في رمضان.

***

انطوت العشر الأوائل من رمضان ولا انشغال لأنس غير عمله مع نصير في دكان جده صبور أول النهار حتى قرب العصر فيغلقه ويستريح إلى إفطار المغرب وبالليل يكون سمرهم وهم يتحاورون ويكمل كل منهم ما نقص من عمله حتى كان يوم الاثنين الثاني عشر من رمضان خرج صبور برفقة نصير وأنس وبسيط إلى السوق لجلب الكثير من الأشياء، قابلهم معتوق وعليه أمارات الضيق.

– خيرًا يا معتوق؟

– النيل قل يا شيخ صبور، ثبت عند أربعة عشر إصبعًا.

– معقول! نحن في أول بابه124.

– للأسف يا مقدس بسيط وسمعت أن غالب بلاد الصعيد والبلاد العليا شرقت وكانت تسقي عند عشرين إصبعًا وزيادة والمشايخ سيصلون صلاة الاستسقاء.

– يا رب في شهرنا الكريم لا تمنع عنا زيادة النيل و...

قطع دعاء نصير دق الطبول وأصوات الزمور والأبواق القادمة من ناحية القلعة فاقتربوا جميعًا مع حشود الواقفين على جانبي الطرقات، الموكب هزيل يتقدمه عسكر العثمانية الذين كره الناس وجوههم ونفر قليل يحملون كسوة الكعبة الشريفة والبرقع وكسوة مقام إبراهيم الخليل عليه السلام وكسوة ضريح النبي عليه الصلاة والسلام فتألم صبور للزمرة الصامتة وترجرج في ذاكرته وداع السلطان الغوري بنفسه للمحمل الشريف والزينات معلقة في الطرقات وهتاف الناس يشق السماء، أفاق على يد أنس تهزه في رفق فواصلوا السير، اشتروا ما يلزمهم وعادوا للدرب، ركن أنس الأكياس وأغلق الدكان، شعر بالعطش فقرر أن يستريح بقية اليوم إلى موعد الإفطار، تمدد جوار أمينة التي تأوهت قليلًا فالتفت إليها.

– ابنك شقي يا أنس.

– هو فيه نفس يرفس، ورأيك أنا أتمناه بنتًا فأسميها بركة.

– اتفقنا تكون عفيفة.

– وبعدها بركة إن شاء الله.

– أول مرة أسمع رجلًا يحب البنات، صحيح يا أنس أنت مختلف عن غيرك.

– يا حبيبتي وبنت خالتي، رزق ربنا كله خير.

أغمض عينيه فشملته بنظرات الحنو، مدت يدها لتلامس شعر رأسه فأحجمت لما رأت رغبته في النوم، ذهبت إلى أمها لتعاونها في تجهيز الإفطار.

***

ما إن خرج صبور من باحة جامع عمرو بن العاص بعد صلاة الجمعة حتى تبعه أنس، ورآه أمام أحد حوانيت الورّاقين يفتح ذراعيه لشاب ويحضنه فحسبه من معارف جده، اقترب منهما فميّز وجهه ومد يده مسلمًا.

– مرحبا ابن زنبل.

– أتذكرك، فأنت حفيد الشيخ صبور.

– نعم يا أحمد، أنس السراج وزوج أمينة بنت عمك حجاج.

– تمام، زيتنا في دقيقنا ولا غريب يدخل بيننا.

– تعال معي إلى البيت لتأكل كعك العيد.

– أو ما تبقّى منه فالعيد كان الأربعاء قبل الماضي واليوم الجمعة وعلى كلٍّ أحتاج الكثير من الأعشاب.

ترافقوا إلى درب العطارين وأصر نصير على حمل زكيبة ابن زنبل الصغيرة، اقتربوا من الدرب ولا يزال ساتر الأحجار يسد فتحته الضيقة واعتاد الناس دخوله من خلال بيت معتوق لشراء ما يلزمهم من توابل وبهار وأعشاب وأعلاف، حجاج وعبده وعشري يرصون الزنابيل والقفف أمام الدكان وبسيط يعتلي سلمًا خشبيًا ويفرد قطعة كبيرة من القماش المرقع ليتقي وهج الشمس، يجلسون على المصطبة فيأتيهم نصير بقلة ماء كبيرة، يأمر صبور عبده بتجهيز الغداء فيعتذر ابن زنبل متعللًا بانشغاله لكن صبور يفرد كفه معترضًا.

– عيب يا رجل، أنت في وقت الغداء ولا يصح تمشي دونه.

ولأن أنس أصبح يفهم جده جيدًا فأدرك أنه يريد من ابن زنبل معرفة أخبار القلعة لثقته في قدرة الشاب على تقصي الأنباء وولعه بتدوينها كما يفعل الشيخ الجليل ابن إياس فقد أخبرهم أثناء الطريق أنه اشترى الأوراق والأحبار والأقلام ليشرع في كتابة أخبار البلد من قبل أن يدخلها العثمانية، أنهوا غداءهم وجاءهم نصير بشراب منقوع التمر الذي جهزه اليوم، بادرهم صبور:

– لم يشعر أحد بالعيد، صلينا وعدنا إلى البيوت حتى الأولاد لا تبدو عليهم البهجة كما كانوا.

– وكيف يفرحون وكل منهم مهدد بالخطف، العثمانية لا يرعون حرمة لأحد، في رمضان طلبوا من ملك الأمراء خاير بك جامكية ولحومًا وعليقًا كما كان للجراكسة ورفض فسبوه سبًا قبيحًا وهموا بقتله فهرب منهم وأغلق على نفسه الباب وثاروا على نائب القلعة خير الدين غير ثورتهم على المحتسب الزيني بركات بن موسى بسبب الفلوس الجديدة.

– هذه لوحدها كارثة، فلوس في غاية الخفة وأغلق التجار دكاكينهم؛ حتى لا يبيعوا أو يشتروا بالفلوس الجديدة.

– وماذا فعل خاير بك، أمر بصنع خوازيق ونوى بعد العيد يخوزق من امتنع عن التعامل بالفضة الجديدة فخاف الناس وفتحوا دكاكينهم.

تأرجحت عينا صبور بين ابن زنبل وأنس ونصير وود لو أن أحدا لا يقاطعه فيروي كل ما يعرفه كما اعتاد منه، يسند ذقنه على كفه المضمومة حول رمانة عكازه، قرن حاجبيه وألقى سؤاله ليستمر:

– وأمراء الجراكسة يا شيخ أحمد، ظهر منهم نفر؟

– ظهرت جماعة في حالة مزرية، يقاسي كل منهم الفقر والعري، يلبسون كأقل رجل من العامة ويمدون أيديهم ليشحذوا قوتهم، ومنهم من يطوف على التجار يسألهم ليعطوه درهمًا يشتري به كبشة فول يأكلها، فعوضهم خاير بك وأمر له بقفطانات جوخ وطراطير جوخ أسود وعمائم مدورة، أما الأمير أرزمك الناشف فقد توجّه إلى خاير بك فطلع القلعة وعلى رأسه منديل الأمان كان يلبس كالعرب عليه زنط وشاش وملوطة بأكمام كبار فأحسن استقباله وأمر له بالإقامة وألبسه قفطانًا وعمامة عثمانية وجعله في مجلس الفقهاء والقراء فلما انفض مجلسهم فرق على العلماء والمشايخ والفقهاء صررًا بها دراهم وشتان بين هذا وما كان يفرقه الغوري وبعد أن صلى ملك الأمراء العيد في جامع القلعة مد السماط لكن الجند العثمانية اختطفوا الطعام.

– هؤلاء البهائم لا أدب لهم ولا أخلاق.

– الثلاثاء الماضي نزل ملك الأمراء من القلعة متوجهًا نحو البريم للتنزه وطلب من خدمه إقامة خيمة وقلي السمك لكن جند العثمانية خطفوا ما فوق رؤوس الخدم من طعام قبل أن يصل إليه فتتكد غاية النكد وما زاد حنقه وصول قاصد من ابن عثمان برسالة يخبره فيها بالتزام ملك الأمراء بجمع أربعين ألف إردب من قمح وشعير يرسلها له إلى الشام في مراكب بالبحر المالح فألزم خاير بك المباشرين بالتعجل بجمع ما أمر به.

– يريد سليم بن بايزيد نهب البلد حتى بعد أن هجره.

– وفيه مصيبة حصلت يا شيخ صبور.

– خيرًا يا ولدي؟

– فيه سفينة غرقت مما توجهت إلى إسطنبول وسمعت أنها كانت تحمل أربعمائة إنسان فيهم جماعة من الأعيان وأمراء المماليك منهم باش المجاورين بمكة الأمير بيبردي ابن كسباي.

– وأكيد كان معهم الكثير من أصحاب الحرف ممن أجبرهم الإنكشارية على ركوب السفينة لأجل تزيين بلد ابن عثمان كما رأى بالمحروسة، ويا رب تكون غرقت الأعمدة والرخام والزخارف التي نهبها من القلعة وغيرها حتى لا يستفيد منهم.

– لا أظن فالكثير مما نهبه ابن عثمان رافقه على جمال وبغال وآخر ما وصلني أن جنده لما وصلوا الشام استولوا على ثمار وفواكه البساتين وطردوا الناس من بيوتهم وسكنوا بها وحصل لأهل الشام

منهم غاية الضرر.

– لكن أسوأ ما فعل ابن عثمان هو نفيه للكثير من أعيان البلد إلى إسطنبول حتى الخليفة المتوكل على الله ابن المستمسك بالله يعقوب أخذه معه ونواب السادة الشافعية والحنابلة والمالكية والحنفية حتى كبراء النصارى مثل بانوب الكاتب بالخزائن الشريفة ويوحنا الصغير وغيرهم.

وليس الأعيان والمشايخ وأولاد الناس فحسب لكنه حجز لنفسه البنائين والمرخمين والمبلطين والحدادين والخراطين والحجارين والنجارين والفعلاء، يريد الخنكار ابن الخنكار أن يجعل بلده كالقاهرة.

ظل أنس يستمع إلى ما يُقال من أخبار عن أحياء القاهرة والقلعة وثبت في ذهنه خبر أمراء المماليك فقفز أمامه وجه الأمير طقطباي الصغير كان شريكًا للأمير ططر في تجارته وإجحافه لغيره من التجار، رآه يرتدي جلباب الفلاحين وعلى رأسه طاقية صوف وفي قدمه عرج والرمد هرأ عينه وفعليًا يمد يده للناس، عض أنس شفته لماضيه الذي فارقه فلو بقي الأمير أنسباي ابن الأمير ططر واستطاع الفرار من سيوف ومشانق وبنادق جند ابن عثمان كان سيذوق كل صنوف العوز والذل أما وهو أنس بن مصري السراج فيعيش عزيز النفس بأصله الكريم بل ويحسن على الكثيرين ممن كان ينتسب لهم في حياته الأولى، أفاق على وقوف ابن زنبل وحمله لكيس كبير جهزه له حجاج فرافقه هو وجده إلى أول الدرب وسلما عليه، فارقهما فقوس صبور ذراعه حول كتف حفيده وتلاقت نظراتهما وكأن كلًّا منهما يذكر الآخر بشكر ربه على ما أنعم عليه من أمان.

***

-٥-

ولدت أمينة، في يُسر لا يتناسب مع أول بطن لها وضعت ولدًا، ضمه صبور لصدره وبكى وهو يشم جلده الغض وكأنه يستقي منه عبق عفيفة ومصري اللذين لم تقر عيونهما بأنس، أذّن في أذنه ولاك تمرة وحنّك بها فمه ولا يدري كيف تسرّب وجه أبي سعد من بين شقوق ذاكرته حين فعلها مع أنس على ظهر سفينة الريس حميد، طوال ثلاثة أيام لم تكف صافية عن الغناء ومسكة جعلت كل همها رعاية أمينة وإطعامها حتى استردت عافيتها في سرعة، أنس كلما وقعت عيناه على مولوده يخفق قلبه ولا يصدق أن له ولدًا وحين حضنه زكمت أنفه رائحة غريبة وكأنه يشم عبير الأرض حين يرش عليها الماء، ليلة السبوع تحلقوا حول الطست للفرجة على الست أم حسنات القابلة وهي تحمم الصغير وقد تأرجحت الأسماء التي أطلقها كل من عشري وعبده وصافية عليه أما حجاج وصبور فالتزما الصمت تاركين لأنس اختيار اسمًا لولده.

– ثوري.

فاه بها أنس ودارت نظراته في وجوههم ليستطلع ما يبوحون به تجاه الاسم الغريب الذي اختاره له، لم تستوعب خالته صافية معنى الاسم بل وكررت نطقه: لوثي، روسي، صعب يا أنس، اختر اسمًا غيره.

– اسمه ثوري يا خالتي، أتعشم أن يكون فعله كاسمه فيأتي اليوم ويثور فيه على المماليك والعثمانية.

أبدى عشري إعجابه باسم ابن أخته وأمينة رضيت ما دام من اختيار أنس، وحجاج القنوع لم يفعل غير تقبيل حفيده وتجهيز الكراوية الدافئة لإطعامه، لم ينج الصغير من لسان عبده بن جمعة فرمق أنس وهو يشير للمولود الملفوف في الأقمطة الجديدة:

– ونناغشه ونقول له تعال يا ثور وأمه تبقى البقـ...

بأصابعه قرص حجاج حلمة أذن عبده ليكف لسانه السليط أما ثوري فقد أطلق صيحات الاعتراض المكتومة وهو مغمض العينين فتلقفته أمه، استدارت بظهرها وألقمته حلمة ثديها المثقل باللبن فطفق يمتص دون أن يترك لنفسه فرصة ليأخذ نفسه، تبادلوا الضحكات وخرج صبور تبعه حجاج، جلسوا على مصطبة المقدس بسيط وتلقوا التهنئة منه ومن معتوق السقاء ونصير الذي حضن أنس وقبل رأسه ودموعه تغرق خده فربّت على كتفه وشعر تجاه خادمه الأمين بحنو دافق لإخلاصه الذي لا يُضارع.

لحظ أنس قلة حيلة جده وحميه اللذين تمنيا أن يذبحا للمولود ولو شاة واحدة أو تيسًا لعمل عقيقة تفرح أهل الدرب، الشهور الفائتة كانت ضيقة على الجميع بسبب الكلفة الجديدة التي فرضها ملك الأمراء خاير بك وإذا أضيف جمعه لمحاصيل الفلاحين من غلال وإرسالهم إلى سليم بن عثمان فقد شح الدقيق وقل العليق والدريس والفول وغيره من صنوف البقول ولم يعد تجار الكارمية يأتون بالبهار كما السابق فنضبت بضائع حجاج وما عنده اختص به أهل بيته وأمسى يعتذر للمترددين على الدكان بخلوه من أنواع البهار والأعشاب الشافية، اختلى أنس بنصير ووسوس في أذنه فاتسعت عيناه وأبدى استعداده لما عرضه أنس وقال له في حماس:

– تحت أمرك يا أبا ثوري.

رنّت الكلمة في أذن أنس فطرب لها، انطوى النهار ولا تزال شموع المولود متقدة، لاذ أنس بالغرفة الأخرى بعد أن استولى ثوري على نصيبه من السرير، أنس الساهر ينتظر الساعة المناسبة فألقى نظرة على زوجته النفساء وثوري جوارها تتوالى أنفاسه، نزل من البيت والقمر المحاق أحال الدرب إلى كتل من الظلام، انتظر قليلًا حتى لمح شبح نصير يغادر بيت جمعة ويقترب، ترافقا حذرين من الاقتراب من خيول المشاعلية التي تجوس الطرقات.

ظلا ماشيين إلى الأزبكية وفي الطريق عرف أنس أن نصيرًا كان يمر على قصر ططر القديم المستولي عليه واحد من كبار قادة العثمانية وأكد له أنه بالغ في إخفاء باب الدهليز الخلفي. وصلا،

السرير كما هو يربض أعلى قبر بركه، في خشوع وقف أمامه وقرأ الفاتحة ودمعة حارة سالت على خده، خلفه نصير ينتظر ما يأمر به وحتى لا يضيع الوقت فتح غطاء صندوق كبير وفحص ما به من ذهب وفصوص الجوهر فأراد حمله فأشار إليه نصير وفك من حول وسطه كيسًا خفيفًا من الكتان، أفرغ أنس كل ما بالصندوق وزاد عليه من علبة أخرى وربط الكيس جيدًا فحمله نصير على كتفه وأطفأ ذبالة المسرجة وأبقى الشمعة، تارة أخرى ألقى نظرة وداع على قبر بركة ودعا لها بالرحمة، أغلق الباب وسار وراء نصير وحين اقتربا من الباب الخشبي أطفأ الشمعة وخرجا في حذر، أغلق أنس الباب وأعاد نصير عليه التراب والجلة وغطاه بالبوص والأحطاب وعادا إلى الدرب.

***

صباح وليد، بادر صبور وذهب إلى أمينة وجدها في الحمام وصافية تغير لثوري، حمله جده ولثم خده الأملس، سأل عن أنس فلم يجبه عبده أو عشري الواقفين أمام المولود، أقبلت أمينة خلفها مسكة فأعطاها ثوري لترضعه، تركهم ونزل، فتح الدكان وقعد على الدكة محتارًا في غياب أنس، أمال رأسه إلى الوراء وانتابته موجة من رضاء فها هو أنس الذي ولد على ظهر سفينة واختطف منها وعشت أتجرع علقم فراقه والخوف عليه، أصبح أبًا لمولود أمه بنت صافية، يا للدنيا الغريبة.

– تكلم نفسك يا شيخ صبور؟

– بسيط، صباحك خير يا ولدي، لكني أتعجب من الدنيا، آه رأيت أنس أو نصير؟

– خرجا قبل الشروق مع معتوق و...

مأمأة عالية أول الدرب فلوى صبور رأسه ووقف، معتوق يسحب جديًا من أذنه وأنس يعافر في جر خروف من قرنيه، ما إن رآهم نصير حتى أتى بماعون الماء، قرّب خطم الكبش الأملح125 ليسقيه.

قبل أن يستفسر صبور عن شيء أرقد نصير الخروف وربط ساقيه وعبده يمسك رقبته أما عشري فقد التصق بالجدار حين مرر معتوق السكين على رقبة الجدي وساقه ترفس، ظل باركًا عليه إلى أن همدت حركته وكف حافره عن دق الأرض فعاون نصير على ذبح الخروف الكبير ولم يتوانيا في سلخهما وأتت صافية بمواعين عديدة ووشرة126 لتقطيع اللحم، لم تمض الساعة حتى أنهوا عملهم وبدأت سيدات البيت في سلق اللحم استعدادًا لطبخه، التقط أنس أنفاسه ولم تقو عيناه على مواجهة قسمات جده المعاتبة وأدرك بفراسته ما قام به هو ونصير، عض شفته ومال على أذنه:

– وما الحال لو فطن إليك الإنكشارية أو الزعر، لكنت الآن مكان التيس.

– الحمد لله يا عم صبور، قدّر ولطف.

أدرك من رد نصير أن أنس لم يكن بمفرده، مالت الشمس فمدت الطاولات الخشبية ودعا صبور كريم وعياله واستقدم الشيخ قمر مقرئ بجامع عمرو وتناولوا العقيقة والتهنئة بالمولود الجديد، ما بين المغرب والعشاء قرأ الشيخ قمر أرباع القرآن ومن حين لآخر يذهب حجاج بلفة بها الخبز واللحم لأحد معارفه خارج الدرب وأنهى تجواله بنصيب المكاري عطية العاجز عن الحركة قعيد بيته، ختم الشيخ قمر ليلته بالدعاء لأنس وحجاج وصبور والمولود السعيد الذي تسبب في تذوقه اللحم بعد طول انقطاع كما تندر بحاله وحال الكثير من المقرئين، منحه أنس كيس أشرفيات فدهش الشيخ قمر من العطاء غير المتوقع ولهج لسانه بالدعاء وصلاح الحال وأخبرهم:

– تصوروا يا جماعة الخير، ليلة المولد النبوي الماضية أعطاني ملك الأمراء بجلالة قدره جوخة بأربعة أشرفيات ومد سماطه بحوش القلعة فتخطفه العثمانية وبت ليلتها أنا وغيري من الفقهاء والمقرئين بلا عشاء، آه، أين حالنا لما كنا فيه أيام الغوري وما كان يمد في خيمته المعظمة من موائد وما يمنحه من دنانير.

– الله يرحمها أيام يا شيخ قمر.

– والله يا معلم صبور كله مقبول ومقدور عليه، لكن الظلم ظلمات، سمعتم بأمر الرجل الطيب، قطع عيدان خيار شنبر ووضعها في قفة فتشاجر معه الخولي وقاده إلى الوالي وبدوره قبض عليه الوالي وقاده إلى ملك الأمراء فأمر بشنقه في القنطرة التي بزقاق الكحل وراح الرجل ظلمًا من أجل حبات من الخيار لا تساوي أربعة أنصاف فضة وله زوجة وعيال ويترك العثمانية تفعل في الناس كما تشاء وتنزل عليهم الضرر دون رقيب ولا حسيب.

نهض الشيخ قمر فودعوه صامتين وكأنه نكأ جروحًا قديمة كادت أن تندمل، قام أنس بفتح صندوق خشبي ووزّع الأشرفيات والدنانير على الحاضرين، فأدخل السرور على أهل الدرب ورضي صبور عن ابن بنته وتصدقه على الفقراء من خارج الدرب وعرف من معتوق أنه أجزل العطاء للغنّام الذي اشتروا منه الخروف والجدي فاختارهما مخصيين؛ ليكون لحمهما نظيفًا، التفت صبور إلى عبده وهمهمته في أذن عشري:

– ما الأمر يا ولد؟

– أحاول إقناع عشري بالذهاب معي غدًا إلى غيط الأزبكية.

– ما السبب؟

– جاء بهلوان آخر من حلب ونصب خيمة هناك ويمشي على الحبل مثلما كان يفعل يوسف البهلوان في الشهور الماضية.

– وما دمت شاهدت البهلوان يوسف هذا فما فائدة الفرجة على غيره؟

– نمتع أنفسنا يا جدنا، البهلوان الجديد سمعت أنه يحمل قلة الماء على رأسه ويسير بها على حبل مشدود بين عمودين وأيضا يخترق طوق النار ويقف برجل واحدة على عمود رفيع و...

– ما يهمني أنا الجلوس أمام شيخ عمود الأزهر.

– عفارم عليك فلد، إهمال يوك، عقل كبير وتفكير راجح.

قالها عبده وهو يبرم شاربًا متخيلًا ويقلد إنكشارية العثمانية في طريقة كلامهم فضحك حجاج ونصير وأنس أما صبور فقد اغتاظ للكلمات التي أصبحت تصم أذنه سواء من الأولاد أو من ساكني القاهرة والفسطاط.

***

انقضت الأيام والأسابيع وضمن المال الوفير الذي أتى به أنس من القبو شراء الدقيق والجديان التي يذبحونها ويطعمون منها أهل الدرب المغلق عليهم وبئر بيت جمعة وفرت لهم الماء طوال الوقت لا سيما بعد أن ضعف معتوق السقاء وتوقف عن حمل القربة وخشي ابنه كريم مزاولة عمل أبيه فنشف جلد القرب وعلقوها بالحبال، صبور لا يطيق الابتعاد عن ثوري بن أنس فيحمله بين يديه ويملأ شفتيه بلحم خده الملظلظ والفتى يبحلق في وجوه من حوله ويناغي بصوت عال وحين تقبض أصابعه على عمامة جده لا يفلتها إلا بصعوبة فيعطيه لأمه التي بدأ بطنها ينتفخ للحمل الثاني، اشتاق لأوراقه فسن القلم وغمسه في المحبرة وشرع يكتب:

«اليوم الثلاثاء عشرون من شهر ربيع الأول المبارك للعام ٩٢٤ من الهجرة[127] وردت أخبار بأن إينال السيفي طراباي كاشف الغربية قابل حسن بن مرعي ومن معه في سنهور واستطاع بمعاونة الجراكسة قتله هو وشكر وفي اليوم الذي يليه أرسلوا رأسيهما إلى ملك الأمراء خاير بك فأمر بتعليقهما على باب النصر ففرح الناس والكثير من الجراكسة بما نزل على حسن بن مرعي نظير ما فعل بالسلطان طومانباي من تسليمه لابن عثمان أما ملك الأمراء فكان يتطير[128] من نقصان النيل فأمر بإبطال المحرمات من النبيذ والحشيش والبوزة وقبض الوالي على امرأتين يقال لهما أُنس وبدرية زوجة رجل اسمه البغيضي وكانتا تجمعان بنات الخطيئة لأجل الفاحشة فأمر بتغريقهما على مشهد من الناس وفي شهر رجب زاد النيل قليلًا ففرح الناس واستبشروا بالخير لكن جند الإصباهية ثاروا على ملك الأمراء خاير بك فوقفوا بالرميلة فأغلقت أمام وجوههم باب السلسلة وباب الميدان فصاروا يسبون ملك الأمراء سبًا فاحشًا بسبب أطماعهم في صرف المزيد من الجامكية فصرف لهم ما أرادوا حتى يعودوا لبلادهم ويستريح الناس من شرهم وفسادهم وقد عاد الكثير من البنائين والمرخمين والحدادين والنجارين من إسطنبول فدعا ملك الأمراء بعضهم ليرووا له فقالوا أنهم بنوا للخنكار جامعًا وحمامًا بعدها طلبوا منه العودة لأهلهم وعيالهم فسمح لهم بذلك وفي ذلك الوقت صحب إسكندر بك قاصد ابن عثمان بعسكر الإصباهية للعودة بهم إلى إسطنبول بأمر سليم بن بايزيد نفسه فاستراح ملك الأمراء والناس قاطبة منهم».

تأمل عود الغاب القصير وأصابعه ترتعش، كسره نصفين ورماه جوار قنينة المداد، دخل عليه أنس فوجده على هذه الحال من الحنق فاستغرب انقلاب الكتاب وكسر القلم، فتح آخر الأوراق وقرأ في سرعة وصبور واجم صامت، أعاد أنس الكتاب إلى كيسه الجلدي وركنه على الرف وقعد قبالة جده ينتظر أن يفصح له عما يحنقه فلم يطل عليه صبور:

– زهقت من كتابة أخبار ملك الأمراء المخادع، فعله غير قوله.

– صحيح يا جدي.

– حين ينقص النيل يأمر بالدعاء وإبطال الفواحش وحين يطمئن قليلًا يعود إلى سيرته الأولى، من أيام رحل إلى بنها العسل وسمعنا أنه كان لا يصحو طوال هذه السرحة ليلًا أو نهارًا من السكر وأشيع أنه أخذ معه أربعين بغلًا محملًا بنبيذ أقريطشي129 له ولمن صحبه من إنكشارية وعاد من جهة قنطرة الحاجب ودخل باب الشعرية ثم طلع سوق مرجوش وشق القاهرة إلى القلعة وعليه قفطان جوخ أحمر وحوله خيول الجنائب وعسكر الإنكشارية وقدامه العبيد يمسكون ما اصطاده من الكراكي والإوز العراقي.

– ويترك عرب السوالم وغيرهم يفسدون في الأرض ثم يحاربهم عسكر الإنكشارية ويستولون على بيوتهم وأغنامهم حتى نسائهم وعيالهم، والإنكشارية أنفسهم لا يهمهم ملك الأمراء أو والي القلعة من أيام هجموا على سوق النحاسين ونهبوا ما فيه من نحاس لأجل أن يسكبوه مكاحل للبندق الرصاص، ما هذه الحياة التي لا يُبالى فيها بأي شيء، إردب القمح بثلاثة أشرفيات والفول ستمائة درهم ولحم الضأن بثمانية عشر درهما غير الأجبان وغلت الأقمشة وسائر البضائع غير الغش في العملة فصار الأشرفي البرسبيهي130 يصرف بثلاثة أشرفيات فضة والفضة نفسها جميعها في غاية الغش فكيف يعيش الناس؟

– هون عليك يا جدي، والله لا يشكو أحدنا من قلة وما في قبو قصر ططر كله تحت تصرفك.

– لا أقصد ذلك يا أنس لكن حقيقة ضاق صدري وغرضي في حاجة لكن بعد ولادة أمينة.

– خيرًا يا جدي؟

– أرجع أسيوط يا أنس، إلى بيتي ودكاني وجدك يوسف النحاس، غرضي أندفن هناك في قبور أجدادي.

– أطال الله عمرك يا جدي.

– دعوة لا تدفع قدرًا ولا ترد القضاء، أطمئن على أمينة وبعدها أتدبر أمر العودة.

لزم أنس الصمت وشعر بما يقاسيه جده من ألم القهر اليومي الذي يعيشه كبقية أهل القاهرة والفسطاط فقد أهمل خاير ابن ملباي كل شيء وجعل شغله الشاغل إرسال ما يقدر على جمعه من عرق الفلاحين لابن عثمان، لا يدري سبب اقتناعه بما يجيش في نفس جده من حنين إلى العودة إلى جذوره فقرر في دواخل نفسه أمرًا لكن بعد ولادة أمينة الوشيكة.

***

-٦-

أمام جامع عمرو تصدّق صبور بكل ما بحوزته من أنصاف فضة ودراهم وحين مدّ أحد الشحاذين يده أعطاه عن طيب خاطر الشال الملفوف على رأسه حمدًا لله على ولادة أمينة المتعسرة لبنتين، لم يتوقع سعادة أنس المفرطة فحين استقبلت يدا أم حسنات أولاهما وبشرته خالته صافية بها انبسطت أسارير وجهه، دقائق وبزقت الأخرى فاختلطت فرحته بالدهشة للقدر الذي أهداه بنتين في مرة واحدة، اطمأنوا جميعًا على صحة أمينة وثوري من حين لآخر يحبو نحو أختيه يريد أن يلعب بهما وحين تحمله مسكة يطلق صرخات الاعتراض، يأخذه عشري خارج البيت ويتركه يلهو بدميته على مصطبة المقدس بسيط، لم يتردد أنس في تسميتهما: عفيفة وبركة، وأعلن أن الثالثة ستكون عنود، ليلة السبوع كعادتها أم حسنات وضعت البنتين في غربال وهزتهما وأمينة تخطو سبع مرات.

كلف أنس كريم بن معتوق بذبائح العقيقة فأتاه من عند الغنام بثلاثة جديان ذُبحت في نفس اليوم وأقيمت الوليمة ووزعت اللحوم على الفقراء وحجاج لا يصدق أن عائلته كبرت دفعة واحدة وستكثر حين يكبر عشري وعبده ويتزوجان ويرزقان بالذرية الصالحة التي طالما كان يدعو بها أبوه زيتون.

لم تبخل مسكة بجهد في العناية ببنت أخيها وبنتيها أما ثوري فازداد إجرامه بتعلمه الوقوف مستندًا على الجدار أو الأشياء القائمة ويجاهد كي يمسك بما تطوله أصابعه ويضعه في فمه ويرطن بكلمات عبثية تضحك المحيطين به.

انتظر أنس حلول أول الشهر؛ ففي احتجاب القمر يكون التخفي مضمونًا، رافقه نصير إلى القبو وجرت عادتهم بيسر فحوى الخُرج الكبير الكثير من التحف والدنانير الذهبية والأشرفيات القايتباهية والغورية131 فلم يبق بالقبو إلا القليل، أمام قبر أخته بركة تريث وقرأ الفاتحة والصمدية، وطوال هذه الدقائق أحكمَ نصير ربط فتحتي الخُرج بحبل ليفي رفيع؛ احترازًا من انتثار المال، مطمئنين خرجا من القبو وسارا في الممر وعند أول درجات السلم الحجري أطفأ أنس الشمعة وصعد في سرعة دون حذر ونصير خلفه، بزغ وجهه فسمع همهمات وصوت سيدة تستغيث في خفوت مختلطة بحمحمة حصان، انشقاق جلباب دفع أنس لرفع رأسه، على بُعد قصبتين اخترقت نظراته العتمة فميّز رجلًا يلقي بنفسه على امرأة أسفل سور القصر، في لمح البصر اندفع نحوهما وبلا روية خلع الرجل وعرفه من ملبسه أنه واحد من أراذل الإنكشارية، من فوره نهضت الفتاة ولملمت ثوبها، التصقت بجدار السور وتواجه أنس بالجندي الذي زر عينيه في حدة وتارة أخرى هاجمه أنس لكن الجندي القوي استل خنجره وتلقى مهاجمه بطعنة هوجاء أصابت أعلى كتفه فوقع أنس على

الأرض، في سرعة خطا الجندي نحو فرسه المربوط على قيد خطوات وسحب البندقية، وجه ماسورتها الطويلة نحو وجه أنس وهو يحاول النهوض، الفتاة تبكي والإنكشاري إصبعه على الزناد وأنس يحدّق في وجهه بتحدٍ فجأة صهل الفرس حين انكفأ سيده على الأرض وضربة عصا نصير الأخرى على رأس الإنكشاري فجرت الدماء من أسفل عمامته فهمدت ارتعاشاته.

أنهض نصير سيده وفحص طعنته، لف كتفه بالشال ووقفا قبالة المرأة فاقتربت منهما ولسانها يتلعثم بكلمات عبثية بين الشكر والاستغفار وانحنت تقبل يد أنس فأقامها وحدّق في وجهها المائل للسمرة في حين تقهقر نصير خطوات إلى أن اختفى، بعينيها المذعورتين رمقته السيدة الثلاثينية وخدها المرتعش تغرقه الدموع.

– احتجت لحفنتي دقيق أخبزه لأتعشّى مع بنتي اليتيمة فأجبرني الجندي على مرافقته إلى هنا و...

– الحمد لله يا أختي ولكن ما كان يلزمك الخروج بالليل.

– قرصني الجوع وما في البيت كسرة خبز.

بيده السليمة انتزع كيسًا وقدمه للسيدة وهز رأسه مرات فمدّت يدها وبأصابعها المرتبكة أخذته، يد نصير على كتفه دفعته لوجوب مغادرة المطرح، فرد أنس كفه للسيدة فخطت في بطء، التفت إلى الجندي المكوم واستجاب لدفع نصير فسار أمامه وعند مفترق الطرق ابتلعت السيدة ريقها ورفعت كفها تحيي منقذيها وتسارعت خطواتها مبتعدة، تجنب نصير السير في وسط الشارع الكبير المؤدي إلى جامع عمرو، خلف شجرة غليظة اختفيا لحين مرور ثلاثة خيول للجند العثماني ويرفع كل منهم شعلة، في حذر تسارعت خطواتهما حتى دلفا الدرب، أمام البيت أراد نصير أن يحرر كتفه من ثقل الخُرج لكن أنس أشار عليه أن يحمله إلى بيت جمعة وهمس له أن يأتيه به في الصباح وطمأنه بأنه سيعتني بجرحه، أغلق أنس الباب وصعد السلم، أمينة نائمة جوار بنتيها فأيقن بوجود ثوري مع جدته صافية حتى لا يزاحم أختيه في النوم.

بخرقة نظيفة مبللة بالماء مسح جرحه ونظفه جيدًا وهو يكز أسنانه من فرط الألم، على ضوء المسرجة الخافت غطّس خرقة صغيرة في قدر عسل النحل وفردها بالكامل على لحمه المشقوق ولف عليه الضماد، تمدد على السرير وأغمض عينيه وفي الصباح يتدبر الأعشاب المتوفرة بالدكان لشفاء جرحه، ما كادت رموشه تتشابك حتى فتح عينيه وهمّ أن يغادر البيت إلى نصير ليسأله عن باب القبو ويعاتبه لتركه الجندي دون أن يقضي عليه أو يقيده وربما أفاق وتبعهما ليعرف مكانهما وفي الصباح يقود رفاقه فيحرقون بيوت الدرب بعد أن يوقعوا على أهله أشد أنواع التنكيل وتخيل نصير وهو ملقى على الأرض والإنكشاري يرفع سيفه البتار ويوسطه، أشاح برأسه وأقنع نفسه أن الجندي وإن نجا من الموت واستفاق فلن يدرك من ضربه؛ لأنه لم يره ولا يعرف تلك المرأة التي اختطفها من الشارع وأراد برعونته أن يفسق بها، خمشه قلق على باب دهليز قبو قصر الأمير ططر لكنه لم يبال إن عرف أحد بمكانه فلم يعد به شيء يستحق الخوف عليه.

***

نوم متقطع قاساه بقية الليل، يغفو فتأتيه ثلة من الإنكشارية تقوده نحو باب زويلة، يصحو وحلمه القصير يقض مضجعه، يشرب الماء وينام على جنبه الأيمن غير المصاب فيرى السيدة تقود العثمانية نحو الدرب وتشير إلى نصير بأنه هو قاتل رجلهم فيطرحونه أرضًا ويدفعون الخازوق به ويرفعونه لأعلى فتبك الدماء من زلعومه.

يحدّق في العتمة ومن بعيد يسمع صياح الديكة، كره محاولة النوم لكن جسمه المنهك استجاب للنعاس، فلم يحسب مدة غطيطه حتى صك أذنيه صوت كفين يضربان فانفرج جفناه رويدًا، أمارات القلق بادية على وجه جده وهو جالس على كرسي أمام رأسه ونصير واقف خلفه بخطوة والخُرج جواره، في تثاقل نهض وتارة أخرى يتأفف صبور ويضرب كفًا بكف وعينه اللائمة ترمق أنس بالعتاب على مغامرة الليل التي كاد يضيع فيها، لم يجد كلمات تعبر عما يجيش بصدره من غضب وخوف ورجاء، نهض من فوره وأمسك بمصحف، ركنه أمام أنس وقال له:

– احلف أنك لا تذهب إلى القبو مرة أخرى.

– لكن يا جدي!

– يا ولدي، لا تورد نفسك التهلكة ولولا ربنا سبّب لك نصير لتيتم عيالك ولا حول ولا قوة إلا بالله.

– اقبل اعتذاري يا جدي.

– احلف.

– أقسم بكتاب الله ألا أفتح باب القبو مرة أخرى.

برفق كشف صبور الجرح وارتفع حاجبه لعمقه، غاب قليلًا فأشار نصير إلى الخرج، فهم أنس أن خادمه المخلص لم يخبئ ما مرا به لجده، التفت إليه وباغته بالسؤال:

– وباب الممر؟

– أغلقته وأخفيته وأنت تكلم السيدة.

– والسيدة؟

– لا أعرفها.

أقبل صبور وبين يديه طبق فخاري، نصير يهش الذباب الحائم حول بقايا العسل، بخرقة مبلولة بالماء ينظف الجرح فيهز صبور رأسه وهو يدهنه بعجينة الثوم الطرية؛ حتى لا يتقيح، يعيد لف الضماد ويربطه فتدخل أمينة وبين يديها البنتان وعيناهما مكحلتان بقوة، صبح عليهما أنس وقبلهما وأمينة ترمقه بنظرات فزعة حين رأت الأضمدة حول كتفه، باختصار قصّ لها ما دار بالليل فعضت شفتها ولم تنطق في حضور جدها ونصير وأرجأت عتابها لأنس حين تختلي به وانهمكت في إعداد الإفطار.

***

الأيام التالية أشيع خبر قتيل الإنكشارية خلف أحد قصور الأزبكية وتوالت أخبار قتل العثمانية ففي سوق مرجوش أراد أحدهم أن يستولي على بضاعة أحد التجار المصريين فمنعه التاجر ورد صفعة الإنكشاري بطعنه بسكين وتعارك مع آخر وأرداه قتيلًا لكن أسنة رماح كثرتهم ناوشته ورقد التاجر الشجاع بعد أن أصابه رصاص بندقية قائد العثمانية فأغلق التجار حوانيتهم ولم يفتحوها قبل أن ينادي الزيني بركات بن موسى ناظر الحسبة الشريفة بالأمان ووعد بألا يشوش أحد من الإنكشارية أو الإصباهية أو الوجاقلية على أحد من التجار.

في الشهور التاليات برّ أنس بقسمه لجده فلم يغامر بنفسه واكتفى بما أحضر من مال يكفي حاجتهم لسنين طويلة، في عصر يوم وهو بالدكان مال على أذن نصير وهمس بعد أن تأكد عدم وجود جده:

– رأيك يا نصير، نقوم بزيارة للقبو.

– لكنك أقسمت لجدك.

– نعم أقسمت ألا أفتح باب القبو لا الذهاب إلى هناك، يمكننا أن نذهب وتفتحه أنت.

– آه يا أبا ثوري، هذه لفتة لؤم ططرية لا أعرف كيف ورثتها من الأمير؟!

مال أنس بظهره وعلت قهقهته لوصف نصير الذي استغربه، فبادله الضحك وانحنى عليه فقبل رأسه، تحاضنا ونصير يربت على كتفه ويعتذر إن كان قد تجاوز معه في الحديث.

– لا تعتذر يا نصير، والله لأنت أحب الرجال إليّ بعد جدي ولولاك لكنت ميتًا.

– تعرف يا أميري أنه لن يكون لي أبناء، فأنت ابني الذي كبر على عيني بعد أن وعدت جدك صبور وأنت في اللفة أن أرعاك.

– وتحملت أنت وجدي مني كل جحود.

– وحين عدت لأصلك الرشيد بررت بنا وربنا وحده يعلم كم أحبك وأحب الحياة معكم هنا في الدرب حتى بئر جمعة أحببتها ولا أريد مفارقة البيت.

ربت أنس على كتف خادمه، فرفع نصير إصبعه محذرًا من التهور في الذهاب إلى القبو ما دامت لا توجد ضرورة لذلك، تركه أنس ودخل البيت، في وسط المجاز يسجد جده على ركبتيه ويديه وثوري يركب ظهره خلفه الفتاتان عفيفة وبركة تسند صافية ظهريهما لئلا تقعا، وجده يحبو في رفق وضحكات العيال الفضية ترن وحجاج يبتسم ويطلب من صافية ألا تتمادى حتى لا يُرهق أبوها وصبور لا يزال يحبو في بطء، أشار أنس إلى عشري فرفع عفيفة ومسكة حملت بركة أما ثوري فرفض النزول إلى أن حملته أمه رغمًا عنه وهو يتململ بين يديها، استند صبور على حافة السلم ونهض وهو يتأوه من ألم ظهره، يرتمي عليه ثوري فيقبل خده الممتلئ، يتركه يقف بين ساقيه المنفرجتين ويلتفت إلى أنس.

– يلزمنا الكثير من الأشياء.

– وأنا جاهز.

خرجا من البيت معهما عبده وثوري يبكي لفراق جده الحبيب إلى نفسه، ويشير إليه بيده أن يأتي، يرافقهم نصير وحين ساروا في الأسواق راعهم لف العثمانية السواد على رءوسهم والتجار يتلاغطون بالخبر، واحد من الإنكشارية يمسك لجام فرسه وينتحب: غازي ياوز سلطان سليم خان مات، فترجم عبده مقولته في سرعة:

– مات السلطان الغازي القاطع سليم.

أمام جامع عمرو بن العاص قابلهم الشيخ قمر لاهثًا وأكد الخبر بعد أن قابلهم ملك الأمراء خاير بك وهو حزين ويرتدي عمامة سوداء وأمرهم بإقامة صلاة الغائب في المساجد كافة والدعاء بالرحمة للسلطان سليم فسأله صبور:

– منذ متى يا شيخ قمر؟

– جاء القاصد من البحر المالح وجهر بالخبر بأن الخنكار مات أوائل شوال وتولى الأمر ابنه سليمان.

– لكن مر رمضان والعيد وها نحن في ذي القعدة ولم يخبر أحد بأنه معتل!

– والله مصيره الجحيم بما...

– اسكت يا ولد، أفضى الرجل إلى ربه ولا تجوز عليه غير الرحمة.

قالها الشيخ قمر وهو يشير لعبده ألا يكرر ما قال، يتلفت يمينًا ويسارًا وأسرع إلى باحة الجامع الفسيحة، في سرعة اشترى صبور ما طالته يده قبل أن يغلق التجار حوانيتهم خشية هجمات الزعر واندلاع النهب مستغلين فرصة انشغال العثمانية بخبر موت سيدهم، أول الطريق خفق قلب أنس لرؤية ابن زنبل فاستوقف جده مشيرًا، مال به صبور نحو شجرة وارفة ليستجيروا بظلها الرطيب، في سرعة سأله صبور عن حقيقة الخبر فرد ابن زنبل:

– غاب سليم بن عثمان أيامًا للصيد وعاد وبه وعكة، لزم الفراش وأصابته فرخة جمر132 فتألم لها لأيام واشتد عليه المرض حتى مات في الخميس التاسع من شوال133 الماضي ودفن الأحد بعد حضور ابنه سليمان وسمعنا أن الخنكار كان طوال الوقت يشرف على بناء سفن ليغزو بها رودس لكن القدر لم يمهله و...

قاطعه تجول أربعة مشاعلية: اثنان يرطنان بالتركي ويصمتان ويكرر الآخران بالعربي: ترحموا على الملك المظفر سليم شاه، ادعوا بالنصر للملك المظفر سليمان شاه.

سكتوا لحين ابتعادهم وهم يرددون مقولتهم، استأذنهم الشيخ أحمد بن زنبل وانصرف لحاله فمر على وقفتهم اثنان من الجراكسة وهما يتلفتان ويتضاحكان:

– هلك من أهلك أمراءنا.

– لتعود أيام سعدنا.

لم ينتظر صبور أكثر من ذلك فعادوا إلى الدرب وطلب أنس من معتوق السقاء وأولاد ابنه كريم ألا يخرج أحد من البيت حتى تتكشف الأمور.

***

-٧-

في خان الخليلي دارت عينا صبور للزينات الملعقة بالطرقات والأزقة وأعلى الحوانيت وأمام البيوت فرحًا بالسلطان سليمان بن سليم، طبول وزمور تعلو فأفسح الناس الطريق حين مرّ الأمير علي الكيخية والي القاهرة حوله الإنكشارية ومن حين لآخر ينادي بالأمان والاطمئنان والبيع والشراء ولا أحد يشوش على الرعية وما إن يشير إلى أحد الدكاكين حتى يبادر صاحبه بتعليق التزاويق والفوانيس وجميع أنواع الزينة أمامه، وهو عائد جواره عبده يحمل زنبيلا به بعض الأشياء سمع أن ملك الأمراء رسم بأن طائفة الإنكشارية يسكنون طباق القلعة ولا ينزلون والإصباهية يسكنون حول القلعة ولا ينزلون المدينة فاستبشر الناس خيرًا بوقف تعسفهم وغلظتهم ونهبهم الذي لا يتوقف.

جلس على مصطبة بسيط وخلع نعليه، أراح ظهره إلى الوراء فأتى له جاره بقدح اللبن، شرب وهو ينتظر ما يسمع من أنباء سلطان العثمانية الجديد لكن بسيط فجّر خبرًا لم يكن يتوقعه:

– وأنا في درب الدباغين سمعت أن قاصدًا من عند نائب الشام جان بردي الغزالي يدعى خشقدم اليحياوي نزل ببيت الأمير جانم الحمزاوي وبعدها قابل ملك الأمراء وأخبره بأن الغزالي جمع ما لا يحصى من أعوانه وأعلن عصيانه لسلطان العثمانية الجديد فضربت السكة باسمه على الذهب والفضة.

– وخطب باسمه على منابر دمشق.

– أنت أيضًا يا معتوق سمعت بالخبر؟

– وسمعت من أصحابنا السقائين أن خاير بك أمر بتحصين القلعة وسد أبوابها ونصب المكاحل عليها وقبض على خشقدم اليحياوي هذا وقيده بالحديد وأرسله عن طريق البحر إلى السلطان سليمان.

– ملك الأمراء خاف أن يتهم بمشاركة الغزالي فيناله من العقاب مثله.

– ومن أدراك يا بسيط أن الغزالي سيعاقب؟

– اعقلها يا أبا كريم، لن يقبل السلطان الجديد بأي عصيان وهو بعد شاب ودولته في إقبال فلو تهاون الآن ينفك عقد أملاكه.

– أملاكه؟ إنها أملاكنا نحن يا بسيط وأنت أدرى الناس بذلك، اسمعوا يا سادة، أكرر لكم ما يقوله أنس بن مصري: إن كنا من أهل الدنيا أو الآخرة، سيأتي يوم ويحكمنا مصري، لا جركسي ولا عثماني وسيكون لنا جيش من أبنائنا يطرد العثمانية ويدفع عنا أي عدو.

– أنت تحلم يا شيخ صبور.

– وإن كان جدي يحلم فعن قريب يتحقق حلمه.

رفعوا رءوسهم لأعلى فرأوا أنس يفتح خشب المشربية على مصراعيه ويقف وعلى كتفه ابنه ثوري يشير إلى جده صبور فابتسم له وهو يحذر من وقوعه، غاب أنس قليلًا ولم يلبث أن أطلّ من الباب وثوري يمشي جواره، أفسح له معتوق مكانًا ليجلس ويشاركهم الحديث لكن الحوار توقف عند كلمته الأخيرة، ران الصمت عليهم وثوري يهز خنجرًا خشبيًا صنعه له خاله عشري ليلعب به، أقبل عليهم كريم بن معتوق وهو في حالة من الجهد، أجلسه نصير بعد أن أفرغ قربة الماء التي ملأها من بئر

جمعة في الزير المركون بين دكان السروج ودكان حجاج، شرب كريم وعيناه زائغتان فانتظروا أن يفصح عن سبب مشقته.

– واحد من أتباع الجراكسة دلّ على كل سقاء فجمعونا عند النيل وأمرونا طوال النهار بحمل قرب الماء على الجمال ليملأ ملك الأمراء صهاريج القلعة الكبيرة بباب السلسلة.

– وما الغريب في الحكاية؟

– الغريب أن غيرنا من المكارية نقلوا على حميرهم وبغالهم أحمالًا من البقسماط والأرز والقمح والشعير والدقيق.

– خاير بك خائف من الإنكشارية.

– لا وأنت الصادق خائف من نائب دمشق نفسه فقد جاءه واحد من أعوانه يخبره أن جان بردي الغزالي خرج من دمشق يقصد ديارنا ومعه طائفة من الأكراد وعربان جبل نابلس وعربان بني عطية وغيرهم لكن الخبر الأكيد أنه توجه إلى حلب وأعلن سلطانه وتلقب بالملك الأشرف.

لم يطق أي من الجالسين المشاركة بكلمة واحدة بعد خبر الغزالي وتعاركت أمنياتهم بين مؤيد ومعارض، أما أنس فقد تمنّى حقيقة أن يحذو خاير بك حذو الغزالي ويتجمع حوله الجراكسة وفي هذا الوقت يخرج معه أولاد الناس بكامل سلاحهم وعدتهم ويستعيدون أملاكهم، تخيل نفسه يبيد الإنكشارية ويطردهم من قصر الأمير ططر ويرشق رءوسهم البغيضة على الأسوار وسليم بن عثمان يتدلّى من حبل المشنقة على باب زويلة لكن الخنكار مات وتولى ابنه الشاب القوي الساعي إلى عدم فقدان شبر مما اكتسبه أبوه.

كريم بن معتوق أول المغادرين جلستهم فتأبط أبوه ذراعه وابتعدا، رافق نصير صبور إلى بيت جمعة بينما قبض أنس على معصم ثوري فقلده جده حجاج ودخل به البيت.

***

في الأسواق والشوارع الكبيرة والدروب والأزقة خشي الناس على أنفسهم وعيالهم من تسخيرهم في الخروج في تجريدة لقتال الغزالي بالبلاد الحلبية وتذوكرت نكبة الغوري في أذهان من شارك في وقعة مرج دابق فإذا بمعتوق السقاء سد فتحة الدرب بالأحجار فسقط من فرط الإعياء، يزوره صبور وأنس ونصير ويتحلقون حول مخدعه المستريح عليه فيعاتبه صبور:

– لا سنك ولا جهدك يتحمل ما قمت به يا معتوق!

– خفت من الإنكشارية يسوقوننا إلى القلعة ويأمر ملك الأمراء بحجزنا في الترسيم وتسفيرنا إلى الشام.

– اطمئن يا عم معتوق، من أيام وصل مرسوم من سليمان بن عثمان ألا يخرج خاير بك في تجريدة لقتال الغزالي واليوم جاءتنا الأخبار من هناك أن وقعة مهولة جرت بين جند الغزالي وجيش السلطان وانكسر الغزالي في حلب وفر إلى حماة ومنها إلى دمشق وهزم شر هزيمة هناك وتفرق عنه جنده ومن والاه و.. و..

– وماذا؟

– حُزّ رأسه وأرسل إلى إسطنبول.

– الحمد لله.

غمغم بها معتوق فحسب أنس أن جارهم العجوز يحمد ربه أنه لا يزال بالبيت وسط عياله وبين جيرانه بالدرب، تلاقت نظراته بصبور فربّت على كتف صاحبه السقاء ذي الهمة العالية وكأن لسان حاله يؤكد حُسن صنيعه بالسلطان الغوري حين مات بمرج دابق فألقي رأسه في جُب فقام هو بستر جسده في قبر فلم ينل منه سليم بن عثمان ولو ظفر به ميتًا لأوقع عليه أشد أنواع التجريس والتنكيل تشفيًا فيه، أصوات عالية خارج البيت فوقف صبور أمام الباب فإذا بزغاريد النساء من الطيقان وأصحاب الحوانيت يعيدون تعليق الزينة، أشار صبور إلى عبده وعشري أن يسرعا في المشي فهرولا ودخلا بيت معتوق، رفع عبده غطاء الزير الخشبي فغاصت ذراعه ببطنه وكحت القعر بالقعب الفخاري، شرب القليل من الماء ورفع صوته متهكمًا:

– في بيت كبير السقائين بالفسطاط وزيره خال من الماء!

– آتيك أنا بالماء.

سحب نصير القربة المعلقة على الجدار وغادر إلى بئر جمعة فصحبه عشري ليستريح في البيت بعد عناء نهار بأكمله في درس الزهر، التقط عبده أنفاسه وأيقن أنهم ينتظرون أن يفصح لهم عن الخبر فاصطنع التجهم وهو يخبرهم:

– قاصد من عند ابن عثمان أتى بخلعة لملك الأمراء ليستمر في الحكم ومعه الدينار السليماني الجديد و.. وشيء آخر..

– ما الأمر يا عبده، قلْ!

– رسم ملك الأمراء بقطع رأس جراكسة من مماليك الغوري، سافروا إلى الشام ودخلوا في طاعة الغزالي فلما انهزم عادوا إلى مصر فقبض عليهم الوالي وأرسلهم إلى القلعة فوبخهم خاير بك وأمر بقطع رءوسهم وتوسيط كل من على شاكلتهم.

– تعرفهم يا ولد؟

– واحد اسمه ماماي الساقي وآخر اسمه قاني بك الأشقر وغيرهما، قطعت رءوسهم تحت شباك الدهيشة وهي الآن معلقة على باب زويلة.

أشار أنس بيده لصوت منادٍ من المشاعلية بالتركي ثم مناد آخر يكرر بالعربي: من كان عنده مملوك عائد من عند الغزالي وأخفاه ولم يقر به يشنق على باب داره من غير معاودة.

ظلت المناداة تتردد حتى اختفت رويدًا، خطوات نصير الثقيلة تدب، دخل فأفرغ القربة بالزير، شربوا الماء البارد ونهض صبور من فوره ليعود إلى البيت، رافقه نصير وحين أغلق باب بيت جمعة، أطلّ في عين البئر وابتسم لفيض الماء بجوفها، الحصير مفرود جوارها فخلع نعليه وتمدد متوسدًا حشية طويلة، عيناه تراقبان اهتزازات جريد النخلة العالية، لا يدري لمَ يراها تقصر وتقصر ثم تغدو نبتة كما رآها أول مرة والبئر نفسها لم تعد موجودة، لا يدري سبب سيره إلى الخلف ويمد يده فيسلم على زيتون العلوي، ويعود مع الريس حميد إلى سفينته فيودع أم سعد وأبا سعد وها هي العجوز جنة تسلم عليه وتتركه فيقوده يوسف النحاس إلى قبر ابن أخيه مصري فيرفع يديه ويقرأ الفاتحة وحين يلتفت يجد عفيفة وعلى كتفها الصغير أنس، لا ليس أنس إنما ثوري بجسمه الممتلئ وحركة يديه السريعتين، صافية تقف وبين يديها عفيفة الصغيرة وبركة، لا يدري كيف تجمع كل هؤلاء، الأحياء والأموات، الكبار ومن في اللفة، لا يهم بقاؤه وسطهم إنما نفسه مبسوطة بوجوده معهم، رويدًا يتوارى كل من يعرفهم ويبقى وحيدًا أمام قبر مصري خلفه يوسف النحاس يهمس في خفوت: عُد يا صبور، أحتاجُك يا صديقي.

على صوت صفير البلبل تنفرج رموشه رويدًا، يراه يهتز مع تمايل جريدة النخلة العالية، يرفع رقبته المنقطة ويفرد جناحيه الزيتونيين ويغرد، ينهض وظهره يسنده جدار البئر، يفرك عينيه ويرفع القلة ليشرب، تعود إليه وجوه من زاره في الحلم فيدور خياله بينها إلى أن يقف قبالته يوسف النحاس، تتردد كلمته الأخيرة فتجد رغبة ملحاحة في نفسه على العودة لأسيوط، طرقٌ على الباب فأسرع نصير بفتحه، يدلف أنس بين يديه العشاء، يركن طاولة الأطباق ويأتي نصير بالبصل، يتناولونه في صمت إلى أن جاء عبده بأكواب النعناع.

– مرحبًا بكم في بيت أبي جمعة وحول بئره التي لا تجف.

– قدّم المشيئة يا عبده.

– إن شاء الله لا تنضب مياهها.

أكلوا صامتين فاستأنس صبور بعدم سماع أخبار عن خاير بك ملك الأمراء وبقايا الجراكسة ورهج الإنكشارية وفساد الإصباهية والكملية وكل من ينتسب لعسكر العثمانية الذين ابتلاهم بهم ابن عثمان وصاروا لا يبالون بأهل البلد وضاقت صدور الناس بوجودهم، تصفيق خارج الباب فغاب نصير وعاد خلفه الشيخ قمر، ألقى عليهم السلام وجلس وسطهم فأعطاه نصير كوبه فركنه في حزن.

– يؤسفني ما حدث للشيخ عبد المجيد الطريني.

– أعرف الطريني، من أكرم خلق الله.

– نعم يا بني، كان يطحن أرادب القمح والشعير ويوزع على الفقراء وعابري السبيل وذوي الحاجة ويغلي الدست[134] فلا تنطفئ نيرانه حتى تراكمت عليه الديون فشكاه التجار الأروام والمصريون على السواء لملك الأمراء فحكم عليه بتقسيط دينه لكنه لم يوف بذلك فأمر بإحضاره وضربه وتعصير كعوب رجليه وترسيمه في سجن الديلم ثم أمر بتوسيطه لكن الوالي حجزه عنده في المحبس لأنه يعرف بره وجوده.

– ستسدد ديون الشيخ عبد المجيد يا شيخ قمر.

في حدة التفت صبور إلى أنس وخشي اقترابه من هؤلاء الدائنين فيعرفون ما يملك من ثروة ويخبرون ملك الأمراء بأمره فلا يتورع عن تعذيبه في العرقانة[135] أو غياهب المحابس، نظراته الراجية تستدر عطفه ألا يتهوّر في عمل يشق صدره

عليه ولم يعد به خفة ونشاط يدفعانه لحمايته، أدرك أنس مدى عجز جده فأكد تصميمه على إنقاذ الشيخ البار لكن دون مشاركة الشيخ قمر لئلا يثير المال في نفسه الكثير من التساؤل عن مصدره فاستدرك أنس كلامه:

– أقصد إن شاء الله يسدد دينه من أموال الصدقات والزكاة.

– مال الصدقات، ممن يا حفيد السراج الغلبان؟ على رأي المثل: يا مزكّي! حالك يبكّي.

نهض أنس وغمز لنصير فتبعه نحو باب البيت، أدرك الخادم أن سيده سيكلفه بتلك المهمة فاستمع لما سيأمره به:

– تلف على أصحاب الديون فتأخذ منهم الصكوك وتدفع قيمتها وإن سألك أحد قل له أنك من أهل الشيخ الطريني، ولا تدفع الديون جملة واحدة بل على أيام وابدأ بأكثرهم استعجالًا.

– بارك الله لك وفيك، ودفع عنك الأذى ولا أوقعك في هم المغارم.

لئلا يثير فضول الشيخ قمر وقلق جده عاد إلى جلسته على كلام الشيخ قمر الذي لا يتوقف.

– المهم يا شيخ صبور، رجل من معارفك القدامى يهديك السلام.

– من؟

– ريس سفينة اسمه حميد.

وكأن حية لدغته انتفض صبور لسماعه الاسم وقبض على كتفي الشيخ قمر وهزّه في عنف.

– رأيته، ولماذا لم يأت معك إلى هنا، هو يعرف مكاني و...

– وحّد الله يا صبور، كنت بجوار المرسى والسفينة على وشك الرحيل، ألقى عليّ السلام وحين عرف أني أسكن جوار جامع عمرو سألني عنك فقلت أني أعرفك فأوصاني ورجاله يفردون الشراع أن أسلم عليك ورحلت سفينته إلى الصعيد.

– ليته رحل إلى دمياط فبقيت على الشط أنتظر عودته.

– تحبه لهذا الحد يا جدي؟

– يومًا ما تقابله يا أنس، تتعرف على إنسان شهم وقف جواري في أحلك الظروف و.. لكن كيف حاله يا شيخ قمر؟

– بخير، يقترب منك في السن.

– أكبر مني فقد تخطى السبعين.

– على كلٍ أوصلت أمانة سلامه وأستأذنكم.

رافق أنس الشيخ قمر فأراح صبور رأسه على جدار البئر، أمامه قفز وجه الريس حميد بقسماته الصخرية وهمته العالية وود لو رآه هذه المرة وتواعد معه على عوته لأسيوط.

***

-٨-

بين ساقيه يقف ثوري يمتص قطعة حلوى من الشعير المخلوط بالعسل، على فخذيه تجلس كل من عفيفة وبركة ويحوط كتف الفتاتين بذراعيه ومن حين لآخر يقبل خد بركة ويتلوه بعفيفة ثم يبدأ بعفيفة ولا يحرم ثوري وينتهي ببركة وهكذا طوال جلوسه وسط فناء الدار ومن حين لآخر يترحم على المرحومة ساقية والشيخ زيتون وجمعة وحيدرة بن حجاج وكل من مرت وجوههم عليه ولم

يرهم مرة أخرى، جمحت رغبته في الانزواء بنفسه بعيدًا عن صخب الصغار، أشار إلى أمينة فحملت عفيفة وأسرعت مسكة برفع بركة لكن عفيفة اهتزت راغبة في النزول وقلدتها بركة فجريتا نحو عبده الجالس جوار الجدار وبيده ربابة صغيرة يجرها فتصدر نغمة سريعة دفعت ثوري أن يرقص، ضحك حجاج لمرح أحفاده فطفق يقبلهم، ابتسم لهم صبور وتوكأ على عكازه وخطا في بطء نحو الخارج، الأبواب مغلقة فاستراح على الدكة، صوت أقدام آتية من جوف البيت فالتفت، صافية تركن قعب الحليب، ربت على كفها فأمالت رأسها نحوه، قبّل جبينها فأرادت أن تقعد جواره، صوت حجاج بالداخل يدفعها أن تسرع بالعودة.

قرر ألا يجهد نفسه في التفكير، شعر برغبة في السعال فدس يده في جيب الصدار ليخرج المنديل، دينار سليماني وقع بحجره، أمسك به ورفعه أمام عينيه، تعجب من تصرف خنكار العثمانية الجديد سليمان بن سليم رغم تمتعه بفورة الشباب المتسمة بالاندفاع لكنه يختلف عن أبيه سفاك الدماء ويداوي ما يعوقه بالحكمة، يريد أن يستقر له الأمر بلا مزيد من البطش إلا بمن يرفع رأسه بالعصيان كالأمير جان بردي الغزالي، عادت حوادث الشهور الماضية يتردد صداها في ذاكرته عندما أشيع أن الخنكار سليمان أرسل سبعة قفاطين حرير إلى مشايخ العربان بالصعيد والغربية والشرقية والبحيرة وأرسل قفطانا للأمير علي بن عمر شيخ عربان الصعيد وشيخ العرب واصل بن الأحدب أمير هوارة وغيرهما يطلق يدهم على ما لديهم مع الخضوع لأمر أمير الأمراء خاير بك الذي أطلق يده في كل ربوع مصر يفعل ما يريد فتفانى ملك الأمراء في إرضاء سيده مهما كلفه هذا من ظلم للناس فاطمأن خاير بك لسطوته وانصرف إلى التنزه في شبرمنت136 يتصيّد

الكراكي والغزلان وظل على حاله لا يتورع في البطش بأي إنسان.

أفاق على صوت نصير يربط إحدى جرار العسل بحبل يتدلّى من عرق خشبي بين جدارين، انفلت الحبل فهوت الجرة على الأرض، انبسطت قسمات وجه صبور لعدم انكسارها فأعاد نصير ربطها بإحكام، تأمل صبور الجرة وتذكر خبر سقوط القبة العظيمة التي كانت على الإيوان ويروى أنه من إنشاء الناصر محمد بن قلاوون وكانت من خشب فوقها رصاص ومغلفة بقيشاني أخضر ومن أجمل ما تقع عليها العين ويوم سقوطها تفاءل الناس بزوال مُلك خاير بك ملك الأمراء عن قريب.

سأم القعود بلا حركة فنهض متكئا على عكازه، أشار لنصير أن يبقى وخطا نحو دكان حجاج، رآه يقلب بين يديه سنجًا وأرطالًا جديدة من النحاس فسأله مستغربًا الأوزان التي بين يديه:

– والسنج القديمة؟

– بطلت واستبدل التجار بها سنجًا وأرطالًا عثمانية ومن يخالف يشنق في الحال دون معاودة وسمعت أنهم خوزقوا نفرًا من تجار الذهب والفضة المخالفين بالقرب من بركة قرموط بالأزبكية.

كعادته يتحدث حجاج بما يعرف من أخبار ثم يسكت جملة واحدة، التفت صبور لبسيط الخارج من بيته ووجهه تعلوه آيات الضيق، دون أن يسأله صبور أجاب وهو يضرب كفًا بكف:

– يوم أن طلب السلطان عسكره الإنكشارية والإصباهية فرح الناس ولكنه أمر بإحضار قدامى جنده ليستبدل بهم غيرهم فقد وفد إلى القاهرة أمير يدعى خضر باشا ومعه فوق الألف من الإصباهية المجرمين، تصور يا عم صبور، ابن أختي مريم اشترى بيتًا جديدًا وجهزه ليعيش فيه مع عياله فلما نزل العثمانية قربه استولوا عليه وسكنه بعضهم، آه يا شيخ صبور، من الجراكسة للعثمانية يا قلبي لا تحزن.

– الصبر يا مقدس بسيط ولكل ظلم نهاية، وقلتها لك ولكم قبل سابق، لن يعمل لمصلحتنا لا جركسي ولا عثماني إنما حاكم مصري فيكون قلبه على البلد وأهلها الذين هم أهله.

عاد صبور إلى بيت جمعة وتحرر من عباءته وبقي بالجلباب الخفيف، أتاه نصير بقلة الماء، شرب ورفع وجهه إلى السماء، ضيّق عينيه فرأى خسوفًا كاملًا لجرم القمر فصار كالفحمة وأظلم الجو فأقام في ذلك الخسوف نحو خمسين درجة، تمدد على سريره الجريد وقوي أمله في قرب زوال خاير بك ولكنه عاد يسأل نفسه، متى يرحل خاير بك نكن أمام أمرين، إما يثب واحد من الجركسة القدامى على الحكم وإما يرسل خنكار العثمانية واحدًا من أعوانه فندور بين شقي رحى الخلاف وتهرسنا أطماع أراذل المماليك وبطش العثماني الجديد وما يحصله من مال ليرضي سلطانه.

***

تداول الناس خبر وصول قاصد من عند السلطان سليمان يخبر ملك الأمراء بأن الخنكار الأعظم يحاصر الفرنج الروادسة137 وعزّت الأقوات وجاع عسكره فنزول ملك الأمراء إلى شون مصر العتيقة فجمع أكثر من ثلاثين ألف إردب قمح وخمسمائة حمل دقيق ومثلها أرز وحمص وبسلة وأمر بتحميلها بالسفن وأرسلها إلى السلطان والعسكر هناك فحصل للناس غاية الضنك لما يفعله خاير بك لإرضاء الخنكار وشاع بين الناس أنه وسّط اثنين من كبار التجار بسوق الخيل وخوزق واحدًا بالرميلة وشنق صاحب طاحون ببولاق لامتناعهم عن المعاونة في جمع الأقوات فنغز بهم الزعر وأسافل الجراكسة لينالوا الحظوة عند خاير بك.

نهار اليوم التالي تمشّى صبور نحو جامع عمرو فرأى كريم بن معتوق يقبل نحوه وعلى وجهه مسحة من حزن.

– ما الخبر يا ابن معتوق؟

– من ساعة دفنا أصيل القلعية.

– عليها رحمة الله، كانت من أعيان المغنيات ولها إنشاد لطيف وبارعة في غناء الخفائف وخاصة عندما يُعزف أمامها على آلة السنطور138 ورأت في سالف أيامها من أرباب الدولة غاية الحظ والإحسان.

– هذا حالنا يا عم صبور، ينتهي كل جميل ويبقى القبيح و...

قطع كلامه تراكض خيول للجراكسة والإنكشارية معًا، توقفوا أمام أحد بيوت رجل معروف عنه حذقه في تطبيب الناس ويعمل في البيمارستان المنصوري، نزل الجندي الجركسي ونادى وهو يقلد العثمانية ويتزيا بزيهم:

– بأمر ملك الأمراء احضر باش طبيب.

في سرعة امتطى الطبيب صهوة بغلته أمامه صندوق خشبي قديم أيقن صبور أنه عدته وعقاقيره وأعشابه، التفت إلى الشيخ قمر النازل على سلم الجامع،

ألقى عليه السلام وسأله في لهفة:

– يوجد مريض لدى ملك الأمراء خاير بك؟

– بل خاير بك نفسه، سمعت أنه متوعّك ويلزم فراشه ليله وبعض نهاره.

لم يكد الشيخ قمر يتم كلمته حتى نزل أحد الخازندارية139 من على فرسه القوي وتابعه يمسك لجامه، شرع يتصدّق على كل من يقابله من الأطفال حتى شاع خبره والتف حوله الكثير من الصغار فوزع على كل واحد منهم نصف فضة، وما إن رأى أحد الفقهاء ينزل سلم المسجد حتى ذهب إليه وأعطاه خمسة أنصاف فضة كبار ومنح عريفه ثلاثة أنصاف وعاد يوزع على العيال الملتفين حوله وهو يرفع صوته: اقرءوا الفاتحة وادعوا بالشفاء والعافية لملك الأمراء.

دس الشيخ قمر أنصاف الفضة واختلى بابن الظريف المقري وهو ممن كان يوزع أنصاف الفضة وسأله عما يشكو منه خاير بك فتلفت الرجل حواليه وتأكد من ابتعاد الخازندار وأجابه في ارتباك:

– كل يوم يحضرون له طبيبًا وسمعت أن فرخة جمر طلعت له في مشعره وأصابه الفالج وكُتم بوله فاحتار الحكماء في أمره.

– يا ساتر يا رب.

اصطحب صبور كريم بن معتوق إلى الدرب ولا يشغل باله غير خبر مرض ملك الأمراء، يرقب انشغال نصير وأنس في شد جلد أحد السروج، ألقى عليهما السلام ولم يكد يستريح على المصطبة ويأتيه حجاج بقلة الماء حتى اقتحم فتحة الدرب الضيقة اثنان من الإنكشارية يتبعهما واحد من الجراكسة يتشبه بهما في ملبسه، عند اقترابهم من دكان حجاج رطن أحد الإنكشارية بكلمات فهز الجركسي رأسه وأعاد طلبه: بأمر ملك الأمراء خاير بك أحضر أعشابًا تداوي احتباس البول وفرخ الجمر والفالج.

فغر حجاج فاه وهو لا يدري كيف يبتلى إنسان في جسده فيصاب بكل تلك الأمراض مجتمعة، أشار إليه صبور أن يحضر ما يتوفر لديه من أعشاب، غاب حجاج وعاد وبيده كيسان، قدمهما إلى الجندي وهو يشرح:

– الشعير والزنجبيل المطحون وبذر الحلبة والعرعر لعلاج احتباس البول، والكيس الآخر به بذور الرمان وجذر الحلتيت140 وبذر الكتان والكمون لدواء الفالج وقنينة المرهم هذه للتخفيف من ألم فرخ الجمر فيدهن منها موضع احمرار القرح بعد نظافتها والله هو الشافي.

– مسكين خاير بك، تركناه ورجله كبيرة، كبيرة جدًا ولا يقدر على وقوف.

صمت الإنكشاري وأمسك بالكيسين وألقى الجندي الجركسي بكيس الدنانير فالتقطته يد حجاج فاغتاظ عشري الواقف أمام الدكان من طريقة المملوك في إعطاء أبيه ثمن الأعشاب والبذور الشافية فهمّ بالاعتراض لكن نظرة جده الصارمة أسكتته، غادر الجند وبسيط يرمقهم بعين التشفي لقلة حيلتهم أمام المرض، هزّ رأسه وهو يرفع نعلًا قديمًا من الجلد.

– حقهم يسقونه منقوع الصُرَم.

ضحك الواقفون لتندر بسيط الذي أطلقه في شماتة مقصودة، ولترديده كلمة اشتهر بها خاير بك في وصفه لبقايا الجراكسة الذين يكرههم بأنهم أولاد صرمة.

***

مع أمها وعمتها مسكة أنهت أمينة طبيخ يوم الخميس ومن حولها الصغيرتان بركة وعفيفة، وثوري تصاحب مع عبده يردد ما يقول على خلاف عشري الذي يحاول جاهدًا تحفيظ ابن أخته الفاتحة وقصار السور، ألقى صبور السلام فجرت نحوه الفتاتان وعفيفة تردد: الملح، الملح.. فمال عليها وقبلها هي وأختها، في بطء نخّ على ركبتيه فتشابكت يدا البنتين وركبتا على ظهر جدهما، يهتز بحمله الثقيل في تحركه وبركة تضحك أما عفيفة فتردد: امش يا جمل الملح. والجمل العجوز يعافر حتى انبطح على الحصير فتدحرجت الصغيرتان وضحكاتهما تتفجر، طفر وجه عفيفة وصافية حين كانتا صغيرتين ويلعب معهما لعبة جمل الملح، لكن ظهره كان متينًا فيظل يدور بهما في المجاز إلى أن يلقيهما على الحصير بغرفة نومهما، بصوتها المتحشرج نهرتهما صافية من معاودة ركوب أبيها؛ حتى لا يتألم ظهره، على كتف عشري يتسنّد ويقعد على الدكة، يدخل أنس ونصير وحجاج ويتحلّقون حول الطعام، انفصلت عفيفة وبركة عن طبلية الستات وجلستا عن يمين ويسار صبور فطفق يعطي عفيفة نسيرة لحم ويتبعها بأخرى في فم بركة وهكذا دواليك إلى أن أنهتا على هبرة اللحم فأعطته صافية واحدة أخرى، أكل منها القليل وأطعم ثوري بقيتها.

نهض من فوره وغسل يديه، طلع من البيت وجلس على مصطبة بسيط الغائب عن الدرب، لحقه أنس ونصير وأتى عشري وعبده بالشراب والتمر المحمص، قعدوا حوله وهو يتوقع ما سيحادثونه

فبدأهم نصير بما يعرف:

– خاير بك بطلت شقته وعجز عن القيام، تزايد ألم فرخ الجمر والعياذ بالله اشتد عليه مخرج الـ.. الـ.. البول والغائط من الورم من تلك الجمرة وسمعت أن القضاة الأربعة وعدد من المشايخ طلعوا إليه ليسلموا عليه فلم يع لهم فقرأوا له الفاتحة ونزلوا من القلعة.

لا يزال صبور مطبقًا شفتيه وهو ينصت لنصير وينتظر المزيد من سيرة مرض خاير بك، أقبل عليهم معتوق يتوكأ على عقصة عكازه، قرب أنس الدكة فجلس قبالتهم وكأنه سمع ما كانوا يتداولونه من خبر فأضاف:

– أعتق خاير بك جواريه ومماليكه وعبيده ودفع للقاضي بركات بن موسى المحتسب ألف دينار فضة وعشرة آلاف إردب قمح من الشونة وأمره أن يفرق كل ذلك على مجاوري الجامع الأزهر والمزارات والزوايا.

– ومجاوري مقام الإمام الشافعي والإمام الليث بن سعد رضي الله عنهما وعلى الفقراء والمساكين ومن عليه دين.

– وكيف عرفت يا عشري؟

– كنت مع صديق لي عند مقام الإمام الشافعي ونالني من عمال المحتسب ما نال كل الحاضرين هناك ولم يجرؤ أحد على الامتناع.

– خاير بك يستجدي الرضا ويشتري النجاة من افتراس المرض.

جميعهم رمقوا صبور بعد إدلائه بحقيقة ما يفعل خاير بك فكلهم يعرف تمام المعرفة أنه لو في كامل صحته وعافيته ما أمر بمثل هذه الصدقات، بل مارسَ حبه للتنزه والصيد، طال صمت صبور فعاد معتوق إلى بيته ودخل عبده وعشري البيت، تبعهم أنس حين أشارت إليه أمينة أن يصعد، هز صبور رأسه لنصير فعاد بدوره إلى بيت جمعة، بقي بمفرده لا يفكر ولا يريد أن يفكر وكل ما ملك باله هو انجذابه للرحيل، العودة إلى بيته بأسيوط فيستجير بهدوء الحياة بين جوانح درب النحاسين ويمكث بها إلى أن يجاور أم عفيفة ومصري وأباه وأمه في قبورهم.

***

بعد صلاة الجمعة، وقف ثلاثتهم، صبور ومصري وأنس في جانب منزوٍ بالقرب من جامع عمرو، رأوا الشيخ قمر يسلم على رجل ويحضنه، يقوده نحو صبور فيعرفه، إنه واحد من زبائنه القدامى صنع له سرجًا وبرذعتين لدوابه، سأله الشيخ قمر في سرور حقيقي:

– متى خرجت؟

– من ساعة، شاع وأنا في سجن الرحبة أن خاير بك أمر بالإفراج عن المحبوسين في سجن الديلم والرحبة فقادوني مع نفر من أرباب الديون إلى القاضي شرف الدين بن الصغير وطلب من الدائنين أن يسامحوا في باقي ديني الذي لهم لأجل ملك الأمراء.

– حمدًا لله على نجاتك يا نعيم وعدْ إلى أهل بيتك بالتأكيد مشتاقون إليك.

– ومشتاق إليهم، والله يا معلم صبور، كنت أتاجر بما يرضي ربنا لولا أن نهب الإنكشارية بضاعتي التي حملتها من الإسكندرية ما انكسر عليّ دَين.

– لا تهتم واذهب إلى بيتك.

غادرهم نعيم التاجر فاستأذنهم الشيخ قمر ولكن قبل أن يتركهم عند مفترق الطرق مال عليهم أكثر وتكلم في صوت هامس:

– باكرًا، نزل أحد الأطبة من القلعة ومرّ على الأزهر وكنت هناك وقتها وأخبر أن مرض خاير بك لا بُرْء منه.

تركهم الشيخ قمر وأسرع مبتعدًا فعاد صبور برفقة أنس ونصير إلى درب العطارين وانشغل أنس بقية نهاره في إتمام صناعة عدة سروج وصبور من حين لآخر يوجهه إلى ثغرات فعمد على تجنب عيوبها حتى أتقن صنعته بأفضل ما يمكن.

***

الخبر أشيع فانجذب الناس من الأزقة والحارات والدروب إلى الميادين والشوارع الكبيرة وأمام المساجد والحوانيت ولم يُر إنكشاري يسير بمفرده بل تجمعوا وكل زمرة منهم تسير معًا، وجد صبور نفسه واقفًا في نفس الركن حوله معتوق ونصير وأنس والشيخ قمر يضرب كفًا بكف.

– مات ملك الأمراء خاير بك، نزل به النزع الأخير فاستدعى الأمير سنان بك العثماني فدفع إليه خاتم المُلك الذي كان السلطان سليم شاه أعطاه له وخلف من الأموال والخيول والجمال ما لا ينحصر فلما أخبر الأطباء بنفاذ القدر اجتمعوا بالقلعة وتولى الأمير خير الدين نائب القلعة أمر الإنكشارية في حين التزم الأمير سنان بك بأمر الإصباهية وألزموا الأمير أرزمك الناشف شأن الجراكسة، آه لو رأيتم نزول حريم خاير بك من القلعة وعلى وجوههن الذل والحزن.

سحابة من صمت أظلتهم وأطرق كل منهم رأسه فلم ينتبه صبور لمغادرة الشيخ قمر وقفتهم، ودار تفكيره أن واحدًا من بقايا الجراكسة كالأمير أرزمك الناشف أو غيره يثب على الحكم رغمًا عن

سلطان العثمانية لكنه طرد هذا الخاطر بأن المماليك وعوا الدرس ورأس جان بردي الغزالي الذي سافر إلى إسطنبول خير شاهد على من يراوده طيف من عصيان، وربما يطلبها المحتسب بركات بن موسى لكن هذا الداهية قد يسعى لمنصب كالحسبة أو نظارة الذخيرة الشريفة يستمر فيه لكنه أذكى من أن يطلب ولاية مصر لشهور ثم يعزل وإن عصى تطير رقبته لتجاور رأس الغزالي، لم يبق غير سنان بك فهو تابع للعثمانية ومنهم وقد يأتي مرسوم من السلطان سليمان يقره على مصر.

تزاحمت الأفكار وضاق صدره بها فأشاح برأسه وكأن الأمر برمته لا يعنيه، أصوات عالية أفاقتهم فرفع صبور رأسه وجلبة تصطخب فزاغت عيونهم فرأوا التجار يبادرون بإدخال بضائعهم المفروشة في الشارع وإغلاق أبواب حوانيتهم لما أشيع أن خان الخليلي نزل به زعر وإنكشارية ينهبونه.

عادوا إلى الدرب، رأى الأحجار متراصة جوار جدار بيت المكاري عطية فخلع جلبابه وهمّ في إعادتها لتسد فتحة الدرب، لم يتوان نصير وأنس وكريم وأبناؤه في المعاونة وكل منهم يتناول ما يقدر عليه من قوالب وعروق خشبية قصيرة حتى ارتفع الحاجز بقدر قامة رجل، معتوق يقف أمام بيته فمسح صبور عرقه واصطبغ تحذيره بكل حزم:

– لا أحد يخرج من الدرب إلا عن طريق بيتك يا معتوق.

في خطى ثقيلة تمشّى متأبطا ذراع نصير حتى ارتمى على مصطبة بسيط، باب بيته مغلق فسأل عنه، أخبره حجاج أنه لا يزال عند أخته مريم فأعاد عليه التحذير من مغادرة الدرب فأومأ حجاج وطمأنه على مخزون الدقيق والعسل والجبن والملوخية اليابسة والفول والعدس وغيره من بقول يكفيهم لشهرين وأكثر إن اقتصدوا، برفقة نصير رجع إلى بيت جمعة ليستريح وبالليل يسهر مع ثوري وعفيفة وبركة وينبه على عبده وعشري أن يتوقفا عن الذهاب إلى حلقات الدرس بالأزهر حتى تتكشف الأمور.

***

الأسابيع تمر ولم يخيّب سنان بك رجاء أهل القاهرة والفسطاط وضواحيها في استقرارهم بعد أن كبح جماح عسكر العثمانية بحزم لا مثيل له فوسّط واحدًا من عسكر الإصباهية اتهم بخطف خرقة جوخ ثمنها مائة وعشرون دينارًا فشكاه صاحب الجوخة للأمير سنان بك وشهد عليه شاهد فأمر بتوسيطه دون تردد بميدان الرميلة فالتزم بقية العثمانية بعدم الجور على الناس واطمأنوا أكثر بعد أن أعلن المحتسب بركات بن موسى عن فتح الأسواق والأمان في البيع والشراء وأن لا أحد يغلق له بابًا أو دكانًا ولن يشوش أحد على التجار أو أهل مصر قاطبة.

طوال الوقت لا عمل لصبور غير الالتزام بالبيت ورعاية أحفاده وكأنه يتزود منهم بعد أن قوي أمله في الرجوع إلى أسيوط فمن يومين حين أتاه أحد تجار الجلود بعدد منها، استقبله في بيت معتوق، وأخبرهم أن السفن والمراكب عادت إلى السفر من وإلى الصعيد وحين وجد في نفسه الرغبة في

الخروج من الدرب، رافقه معتوق وتمشيا نحو مرسى السفن، سأل صبور واحدًا من النوتية عن سفينة لريس فرشوطي اسمه حميد فأخبره أنه تركه عند دير مواس يحمّل بضائع وقد يقبل على الفسطاط في الأيام القادمة، من يومها وصار يترقّب وصول سفينة حميد دون أن يجهر لأنس أو حجاج أو صافية بالنية المتجذرة بقلبه.

في بيت جمعة وعلى المنضدة أمام الدكة يقرّب الفانوس من أوراق كتابه الذي اهترأت أطرافه، ظل يقلب ويقرأ في سره تارة ويتجاهل ما هو مكتوب تارة أخرى إلى أن استقرت نظراته على صفحة مكتوب نصفها، قرّبها من عينيه وميز خط عشري المنمق، مال عليها وشمها، رائحة المداد قوية فالأخبار مكتوبة الأمس أو أول النهار، طفق يقرأ:

«اليوم الخميس السابع عشر من شهر ذي الحجة المعظم، بعد العصر دار فارسان إنكشاري وجركسي، أمامهما مصري على بغل يدق الطبل..

دُم دُم دُم دُم

السلطان سليمان استقر بالوزير الأعظم مصطفى باشا نائبًا على مصر عوضًا عن خاير بك وتم وصوله إلى الإسكندرية ولكل الناس الأمان والاطمئنان والبيع والشراء.

دُم دُم دُم دُم..».

– أعجبك ما كتبتُ يا جدي.

رفع وجهه تجاه عشري الممسك بطبقين كبيرين خلفه عبده بين يديه قفة الخبز، لأول مرة يلحظ ملامح وجه حفيده المنحوتة في جدية، ركنا الطعام على المنضدة، نادى نصير فخرج من الحجرة اليتيمة بالبيت، من البلاص المركون أسفل الجار اغترف بقية من الجبن الغارق في المش، وضعه جوار طبقي الفول والبصارة، رفع الدلو وأفرغ الماء في القلة ووضعها على المنضدة، عدة لقيمات تناولها صبور وعشري ينتظر إجابة سؤاله، مال جده إلى الوراء وتارة أخرى رفع الكتاب وهو يبتسم.

– فيه خبر يبدأ بـ بُم بم بم أو دُم دم كما كتبت؟

– نقلت ما سمعت كما هو.

– لكن جميل عزفك على الورق.

ابتسم صبور لكلمات عبده وتارة أخرى رأى قسمات وجهه المرسومة وشاربه نبت بقوة أعلى شفته الغليظة المتوارثة من جده زيتون، قطب صبور حاجبيه متصنعًا الاهتمام لما سيقوله:

– قريبًا تعمر بيت أبيك جمعة وتسكن فيه.

– لكني أحب العيش ببيت جدي زيتون ومع أمي مسكة وخالي حجاج.

– أنت كبرت يا عبده ويجب أن يكون لك بيتٌ تجهزه لتتزوج فيه.

– وأنت ونصير، أين تسكنان؟

– قريبًا جدًا نرحل إلى أسيوط؛ لأقضي بها ما بقي لي من عُمر وأدفن هناك.

– أطال الله عمرك يا جدي.

صمت صبور وهز رأسه للدعاء الذي لا يطيل في عمر الإنسان، التفت إلى عشري وجهد ليتغلب على انكسارات نفسه لقرب فراق أحفاده وصافية الطيبة ذات القلب الأبيض، عاد لممازحته.

– وأوصيك يا عشري بالكتاب.

– خذه معك يا جدي لتكمله.

– لا، أنت من يجب أن تكمله.

– أعتذر لك يا جدي، نذرت أيامي القادمة في طلب العلم وتدوين ما أتفقه فيه لا كتابة ما يجري في أيامنا إنما كتبت الأسطر القليلة السابقة لأن الخبر مهم ويحدد من يحكم بعد هلاك خاير بك.

– على كل لا تقلق سأتصرف في تلك الأوراق.

– المهم، سمعنا أن الباشا العثماني سيحضر غدًا الأربعاء.

– يشرّف على الرحب والسعة نفرش له الأرض رملًا، ويمكنه أن يدعي أن مصر ورثها من أبيه وله الحق في جمع خيرها.

– لا تتكلم يا عبده أنت وعشري بمثل هذا الحديث، الأهم عندي رعاية أمك مسكة يا عبده وأنت يا عشري ترضي أمك صافية وترعى أولاد أختك أمينة وتهتم بتعليمهم خصوصًا ثوري، هو الأمل يا عشري أتفهم؟

– أفهم يا جدي.

– وإن غدًا لناظره قريب.

***

أصرّ أنس ونصير ومعهما معتوق على مشاهدة ما اعتبره صبور آخر ما يراه بالقاهرة قبل رحيله، مع الكثيرين وقفوا بساحل بولاق ومن بعيد ميز صبور الأمير سنان بك والأمير خير الدين بك نائب القلعة ومعه الكواخي أغوات الإنكشارية والأمير أرزمك الناشف أغات المماليك الجراكسة وسائر الإصباهية والإنكشارية والكملية وحين وصل حجز الجند جموع الناس فلم يستطع معظمهم رؤية الباشا الجديد فصعد صبور أعلى مصطبة عالية وحدّق فيه وهو على جواده فرآه أبيض اللون عربي الوجه حليق اللحية ليس له غير شاربين أصفرين معتدل القامة عليه حشمة، تحرك الموكب فقبض أنس على يد جده، سار وسطهم والجموع تهتف إلى أن دخل موكبهم من باب البحر إلى باب القنطرة وشقوا سوق مرجوش إلى القاهرة، خلفه تدق الطبول والزمور العثمانية وجماعة بطراطير حُمر وعصابات ذهب فانطلقت الدعوات وزغاريد النساء من الطيقان والدعاء بالنصر للسلطان سليمان بن سليم في حربه التي استطالت مع أهل رودس والتي يعتبرها صبور أنها لا ناقة لنا فيها ولا جمل حتى يبذل لها خاير بك قبل مرضه وموته الكثير من أقوات أهل مصر.

مال الموكب نحو الرميلة فتوقع صبور ما ينتهي به من صعود القلعة، انفصل عن الماشين متأبطًا ذراع أنس ونصير، فغر فاه وأشار إلى بعيد فنادى نصير على عبده وعشري الذي رمقه أنس بعين اللوم، عادوا إلى الدرب فأمر صبور الولدين بمرافقة معتوق ومال هو نحو جامع عمرو، صلوا العصر وحين جلس على دكة قديمة لمطعم دارت عيناه في أركانه فهو نفسه الذي تهالك على إحدى دككه مع صافية حين وطأت قدماه أرض الفسطاط أول مرة، بالمنديل مسح العرق من على وجهه، أغمض عينيه وفتحهما، العجوز القاعد قبالته ذو الجسم الممتلئ يشفط دخان النرجيلة، والشعر الأشيب من أسفل الشملة ونظراته وطريقة إمالة رأسه وقسمات وجهه الجنوبية والتفاتاته كلها ترجرج ذاكرة صبور وتنبش تلافيف ذكرياته وتستحضر وجوه من مروا به منذ مغادرة أسيوط مطاردًا من المماليك جميعها تقول أنه:

– حميد الفرشوطي، الريس حميد.

علت الدهشة وجه أنس حين هتف جده، ونهض من فوره وخطا في سرعة نحو المصطبة المقابلة، صدمت ركبته عمود النرجيلة فوقعت على الأرض وتدحرجت جمار حجرها، تواجها وتفرّس كل منهما ملامح الآخر التي توارت أسفل ركام السنين، ارتعشت شفتا حميد ونطق باسم صاحبه القديم، تحاضنا وكل منهما يشم من عرق رفيقه عبق الماضي المؤلم، قبل صبور رأس وجبين صديقه الفرشوطي الشهم وربت على كتفه وخرجت كلماته مبللة بدموعه المتعرجة بين أخاديد وجهه:

– كنت أنتظرك يا حميد.

– وأرسلت لك سلامي مع الشيخ قمر.

– وصل يا حبيبي ومن يومها وأنا أسأل عنك.

التفت حميد إلى نصير وأنس فانفرجت شفتا صبور عن ابتسامة باهتة وهمّ أن يعرّفه بأنس لكنه أرجأ ذلك إلى وقت آخر يختلي فيه بالريس على متن سفينته، هز كتفه والاشتياق باد على وجهه وسأله في لهفة:

– متى ترجع؟

– بعد أربعة أيام، أحمل بضاعة وأبحر إلى بلدنا.

– أرجع معك لأسيوط.

– ترجع، وعملك هنا وأسرتك؟!

– العمل في كل مكان وأسرتي بخير، أريد أن أستريح بقبور أجدادي والحمد لله على ما أعطى ونحمده على ما أخذ.

– جهز نفسك وأنتظرك.

– تفضل معي.

– أشكرك، مشغول يا شيخ صبور وفي انتظار تاجر أحمل له بضاعته.

– لا أمنعك عملك وأكون معك إن شاء الله في الموعد المحدد.

طوال حوار صبور لم يشارك أنس أو نصير فيه واكتفيا بالصمت لكن أنس استغرب اتفاق جده على الرحيل فاستوقفه قبل دخول بيت معتوق والنفاذ من حجرة الشارع إلى الدرب.

– ترحل لأسيوط يا جدي؟

– نعم يا أنس.

– وتتركنا، تستغني عني وعن خالتي صافية وعشري وأمينة وعيالي: ثوري وبركة وعفيفة التي أسميتها على اسم أمي عليها رحمة الله!

– وإن مت يا أنس سأتركهم، اشتقت إلى أن أقضي بقية أيامي بدرب النحاسين وأدفن جوار أبي محمد السراج وأمي وأبيك يا أنس، أبيك مصري.

ارتعشت شفتا صبور وذرفت عيناه الدموع، فانخرط أنس في البكاء ونصير يربت على كتفه تارة ويطيب خاطر صبور تارة أخرى، خطا نحو بيت جمعة خلفه نصير في حين صعد أنس إلى البيت

واستراح لوجود أمينة وثوري والبنتين عند أمها فبقي بمفرده يتأرجح تفكيره حتى غلبه النعاس ونام.

***

أصوات متداخلة أيقظته مع أذان المغرب، توقع وجود أمينة والأولاد لكنهم ما زالوا بالبيت الكبير، أطلّ من المشربية وفي غبشة الغروب ميّز وجه ابن زنبل فنزل في سرعة ليستمع إليه ويلقي عليه استفسارات عدة علّه يظفر بإجابات عنها.

– أعطيتك هذه المملكة إقطاعًا لك إلى أن تموت.

بهذه الكلمات التي سمعها أنس من ابن زنبل قبل أن يبزغ من البيت، عرف ما سيخبر به، ألقى عليه السلام وهو جالس على المصطبة وسط معتوق ونصير وعبده وعشري وصبور يجاوره أمام حجاج فاكتفى بالقعود أمام دكانه، دار ابن زنبل بعينيه في وجوه المحيطين به وأدرك بذكائه المتوقد أنهم ينتظرون منه المزيد من الأخبار مما لا يعرفون، هز رأسه وأكمل:

– هذه هي النهاية، ما سمعتموه أمر به سليم بن بايزيد فمنح بلدنا لآخر جركسي حاكم؛ ليوطدها له وبعده تصير إيالة141 عثمانية إلى مدى يعلمه الله، وما وجود مصطفى باشا إلا ليتأكد مصير الضياع الذي رتبه لنا آل عثمان.

– لكن دوام الحال من المحال يا شيخ أحمد وعاجلا أو آجلا يأتي من يزيحهم عن بلدنا ويحررنا من سطوة نهبهم.

– لكن ليس الآن يا سيد أنس، فدولتهم في موضع الإقبال.

– وسيحين موعد إدبارها إن شاء الله وحينئذ تنشق الأرض عن مصري يحكم ويعدل ويدفع عنا العدو.

– المهم يا ابن زنبل، ما فعل نائب السلطان مصطفى باشا حين صعد القلعة؟

– مد له سنان بك السماط احتفالًا بوصوله وسلمه مفاتيح بيت المال وخاتم المُلك الذي كان سليم شاه أعطاه لملك الأمراء.

– والأمير سنان، بقي بالقلعة؟

– لا، ذهب إلى منزله.

– وملك الأمراء مصطفى باشا يبقى أيضًا إلى أن يموت؟

– الله أعلم يا شيخ معتوق لكن أريد أن أوضح أن لقب ملك الأمراء كان لخاير بك أما مصطفى باشا العثماني يلقب بـ بكلربكي أي بك البكوات.

– سيدي يا سيدي على الألقاب، من ملك الأمراء الجركسي إلى بك البكوات العثماني يا قلبي لا تحزن، جميعهم أولاد صُرم لا هم لهم غير نهب بلدنا ولا يطولنا منهم غير المهانة.

في حدة التفت صبور لعبده الذي أطلق رأيه كطلقات المكاحل فابتسم ابن زنبل وأنس في وقت واحد لكن ابتسامة أنس تتضح بما يقاسيه من مرارة شعر بطعمها كالعلقم لأفول شمس السلطنة التي كان تناطح بقية الدول ويعمل لها الجميع ألف حساب، لم يرد صبور الصامت طوال الوقت لهذا الموقف أن يطول فسأل في حنق:

– والبك الجديد يا شيخ أحمد، ماذا فعل بما في القلعة؟

– في الجمعة الماضية عُرض عليه موجود ملك الأمراء خاير بك من جمال وخيول وبغال وما في الحواصل من قماش وتحف وأشياء كثيرة لا تنحصر غير ستمائة ألف دينار ذهب وحاز هذا كله لنفسه.

– وهذا النائب مصطفى باشا، ما شأنه عند بني عثمان؟

– متزوج بابنة الخنكار سليم أخت السلطان سليمان ونيابة مصر بالنسبة له أعظم ما يتمنى أي إنسان وبدوره انتزع الحسبة من بركات بن موسى وأعطاها لواحد من أقاربه يسمى قاسم باشا وأبطل كل ما كان بالقلعة تبعًا لخاير بك وسلم مفاتيح الحواصل والمخازن لأفراد من خاصته وشرع في بيع موجودات السلاطين قبله التي كانت بالقلعة و...

– يكفي ما قلت يا شيخ أحمد.

بكلماته الحاسمة أسكتهم صبور فأشار ابن زنبل لحجاج وطلب منه الأحبار وعدة أقلام والمزيد من الأعشاب الشافية فأجاب طلبه وجهزه له في قفة صغير عليها غطاء من الكتان، نهض ابن زنبل فرافقه صبور ومعتوق وأنس إلى نهاية الدرب، ركن القفة على ظهر فرسه وبالناحية الأخرى أكداس من أوراق كثيرة.

– كل هذه أوراق، أشغلت منصب ناظر كل الدواوين؟

– لا يا أنس، إنما سودت أوراقًا عن الأحداث الجسام والوقعات العظيمة ومن أيام تقابلت مع شيخنا أبي البركات محمد بن إياس في بيته واطلعت على كتابه «عقود الجمان في وقائع الأزمان» وأعجبت بكتابه الأخير «بدائع الزهور في وقائع الدهور» وطريقته في تدوين الوقعات والحوادث

وما به من أشعاره، ورأيت أن ما جمعته يستحق كتابته وحان الوقت لأعيد التدوين بشكل منظم في كتاب.

– وماذا أسميته؟

– «انفصال دولة الأوان واتصال دولة بني عثمان»، به كل ما رأيت وسمعت من شهود العيان على وقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني وما تلى ذلك من حوادث عظيمة وعظائم جسيمة للسلطان طومانباي وشنقه حتى رحيل سليم بن بايزيد وتولي ملك الأمراء خاير بك.

أنهى أحمد بن زنبل كلامه فلم يجد تعليقًا أو تساؤلًا فركب فرسه وقاده مبتعدًا حتى أخفاه التواء الطريق، هموا بالعودة فسمع صبور مناديًا عليه، التفت ودقق نظره في الشاب المسرع نحوه فعرفه فهو من عمال السفينة.

– معلم صبور، الريس حميد يخبرك أن السفينة ترحل صباح الغد.

– قل له أني راحل معه.

بهت أنس للخبر أما معتوق فألجم لسانه والتفت في حدة لصبور وهو لا يصدق نفسه أنه سيستيقظ يوما وصبور ليس بدرب العطارين.

***

-٥-

عودة

-١-

وكأن ميتًا في بيت زيتون ينتظر دفنته، ران صمت محزون حين فجّر أنس إصرار جده على الرحيل لأسيوط فالتصقت صافية بالجدار وهي تنتحب أما أمينة فلم تتمالك نفسها وأغرقت الدموع خدها فبكى الصغار لبكائها، حمل صبور ثوري وقبّله، وضعه على الأرض ثم حضن عفيفة وبركة، حجّاج يضرب كفًا بكف والدموع متحجرة بعينيه.

– تهون عليك عشرتنا يا عم صبور!

– يا حجاج، بيتك عامر بذريتك الصالحة وربنا يفرحك بعشري وأنت يا مسكة ربنا يفرحك بعبده أما أنا فمصيري الموت والدفن هنا أو هناك.

– لكن هناك تعيش وحدك يا أبي.

– لو تعبت أعود لكم يا صافية ولكن تكلموني كأني مسافر في التو رغم أنه في الصبح، صدقوني كلكم، لو شعرت أني غير مستريح أرجع دون تردد.

ولأنها تدرك مدى صدق أبيها فأشارت إلى مسكة وأمينة أن تتبعاها إلى الحاصل، أفرغت زكيبة دقيق وطفقت تنخله بالغربال وتربّي الخميرة استعدادًا للخبيز قبل الفجر، ضاق بجو الكآبة ببيت زيتون فخرج يستنشق ملء صدره تبعه حجاج وأنس، ذهبوا معًا لبيت جمعة فوجدوا عبده ونصير يلعبان السيجة بينما يقرأ عشري في كتاب، جلسوا معهم فبدأهم عبده بكلامه المازح:

– سمعت آخر الأخبار، ليلة أمس روى لي واحد من رفاق الحلقة بالأزهر أنه مر مع أبيه جوار تربة خاير بك بباب الوزير في طريق القلعة وسمع منها صراخًا.

– عيب يا عبده، الموت له حرمته ولا يعرف ما يحدث للميت إلا ربنا.

– يمكن عفاريت من قتلهم الملعون خاير يعذبونه.

– الله يلعنك يا بعيد، عفاريت تعذب ميتًا كأنك لا تعلمت في الأزهر ولا شفته.

– رأيك يا عبده، لو نمر هناك بعد العشاء وتسمع بنفسك صراخه والعفريت يوسطه أو يشنقه أو يدفعه على الخازوق ويقطع مصارينه.

لم يشارك صبور في الحوار المتهكم بين أنس وعشري ردًا على ما يقول عبده، تأرجحت نظراته بين وجوه الولدين ونصير وأعلن في سرعة:

– اسمعوا، نويت العودة لأسيوط.

– وأنا معك يا جدنا.

في سرعة نثر عبده عرضه أما عشري فلم يستوعب الخبر وفضل الصمت المشهور عنه على التسرع، نصير رمى كلب السيجة في حفرته وأطال النظر في وجه صبور، انتحى تفكير أنس لبُعد آخر وتساءل في قرارة نفسه: إن كان عبده عرض أن يرافق جده فلمَ لا أكون أنا، ثبت عينيه في عيني جده وقال في حزم:

– أنا يا جدي، أنا من يصحبك لأسيوط.

– لا يا أنس، ربما أبقى بها بقية العمر.

– أصحبك لهناك، وأزور قبر أبي وأرجع.

– وأمينة وأولادك ودكان السروج؟! لا، لا.. السفر مُهلك وأنت لا تتحمله.

– قلتها كلمة لا أرجع فيها، أرافقك يا جدي أو لا سفر لي ولك على الجملة.

– رأيك يا نصير؟

– أبو ثوري يريد أن يبعد عن القاهرة والفسطاط ويرى بلاد الصعيد وأسيوط الهادئة ويتعرف على الشيخ يوسف النحاس وغيره من أهل درب النحاسين.

قالها نصير وكأنه يتهيّأ هو الآخر على الرحيل بعد أن زهد الحياة المملة فما يبات فيه يصبح فيه ووجوه الدرب هي نفسها كل يوم، ومنه شعور متجذر في دواخل نفسه فقد استمرأ حراسة أنس ولا يريد مفارقته فإن رحل فيكابد فراقه، تشجّع على عرض ما يرغب فيه.

– وأنا أرافقكم لأكون في الخدمة ولا أفارق الأمير أنس.

– الأمير، كم أكره هذا اللقب!

ربت نصير على كف أنس وكأنه يبثه الاعتذار لتذكره بحياته المنقضية، صبور يمعن التفكير في ما عرضه أنس ونصير وحنق على عبده وجرأة طلبه في الرحيل معه مما دفع أنس ليصر على مرافقته

وكأن لسان حاله يقول: أنا الأولى، دارت عيناه في أركان بيت جمعة وحين أبصر الكيس الجلدي وما به من أوراق سأم التدوين فيها، نهض وتناوله، قدمه لعشري فهوّم برأسه وأكد:

– ما لي طاقة على الكتابة، كل همي الآن التزود بالعلم وقضاء الوقت في تحصيله، أفضل تعطيه لعبده.

– وأنا بجانب استماعي لحلقات الأزهر أفضل التجارة مع خالي حجاج وما في وقت أكتب.

– إذن أنت يا أنس.

– لا يوجد ما يستحق الكتابة عنه يا جدي، أفضل تركه هنا أو تودعه عند خالتي.

– أستسمحكم في رأي، تودعه المسجد.

– المسجد؟ أي مسجد يا حجاج.

– يوجد بالجامع العتيق رفوف للكتب، ضعه وسطها.

– ما قاله خالي حجاج هو الصواب لكن مع اقتراح آخر، نستودعه بين كتب ومخطوطات الجامع الأزهر والمجاورون هناك وطلاب العلم يستفيدون منه.

– يستفيد طلاب الأزهر منه، أهو البداية والنهاية لابن كثير؟!

– لا وأنت الصادق، النهاية والبداية لابن السرّاج، مكتبة الأزهر أأمن مكان.

– أفضل موضع ما عرضه عبده يا جدي، أخيرًا نطق بشيء صحيح.

اقتنع صبور بما عُرض عليه وقرر أن يصحب الولدين للجامع الأزهر فهما أدرى بأمكنة الكتب ورفوفها الكثيرة، قبل أذان العشاء حمله ورافقهم أنس ونصير، صلوا جميعًا وتضرع صبور في دعائه بأن يحفظ الله صافية وأبناءها وزوجها حجاج الطيب وكل أهل درب العطارين ومن يعرفه في الفسطاط والبلد كله من جور العثمانية وأراذل الجراكسة الحاقدين والموتورين على ملكهم الزائل، تناول عشري الكتاب ودسّه وسط عشرات الكتب في الرف الوسطاني، على ضوء القنديل المدلّى أشار عبده:

– من حين لآخر أطمئن عليه وألبّي له طلباته.

– طلباته؟

– نعم يا عشري، ربما يحتاج إلى حبر أو ورقة تؤنس وحدته.

رغمًا عنه تبسّم صبور وبادله أنس وهو يطيل النظر في وجه عبده المحبوب لقلبه البريء رغم انفلات لسانه، أسفل عمود تحلقوا وفي جدية تامة رفع أنس سبابته وهو يوصي:

– احذر يا عبده الهزار مع العثمانية؛ فهم لا يفهمون دعاباتنا، وألّا تلاقش الجراكسة فإنهم يحيون الآن على مضض بعد موت خاير بك وما كان يعطيهم إياه من جامكية وأرزاق فهم الآن أشد خطرًا ويريدون فرض سطوتهم عندًا في البك العثماني الجديد وطمعًا في استعادة هيبتهم بين الناس.

– هذا صحيح يا أنس فمن ظهر منهم بعد طول اختفاء أيام محنة طومانباي وأرجلهم الحافية موحلة في الطين ويرتدون كالفلاحين يريد الواحد منهم أن يغتني.

– واحذرا الخروج من الدرب إلا للأزهر والزم يا عبده خالك حجاج ولا تغضب أمك مسكة.

– أما أنا فأرافق جدنا صبور وأطمئن عليه وأعود في أقرب وقت وربما نرجع معا إن شاء الله.

– أو يرجع جدي صبور ومعه عروس جميلة من أسيوط.

هذه المرة لم يتمالكوا أنفسهم فضحكوا جميعًا بصوت مكتوم لئلا يتنبه المصلون القلائل بالجامع لهم، نهضوا وانتعل كل منهم خفه، عادوا إلى الفسطاط من حين لآخر يقابلهم الإنكشارية يحملون المشاعل ويجوبون الشوارع، قادهم صبور نحو المرسى فرحّب به الريس حميد الجالس على دكة بالقرب من السلم الحجري المؤدي إلى السقالات الخشبية.

– موعدنا الصبح بمشيئته يا ريس.

– وأنا تحت أمرك.

– يكون معي نصير وأنس.

– أنس ابن...

– نعم يا ريس حميد، منّ الله عليّ به، حكاية طويلة أرويها لك ونحن في الطريق.

– ما شاء الله.

– ولي عندك طلب يا ريس حميد، إن تيسّرت الأمور، نمر على الفشن و.. ونقرأ الفاتحة، صدقني لن أؤخرك.

– وإن تأخرنا يا معلم صبور، أنا نويت أستريح لشهور بعد العودة إلى فرشوط.

– أكرمك الله، الريس حميد هو الريس حميد، الشهامة من غيره لا تجد لها صدرًا حنونًا.

– يا سيدي لا شهامة ولا حاجة، ما في العمر بقية نهدرها في الكراهية، وربنا يزيل عنا غمة العثمانية.

– نستأذنك يا ريس لنرتب أنفسنا.

طوال الوقت وأنس يتفرس في وجه الريس الأصيل الذي روى له جده أنه لم يتركه في أحلك المواقف ورافقه ليطالب الأمير ططر به وشاركه دفن أمه عفيفة بمقابر الفشن وتعهده بالرعاية حتى أوصله لبيت زيتون العلوي، آه على هؤلاء الرجال أصحاب المروءة، لو أن بالبلد مثله ما كان الحال غير الحال، مدّ الريس يده وسلم عليهم وفي اللحظة الأخيرة أخبرهم:

– بمناسبة الفشن يا شيخ صبور، من سنة أصابتني وعكة فقاد السفينة ابني عبيد وأخبرني لما رجع أن خوند من زوجات أمراء المماليك دفعت له ليحملها على السفينة من دمياط إلى الفشن، وحرسها هو والعمال إلى بيتها الكبير، نفس بيت الأمير ططر.

– سيدتي عنود عادت لقصر الفشن؟

جأر بها نصير وهو مندهش مما أخبر به الريس حميد في حين مال أنس فواجه ريس المركب العجوز وكأنه يريد منه تكرار ما قال، صبور فغر فاه وأيقن أن الفرصة واتت أنس بكل حذافيرها ليزور أمه عفيفة في قبرها وأمه عنود في القصر، تعجب من تقلبات القدر العجيبة التي تلاعب الإنسان كيفما تشاء فيغضب ويهدأ ويفرح ويحزن ويثور ويهمد ثم يدرك في حين من الأحيان أن الخير كل الخير ما أراده الله له.

***

-٢-

أمام فم الدرب جفلت قدماه والتفت ليلقي نظرة أخيرة على صافية الباكية وتشير إليه بيدها، فمنذ الفجر انشغلت في تجهيز الأرغفة وزوّدته بالجبن والعسل والبيض المسلوق أما مسكة فسلقت له فرختين لغدائه هو وأنس ونصير، وقفت أمينة جوارها ثوري وعفيفة وبركة، تلوح بكفها وأنس يشير إليها ولأول مرة تسيل دموع الشعور بفراقهم، لم يرد صبور ألا يطول وداعهم ومنع حجاج من مرافقته فاستدار وخطا إلى أن خرج من الدرب ولا تزال أحضانهم تبث الدفء بصدره، على ظهر الفرس حمل معتوق الخُرج الكبير ورافقهم مع عبده وعشري إلى الطريق المؤدية إلى كوم الجارح، طلب منهم أن يتريثوا واستأذن في الدخول على أبي السعود للسلام عليه لكن تابعًا له أخبر صبور أنه في خلوته ولا أحد يقطعها، طلب من الشيخ أن يبلغه السلام وانصرف إلى حارة برجوان فوقف

هنيهة وسأل عن بيت أخت بسيط فأشار معتوق إلى حارة طويلة، طلب منهم أن يتوقفوا وترافق هو وجاره السقاء بالزقاق الضيق إلى آخر بيت فيه فطرقه، انفتح الباب وسأل عن المقدس بسيط، غاب الولد وعاد خلفه جارهم الذي استقر به المقام عند أخته؛ لرعاية أبنائها كما أخبرهم من قبل، لم يصدق بسيط نفسه أن جاره الطيب سيهجر الدرب إلى غير رجعة، أصر على مرافقته إلى مرسى السفينة ومن حين لآخر يربت بسيط على كتف صبور.

– يعز عليّ فراقك يا عم صبور.

– صدقني يا بسيط، لم أر في حياتي أخلص منك.

– والعذراء مريم، لولا حاجة أختي لي لكنت سافرت معك لأسلم على أولاد عمي هناك.

– صادق يا بسيط.

وصلوا المرسى فأشار لهم الريس حميد، نشيج معتوق يعلو وهو يعانق صاحبه، تارة أخرى تحاضن صبور وبسيط، مال على عبده وعشري وضمهما في آن واحد وأعاد لهما تحذيراته ووصاياه، سلم عليهما أنس ونصير الذي دبت قدماه على ألواح السقالة الخشبية الممتدة، الشمس تعلو والريس يأمر عماله بفرد الشراع الكبير، على ظهر السفينة ظل صبور يرفع يده حتى ابتعدت عن البر فدمعت عينا صبور حين صعد معتوق وبسيط السلالم الحجرية ووقف جوار عبده وعشري أعلى المرسى ثم انصرفوا.

استدار فجحظت عيناه لتلك الحجرة الخشبية البعيدة آخر السفينة، دار رأسه وكاد يقع لولا أن سنده نصير والريس حميد أدرك ما غزا صاحبه القديم من وجع الذكريات، أراحوه وشرب القليل من الماء، هز رأسه وطمأنه أنه بخير، نهض فعاونه أنس، في بطء خطا نحوها، أزاح الباب ولا يزال سرير الجريد العتيق يقبع في ركنها، تأرجحت نظراته بين أنس الواقف خلفه والرضيع الملفوف في أقمطة رخيصة وبكاؤه يتردد صداه وأمه الضعيفة تطيل التحديق إليه كأنها على يقين من فراقه، أغمض عينيه وفتحهما، بيد مرتعشة يشير ولسانه يتلجلج:

– هنا ولدت يا أنس، وقطعت لك أم سعد حبلك السري، أمام الباب كبّر أبو سعد في أذنك وحنّك فمك بتمرة حلوة، وعلى السرير أصيبت أمك عفيفة بحمّى وماتت وكادت خالتك صافية تجن.

– لا تحك يا جدي.

صفعات تتردد بين تلافيف ذاكرته فصوّب نظراته إلى الأمام ولفته غمائم من شرود وكأنه انسلخ عمن حوله.

– في الخن البعيد سكنت أم سعد وزوجها الطيب، وهناك حملتك على كتفها لحين دفن أمك بمقابر الصدقة، ولما رجعنا كانت مرمية وسهم منغرز في...

– يكفي يا عم صبور، لا تشعرني بالذنب.

– وما ذنبك يا نصير، والله يا أخي ما رأيت أبر منك بأنس، بعت الدنيا كلها من أجل رعايته، كما قلت لك يا أنس، الكلب ضبع أصاب أم سعد وحملك الأمير ططر إلى قصره وحين أخبرتنا أم سعد رافقني الريس حميد لهناك ووقعت أنا والخوند الطيبة فريسة لاحتيال ططر.

– صل على النبي يا صبور وتعال إلى الخن.

– لا يا ريس، أنام هنا في حجرة عفيفة.

– لكنها سكن اثنين من النوتية، أرجوك تعال معي.

كطفل مطيع رضخ صبور لرغبة الريس العطوف وسار معه إلى خن يسع ثلاثة، قام نصير بترتيب المطرح الضيق وتجهيز الإفطار، فشاركهم حميد وأمر واحدًا من أتباعه بعمل مشروب النعناع.

الساعات تنطوي فانقضى النهار وقلب صبور يهفو لزيارة قبر عفيفة، أنس يتخيّل نفسه واقفًا أمام الخوند النبيلة الكريمة، ويكفي صبرها على الأمير ططر ونزواته وولهه بجمع المال والاستحواذ على ما في يد غيره، حين كان يافعًا كان معجبًا ببراعته في الجدال والاحتيال على غيره وشرّبه مبدأ أن هذا من باب حُسن التدبير وإن لم يحسن ذلك يقع ضحية غيره من سفلة المماليك، يحتال ليستولي على مال أو أرض أو تجارة لكن يسلب طفلًا من أهله، يا لفظاعتك، الله يلعنك ويلعن اليسرجي الذي باعك على دكة المماليك.

غمغم بها أنس وهو على قناعة تامة بتلك الكلمات التي يرددها جده صبور كلما جاءت مناسبة، تأرجحت الحيرة المضنية بين حنايا نفسه القلقة، ما قد يحدث لو أن رجلًا من العامة أسمعه لعناته حين كان أميرًا، حتما ستطير رقبته ويتشرّد كل من يعولهم، وكيف كان الواحد من الجراكسة يغمض له جفن وينام مطمئنًا وقد مر نهاره وهو يعربد وينهب ويتلهى بقتل غيره، من طرف خفي التفت إلى نصير وأشفق عليه وحنق لمدى ما حاق به من أشد أنواع الظلم حين اُختطف من أهله في الجنوب وتنقل بين النخاسين وينتهي به الأمر إلى إخصائه فيعيش عمره كله عبدًا ذليلًا محرومًا من ابن يربيه ويكون سندًا له ويعوله في عجزه وحين يموت يدفنه رفاقه ولا يشعر أحد أنه التقط نفسًا في تلك الحياة، كالخناجر المسنونة نغزته الأفكار فضاق صدره بتعاركها فأغمض عينيه ينتظر انقضاء الليل فيصبح على نهارٍ جديد.

السفينة تبحر ببطء ضد جريان النيل وصبور أغلب الوقت ساهم صامت يرد باقتضاب وكأن في نفسه تلالًا من حزن دفين لا يريد نبشه، جاوره حميد وأشار إلى عدة نخلات بعيدة تسمق في شموخ

فسمعه يغمغم: ببا.

حملق صبور في بيوت البلدة الهادئة الي تظهر سطوحها، ثبتت نظراته بنخلتين عاليتين وجريدهما المائل بسعوفه الخضراء يشبه التاج، يتمايلان مع هبوب الريح، لا يدري كيف رآهما أم سعد وأبا سعد، ذرف دمعة حارة ودار في نفسه أنهما على قيد الحياة لكن العجز نال منهما بسطوة السنين فأقعدهما في واحد من تلك البيوت البعيدة وإن كان الله تولاهما برحمته فعليهما سحائب الرحمة ودخول فسيح جناته.

– يا سلام، كل من اختار البقاء بالبلد بقيت سيرته ومن تخلى عنها وهجرها تاه.

– صدقت يا حميد.

– عرفت من تاجر أن الكثيرين من الأروام واليهود وتجار مصريين جمعوا كل ما يملكون وهربوا من القاهرة والكثير منهم هاجمهم الزعر والمنسر ونهبوا أموالهم.

طفر وجه عشير ابن ناحور وزوجته دينه ودار في باله أنهم هائمون على وجوههم مع غيرهم في الصحراء وطلع عليهم العربان والزعر والمناسر ونهبوا كل ما مع عشير من مال فإن قتلوه رُحم وإن تركوه فقد ذاق كل صنوف العذاب وسيظل تائهًا بعد أن غدر بالدرب وهجره أيام محنته، ظل صامتًا تتوارى ذكرياته بين سحب الماضي الأسيف، ظهرًا مالت السفينة نحو مرسى ضيق أعلى الضفة، أرخي الشراع وبذل المجذفون غاية جهدهم لترسو السفينة قبالة البر، مدت الألواح الخشبية وفي سرعة سحب أحد العمال السلبة الغليظة وربطها بجذع شجرة توت ضخمة، ضيّق صبور عينيه، مئذنة المسجد عالية غير تلك التي كانت، توالت خطواته ونصير يسنده حتى وقفوا أمام الدرج الحجري المؤدي إلى أعلى الضفة، خفق قلب صبور وهو يصعد، وقف أمام مسجد كبير، أكبر من تلك الزاوية التي كان يرعاها الشيخ شعيب، ألقى حميد السلام على القاعدين أسفل الجدار المطلي بالكلس الأبيض، نهض شاب ذو وجه منشرح ومهندم كشيوخ الأزهر فرحّب بهم، دون أن يضيّع حميد الوقت سأله في هدوء:

– ترى الشيخ شعيب يعيش؟

– أبي، رحمه الله.

– رحمه الله، إنسان شهم وصاحب مروءة.

– وولده صالح مثله.

التفتوا لكلمات الشيخ الهرم، الرجل شديد السمرة يتلمظ شفتيه ولحيته البيضاء الخفيفة كأسنانه الأمامية، سلّم عليه صبور وسأله عن منامة الصدقة، أنزل العجوز ساقيه يريد مرافقتهم لكن الريس

حميد حلف عليه ألا يتعب نفسه ويكفي أن يرافقهم الشيخ صالح بن شعيب، الدرب الضيق بين الغيطان كما هو فظلوا سائرين حتى لاحت أسنمة القبور، شجرة السنط كبرت ومالت أغصانها نحو المنامة المهتمة حوافها، رجع صبور بظهره فأسنده الريس حميد، بأصابع مرتعدة يشير:

– هنا ترقد أمك عفيفة يا أنس.

ندت عن أنس آهة مكلومة وأخفى وجهه بكفيه، ربت نصير على كتفه فالتفت إليه ووجهه تغرقه الدموع، علا نحيب صبور وتخالطت عباراته بين الدعاء والاسترحام والانتقام من الظلمة، واجهه الشيخ صالح وأشار:

– أنت السرّاج الأسيوطي الذي خطف الأمير ططر ابن بنته من سنين؟

– نعم وأمه مدفونة هنا.

– حكى لي أبي حكايتك، رحمهم الله جميعًا.

دار صبور حول المصطبة العريضة وأقعى أمامها، أسند رأسه على حافتها وطافت برأسه ذكرى ذلك اليوم البعيد، أغمض عينيه فرآها مقبلة ترفل في رداء أبيض، وجهها منوّر وشعرها الفاحم يتضوّع برائحة مسكية، حادثها في انكسار:

– سامحيني، تركتك هنا يا عفيفة.

– لست غاضبة يا أبي.

– وابنك خطفه الـ...

– لم تقصر يا أبي، أراه الآن رجلًا وربنا عوضه بعفيفة، أنا راضية عنكم يا أبي وأحيا في هناء ما بعده هناء.

– تعالي معنا يا عفيفة، عفيفة، ابنتي عفيفة.

ضباب أبيض أعشى بصره فتلاشت رويدًا وفي غمضة عين توارت من أمامه ولسانه يلهج باسمها، استفاق على كف أنس يربت على كتفه فنهض من فوره وحضنه في قوة كأنه يريد أن يدخله بين حنايا صدره، هدّأه وبرفق أبعده قليلًا، ظلا صامتين لا يريدان أن يفارقا المطرح الموحش حتى أنهى الريس حميد الموقف وغمز بعينه:

– أمامنا زيارة أخرى ولا يتوجّب التأخير.

فطن صبور إلى ما يرمي إليه الريس فتوقفه كان لمجرد زيارة صبور وأنس ولا مصلحة أن يرسو بالفشن، استداروا عائدين وخطواتهم تدب على الأرض المتربة حتى لاح سور البيت الكبير، توقف الشيخ صالح واستأذن منهم وأكد على وجوب المرور عليه قبل رحيلهم، التفت حميد إلى صبور:

– ونحن في الطريق أخبرني صالح بن شعيب أن كل من بالناحية يعرف أن الأمير ططر هلك في حرب الغوري وطوال السنوات الماضية أغلق البيت وليس به غير خادم يرعى جنينته، ويعيش من ريع ثمار أشجار الحديقة، ومنذ شهور رجعت الخوند زوجة الأمير التي يعترف الفلاحون هنا بفضلها في مساعدتهم.

طوال الوقت وصبور يستمع ويؤكد لنفسه من يزرع الخير يحصد الخير، أدرك أن خوند عنود ستعيش بقية عمرها في هذا المطرح الهادئ المعزول وبمنأى عن أعين أطماع العثمانية وأراذل المماليك لكنها بحاجة إلى من يقوم بحراستها غير ذلك البستاني راعي القصر، شقوا الأشجار إلى أن توقفوا أمام البوابة الخشبية العتيقة، أنس أول الداخلين فجحظت عينا البستاني الخمسيني وهو يرحب:

– مرحبًا سمو الأمير أنسباي، كبرت وصرت رجلًا، آخر مرة رأيتك فيها كنت غلامًا صغيرًا.

– مرحبًا عم حفيظ، كيف حالك وعيالك؟

انتحى حفيظ جانبًا وكل من يدخل يلقي عليه السلام، استغرب كلمات أمير القصر وملبسه كعامة الناس وأرجع ذلك إلى تخفيه من العثمانية الذين يطاردون الجراكسة وأولاد الناس، قادهم إلى باب البيت الكبير، توقف صبور وأشار إلى حجر على كومة تراب تعلو عن الأرض بمقدار ثلاثة أشبار:

– هنا قبر ابن الأمير ططر وخوند عنود.

– قلت لي أنه مات يوم اختطافي.

– نعم، لكن الخوند الكريمة أرضعتك.

– وكانت أمي يا جدي وربنا يقدرني على برها.

وجدوا أنفسهم داخل بهو الأعمدة والمسارج المعلقة على حيطانه تضيء الردهة الفسيحة، من غرفة جانبية بزغت خوند عنود، قامتها شامخة وملابسها السوداء تؤكد موقفها من تولي العثمانية حكم البلاد، بيدها سلّمت عليهم أما أنس فقد ألقى بنفسه بين أحضانها وطفق يقبّل رأسها ويدها وهي تربّت عليه وتمسح دموع الفرح برؤيته في أحسن حال.

– خفت أن يقتلك العثمانية أو أوباش الجراكسة.

– كاد يحصل لكن الحمد لله يا أمي، جدي أنقذني.

– أمك؟

– نعم ابنتي حضرة خوند عنود، أنت عالية المقام وذات قلب أبيض نقي، أنتِ أمه وأشكرك على تربيتك النبيلة لأنس.

– أنت تشكرني يا عم صبور يا طيب، أنت من انكسر قلبه على كبده، أنا أعتذر لك على حرمانك أنس اليتيم.

– وسيؤجرك الله أجر كافل اليتيم فأحسنتِ تربيته وتوجيهه إلى الصواب؛ فشبّ فارسًا قويًا صنديدًا، مبتعدًا عن كل ما يغضب الله، غيور على بلده وحارب العثمانية في أحلك الأوقات.

– كدت أموت وأنقذني جدي صبور والعم نصير.

– نصير، كيف حالك يا رجل؟

– بخير سيدتي الجليلة خوند عنود ولم أترك سيدي الأمير أنسباي منذ أمرتي بعودتي من دمياط.

– اسمه أنس يا نصير، أنس بن مصري، المصري لا الجركسي.

تارة أخرى يميل أنس ويقبل يد الخوند فتسحب كفها، يعتدل ويتناول الزكيبة من يد نصير، يفك رباطها الرفيع ويخرج صندوقًا مربعًا، يفتح غطاءه فترفع عنود حاجبها دهشة للأشرفيات والدنانير والحلي الذهبية والمشغولات الفضية التي كانت تتزين بها قديمًا.

– أتيتك بها يا أمي وقرأت الفاتحة على روح أختي بركة، نسيت أن أخبرك، تزوجت ابنة خالتي صافية، أمينة فتاة رقيقة مهذبة ومحبوبة ورزقني الله بثوري وبركة وعفيفة.

– تسمي ابنتك على اسم أختك!

– وأسميت الثانية على اسم أمي ولو فيه ثالثة تكون عنود.

– الحمد لله، رأيتك في أحسن حال.

– بفضل ربنا، الحياة البسيطة مع جدي علمتني الكثير، لكن أنتِ تحتاجين لمن يحرسك ويؤنس وحدتك.

– معي حفيظ البستاني الأمين وزوجته وأولاده، بقوا في القصر يحرسونه ويعتنون بحديقته طوال فترة المحنة ومعي جاريتان طيبتان.

– وسيكون معك نصير، أعتقته ويبقى معك يعمل بالأجر.

– لكنه يخدمك.

– وجاء دوره ليخدمك يا أمي، ما رأيك يا عم نصير.

– أمرك يا أميري، منذ أن اشتراني الأمير ططر وأنا أعيش هنا وانتقلت معه إلى قصر الأزبكية وبقيت فيه حتى نهبه العثمانية.

– والآن دورك لتحرس قصر الفشن وتكون في خدمة أمي يا نصير.

– لا أخالف لك رغبة يا أمير أنس بن مصري.

ذرفت عينا نصير ففرد أنس ذراعيه، ضمه لصدره في حنو دافق وقبّل جبينه اعترافًا بفضله في حمايته وانتشاله من موت محقق في معركة جامع شيخو مع طومانباي، ربت على كتفه وتنحنح الريس حميد إيذانًا بوجوب العودة إلى السفينة بل وأعلنها في حزم حتى لا يسرقهم الوقت.

– معذرة سيدتي الأميرة، أمامنا سفر طويل.

– سفر؟ إلى أين؟

– عائد لأسيوط، اشتقت لأعيش بقية حياتي هناك.

– أنت رجل أصيل يا حاج صبور، ربنا يطيل عمرك، تتعشوا وبعدها...

– لا وقت للطعام.

– إذن تأخذونه معكم.

صفقت بيدها فأسرعت الخادمة إليها، أمرتها بتجهيز الطعام في سرعة، دخلت ورافقتهم الخوند إلى الحديقة، ندّت عنها آهة حين أعاد صبور النظر نحو شاهد قبر الرضيع المدفون أسفل الشجرة فتشجعت عنود ولاحت منها ابتسامة شاحبة أضافت لقسماتها المنكسرة مزيدًا من الأسى.

– رحمه الله هو وأخته بركة، رحمنا الله في أيامنا العسيرة يا شيخ صبور.

– ربنا يحفظك سيدتي وأقسم لولا رغبة أنس الحقيقية في مرافقتي لأسيوط لأبقيته معك.

– أشكرك، أنس رجل وله الآن عائلة تحتاجه.

– أستودعك الله يا أمي.

تارة أخرى قبّل يدها وجبينها، رافقتهم إلى بوابة القصر الكبيرة خلفها الخادمة تحمل قفة مغطاة بملاءة بيضاء، رغب نصير في توصيلهم إلى المرسى فمنعه صبور، على كتفه حمل الريس حميد القفة، ألقى أنس نظرة أخيرة على الخوند والقصر وحديقته التي شهدت أيامًا من طفولته ومقتبل الشباب حتى استقر بالأزبكية ثم الإسكندرية، قوّس صبور ذراعه على كتفي أنس وقاده إلى ممر الأشجار، أصرّ أنس على حمل القفة من الريس حميد، ظلوا سائرين حتى المسجد المطل على النيل، استقبلهم صالح بن شعيب والشيخ العجوز بوجهه الأسمر كأديم الأرض تدور عيناه وهو يدقق النظر في وجوههم، تذكر صبور اسمه، الشيخ آدم اللحاد، هذه المرة سلم عليه بحرارة، دون سابق إنذار شهر أصابعه العجفاء المرتعشة وابتلع ريقه وشفتاه تنثران كلماته في قوة لا تتناسب وعمره المديد.

– الأغراب، يأتون ويذهبون ونحن نبقى، هذا وحده انتصار.

غيمة من صمت أظلتهم، العجوز ذو المائة عام تتدلّى شفته في سخرية فحدّق أنس في خطوط وجهه المتشابكة وعظام وجهه الناتئة فلم يسبق أن رأى في حياته رجلًا تفنن الزمن في نحت تجاعيد آيات الكبر المرسومة بكل إصبع في بدنه، سرح آدم اللحاد بعينيه فكرر عليه صبور البيت الذي ردده حين أنهوا ستر عفيفة:

كم من أخ لي صالح وسدته بيدي لحدا

التفت إليه آدم وكأن سمعه الذاهب عاد إليه بعد طول انقطاع، ابتسم في شحوب ومال برأسه نحو صبور.

ذهب الذين أحبهم وبقيت كالسيف فردا142

حضنه صبور وقبّل جبينه، دس أنس في يده كيسًا فتحسّسه آدم وانتابته الفرحة للصدقة التي لم ينلها من قبل، تهيأوا للمغادرة ولم يفلح إصرار الشيخ صالح في إبقائهم لتناول الطعام فسلم عليهم وظلّ يراقب السفينة إلى أن توارت مع انعطافات النهر.

***

-٣-

أمام سور السفينة الخشبي يتأبّط صبور ذراع أنس القوية، يرقبان الأفق المسيّج بالشفق المتسامح مع الغروب والطيور في أوبتها تجرح نصف الشمس الغاطسة، شعر صبور بجنوح السفينة نحو البر، الضفّة المعشبة كما تركها حين هجر أسيوط فرارًا ببنتيه من بطش الجراكسة، الأشجار مالت أكثر نحو الماء، في لمح البصر اهتزت عربة يوسف النحاس التي حملتهم في تلك الليلة البعيدة إلى ذلك

المكان، ترى ما حال درب النحاسين وجيرانه. استوحش قعدة مظلوم المسكين أمام بيته والعيال من حوله وهو يجر الربابة ويحكي، أفاق على كف الريس حميد الخشنة وانشراح وجهه البريء.

– حمدًا لله على سلامتك يا معلم صبور.

– أخيرًا أسيوط.

– وأحب أطمئنك يا معلم، اتفق ابني عبيد مع تاجر من أبيدوس على نقل بضاعته إلى بولاق فلو لك رغبة في العودة نكون هنا بعد عشرة أيام أو أقل.

– خبر عظيم يا ريس، أنس يعود معك.

– لكن يا جدي كنت أرغب في البقاء معك لأسابيع.

– بل ترجع مع عمك حميد ويكفي أسبوع معي، لك زوجة وأولاد أحق برعايتك.

– كلام مضبوط.

عاون أنس جده على تخطي الممر الخشبي وصعدا معًا السلالم الحجرية، العتمة أطبقت على الشط، خطوات واكتريا بغلًا قويًا جره صاحبه وسط الزراعات حتى الدرب المؤدي إلى بيوت المدينة، الشوارع كما هي، الدكاكين تغلق أبوابها والوكائل تنيرها المسارج الكبيرة، ظل صبور يتلفت يمسح المشربيات العالية والأسبلة ويشبع عينيه الجائعتين برؤية مدينته ويتنسّم هواءها، من بعيد يربض الجامع الكبير والمصلون خرجوا بعد أداء صلاة العشاء، قبة قصر الأمير تمربغا كاشف أسيوط القديم عالية فأغمض عينيه وعض شفته، استشعر أثر كرباج الأمير الجركسي على ظهره، لولا مراهم المقدس جرجس التي خففت ألمه لظل يقاسيه لشهور، مال البغل نحو الشارع الكبير ثم انحرف إلى درب النحاسين، كلما اقتربوا خفق قلب صبور إلى أن طلب منه أن يقف أمام البيت، نزلا وأنس يحمل خرج الملابس، الفانوس المعلق أعلى بيت مظلوم المسكين ينير المطرح وهو متكوّم حوله الصغار ولسانه يتلجلج بكلمات عبثية، وقف صبور أمامه فرفع الرجل وجهه، دقق النظر وتاه برهة ثم عاد إلى رشده ونهض في عجز وظهره المحدودب يؤلمه.

– صبور السراج رجع يا أولاد، أنا حكيت لكم حكايته، صبور رجع، رجع.

اختنقت كلماته وامتزجت بدموعه فتركه صبور يحضنه ويشم من رائحة عرقه الفائح شوقًا عتيقًا، واحد من الصبية رمح بعيدًا، وصبور لا يزال يتفرّس وجه مظلوم والسنون خطت آثارها على تجاعيده المتداخلة.

– الحمد لله أنك بخير يا عم مظلوم، مظلوم يا أنس كلنا جلسنا أمامه وكان يحكي لنا سيرة الظاهر بيبرس وعنترة العبسي و...

بتر عبارته أصوات عالية والصبي يجر جده، ووقف لاهثًا وأشار إلى صبور فلم يصدق يوسف النحاس عينيه، انفلت العكاز من بين أصابعه ودون أن يشعر دمع وهو يفتح ذراعيه لصديقه فارتمى صبور على صدره ودون أن يتبادلا كلمة طفق كل منهما يقبل رأس الآخر وكتفه وأنس مذهول لمدى اشتياق جده لصاحبه القديم الذي طالما روى عنه الأساطير، تباعدا ثم تقاربا مرة أخرى وكأن كلًّا منهما يتزوّد من صاحبه المحبة ليزيل جفوة فراق السنوات الماضية، أشار صبور إلى أنس:

– أنس يا يوسف، أنس ابن مصري وعفيفة.

– مرحبًا يا غالي يا ابن الغالي، أيام الغوري نزلت القاهرة وحكى جدك عنك.

– لكن كيف عاد لي فهي حكاية طويلة نتسلّى بها أيامنا المقبلة.

– وأحكيها أنا على الربابة.

– أشد ما أسعدني أني قابلتك يا عم مظلوم.

– خفت تلاقيني ميتًا يا صبور، الأغراب وحدهم يموتون دون ذكر أو اسم لكننا نحن المصريين إن ضمنا القبر تبقى سيرتنا.

بعد كلمات المسكين مظلوم لا يدري كيف طفر وجه آدم عجوز الفشن أمام عينيه الذاهلتين وتساءل عن سبب طمأنينة العجائز بهذا القدر عن مصير الغرباء الطارئين على البلد، مشعل كبير يحمله يافع خلفه واحد من أبناء يوسف، يلقي عليهم السلام ويرفع كيسًا صغيرًا أمام أبيه، يتناوله يوسف ويخطو نحو باب بيت صبور، يخرج المفتاح الكبير ويفتح، يتقدم يعقوب ابن يوسف فيوقد مسرجتين كبيرتين متقابلتين، يتوهج البيت بالضوء فيخطو صبور وقلبه يكاد يتوقف من فرط الاشتياق.

وسط المجاز تدور عيناه تستطلع المطرح وتزكم أنفه روائح مضمخة بحنين دافق فكاد يقع فأسنده أنس ويوسف أما يعقوب فتركهم بإشارة من أبيه، فرد صبور كفيه على الجدار وقرّب فمه وقبّل الحائط، مال وسجد وجبينه على الأرض، أوقفه أنس وقاده للجلوس على المصطبة القصيرة، ابتلع ريقه وعيناه تكتحلان برؤية كل شبر بالبيت، عكازه يدق الأرض المستوية ببلاط كبير، الجدران كلها مطلية وأسفل السلم باب الكنيف الخشبي مغلق، سار نحوه ودخل فلحظ تجديده وتزويده بزير قصير به ماء، فك احتباس بوله وخرج وعلى عينيه آيات الاستغراب فالبيت نظيف ومجهز وكأن يوسف النحاس كان يعرف بقدومه، فاجأه بالتوضيح:

– بيتك يا رفيقي الحبيب قدمه قدم سعد، فيه زوجت اثنين من أولادي ولا تمر السنة إلا ويرزق ويبني الواحد منهم لنفسه بيتًا كبيرًا.

– الله! ربنا يفرحك بهم، عمك يوسف يا أنس، الأخ الذي لم تلده أمي، أنس ابن مصري يا يوسف، تزوج ابنة خالته صافية وربنا رزقه بثوري وعفيفة وبركة.

– لا، لا يا صبور، لا تختصر، عندنا من الوقت ما تحكي لي عن كل شيء.

– إن شاء الله.

دلف يعقوب خلفه اثنان من أولاده، أنزل أولهما طاولة الأطباق الكبيرة وركن الثاني قفة الخبز الشمسي، امتدت الأيدي لتناول العشاء ومن حين لآخر يروي يوسف طرفة من نوادر مرت به أو بواحد من معارفه، أنهى صبور طعامه فجلس على المصطبة، لملم يعقوب الأطباق وتركهم بعد أن وعد بلقاء في الغد، تارة أخرى يدخل يوسف يده بالكيس ويخرج ورقة مطوية، فك رباطها الرفيع، أعطاها لصبور.

– عقد البيع لولاه لضاع البيت، واحد من الزعر أراد أن يستولي عليه ولولا العقد لسكنه أو اتخذه مرتعًا لنزواته هو ورفاقه.

دون كلمة أخرى قرّب يوسف الشمعة من طرف الورقة فاشتعلت النيران بها، تركها صبور تهوي على الأرض فأتت النيران على آخرها، انطفأت مخلفة خيطًا من دخان رفيع، أنس الصامت طوال الوقت لا يصدق نفسه أنه بالبيت الذي تزوجت فيه أمه وحملت به، خطا نحو الخارج ووقف أمام باب دكان السروج الموصد يجاوره يوسف، الرفوف كما هي وبقية من عدد شحيحة ملقاة وجلود يبست وكلح لونها، بعض المهاميز معلقة على الجدار.

– منذ رحيلك لم أدخل الدكان.

– من الغد ينظف ويعمر إن شاء الله.

– يعمر بك وبجدك يا أنس.

– أنس راجع القاهرة يا يوسف، أنا الباقي معك.

– دائما أنت الأبقى يا صبور، آه على الأيام، أخيرًا عدت لبيتك، لا تتركني يا صديقي، بعد موت أم يعقوب لم يعد لي في الدنيا أنيس، رجوعك أحياني.

تأكد أنس أن جده سيكون بأمان مع يوسف النحاس وأهل الدرب فمن أول وهلةٍ يبدو على أناسه الطيبة، قرر أن يبدأ منذ الصباح في تنظيف الدكان وتهيئته لمزاولة جده صنعته التي يعشقها فأغلق

باب الدكان وعادوا إلى البيت.

– وأخبار المقدس جرجس؟

– في ذمة الله وابنه مينا حلّ محله وأمهر من أبيه.

– آه يا أنس، على هذه المصطبة نمت على ظهري وعمك يوسف يبرد ضربة السوط بالماء والمقدس جرجس يدهنها بخليط من المراهم.

– الحمد لله أنك نجوت يا صبور.

– لولا الست جنة أخت زيتون أمرتني بالرحيل قبل مطلع النهار لانتهيت.

– ربنا كبير يا جدي، ضرب مكر وتدبير الجراكسة بالجدة جنة كما حكيت لي.

– أستأذنكم وفي الصباح لنا أعمال كثيرة.

***

باكرًا رافقهما يوسف النحاس إلى خارج المدينة الكبيرة وطوال الطريق يروي ما حلّ بها من تجديد وكيف عاش الناس في خوف أيام خروج الغوري لمحاربة ابن عثمان وكانوا يتجمعون أمام مرسى السفن يتلمسون أخبار طومانباي وحربه مع العثمانية من العائدين من هناك، لم يكن يدري أنس أن الطريق إلى المقابر بعيد عن بيوت البلد فظلوا سائرين إلى أن دبت أرجلهم في درب غير ممهد ومن حين لآخر يظهر سبيل صغير لسقيا الدواب والناس، بدأت أسنمة القبور تظهر رويدًا فمشوا بينها حتى سور قصير يضم منامة كبيرة، مثل صبور أمام المصطبة ورفع كفيه وقرأ الفاتحة، التفت إلى أنس وبصوت خفيض يخبره:

– هنا أبوك مصري يا أنس، كان شابًا شهمًا يقدم خدماته للجميع.

– رحمه الله يا صبور ولعن من تسبب في...

بتر الشيخ يوسف كلماته لتغير وجه أنس وعيناه تذرفان الدموع، ربت يوسف على كتفه وهو يؤكد له:

– ربنا وحده يعلم كم فجعنا لموته ولو سمحت الظروف وولدت هنا لأحسن جدك صبور تربيتك لكن النصيب.

لم يرد صبور إطالة مكوثه فاستدار وأحاط حفيده بذراعه، عادوا سريعًا إلى الدرب والشمس لا تزال تحبو نحو السماء، تركا أنس بالدكان فلم يتوان في العمل فأنهى تنظيفه وتثبيت مفصلات بابه، علّق الرفوف الخشبية العريضة، بقي عودة جده مع يوسف ويعقوب من تجوالهما في الأسواق ويشرع في رص الجلود والخشب المخصص لصنع القبقبان وصفائح الحديد والفضة لصنع القربوس والأقمشة المتينة للمرشحات التي توضع تحت السروج غير العدة الناقصة، غسل يديه ووجهه، جلس على المصطبة، آتاه مظلوم المسكين بقلة فرفعها أنس وترع الماء فشعر بطعمه المختلف عن ماء الفسطاط، افترت شفتا الرجل الهزيل عن ابتسامة عذبة، حكّ صلعته وبلسانه تلمظ شفتيه، يضحك فتتكشف أسنانه المهتمة.

– في ليلة شتاء بعيدة، كنت الوحيد من شاف جدك وأمك عفيفة وخالتك صافية وهم يركبون عربة المرحوم عبد الموجود الطيّان زوج مسعودة أخت يوسف النحاس وعرفت بعدها أنكم رحلتم إلى مصر الكبيرة.

– كنت ساعتها في بطن أمي.

– آه، رحم الله أباك مصري، ساعدت يوسف وإمام الجامع الكبير في غسله والله ما شممت أطيب من رائحة دمه.

– رحم الله الجميع يا جد مظلوم.

– ويحفظك يا ولدي، فيك من يكتم السر، بعد هروب جدك هجم على الدرب الأمير بلباي مع ابنه تمراز وخدمهما يطلبون جدك وبهدلوا أهل الدرب وكادوا يقتلون يوسف النحاس وكانت نيتهم السوداء سبي حريم يوسف ليعترف لكني أخفيت أم يعقوب وأخته مسعودة في بيتي الفقير، استخفوا بي ولا واحد منهم اهتم حتى بسؤالي، عصر ثاني يوم لبدت وسط الزرع ومعي حربة مسنونة ولما رأيت الأحمق بلباي قادمًا على فرسه لوحده، رميته بالحربة فأصابت قلبه.

– أنت؟

– نعم أنا، وما اعترفت بسري لمخلوق قبلك حتى ليوسف النحاس نفسه.

كشرنقة من خيوط متشابكة أحاط أنس المسكين مظلوم بنظرات الإعجاب الممزوجة بمحبة لا يدري كنهها، ربما أراد الرجل أن يثأر لإهانة جده أو ينتقم من الأمير الجركسي لانتهاكه الدرب لكنه شعر منه بصدق مقولته، ربت على كتفه وسحب كيسًا صغيرًا به عدة أشرفيات ودنانير ذهبية سليمانية جديدة، في سرعة فك مظلوم رباط الكيس وبرقت عيناه لما به، مال يقبّل يد أنس فانتزعها في سرعة ومظلوم يردد دعاءه بالخير وسعة الرزق والصحة.

– كريم وجوّاد مثل جدك وربنا يجعل لك في كل خطوة سلامة يا أنس باشا.

– لست باشا يا عم مظلوم، أنا أنس بن مصري وجدي صبور السراج.

– أصيل يا أنس.

– طبعًا أصيل يا مظلوم.

أعلنها صبور ووجهه يتفصّد بالعرق من فرط ما بذل من جهد، يعقوب يحاول حمل الزكيبة الكبيرة من على ظهر البغل فيعاونه أنس ويدخلها الدكان، يوسف النحاس يخطو نحو الزير المركون خلف باب بيت صبور ويشرب فيلحق به صبور، على الحصير يجلسون ويستأذن يعقوب ليأتي بطعام الغداء، التفت أنس لجده وصاحبه واستفسر:

– غريب أمر مظلوم المسكين، ما حكايته؟

– أكيد حكى لك عن الهلالية وخضرة الشريفة وأبو زيد وأخته شيحة143.

– في الحقيقة هو قال لي سر الجازية أخت السلطان حسن الهلالي وكان يغني: لابسة توب أخضر برسيمي.. وقال أن جدي صبور يستحق ست مثلها.

امتزجت ضحكات يوسف النحاس وصبور فصوّب نظراته إلى الشارع الضيق فرأى مظلوم يقرفص والعيال حوله، يجر الربابة ويغني، التفت أنس إلى يوسف النحاس وسأله في اهتمام:

– قل لي يا جد يوسف، ما مصير الأمير بلباي؟

– ربك يمهل ولا يهمل يا أنس، هذا الكلب كاد يقتلني وهو يطلب جدك، وبعد أيام اختفى وبحث عنه ابنه تمراز مع خدمه ومماليكه فوجدوه مطعونًا وسط الزراعات والكلاب نهشت رمته.

اتسعت ابتسامة أنس إعجابًا ودهشة لمظلوم القابع أمام عتبة بيته، في قرارة نفسه سيجزل له العطاء قبيل عودته، لا يدري سببًا لبزوغ وجه مؤدبه بالإسكندرية الشيخ يحيي وكان يكرر بيت الشاعر:

ترى الرجل النحيف فتزدريه وفي أثوابه أسد هصور

تمتم بالبيت الشعري وهو مبسوط للسر الذي أودعه إياه مظلوم، أقبل يعقوب بالطعام فدعا يوسف جاره المسكين:

– تعال يا مظلوم، لا يصلح الطعام إلا شركة.

بعد الغداء أمضى أنس وجده بقية اليوم في ترتيب الأدوات والآلات والعدد والأشياء التي يستخدمها في صناعة السروج، بالليل قام بالاستحمام وغسيل ملابسهما ونشرها على الحبال الليفية المتينة،

جلسا متقابلين ودون أن يسأله أنس روى له ما يريد معرفته:

– أم مظلوم كانت جارية عند واحد من المماليك، حكت أنهم طردوها من خدمتهم شر طردة وبعدها بشهور ولدت ولدًا.

– هو مظلوم.

– أي نعم وخافت عليه ليقتله أهل الجركسي المعتدي عليها فهامت على وجهها في بلاد الله وحطت هنا بالدرب، كانت القصبة الضيقة بين البيتين فاضية وبالطوب الأخضر بنى لها أهل الخير بيتًا عاشت فيه تخدم كل أهل الدرب وربت ابنها وماتت بالطاعون أيام قايتباي، في جوفها ابتلعت الأيام سيرة أم مظلوم وبقي معنا ولا عمل له غير اللف في الموالد وحلقات الذكر ولما كبر وضعف تقاسم معنا حلو الأيام ومرّها، يقعد طوال الوقت يجر الربابة ويحكي للصغار قصة الهلالية ويعطف عليه أهل الدرب.

– أنا مبسوط أني عرفت حكايته.

تمدد على السرير الجريد، طافت نظراته بجوانب البيت ودار في باله أن شيئًا ما يلزم عمله لجده قبل مفارقته.

***

-٤-

هذه المرة الغداء لم يكن ببيت صبور أو يوسف النحاس بل أصرّت السيدة مسعودة شقيقة يوسف النحاس على الاحتفاء بعودة صبور، فشددت على الغداء ببيتها المجاور لبيت أخيها، أثناء شراب الليمون جلست معهم السيدة الخمسينية بجسمها الممتلئ وعلى جيدها يتدلى عقد الشفتشي144 القديم، طوال الوقت تترحّم على الميتين، أم عفيفة ومصري وعفيفة نفسها ثم ختمت دعاءها بالرحمة لزوجها عبد الموجود الطيّان ونهضت إلى الداخل.

– زوجها كان طيانًا؟

– نعم يا أنس، كان يعجن الطين ويصنع منه مواجير وبلاطة الفرن وكان يدق الطوب وغيره من أعمال، راح في الطاعون.

– لكن قل لي يا جدي صبور، لما ماتت جدتي ما سبب إضرابك عن الزواج؟

– كان ممكن أتزوج خصوصًا أني كنت تحت الأربعين لكن قلت لما أستر عفيفة وخالتك صافية وزوّجت أمك وبعدها...

– مات أبوك يا أنس، وحزن جدك صبور كما حزنا كلنا عليه وسخر وقته لرعاية أمك في حملها وبعدها حادثة وقوع ابن الأمير تمربغا وهروبه.

– إنها المقادير يا بني، تفعل بالإنسان أفاعيلها.

– صحيح، قبل مشينا غرضي أشكر خالتي مسعودة.

من جوف البيت أقبلت السيدة فشكرها أنس وأثنى على طعامها ونكهته التي لن ينساها، دقق النظر في وجهها المليح والطيبة تتضح من بين قسماته الودودة، ابتسامتها هادئة والوشم الباهت يزين أسفل ذقنها، من طرف خفي لمحها ترنو لصبور في خجلٍ فتبادل أنس ويوسف النحاس النظرات واتفقت ابتسامتهما على ما يجب فعله، حين عادوا وجد صبور أول زبون يقف أمام الدكان المغلق ففتح بابه على الفور والرجل يطلب سرجًا لحصانه، انتحى أنس بالمعلم يوسف وبجرأة لا تحتمل الإبطاء فاتحه:

– والله يا جد يوسف، من سيرتك أحببتك من قبل أن أراك وبين يوم وليلة أفارق جدي ولا أريد تركه وحيدًا.

– ولا أنا يا أنس، يصعب عليّ أن يغلق عليه بابه دون أليف.

– اتفقنا، أخطب له خالتي مسعودة.

دون سابق إنذار، فرد يوسف كفه على فمه وانفرجت أساريره وعلت قهقهته حتى رجّت المطرح، مال بظهره إلى الوراء حتى كاد يقع فسنده أنس وعجز عن تخمين رده، سعل وانتظر حتى يتمالك النحاس نفسه.

– هذا رأيك يا أنس؟

– نعم يا جد يوسف.

– ولو قلت لك كنت أنوي مفاتحته في الموضوع الليلة وما غداء نهارنا إلا ليراها وتراه بعد مضي العمر الطويل على غيابه لكني كنت خائفًا منك.

– مني أنا! حبي لجدي وحاجته لشريك له في الحياة هو ما جعلني أفكر في عدم تركه بلا زوجة تؤنس وحدته.

– آه كم أنت إنسان جميل يا أنس بن مصري!

– أفاتحه أنا في الموضوع.

– لا، هذا من شأن الكبار ولا تظن أني أخجل من مفاتحة صديقي في الزواج بأختي، جدك صبور إنسان لا يعوض يا أنس.

– أعلم يا جد يوسف وأنت أيضًا حقيقتك أحسن مما سمعته عنك.

– إذن، خير البر عاجله.

تركه يوسف ودخل البيت فانشغل أنس في صناعة السرج وخياطة الجلد وتجهيز القبقب والسموط والحزام الذي يلف أسفل بطن الحصان، من حين لآخر يسترق النظر لباب البيت الموارب وأخيرًا بزغ الشيخان وعلى وجهيهما إشراقة الرضا والاتفاق، ترك أنس ما بيده وحضن جده في قوة، أخبره يوسف أن الليلة سيعقد شيخ المسجد الكبير القران ومن الغد تنقل مسعودة ما تريد للبيت، سعادة غامرة اجتاحت نفس أنس وانتابه اطمئنان لا مثيل له، ندّت عنه ضحكة أثارت فضول الشيخين، بادر بإزالة آثار استغرابهما:

– إنسان وحيد كنت أتمنى يكون معنا، عبده بن جمعة.

– كان زفني بصحيح.

– عبده قال لجده: حبذا لو رجعت لنا ومعك عروسة من أسيوط.

تداخلت ضحكاتهم وعرّف صبور عبده ليوسف بأنه ابن المرحوم جمعة معاون الشيخ زيتون في عمله وزوج بنته مسكة، تركه أبوه يتيمًا بعد أن حصده الطاعون بمنجله كما حصد في تلك الأيام البعيدة حيدرة بن حجاج وصافية والآلاف من أهل القاهرة والفسطاط وكل ربوع البلد.

ليلًا بعد كتابة العقد بالمسجد، عادوا إلى الدرب وجهزت مسعودة العشاء وعاونتها زوجتا يعقوب وعبيد، وموجات السعادة تنتابهم حتى أن زوجة يعقوب فجرت زغرودة ضحك لها كل الحاضرين، بعد العشاء بوقت سار ثلاثتهم صبور وأنس ويوسف وجلسوا على المصطبة ونسمة هواء رخية أنعشت صدورهم، أضاء أنس شمعة الفانوس الكبير المثبت جوار باب الدكان، في حجر مظلوم وضع يوسف نصيبه من العشاء فابتهج الرجل العجوز.

– الله! كنت عدت من زمان يا صبور، رجعت ورجعت معك الفرحة.

– شكرًا يا مظلوم، ومن حظي أن يشهد حفيدي أنس على عقد زواجي.

– وأريد الاطمئنان عليك أكثر يا جدي.

– بعد سفرك أدخل على مسعودة.

– وبالمناسبة، مجهز لك حاجة.

غاب أنس داخل البيت وعاد وبيده لفة من ورق، لم يستطع أن يغالب ضحكته وهو يفردها أمام جده، هذه المرة كاد يوسف النحاس يفقد صوابه مما عرف ما باللفة، قرص صبور الضاحك خد أنس.

– الله يخيبك يا ولد، مطحون السقنقور؟!

– يا للشباب يا صبور وأفكارهم.

قالها يوسف وهو يهدئ من نفسه، أعاد صبور لف الورقة ودسها بين طيات جلبابه، وعاد للضحك عندما أخبره أنس أن عبده بن جمعة بنفسه جهز المسحوق مع غيره من بهار وأعشاب وبذور كثيرة قد يحتاجها عندما يستقر بأسيوط، التفت يوسف لصبور وأقر:

– والله يا أبا عفيفة، ما تمنيت في حياتي أكثر من أن يحكمنا واحد كأنس بن مصري بدل الجراكسة وطمعهم والعثمانية وغرورهم واستهانتهم بأرواحنا.

– سيحدث يا يوسف، إن شاء الله يطلع من بين أولادنا شاب ثوري يطرد كل الغرباء من بلدنا.

– لا تنس يا جدي، ثوري ابني قد يكون منْ تقصد.

– أو غيره يا أنس.

– إلى أن يأتي يلزمنا التمسك بالحياة.

أنهى مظلوم المسكين المهاترة فأظلتهم سحابة من صمت وتلاقت نظراتهم في استغراب لما أقره جارهم العجوز بسحنته التي أكل عليها الدهر وشرب، وعى أنس أن وجود الست مسعودة مقترن برحيله فتمنّى ألا يتأخر الريس حميد، تصفيق أمام البيت، أطلّ صبور ودخل خلفه واحد من نوتية الريس.

– الريس حميد يسلم عليكم ويخبركم أن السفينة تبحر في الصباح.

– استرح يا ولدي واشرب النعناع.

تناول الشاب الكوب وشربه دفعة واحدة، نهض من فوره وتركهم فارتسمت آيات الوجوم على وجه صبور لقرب فراق حفيده الذي حارب الدنيا من أجل استعادته، بادله أنس نظرات الحزن، لكن الشاب ذا النفس الوثابة لم يرد أن يثقل على جده بإحساسه بفراقه، التفت إليه وداعبه:

– الأمور ماشية ومترتبة يا عريس.

من بين طيات الكآبة انفتقت ابتسامته الشاحبة، دمعة متعرجة على خده بللت لحيته الخفيفة واستشعرت شفته طعمها المالح فمسحها في سرعة وانفصل عمن حوله وهو يطيل النظر لأنس وكأنه ينهل من وجهه زادًا يجعله قادرًا على احتمال ألم فراقه، أشار يوسف إلى مظلوم فخرجا من البيت، في زكيبة كبيرة لملم أنس أشياءه فتمدد كل منهما على سريره، نام أنس لكن صبور ظلّ يتقلب ومن حين لآخر تنسج عيناه شباكها على أنس النائم كرضيع في اللفة، تمتم في أسى:

– ربنا يصبرني على فراقك يا حبيبي.

***

على البر تحلقوا حول أنس وكل منهم يحضنه، جاء الدور على مظلوم المسكين فضمه في قوة، دس أنس يده بجيب جلبابه وأخرج كيسًا كبيرًا، أعطاه إياه فتمنع العجوز لكن أنس ضم أصابعه على قبضته، طلب يوسف من ابنه يعقوب أن يصحب مظلوم إلى الدرب ورافق أنس مع صبور إلى ظهر السفينة، طمأنهم عبيد بن حميد أن أباه في السوق وستتحرك السفينة بعد ساعة، كنبتة بازغة تقرفص أنس بين الشيخين: جده وصديقه يوسف أمام باب الحجرة الضيقة التي تلقت جدرانها صرخاته حين ولد، فرد صبور سبابته وهو يؤكد:

– اسمعني يا أنس، ما قاله جارنا القديم مظلوم المسكين هو الصواب، أرجوك يا بني تبتعد عن الجراكسة فنفوسهم مشحونة بالغل وكل منهم يطمع في ما بيد غيره، وتتحاشى إنكشارية العثمانية فلا هم لهم غير البطش بضعاف الناس ليثبتوا أنهم الأقوى.

– أمرك يا جدي.

– وتخلص في صنعتك وتلزم رعاية أهل بيتك وأولادك.

– أكيد يا جد يوسف.

– واسمع لعمك حجاج بن زيتون العلوي فهو رجل حكيم وإن كان قليل الكلام، واحفظ أمينة حفظك لروحك فهي الآن روحك التي تحبك ولا تتمنّى في الدنيا إلا رضاك.

– كم أنت رقيق يا جدي، والله ما شعرت بإكرام الله لي إلا حين أعدتني وما أحسست بلذة الحياة إلا بعد زواجي من ابنة خالتي أمينة وخالتي صافية هي قرة عيني التي أخدمها بجهدي.

– وفي أول فرصة أرسل لي رسالة مع أي ريس مركب ينزل أسيوط.

– إن شاء الله وأنت يا جدي، في أول فرصة أرسل لي رسالة بأن السقنقور قام معك بالواجب.

تضاحكوا ووكز صبور حفيده في صدره فمال على جنبه وارتاحت نفسه لمرح جده ودعا في دواخله لهما بالصحة وطول العمر واللقاء في أقرب وقت، استحال انبساط وجه صبور إلى عبس حين قدم عليهم الريس حميد فحمل عنه أحد عماله البقجة الصغيرة، سحّت الدموع من عيني صبور وهو يحضن حفيده ويقبل جبينه، ربت يوسف على كتفه وقاده نحو السقالة الخشبية العريضة، في تثاقل خطا حتى الشط، سحب العمال الألواح وتأرجحت السفينة معلنة عن إبحارها الوشيك، شد النوتية الحبال ففرد الشراع وبدأت في التحرك، أشار أنس بيده وبادله صبور التحية ولسانه يلهج بالدعاء له بسلامة الوصول، استسلم لقيادة يوسف فصعدا معًا الدرج الحجري وظلت عيناه تودعان السفينة المسرعة حتى أخفتها طية النهر البعيدة.

عادا إلى درب النحاسين فوجد صبور زوجته مسعودة في انتظاره فجهزت الإفطار له ولأخيها، كعادته حين ينتابه القلق المجبول بالحزن لاك لقيمات صغيرة واحتسى بلعة لبن، نهض من فوره وفتح الدكان، على الدكة جلس يوسف وما إن رفع صبور المطرقة ليدق بها مسمارًا صغيرًا بالسرج حتى اقتحم الدرب ثلاثة فرسان، وقف أولهم وهو يشد لجام فرسه، من سحناتهم ميزهم صبور بأنهم من أراذل المماليك وكالحرباء يرتدي كل منهم كجند العثمانية ويحلقون لحاهم مبقين على شواربهم الكثة، مسح أولهم وجوه أهل الدرب واستقرت نظراته الهازئة على مظلوم المسكين وهو يضم ربابته إلى صدره، علا صوته بالأمر:

– عليكم مكوس وكلفة سنة قادمة، يجب تجهيزها ونلمها منكم من الغد، هذا أمر يُطاع وإلا...

لم يكمل الجركسي كلمته وأدار لجام فرسه وألقى نظرته الساخرة على مظلوم ومضى وسط حارسيه، جاور صبور صديقه وأحاط كتفه بذراعه، سعل من الغبار الذي خلفته حوافر الخيول، عطس في قوة وحمد ربه، أدار وجهه للخلف فلمح مسعودة تبص من خلف البواب الموارب فبادلها ابتسامة مترعة بحمل السنين، التفت إلى الأمام وسمعه يوسف النحاس يقول في صوت خفيض:

– ترى كيف يعيش الناس مع هؤلاء المماليك العثمانية، الله يلعنكم ويلعن اليسرجي الذي باعكم على دكة المماليك.

تمت

وقفة لا بد منها:

صديقان رافقاني رحلتي في كتابة الرواية ولهما مني أسمى آيات الشكر والعرفان

هما:

أبو البركات محمد بن شهاب الدين بن أحمد بن إياس الحنفي وكتابه الأثير «بدائع الزهور في وقائع الدهور».

أحمد بن أبي الحسن علي بن نور الدين المحلي الشافعي المعروف بابن زنبل الرمال وكتابه الأثير «انفصال دولة الأوان واتصال دولة بني عثمان»، الذي عرف بعنوان «آخرة المماليك أو واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني».

المؤلف

أيمن رجب طاهر

مواليد أبنوب بأسيوط 23/6/1973م

عضو اتحاد كتاب مصر عضو نادي أدب أسيوط عضو نادي القصة بأسيوط

أعمال صادرة:

النتاج الروائي:

موت بريء (رواية) 2007م عن مركز سيتي للطباعة بأسيوط.

شرنقة الجسد (رواية) 2011م عن الهيئة العامة لقصور الثقافة.

وني.. حكيم الحروب (رواية) 2011م روايات الهلال.

إبور.. ناصح الفرعون (رواية) 2013م روايات الهلال.

القحط (رواية) 2013م عن دار الأدهم للنشر.

بنتاور.. الساقي الأمين (رواية) 2014م روايات الهلال.

حم إيونو.. عظيم الهرم (رواية) 2016م روايات الهلال.

تل العقارب (رواية) 2017م عن دار الأدهم للنشر.

بنو عدي (رواية) 2017م عن دار العماد للنشر.

ليل زوارة (رواية) 2017م عن دار كيان للنشر والتوزيع.

نو□يلا (رواية) 2018م عن الهيئة المصرية العامة للكتاب.

القحط (رواية) ط2 2019م عن دار كيان للنشر والتوزيع.

أنوبيس.. يرقص على حافة الحياة (رواية) 2019م عن دار بردية للنشر والتوزيع.

مرفأ الأربعين (رواية) 2020م عن دار غراب للنشر والتوزيع.

الهجانة (رواية) 2020م عن دار كيان للنشر والتوزيع.

نتاجات أخرى:

التابوت (قصص) 2005م عن مركز سيتي للطباعة بأسيوط.

مدونة الأساطير (قصص) 2007م عن مركز سيتي للطباعة بأسيوط.

من أنتم؟ (قصص) 2013م عن المركز الأدبي للطباعة بأسيوط.

بيت الحكمة (مسرحية) 2013م عن المركز الأدبي للطباعة بأسيوط.

كتاب الموتى 2015م (نصوص) دار الإسلام للطباعة والنشر.

صدى لضوء خافت (قصص) 2019م مطبوعات اتحاد كتاب مصر.

زهور بلا أشواك (مسرحية) تم عرضها بقصر ثقافة الزعيم جمال عبد الناصر ببني مر 2019م.

جوائز وتكريمات:

* جائزة أحمد بهاء الدين الثقافية في أدب الطفل 2009م.

* جائزة أحمد بهاء الدين الثقافية في الرواية 2010م.

* تقييم معنوي من أمانة جائزة الشارقة (الإصدار الأول) في المسرح عن مسرحية (بيت الحكمة) 2010م.

* جائزة أخبار الأدب ومؤسسة المصري في القصة القصيرة 2011م.

* جائزة القصير للإبداع الأدبي في القصة القصيرة 2011م.

* درع نادي القصة بأسيوط لعام 2012م.

* إطلاق اسم (أيمن رجب طاهر) على دورة مؤتمر نادي القصة بأسيوط 2014م.

* جائزة ثقافة بلا حدود العراقية في القصة القصيرة 2016م.

* جائزة صالون نجيب الثقافي في القصة القصيرة 2016م.

* درع هيئة قصور الثقافة للمكرمين عن أسيوط بالمؤتمر السابع عشر لإقليم وسط الصعيد الثقافي 2017م.

* درع رابطة الشعراء والأدباء العرب 2017م.

* درع التميز من فرع ثقافة أسيوط 2017م.

* درع التميز من نادي القصة بأسيوط 2017م.

* درع التميز من مدرسة السلام الحديثة المشتركة 2017م.

* درع التفوق من نقابة محامي أسيوط 2017م.

* درع اتحاد كتاب مصر فرع الجنوب 2018م.

* درع نادي الأدب المركزي بأسيوط 2018م.

* جائزة الدولة التشجيعية في الآداب عن رواية القحط (رواية تاريخية) لعام 2016م.

نشرت قصصه في مجلات منها:

جريدة أخبار الأدب / مجلة الثقافة الجديدة / جريدة السفير / مجلة المحيط الثقافي / مجلة نزوى العمانية / مجلة اللقاء / جريدة أخبار أسيوط / مجلة الرافد الإماراتية / مجلة الفيصل السعودية / جريدة الأهرام / مجلة أمارجي العراقية.

هوامش

فرس أبلقي: ماخالط بياضه سواده.

الجفتاوات: مفردها جفتي وهو سائس الخيل.

السموط: سير يعلق في مؤخرة السرج.

الإبزيم: عروة معدنية في أحد طرفيها لسان توصل بالحزام لتثبت طرفه بالوسط.

الباذدارية: خدم موكلون بكلاب الصيد في قصور أمراء المماليك.

الخاصكية: أحد حراس السلطان.

شاد الدواوين: الأمير المشرف على استخلاص الأموال..

أمير أخور: رئيس الإسطبل السلطاني والمشرف على خيله.

الهماليج: هي الخيول التركية والأعجمية وتسمى أيضًا الأكاديش.

البوز: فرس لونه أبيض.

الكميت: فرس لونه أحمر.

الأدهم: فرس لونه أسود.

خيول الحجورة: التي تستخدم في لعبة الأكرة والرياضة.

القنب: نبات يستخدم لتخفيف الآلام.

السلطان المؤيد شيخ: هو المؤيد أبو النصر شيخ المحمودي حكم مصر من ١٤١٢ إلى ١٤٢١م.

٨١٩هـ يوافق ١٤١٦مـ.

٩٠٠هـ يوافق ١٤٩٥مـ.

خشداشية: مماليك ينتمون إلى نفس الأمير أو السلطان.

ببا: إحدى مدن محافظة بني سويف حاليًا.

الفشن: أحد مراكز محافظة بني سويف الآن.

زاوية: يُقصد بها مسجد صغير.

الطوب الأخضر: الطوب النيئ غير المحترق.

البوز الأكاديش: فرس أبيض عجمي.

خوند: لقب شاع بين المماليك يفيد الاحترام ويعني السيدة الجليلة.

الكاشف: المشرف على الأراضي والحاكم لها وهو أيضا جابي الضرائب.

من أغاني الختان المنتشرة بالصعيد.

السقيفة: المدخل المسقوف للبيت.

العنجريب: بلغة أهل الجنوب سرير مصنوع من جريد النخل.

البراطيل: لفظ يطلق على الرشوة.

تجار الكارمية: فئة من التجار كانت بيدها تجارة البهار الوارد من الهند.

المرشحة: بطانة توضع تحت السرج تنشف الرشح.

الركابان: زوجان من الأقواس الحديدية بأسفل السير يدخل فيها الحذاء.

أمير طبلخاناه: أمير تدق الطبول والأبواق على أبوابه، وتحت إمرته أربعون فارسًا ومنهم يكون كبار الولاة وأرباب الوظائف.

مقدم ألف: أمير تحت إمرته ألف فارس.

القربوس: وهو الهيكل المعدني الأمامي والخلفي للسرج، وهو ذو طرف مدبب.

القبقبان: خشب السرج.

اللبد: ما يوضع على ظهر الفرس قبل السرج.

الحياصة: الحزام.

العقربة: حديدة تشبه الكلابة تعلق بالسرج.

التوسيط: هو شطر الإنسان من وسطه بالسيف.

٩٠٠هـ يوافق ١٤٩٥مـ.

هاتور: من الشهور القبطية ويوافق شهر نوفمبر.

الذهب المنثور: يقصد به القمح في موسم حصاده.

الدير المعلق: دير مارمينا العجائبي بجبل قرية المعابدة بأبنوب.

الطبر: نوع من السلاح يشبه الفأس، ويسمى ببلاد فارس الطبرزين.

الكلفة: ضريبة يفرضها المماليك.

نهر كودوري: يوجد بأبخازيا ويصب بالبحر الأسود...

طباق: محل إقامة المماليك المستجدين بقلعة الجبل.

الفصى: اسم دارج يطلق على نوى البلح.

كنبوش: كساء يوضع تحت سرج الفرس.

الچتر: قبة من حرير مزركش تحمل على رأس السلطان تقيه الشمس.

الوطاق: الخيمة.

الزردخانية: المشرفون على السلاح.

جامكية: أجر.

مراسيم: أوامر.

الجنائب: نوع من الخيول تتبع السلطان في الحرب للحاجة إليها.

البرابي: مفردها بربا، وهو المعبد الفرعوني.

هو أحمد بن أبي الحسن علي بن نور الدين المحلي المعروف بابن زنبل الرمال، ولد بالمحلة الكبرى (١٥٠٠ ـ ١٥٧٢) عاصر ابن إياس وعبد الباسط بن خليل الحنفي وحسن بن الطولوني وله كتابه المعروف بـ «انفصال دولة الأوان واتصال دولة بني عثمان» ونشر بعنوان: «آخرة المماليك أو واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني» الذي يعد شاهد عيان على نهاية عصر المماليك وبداية احتلال العثمانيين لمصر.

حادي عشرينه: ٢١ ربيع الآخر ٩٢٢هـ يوافق مايو ١٥١٦م.

القرانيص أو القرانصة: مماليك سلطان تحولوا إلى خدمة أمير آخر أو سلطان جديد.

الجلبان: مماليك جدد لخدمة السلطان.

أرباب الأشاير: أصحاب الطرق الصوفية.

١٠ ذو الحجة ٩٠٨هـ يوافق ٤ يونيو ١٥٠٣م.

٩١٩ هـ توافق ١٥١٤م

البجاسي: نسبة إلى الأمير أيتمش البجاسي في أيام السلطان الظاهر برقوق وله مدرسة تقع بباب الوزير بالدرب الأحمر.

أبيب: من الشهور القبطية القديمة.

حرّاقة: سفينة.

القابون: كلمة سريالية تعني العمود أو مكان تجمع الماء ومنطقة القابون تابعة لدمشق تقع بينها وبين الغوطة.

جيلان: قرية قرب الحدود السورية التركية.

السنجق: الراية.

التخت: كرسي السلطان وعرشه.

الطومار: ورق كبير.

عنتاب: بلدة شمال حلب تقع بالأراضي التركية.

ملاحٍ: خائن له ومتعاون مع عدوه.

مدورة السلطان: خيمته.

مسجد صرغتمش: أنشأه الأمير سيف الدين صرغتمش الناصري من مماليك الناصر محمد ابن قلاوون عام ٧٥٧هـ/ ١٣٥٦مـ وجعل به مدرسة لتدريس علم الحديث وأصول الفقه الحنفي.

رمضان ٩٢٢هـ يوافق ١٥١٧مـ.

التجوين: التوغل...

المرجسية: إناء فخاري يشبه الطاجن.

الإسقنقور: ويسمى أيضا السقنقور أو سمكة الرمل، زاحف غير سام يشبه السحلية ويغطس في الرمال، يُصطاد من الصحراء ويؤكل بعد تنظيفه لفوائده الصحية ومنها التقوية الجنسية.

الفالج: الشلل.

الرختوان: خادم مكلف بحفظ الأثاث والعناية به.

جامع الأطروش: يقع المسجد داخل قلعة حلب العظيمة، بدأ في بنائه أقبغا الظاهري سنة ٨٠١هـ / ١٣٩٨م ولم يكمله فأتمه من بعده دمرداش الناصري.

توجد من ناحية سور الغورية.

قنطرة الخرنوبي: أنشئت في عهد بهاء الدين قراقوش وزير الناصر صلاح الدين الأيوبي لتوصيل الماء إلى أرض الطبالة بالفجالة وقام الغوري بترميمها عام ٩١٧هـ/١٥١١مـ.

الصُرم: مفردها صرمة وهي قطعة الجلد التي يصنع منها النعل أو الحذاء.

الأولاقية: رسل من عند ابن عثمان.

السكة والخطبة باسمه: أي تكون النقود باسمه ويدعى له في الصلاة.

السنبوسك: هي السمبوسة وتجهز من عجينة مثلثة محشوة بخضار أو جبن أو مفروم اللحم.

المداميك: مفردها مدماك وهو صف الطوب.

الينكجرية: وتسمى الإنكشارية وهي فرق من العسكر العثماني.

قطيا: هي بلدة قطية القريبة من العريش.

الزردخاناه: بيت الزرد أو مكان حفظ السلاح.

الكوسات: صنوج من نحاس ذات رنين عالٍ حين يدق بها أمام موكب السلطان.

أولاد الناس: أبناء المماليك.

العوسج: من النباتات التي تكثر بسيناء وتستخدم في شفاء الكثير من الأمراض وعصارته تشفي أمراض العين.

اللومبارد: أو لومبارديا اسم يطلق على شبه الجزيرة الإيطالية.

القطيفة: هي عشبة الأذريون ذات الزهرة الصفراء البرتقالية، لها فوائد طبية عديدة منها شفاء الجروح.

غرة محرم ٩٢٣هـ توافق ١٥١٧م.

صوباشي: رتبة في الجيش العثماني.

زنط: عمامة.

جربجي: ضابط إنكشاري برتبة رئيس فرقة من المشاة.

تليس: كيس كبير يغزل من الصوف.

جامع شيخو: يوجد بسويقة منعم بين الصليبة والرميلة بناه الأمير شيخون العمري من مماليك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٥٠هـ/ ١٢٤٩م.

جامع المؤيد شيخ: بناه المؤيد أبو النصر سيف الدين شيخ بن عبد الله المحمودي الظاهري ٨١٨هـ / ١٤١٥م.

الملقة: الأرض الواسعة.

الويكة: أكلة شعبية وهي عبارة عن طاجن شرائح البامية المقطعة مع اللحم.

داء ذات الرئة: الالتهاب الرئوي.

٩٢٣هـ يوافق ١٥١٧مـ..

الرنك: شعار أو شارة اشتهرت في العصر المملوكي ترمز للأمير أو السلطان

يلاقشون: يعاكسون.

الفلاوية: هم الفلاتية أي أوباش الناس وأحقرهم ممن يتصفون بالخسة والنذالة.

بلاليق: هي الأغاني الشعبية الهزلية المنتشرة في العصر المملوكي.

شربوش: غطاء الرأس.

الأشرفي: عملة ذهبية اشتهرت في العصر المملوكي.

جامع قوصون: أنشأه الأمير سيف الدين قوصون الساقي الناصري عام ٧٣٠هـ/١٣٣٠مـ، ويقع خارج باب زويلة.

كردوس: طائفة عظيمة من الخيل والجيش.

عيد النيروز: رأس السنة المصرية أوله شهر توت القبطي.

تَروجة: إحدى القرى التابعة لمركز أبو المطامير بالبحيرة.

الترسيم: تحديد الإقامة.

الرافضة: يقصد جيش الشاه إسماعيل الصفوي. فى معركة جالديران ٩٢٠هـ / ١٥١٤مـ..

القابوجية: الحجّاب.

البيمارستان المنصوري: أنشأه السلطان المنصور قلاوون في منطقة بين القصرين وأشرف على بنائه الأمير علم الدين الشجاعي وافتتح عام ١٢٨٣م وكان يشمل مستشفى ومدرسة للطب وأقسامًا لكل الأمراض ومعامل لتركيب الأدوية والأمصال والمراهم وكان علاج المرضى وطعامهم وإقامتهم بالمجان.

بابه: أحد الشهور القبطية يقابله شهر أكتوبر.

كبش أملح: لونه أسود يعلو وجهه بياض.

الوشرة: كتلة مستديرة من الخشب المتين يقطع عليها اللحم.

٩٢٤هـ يوافق ١٥١٨مـ.

يتطير: يتشاءم.

نبيذ أقريطشي: نسبة إلى جزيرة أقريطش (كريت) اليونانية.

أشرفي برسبيهي: عملة تنسب إلى السلطان الأشرف سيف الدين برسباي (١٤٢٢ - ١٤٣٨).

أشرفي قايتباهي وغوري: عملات تنسب إلى السلطان الأشرف سيف الدين قايتباي (١٤٨٦ - ١٤٩٦) والأشرف قانصوه الغوري (١٥٠١ - ١٥١٦).

فرخ الجمر: مرض الجمرة الخبيثة.

٩ شوال ٩٢٦هـ يوافق ٢٢ سبتمبر ١٥٢٠مـ.

الدست: مرجل كبير من النحاس.

العرقانة: السجن.

شبرمنت: إحدى القرى التابعة لمركز أبو النمرس بالجيزة.

الروادسة: نسبة إلى جزيرة رودس اليونانية.

السنطور: آلة وترية تشبه القانون يضرب على أوتارها بمضربين صغيرين من الخشب.

الخازندار: المشرف على الخزانة وبيت المال.

الحلتيت: صمغ يفرز من جذور نبتة الكلخ كريه الرائحة يستخدم في مداواة بعض الأمراض.

إيالة: ولاية.

البيتان للشاعر العربي عمرو بن معد يكرب.

أبو زيد الهلالي وأخته شيحة والأمير حسن والجازية وخضرة الشريفة: شخصيات ورد ذكرها في السيرة الهلالية المطولة.

الشفتشي: حلي من النحاس مطعم بالخرز.

كيان للنشر والتوزيع

للتواصل معنا :

kayanpub@gmail.com

info@kayanpublishing.com

أو زور موقعنا:

www.kayanpublishing.com

وللاتصال الهاتفي:

هاتف أرضي: 0235918808

هاتف محمول: 01001872290 /01000405450

وللاطلاع على كُتُبنا، ومتابعة إصدراتنا الجديدة، وأنشطتنا وأنشطة كُتَّابنا الثقافية

يمكنكم متابعتنا على الروابط التالية

Kayanpublishing